

الموسوعة الشامية في تاريخ الحزب والصلبيّة

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع (٧)

تأليف وتحقيق وترجمة
الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق

١٩٩٥ - ١٤١٦ هـ

الجزء العشرون

المصادر العربية

مؤرخو القرن السابع

الذيل

على الروضتين

لأبي شامة المقدسي

شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن اسماعيل

(ت ٦٦٥ هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم
وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت
وإليه أنيب

الحمد لله الذي انفرد بالبقاء وكتب على غيره الزوال، وجعل الدنيا متنقلة لاتدوم على حال، وقضى على أهلها بالإدبار والإقبال، فكم ممن يؤمل الآمال فتحرمه دونها الآجال، وكم ممن يفجأه النوال ولم يكن يخطر له ببال، وصلى الله على خير خلقه من الملائكة والنبين، وآلهم الطاهرين، وكرم نبينا خاتم الأنبياء وصحبه وآله سادة الأولياء، نعم الصحب وحبذا الآل.

أما بعد فإن في مطالعة كتب التواريخ معتبرا، وفي ذكرها عن الغرور مزدجرا، لاسيما إذا ذكر بعض من مات في كل عام من المعارف والإخوان، والأقارب والجيران، وذوي الثروة والسلطان، فإن ذلك مما يزهّد ذوي البصائر في الدنيا، ويرغبهم في العمل للحياة العليا، والاستعداد لما هم ملاقوه، والإقلاع عما هم عن قليل مفارقوه.

وكان قد سهل الله تعالى علي، وحسب إلي إلى أن جمعت في كتاب الروضتين، كثيرا من الحوادث الواقعة في زمن الدولتين النورية والصلاحية سقى الله عهدهما وأصلح مابعدهما، وانتهى ذلك إلى السنة التي توفي فيها صلاح الدين رحمه الله تعالى وهي سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وذكرت تبعا لذلك أشياء مفرقة فيما يتعلق بأحوال أولاده ومن يتعلق بهم.

ثم خطر لي أن أجمع كتابا يتضمن كثيرا من الحوادث بعد ذلك إلى آخر ماتدركه حياقي ختمها الله بالعمل الصالح والفعل الرابع، وكان فيما

حملني على ذلك كثرة موت المعارف فأردت اثباتهم لعلي بمطالعتهم أجد قلبا على الآخرة يساعف.

ولقد بلغني أن بعض الوعاظ ببلاد العرب وعظ فقال كلاما معناه: أيها الناس كيف حالكم لو أن السلطان نادى فيكم أنه عازم على أن يقتل كل يوم منكم جماعة أما كانت الأرض عليكم تضيق؟ وحسب كل أحد أنه في غد من ذلك الفريق، فكيف لاتعقلون، وهذا الموت يأخذ منكم كل يوم ماتشاهدونه وأنتم في غفلة أفلا تعقلون.

قال: فأكثر الناس من البكاء، ثم ما أغنى ذلك شيئا، فيا لها موعظة لو صادفت قلبا حيا، فاستخرت الله وابتدأت من سنة تسعين التي تتلو سنة وفاة صلاح الدين، فذكرت فيها وفيها بعدها ما فاتني ذكره في كتاب الروضتين سنة بعد سنة.

ونسأل الله الكريم بفضله محو السيئة وتضعيف الحسنة وسميته (الذيل على الروضتين) من أول سنة تسعين على ترتيب السنين.

سنة تسعين وخمسة:

ففيها استعادت الفرنج خذلهم الله حصن جبيل بمعاملة من كردي فقيه كان فيه، في مستهل صفر.

وفيه وصل العزيز عثمان بن صلاح الدين صاحب مصر في صفر لأخذ الشام، وأقام يحاصرها عشرة أشهر وقطع الماء عنها.

ووصل العادل من الشرق فاجتاز بحلب وصعد إلى قلعتها، وبات بها واستخلص ولديه وبني عمه وكبراء اليازوقية من اعتقال الظاهر صاحبها، ثم سار إلى دمشق معينا لابن أخيه الأفضل فأصلح بينهما على أن للعزيز من بيسان إلى أسوان، وقدم الظاهر من حلب أيضا ثم عاد كل إلى بلاده، وتزوج العزيز بابنة عمه العادل.

وأخذ الملك الأفضل من الفرنج في هذه السنة جبلة واللاذقية.

وفيه كانت محنة أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الواعظ، وشي به إلى الخليفة الناصر أحمد بن المستضيء بأمر الله، اختلفوا فيه، وكان الزمان صيفا، فبينما هو جالس في السرداب يكتب جاءه من أسمعه غليظ الكلام، وختم على كتبه وداره وشتت عياله، فلما كان أول الليل حملوه في سفينة وحدروه إلى واسط خمسة أيام ما أكل طعاما إلى واسط، وكان قد قارب ثمانين سنة، فأقام في دار درب الديوان وعلى بابه بواب، فكان يخدم نفسه ويغسل ثوبه، ويطبخ ويستقي الماء من البئر، ولم يدخل الحمام مدة خمس سنين مقامه بواسط، ولما عاد إلى بغداد كان يقول: قرأت بواسط مدة مقامي كل يوم ختمة ماقرأت فيها سورة يوسف من حزني على ولدي يوسف، وكان يكتب إلى بغداد أشعارا كثيرة.

وفيه: توفي القزويني واسمه أحمد بن اسماعيل بن يوسف، وكنيته أبو

الخير الشافعي، تفقه بنيسابور على محمد بن يحيى صاحب الغزالي، وسمع بها وبغيرها الحديث من أبي عبد الله الفراوي، وأبي القاسم الشحامي، وأبي محمد البيهقي وغيرهم، وكان عالماً بالتفسير والفقه متعبداً، وكان يختم القرآن كل يوم مرة.

ولد بقزوين سنة اثنتي عشرة وخمسمائة، وقدم بغداد حاجاً سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فوعظ بالنظامية ومال إلى مذهب الأشعري رحمه الله، وجلس يوم عاشوراء فقبل له العن يزيد بن معاوية، فقال ذاك إمام مجتهد ففجأه أحدهم فكاد يقتل، فسقط عن المنبر فأدخل بيتاً من النظامية، ثم أخرجوه إلى قزوين فمات بها في المحرم.

وفيها: قتل السلطان طغريل شاه بن أرسلان شاه بن طغريل شاه بن محمد بن ملكشاه، وهو آخر الملوك السلجوقية، سوى صاحب الروم، وهو الذي كان كسر عسكر الخليفة على همدان، وكان طغريل قد بعث إلى الخليفة يطلب السلطنة فأرسل إليه جيشاً مقدمه وزيره ابن يونس فكسروهم طغريل ومزقهم كل ممزق، وأخذ ابن يونس وكان مخلوق الرأس فأحضره بين يدي السلطان وألبسوه طرطورا أحمر في جلاجل، وجعل يضحك عليه وذلك سنة أربع وثمانين وخمسمائة، فهابه الملوك، ثم أن خوارزم شاه سار إليه في عساكره والتقى على الري، فقتل وقطع رأسه وبعث إلى بغداد، فدخلوا به في جمادى الأولى على خشبة وكوساته مشققة وسنjqه وراءه مكسور منكس، وكان من أحسن الناس صورة، ثم رد إلى خزانة الرؤوس فجاءت فأرة فأكلت أنفه وأذنيه، وبقي الرأس إلى سنة إحدى وستمئة فوقع حريق في خزانة الرؤوس فاحترق الجميع، وكان عدة الملوك السلجوقية نيفا وعشرين ملكاً أولهم طغريل الذي أعاد القائم^(١) إلى بغداد وآخرهم هذا، ومدة ملكهم مائة وستون سنة.

وفيها في جمادى الآخرة توفي بالقاهرة الشيخ الشاطبي، العالم الزاهد

ناظم القصيدة في القراءات السبع رحمه الله ودفن بالقرافة بالقرب من التربة الفاضلية بسارية، وقد زرت قبره، وشاطبه المنسوب هو إليها مدينة بالمغرب شرق الأندلس.

أخبرني شيخنا أبو الحسن علي بن محمد^(٢) رحمه الله أن سبب انتقاله من بلاده إلى الديار المصرية أنه أريد على أن يتولى الخطابة بها فاحتج بأنه قد وجب عليه الحج وأنه عازم عليه فتركها، ولم يرجع إليها تورعا مما كان يلزمون به الخطباء من ذكرهم على المنابر بأوصاف لم يرها سائغة شرعا، وصبر على فقر شديد وسمع بالاسكندرية على الحافظ أبي طاهر السلفي، ثم قدم القاهرة فطلبه القاضي الفاضل للإقراء بمدرسته، فأجاب بعد شروط اشترطها عليه على ما كان فيه من الفقر، وقدم بيت المقدس زائرا قبل موته بثلاث سنين فصام به شهر رمضان واعتكف.

قال لي الشيخ أبو الحسن: سمعته وقد جاءه رجل يودعه، والرجل عازم على المسير إلى القدس، فقال: ذكر الله عنا ذلك الموضع بخير، وقال لا أعلم موضعا أقرب إلى السماء منه، بعد مكة والمدينة، قال الشيخ: فعلمت أنه رزق ثم قبولا، وقال: أقطع بأنه كان مكاشفا، وأنه سأل الله تعالى كتمان حاله ما كان أحد يعلم أي شيء هو.

قلت: وقد ذكرت طرفا صالحا من أخباره وأوصافه في أول شرحي الكبير لقصيدته الكبرى، وأخبرني عنه جماعة من أصحابه رحمهم الله تعالى.

ثم دخلت

سنة إحدى وتسعين وخمسة

وفيهما قدم العزيز بن صلاح الدين إلى الشام مرة ثانية، فنزل على الفوار في شهر رمضان، ثم رحل إلى مصر لما سمع بقدوم العساكر مع عمه العادل، وأخيه الأفضل فرحل عائدا إلى مصر، وتبعاه إلى القاهرة، وخرج الفضل فأصلح الحال، فدخل العادل مصر مع العزيز، ورجع الأفضل إلى الشام.

وفيهما حج بالناس من بغداد سنجر الناصري، ومن الشام سراسنقر، وأبيك فطيس الصلاحيان، ومن مصر الشريف اسماعيل بن تغلب الجعفري، من ولد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

وفيهما: كانت بالمغرب وقعة الزلافة^(٣) وكانت عظيمة بين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وبين الفنش ملك طليطلة، وكان الفنش قد استولى على جزيرة الأندلس وقهر ولايتها، وكان يعقوب يبر العدو مشغولا عن نصرته بالخوارج الخارجين عليه، وبينه وبين الأندلس زقاق سبته وعرضه ثلاثة فراسخ، ويحتاج في عبوره إلى مشقة عظيمة، وطمع الفنش في المسلمين بهذا السبب، وكتب إلى يعقوب ينخيه عن العبور إليه فسار إلى زقاق سبته فنزل عليه، وجمع الشواني، والمراكب وعرض جيشه فكانوا مائتي ألف مقاتل، مائة ألف يأكلون من الديوان، ومائة ألف مطوعة، وعبر الزقاق إلى مكان يقال له الزلافة، وجاءه الفنش في مائتي ألف وأربعين ألفا من أعيان الفرنج والمقاتلة والتقوا، فنصر الله المسلمين، وهرب الفنش في نفر يسير إلى طليطلة، وغنم المسلمون ما كان في عسكره، فكان عدة من قتل من الفرنج مائة ألف وستة وأربعون ألفا، وعدة الأسارى ثلاثين ألفا، ومن الخيام مائة ألف خيمة وخمسون ألفا،

ومن البغال مائة ألف، ومن الحمير أربعمائة ألف حمار تحمل أثقالهم لأنهم لاجمال عندهم، ومن الأموال والجواهر والثياب مالا يحصى ولا يحصى، وبيع الأسير بدرهم والسيف بنصف درهم، والحصان بخمسة دراهم، والحمار بدرهم، وقسم يعقوب الغنائم بين المسلمين على مقتضى الشريعة فاستغنوا إلى الأبد، ووصل الفنش إلى طليطلة على أقبح حال وحلق رأسه حتى يأخذ بالشار وأقام يجمع من الجزائر والبلاد ويستعد، وقيل أنها كانت هذه الواقعة في سنة تسعين وخمسمائة والله أعلم^(٤).

ثم دخلت

سنة اثنتين وتسعين وخمسة

وفيها: نقل تابوت صلاح الدين رحمه الله من القلعة إلى التربة المستجدة له شمالي الجامع.

وفيها قدم العزيز إلى الشام مرة ثالثة مع العادل ونزلا على جسر الخشب، وانفصل الحال على أن خرج الأفضل منها إلى صرخد، وتسلمها العزيز، وسلمها إلى عمه العادل، وأسقط مكوسها والخطبة والسكة باسم العزيز، وأخذت قلعة بصرى من الظافر خضر بن صلاح الدين، ورجع العزيز إلى مصر.

وفيها: حج من مصر الشريف ابن تغلب في جماعة من الأعيان، وأنفق أموالا كثيرة.

وفيها: بعد خروج الحاج من مكة هبت ريح سوداء عمت الدنيا، ووقع على الناس رمل أحمر، ووقع من الركن اليماني قطعة وتجرد البيت الحرام مرارا.

وفيها: في غرة شعبان كسر عسكر الخوارزم شاه الأحول والدعاء الدين بن محمد، وكان مقدمه مملوكا له، عسكر الخليفة في عشرين ألفا مقدمه ابن القصاب وزير الخليفة، فكسروا أشنع من كسرة ابن يونس، عادوا إلى بغداد عرايا جياعا، وقطع رأس الوزير، وبعث به وبأعلام الخليفة والخزائن، وكانت الكسرة على باب همدان، وكان خوارزم شاه قد قطع جيحون في خمسين ألفا، ثم وصل همدان وشحن على البلاد إلى باب بغداد، وبعث إلى الخليفة يطلب السلطنة، وإعادة دار السلطنة إلى

الحسين بن الحسن أبو الفتح الناسخ الحنبلي، يعرف بابن الحداد حفظ القرآن، وتفقه وأفتى، وناظر لكنه قرأ الشفا لابن سينا، وكتب الفلاسفة فغير اعتقاده، وكان يبدر من فلتات لسانه ما يدل على سوء عقيدته، وتارة يشفق من حبس ابن الراوندي، وتارة يشير إلى عدم بعث الأجساد، وتارة يعترض على القضاء والقدر، وله أشعار تتضمن شيئا من ذلك، توفي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة.

وفيها: توفي يحيى بن أسعد بن يحيى بن بوش، أبو القاسم الخباز البغدادي، سمع الكثير، وكان قد افتقر في آخر عمره فكان يأخذ على التسميع أجره، جلس ليلة الأربعاء ثالث ذي القعدة يأكل خبزا فغص به بلقمة، فمات فجأة، سمع قاضي المارستان، وأبا العز بن كادش، وابن الطيوري، وأبا طالب بن يوسف، وهو آخر من روى عن أبي طالب، وكان ثقة.

ثم دخلت

سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة

ففيها: فتح الملك العادل يافا في شوال بالسيف، واستولى على من فيها قتلا ونهباً وسلباً، ثم أمر بهدمها فرميت حجارتها في البحر في مينائها، ومن عجيب ما بلغني أنه كان في قلعتها من الخيالة أربعون فارساً من الفرنج العزب والبحرية، فلما تحققوا نقب القلعة وأخذوا دخلوا إلى كنيساتها وأغلقوا عليهم بابها، وتجالدوا بسيوفهم بعضهم لبعض إلى أن هلكوا جميعاً، وكسر المسلمون الباب وهم يرون الفرنج ممتنعين، فألفوهم قتلى عن آخرهم فتعجبوا من حالهم.

وفيهما: عاد الأسطول المصري إلى القاهرة غانماً سبعين فارساً بذل أحدهم في فدائه ثمانين ألف دينار.

وفيهما: استعادت الفرنج — خذلهم الله — قلعة بيروت من نواب سامية.

وفيهما: قدم حسام الدين أبو الهيجاء السمين بغداد، وخرج الموكب للقاءه في زي عظيم، فرتب الأطلاب على ترتيب الشام، وكان في خدمته عدة من الأمراء، وكان معه ولد أخيه عز الدين كور الفرس، وكان رأسه صغيراً، وبطنه كبيراً جداً بحيث كان على رقبة البغلة، وكان قد رآه عند الخريبة رجل كواز فعمل في ساعته كوزاً على شكله، وسبقه فعلقه في السوق، فلما اجتاز به ضحك، وعمل بعد ذلك أهل بغداد كيزاناً وسموها أبا الهيجاء السمين على صورته، أنزله الخليفة بدار العميد غربي بغداد بعد أن عبر إلى الجانب الشرقي. وقبل عتبة باب النوبي وأكرمه الخليفة، وقام له بالضيافات، ثم أمره أن يجرد جماعة من أصحابه من عسكر الخليفة إلى همدان فجرد جماعة، فلما بعدوا عن بغداد نهبوا خزانة الخليفة

وقتلوا جماعة من عسكره ومضوا إلى الموصل والجزيرة، وعاد عسكر الخليفة إلى بغداد وقد خرجوا، فنقله الخليفة إلى الجانب الشرقي إلى دار عند النظامية كانت لسلطان دمشق قبل نور الدين بن زنكي، وهو: مجير الدين أبق، ووكل به، ثم خلع عليه بعد ذلك الجبة والفرجية والعمامة السوداء والقباء الأسود، وبين يديه الخيل بمراكب الذهب، وسار إلى همدان.

وفي عاشر محرم: توفيت الست عذراء بنت شاهنشاه بن أيوب، أخت عز الدين فرخشاه، وهي التي تنسب إليها المدرسة العذراوية بدمشق بحضرة باب النصر، وفيها دفنت.

وفي تاسع عشر شوال، توفي عمها سيف الاسلام طغتكين بن أيوب بموضع يعرف بالحمراء باليمن، وولى اليمن بعده ابنه اسماعيل، فسفك الدماء ثم ادعى الخلافة، وانتسب إلى بني أميه فقتل.

وفي ثاني عشر ذي الحجة: توفيت والددة الملك العادل بدارها من دمشق، المجاورة لدار أسد الدين شيركوه.

وفيها: حج عز الدين سامة من الشام، وله آثار بمدينة النبي صلى الله عليه وسلم من القناة وعمارة القبة على قبر أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه.

وفيها: توفي أحمد بن عيسى الهاشمي من ولد اللواتق بالله، ويعرف بابن الغريق من أهل الحريم الطاهري، وكلان شاعرا فاضلا فمن شعره ما اعتذر به عن الإكتحال يوم عاشوراء:

لم أكتحل في صباح يوم
أرى في قفقه دم الحسين

إلا الحـ _____ زني وذاك أني
سودت حتى بيـاض عيني

وكانت وفاته في ذي القعدة عن ثمانين سنة، ودفن بباب حرب.

وفيها: توفي الحسن بن علي بن حمزة أبو محمد بن الأقساسي النقيب الطاهر، نقيب العلويين ببغداد، كان فاضلاً أديباً، وقال: نمت ليلة عن صلاتي فرأيت أمير المؤمنين علياً عليه السلام في جامع الكوفة وحوله جماعة فسلمت عليه، فلم يرد علي. ودفنني بيده فخطر لي أنه بسبب نومي عن الصلاة.

وفيها: توفي صندل بن عبد الله الخادم المقتفوى، ويلقب عماد الدين، كان أكبر الخدم وأعقلهم أرسله الخليفة الناصر إلى صلاح الدين مراراً، وكان كثير الصدقات والخير، وولي ناظراً بواسط، ومدحه ابن المعلم الشاعر بقصائد، ودفن بالتربة التي أنشأها عند الجامع غربي بغداد.

وفيها: توفي ابن الباقلاني، واسمه عبد الله بن منصور بن عمر بن أبي بكر، ولد سنة خمس مائة، وقرأ بواسط على أبي العز محمد بن الحسين بن بندار القلانسي وغيره، وانفرد بالرواية في القراءات العشر عن القلانسي، وقدم بغداد فقرأ على أبي محمد عبد الله بن علي سبط أبي منصور الخياط وغيره، وكان حسن التلاوة، وكان قدومه إلى بغداد في سنة عشرين وخمس مائة وبعدها، وآخر ما قدمها سنة ست وسبعين وراه بعض الأعيان في المنام فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: قد صلى علي سبعون ألفاً من الأبدال، سمع أبا القاسم بن الحصين، وابن السمرقندي، وقاضي المارستان وغيرهم .

وفيها: توفي عبد الوهاب بن الشيخ عبد القادر الجيلي، ولد سنة اثنتين وعشرين وخمس مائة وتفقه، ووعظ، وكان ذكياً، ولاه الخليفة المظالم وتربة

الخلاطية، وكانت مجالس وعظه تمضي في الهزل والمجون، قيل له يوماً: ماتقول في أهل البيت؟ فقال: أعموني، وكان أعمش والسائل إنما سائل عن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجاب عن أهل بيت نفسه، وقيل له: بأي شيء تفرق بين المحق والمبطل؟ قال: بليمونه، أراد من تخضب يزول خضابه بليمونه، وكانت وفاته في شوال ودفن في الحلة، سمع أباه، وأبا القاسم بن الحسين، وابن السمرقندي، وأبا الوقت وغيرهم.

وفيها: توفي الوزير أبو المظفر عبد الله بن يونس بن أحمد الجيلي، ولقبه جلال الدين، كان في بدء أمره أحد العدول ببغداد، ثم خدم في ديوان الأبنية، ولما مات أبوه يونس توكل لأم الخليفة، ثم ولي صاحب ديوان ثم استوزره الخليفة وبعثه إلى طغريل، فكسر على ماذكر، وعاد إلى بغداد فولاه الخليفة الديوان والمخزن، ثم ولاه أستاذ دار، ثم عزله، وكان قد قرأ القرآن على صدقة بن الحداد وغيره، وتفقه على أبي حكيم النهرواني، وسمع أبا الوقت وغيره، ولما سافر إلى همدان سمع من أبي العلاء الحافظ الهمداني، وكان فاضلاً في الأصولين، والحساب، والهندسة، وله تصنيف في الأصول غير أنه شان فضله بمقاصدة السيئة، ورأيه الفاسد، وحققه وحسده، ولجأه، وكسر عسكر الخليفة بلجأه ومخالفته للأمراء، وكونه استعجل على لقاء طغريل، وأخرب بيت الشيخ عبد القادر وشتت أولاده، ويقال إنه بعث في الليل من نبش الشيخ عبد القادر ورمى عظامه في اللجة، وقال هذا وقف ما يحل أن يدفن فيه أحد، ولما اعتقله الخليفة كتب فتوى بأنه كان سبب هزيمة عسكر الخليفة، وذكروا أشياء أخرى فأفتوا باباحة دمه، فسلم إلى أحمد بن الوزير ابن القصاب فبقي في داره، فلما مات ابن القصاب اعتقل في التاج وأخرج في سابع عشر صفر ميتاً ودفن بالسرداب.

وأما صدقه بن الحداد الذي قرأ عليه ابن يونس القرآن فهو صدقة بن

قواف تعير الأعين النجمل حسنهما
فأي مكان فيه خيمت بابل

وأخرج إلى الجانب الغربي من بغداد، فمات ودفن في مقابر قریش
في صفر.
وفيها : توفي بمصر الفقيه شهاب الدين محمد الطوسي مدرس منازل
العز، وقد ذكرته في آخر كتاب الروضتين.

قيل لما كان قدم بغداد ركب بالسنجد والسيوف المسئلة والغاشية
المرفوعة والطوق في عنق البغلة فمنع من ذلك فسافر إلى مصر ووعظ
وأظهر مذهب الأشعري واثارت الحنابلة فكان يجري بينه وبين الزين ابن
نجية العجائب من السباب والتكفير، وبلغني أنه سئل، أيما أفضل دم
الحسين، أم دم الحلاج؟ فاستعظم ذلك وقال: كيف يجوز أن يقال هذا؟
قطرة من دم الحسين أفضل من مائة ألف دم الحلاج، فقال السائل: فدم
الحلاج كتب على الأرض «الله» ولا كذلك دم الحسين، فقال الطوسي:
المتهم يحتاج إلى تزكية.

قلت: وهذا جواب في غاية الحسن في هذا الموضع، على أنه لم يصح
ماذكر عن دم الحلاج والله أعلم، وكانت وفاته في الحادي والعشرين من
ذي القعدة، وكان يومه مشهودا، ركب فيه الملك العادل وكبراء الدولة
وخرج أهل مصر والقاهرة جميعا مشيعين نعشه إلى حيث دفن من القرافة.

وفيها: توفي الهمام العبدي الشاعر واسمه الحسن بن علي العبدي
البغدادی، وذكر القوسي في معجمه أنه وفد على قاضي القضاة محيي
الدين محمد بن علي القرشي، وهو على رسالته المحتوية على التعزية
فأنشد.

ألا قل لنا عي الفضل أقصر فإنني
تيقنت حقا أن نعيك باطل

- ٨٩٩٣ -

إذا كان يحيى الدين في الدست جالسا
فما مات في الدنيا من الناس فاضل

وفيها: توفي محمد بن عبد المنعم بن أبي الفضائل الصوفي الميهي شيخ
رباط البسطامي، ويلقب بالركن، كان جوادا سمحا لم يكن في أبناء
جنسه من يضاويه في الكرم، وما طلب منه أحد شيئا فمنعه حتى كان
يخرج وفي رجله مداس فيرجع حافيا، ويخرج وعليه ثوبان فيرجع عريانا،
وكانت له خلوات ومحاضرات، سمع من شهدة وغيرها، وتوفي في ذي
الحجة ودفن في الشونيزية عند والده أبي الفضائل.

وفي هذه السنة كان الأفضل والظاهر ومن تابعهما على حصر دمشق
والعسكر جائزة بمنزلتهم، وقد حفروا عليها خندقا من أرض قنوات إلى
أرض يلدا مشرقا احترازا من مهاجمة من بدمشق لهم فيها، ثم رحل
الأفضل والظاهر إلى رأس الماء وافترقا، فسار الأفضل إلى مصر، والظاهر
إلى حلب تاسع ربيع الأول، وخرج العادل تابعا للأفضل فكسر عسكره
بموضع يعرف بالقصرين بين الغرابي والسائح، ودخل العادل القاهرة
ورجع الأفضل إلى صرخد.

ثم دخلت

سنة أربع وتسعين وخمسة

ففيها: نزل الفرنج على تبين، وأنفذ العادل محيي الدين بن الزكي إلى العزيز بمصر مستصرخا، فأرسل العساكر، وقدم بنفسه، فرحل الفرنج خائبين لما تحققوا من قوة العسكر الاسلامي بعد أن أقاموا عليها شهرين وسبعة أيام، وأطمعتهم أنفسهم بأخذها، ورجع العزيز إلى مصر، والعادل إلى دمشق بعد أن تقررت الهدنة مع الفرنج لمدة خمس سنين وثمانية أشهر، أولها رابع عشر شعبان سنة أربع وتسعين وخمسة.

وفيهما: عاد الأسطول المصري من الغزو بعد أن اجتاز بيلاد لاون، ووصل معه إلى مصر من السبي أربعمئة وخمسون أسيرا.

وفيهما: حج بالناس من الشام تقي الدين قراجا مملوك صلاح الدين.

وفيهما: توفي جرديك النوري، وكان من أكابر أمراء نور الدين، وخدم صلاح الدين في جميع غزواته، وهو الذي قتل شاور بمصر، وابن الخشاب بحلب، وكان شجاعا جوادا، وولاه صلاح الدين القدس.

وفيهما توفي الشيخ أبو الحسن بن مسلم الزاهد القادسي، من قرية بنهر عيسى، يقال لها القادسية، كان من الأبدال لازما لطريق السلف، أقام أربعين سنة لم يكلم أحدا من الناس، وكان صائم الدهر، قائم الليل يقرأ كل يوم وليلة ختمة، ذكره أبو الفرج ابن الجوزي في صفوة الصفوة^(٦)، وكان زاهد زمانه.

وكانت السباع تأوي إلى زاويته، وكان الخليفة وأرباب الدولة يمشون إلى زيارته، وكانت وفاته يوم عاشوراء ودفن في رباطه بالقادسية.

وحكى عنه جماعة من مشايخ القرية أن السباع كانت تنام طول الليل حول زاويته، إذا خرج أحد من القرية في الليل إلى نهر عيسى لم يتعرض له، وأن فقيراً نام في الزاوية في ليلة باردة فاحتلم فنزل ليغتسل فجاء السبع فنام على جبهته، فكاد الفقير يموت من البرد والخوف، فخرج الشيخ حسن وجاء إلى السبع وضربه بكفه وقال يامبارك قد قلنا لك لاتتعرض لأضيافنا فقام السبع يهزول، سمع قاضي المارستان، وابن الحصين، وابن الطيوري وغيرهم.

وفيها: توفي في المحرم بسنجار صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود ابن زنكي ابن أخي نور الدين وختنه على ابنته، وكان عاقلاً جواداً، ولم يزل مع صلاح الدين في غزواته مجاهداً وكان ميموناً، وكان صلاح الدين يحترمه مثل ما كان يحترم نور الدين، ويعطيه الأموال والهدايا والتحف الكثيرة، ولما توفي صلاح الدين خرج مع أخيه عز الدين إلى لقاء العادل، فلما عاد عز الدين إلى الموصل صالح عماد الدين العادل، ولما احتضر أوصى إلى أكبر أولاده وهو قطب الدين محمد، ويلقب بالمنصور.

وفيها: توفي أبو الحسن علي بن زهير قاضي البطائح ولد سنة تسع وعشرين وخمسائة، وقدم بغداد فسمع بها الحديث من أبي الوقت وابن ناصر، وابن الجواليقي، وغيرهم وخرج إلى رحبة مالك بن طوق، فقرأ الفقه والأدب على أبي عبد الله بن المتقنة وعاد إلى البطائح فولي القضاء بالعراق ثم عاد إلى بغداد فأقام بها ثم انحدر إلى البطائح فتوفي بطريق واسط وكان ثقة صالحاً، وقال: أنشدني القاسم بن علي صاحب المقامات لنفسه:

لا تخطون إلى خط ولا تخطأ
من بعدما الشيب في فوديك قد وخطا
فأي عذر لمن شابست ذوائبه
إذا سعى في ميادين الصبا وخطا

وفيها: توفي أبو المجد علي بن علي بن ناصر السيد العلوي، مدرس الحنفية ببغداد، ولد سنة خمس عشرة وخمسة وثماني وأفتى وناظر، وكان المستنجد الخليفة قد حبسه وطالبه بهال، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال له: يا يوسف استوص بولدي خيرا فهو وديعتي عندك، فانتبه الخليفة مرعوبا وأحضره وخاطبه، وقال: اجعلني في حل فقد شفع فيك من لا يمكنني رده، وأحسن إليه، وكانت وفاته في ربيع الأول ودفن عند مشهد عبيد الله شرقي بغداد، وكان صالحا شريفا على الحقيقة، سمع ابن الحصين وقاضي المارستان وابن السمرقندي وغيرهم.

وفيها: توفي مجاهد الدين قايماز الخادم الرومي الحاكم على الموصل الذي بنى الجامع المجاهدي، والمدرسة والرباط والمارستان بظاهر الموصل على دجلة، ووقف عليها الأوقاف، وكانت رواتب كثيرة بحيث لم يدع في الموصل بيتا فقيرا إلا وأغنى أهله، وكان ديننا صالحا عادلا كريما يتصدق كل يوم خارجا عن الرواتب بمائة دينار، وله حكايات مشهورة.

ولما مات عز الدين مسعود وولي ابنه أرسلان شاه حبسه وضيق عليه وأذاه، فتوفي في الحبس، فأخرج ملفوفا في كساء، فلما وصل إلى باب البلد قال البوابون: قفوا حتى نستأذن له، فألقى على قارعة الطريق حتى أذن له، وكان لعزالدين مسعود جارية يقال لها أقصرا أولدها الجهة الأتابكية التي تزوجها الملك الأشرف موسى بن العادل أبي بكر بن أيوب، وبنت في جبل قاسيون التربة، والمدرسة والمأذنة المنسوبات إليها، وكان عز الدين قد زوج مجاهد الدين هذا أم الأتابكية أقصرا المذكورة.

وفيها: توفي أبو طالب يحيى بن سعيد بن هبة الله بن زيادة الواسطي، ولد سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، وقدم بغداد واشتغل بالأدب فبرع في الإنشاء، والكتابة، وانتهت إليه الرئاسة فيها مع تخصصه بفنون كالفقه، وعلم الكلام، والأصول، والحساب، والشعر، جالس أبا منصور الجواليقي وقرأ عليه، وسمع أبا القاسم الصباغ وغيره، وولي للخليفة عدة خدم: حجة الباب ثم استاذية الدار، ثم كتابة الإنشاء في آخر أمره، وكانت وفاته في ذي الحجة، ودفن في مقابر قريش، ومن شعره:

قد سلوت الدنيا ولم يسلمها

من علقت في آماله والأراجي
وإذا ما صرفت وجهي عنها
قد فوني في بحرها العجاج
يستضيئون بي وأهلك وحدي
فكأنني ذبالة في سراج

وفيها: توفي أبو الهيجاء السمين الكردي، ولقبه حسام الدين، وقد تقدم أنه قدم بغداد، وبعثه الخليفة إلى همدان فلم يتم له أمر، واختلف الأمر عليه، وتفرق عنه أصحابه، فخاف من الخوارزمي واستحى أن يعود إلى بغداد فسار يطلب الشام على دقوقا، فلما وصل إليها مرض وأقام بها أياما فتوفي، وبلغني أنه كان نازلا على تل فقال: ادفنوني فيه فحفروا له قبرا على رأس التل، فظهرت بلاطة عليها اسم أبيه فدفنوه عليه، وقيل كانت وفاته في آخر السنة الثالثة والتسعين.

ثم دخلت

سنة خمس وتسعين وخمسمائة

ففيها استدعى الخليفة ضياء الدين ابن الشهرزوري إلى بغداد وولاه القضاء بها، وحج بالناس مظفر الدين وجه السبع.

وفيهما: أفرج عن الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي فقدم بغداد في شعبان، وخلع عليه، وجلس عند تربة أم الخليفة وكانت تتعصب له، وساعدت في خلاصه، وأنشد بيت الرضى الموسوي:
إن كان لي ذنب ولم آتسه
فاستأنف العفو وهب مامضى^(١)

وأنشد أيضا:

شقيننا بالنوى زمننا فلما
تلاقينا كأننا ماشقيننا
سخطنا بعد ما جنت الليالي
فما زالت بنا حتى رضينا
سعدنا بالوصل وكم سقيننا
بكاسات الصدود وكم ضئنا
فمن لم يحيى بعد الموت يوما
فإننا بعد مامتنا حيننا

وفيهما: توفي القاضي العباسي وهو: أبو جعفر محمد بن جعفر بن أحمد، وقيل أبو الحسين، ويلقب فخر الدين وعماد الدين، ولد سنة أربع وعشرين وخمسمائة، تفقه علي أبي الحسن ابن الخل، وسمع الحديث الكثير، وولي قضاء بغداد سنة أربع وثمانين وخمسمائة، وولي قضاء مكة والخطابة، ثم عزل في جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين بحضرة الوزير عبد الله بن يونس بسبب أنه حكم بكتاب مزور، وكانت وفاته في جمادى

الآخرة، ودفن بمقبرة العطفية عند جده النقيب أبي جعفر العباسي، سمع
أبا الوقت وغيره. وابنه جعفر بن محمد العباسي، قدم دمشق وسمع بها
كثيرا وبغداد من مشايخها، ومولده سنة سبعين وخمسمائة وتوفي بحماة في
ذي الحجة سنة ثمان وتسعين وخمسمائة.

وفيها: في ذي الحجة توفي تقي الدين طرخان بن ماضي بن جوشن بن
علي بن معافى الضرير الشاغوري الشافعي، وكان إماما للملك العادل
نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله مدة طويلة، ودفن خارج باب
الصغير، ومولده بدمشق سنة ثمان عشرة وخمسمائة.

وفيها: توفي ابن فضلان مدرس النظامية، وهو: أبو القاسم يحيى بن
علي بن الفضل، ولد سنة خمس عشرة وخمسمائة، وتفقه على محمد بن
يحيى صاحب الغزالي بنيسابور، وقدم بغداد فناظر وافتي ودرس وكان
مقطوع اليد وقع من الجمل فاعتلت يده فخيف عليه فقطعت، وانتفع به
خلق كثير ببغداد وغيرها، وكانت وفاته في شعبان، وحمل الفقهاء جنازته
إلى الوردية، سمع بنيسابور من محمد بن يحيى، وببغداد من محمد بن
ناصر، وأبا الوقت وغيرهما وسمع منه ينشد:
وإذا أردت منـــــــــــــــــازل الأشراف

فعليك بالإسفاف والإنصاف
وإذا بغى باغ عليك فخله
للدهر فهو له مكاف كاف

وفيها توفي خليفة المغرب أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد
المؤمن الذي كسر الفنش عام الزلافة، وكان قام بالملك بعد أبيه أحسن
قيام، نشر كلمة التوحيد، ورفع راية الجهاد، وأمر بالمعروف ونهى عن
المنكر، وأقام الحدود على عشيرته وغيرهم، وكان جوادا، سمحا، عادلا،
يكرم العلماء، متمسكا بالشرع، يصلي بالناس الصلوات الخمس، ويلبس
الصوف، ويقف للمرأة والضعيف ويأخذ لهم بالحق، حافظا للسانه،

وأوصى في مرض موته إلى ولده أبي عبيد الله محمد، وأن يدفن على قارعة الطريق ليترحم عليه من يمر به، وتوفي في ربيع الأول، فكانت مدة أيامه خمس عشرة سنة، وهو الذي كتب إليه سلطان بلادنا الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة سبع وثمانين يستنجد به على الفرنج الخارجين عليه بساحل البلاد المقدسة، ولم يخاطبه بأمر المؤمنين، فلم يجبه إلى ما طلب وقد ذكرنا من أخباره في كتاب الروضتين في سنة سبع وثمانين، وبايع الناس بعده ولده محمد واستمر على سيرة أبيه، ثم اختلفت الأهواء وحصل النقض على البيت بموت يعقوب رحمه الله.

وفيها كانت فتنة عبد الغني الحافظ الحنبلي، وذلك يوم الإثنين الرابع والعشرين، من ذي القعدة، ذكر العز تاج الأئمة أنه اجتمع الشافعية، والحنفية، والمالكية عند المعظم عيسى، والصارم بزعرش والي القلعة، وكانا يجلسان بدار العدل للنظر في المظالم فكان ما اشتهر من إحضار اعتقاد الحنابلة، وموافقة أولاد الفقيه النجم بن الحنبلي الجماعة، وإصرار عبد الغني المقدسي على لزوم ما ظهر من اعتقاده وهو: الجهة والإستواء، والحرف، واجماع العلماء، على الفتيا بكفره، وأنه مبتدع لا يجوز أن يترك بين المسلمين، ولا يحل لولي الأمر أن يمكنه من المقام معهم، فسأل أن يمهل ثلاثة أيام لينفصل عن البلد فأجيب، ورفعت جميع الخزائن والصناديق من الجامع، وبطلت صلاة الحنابلة من الجامع الظهر ومنعوا منها، ثم أذن لهم فصلوا العصر من ذلك اليوم، قلت: وسيأتي ذكر هذه الفتنة أيضا في أخبار سنة ستمائة إن شاء الله تعالى.

ثم دخلت

سنة ست وتسعين وخمسمائة

وفيها: توفي الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين، صاحب الديار المصرية، وعمره سبع وعشرون سنة وثمانية شهر وأيام، وتوجه أخوه الأفضل من صرخد إلى مصر فدخل القاهرة، ثم استصحب ولد العزيز على أنه أتابكه، وخرجا إلى الشام بالعساكر، فحصر دمشق، وأحرق جميع ما هو خارج باب الجابية من الفنادق، والخوانيت، وأحرق النيرب، وأبواب الطواحين وقطعت الأنهار، وانحرفت غلة «حرستا» في بيادرها.

وفيها: ظهر العجمي الداعي بدمشق المدعي أنه عيسى بن مريم، وأفسد جمعا من العوام، فقبض عليه صارم الدين بزغش العادلي، وصلب بعد استفتاء الفقهاء في أمره ظاهر باب الفرج على الصفصاف المجاور لحمام العمداء الكاتب، وقد خرب الحمام وما يجاوره من العمران في هذا الزمان، وكان غربي جسر الصفي مقابل الطاحونة المستجدة خارج باب الفرج من البابين.

وفيها: كان قيام العامة على الشيعة وخروجهم إلى باب الصغير ونبشهم وثأبا للمرحل من قبره، وتعليقهم رأسه مع كلبين ميتين ثالث عشر ربيع الآخر، بعد صلب العجمي بيومين.

وفيها: توفي الأمير أبو الحسين أحمد بن حيوس الشاعر ثامن عشر ذي القعدة.

وفيها: توفي خوارزم شاه واسمه تكش بن أرسلان شاه بن أتنسز من ولد طاهر بن الحسين، كان شجاعا جوادا ملك الدنيا من الصين والهند، وما وراء النهر إلى خراسان إلى باب بغداد، وكان نوابه في حلوان، وكان في

ديوانه مائة ألف مقاتل، وهو الذي كسر مملوكه عسكر الخليفة وأزال دولة بني سلجوق، وكان حاذقا بعلم الموسيقى، يقال لم يكن في زمانه ألعب منه بالعود، وحكي أن الباطنية جهزوا رجلا ليقتله، وكان يحترس كثيرا، فجلس ليلة يلعب بالعود، وشرع الخيمة فاتفق أنه غنى بيتا بالعجمية وفيه مامعناه قد ابصرتك، وفهم الباطني فخاف منه وارتعد فهرب، فأخذ وحمل إليه فقرره فأقر فقتله.

وكان يباشر الحروب بنفسه حتى ذهبت إحدى عينيه في الحروب، وكان يقول: الملك إذا لم يباشر الحرب بنفسه لا يصلح للملك، لأنه يكون مثل المرأة، وكان قد عزم على قصد بغداد وجمع وحشد فوصل إلى دهستان فتوفي بها في رمضان، فحمل في تابوت إلى خوارزم فدفن عند أهله، وقام ولده محمد مقامه، وهو الذي خرج عليه التاتار، وعلى ولده جلال الدين، وماتا في محاربتهم كما سيأتي ذكره.

وفيها: توفي عبد اللطيف بن اسماعيل بن شيخ الشيوخ أبي سعد، وكنيته أبو الحسن، ولقبه ضياء الدين وهو أخو شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن اسماعيل، الذي قدم رسولا على صلاح الدين من بغداد مرارا، وتوفي بالرحبة سنة ثمانين، وأما عبد اللطيف فولد سنة ثلاث وعشرين وخمسائة، وسمع الحديث من والده أبي البركات اسماعيل، ومن قاضي المارستان، وابن السمرقندي وغيرهم وكان صالحا ثقة، وكان شيخ الرباط الذي بالمشرة شرقي بغداد، وحج ثم ركب البحر إلى مصر وزار الشافعي والقدس، والخليل، وقدم دمشق فتوفي بها في ذي القعدة ودفن بمقابر الصوفية عند المنيع رحمه الله.

وفيها: توفي أبو جعفر أحمد بن علي بن أبي بكر بن اسماعيل القرطبي، إمام الكلاسة الزاهد العابد يوم الاثنين تاسع عشر شهر رمضان، قرأ بالموصل القرآن بالروايات على يحيى بن سعدون القرطبي.

- ٩٠٣ -

وفيها: توفي القاضي الفاضل: وقايماز النجمي، والشهاب الطوسي، وابن العفارة بدر الدين عسكر^(٨).

وفيها: توفي الرئيس مؤيد الدين بن أبي العساكر بن الصوفي رابع عشر ذي الحجة

وفيها: في رجب توفي بالقدس الفقيه مجد الدين أبو محمد طاهر بن نصر الله بن جهيل الكلبي الحلبي الشافعي، وكان فاضلا في علم الوصايا والفرائض، ودرس بالقدس الشريف ومولده بحلب في نيف وثلاثين وخمسة، وهو والد الفقهاء بني جهيل الذين كانوا عندنا بدمشق بالمدرسة الجاروخية: بهاء الدين نصر الله، وتاج الدين اسماعيل، وقطب الدين.

وفيها: توفي أبو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب بن صدقة بن كليب الحرافي، راوي جزء ابن عرفة عن أبي علي بن نبهان، وهو آخر من حدث عنه، وعن أبي القاسم بن بيان، وأحمد بن علي الحلواني، وكانت وفاته في ربيع الأول، ودفن بباب حرب وله خمس وتسعون سنة، وكان ثقة صحيح السماع، وكان يأخذ على سماعه جزء ابن عرفة دينارا.

وفيها: توفي كامل بن الفتح، أبو تمام ابن سابور الضرير، ويلقب بالظهير النحوي، بغدادي اشتغل بالأدب والشعر فبرع فيهما. ومن شعره:
وفي الأوانس من نعمان أنسة

لها من القلب ما تهوى وتختار
ساومتها نفة من ريقها بدمي
وليس إلا خفي الطرف سمسار
عند العزول اعتراضات ولائمة
وعند قلبي جوابات وأعدار

وكانت وفاته في جمادى الآخرة ودفن بباب حرب.

وفيها: توفي البلخي الواعظ واسمه محمد بن عبد الله ويلقب بالنظام
وبابن الظريف، ولد ببلخ سنة ست وعشرين وخمسمائة، وقدم بغداد
فوعظ بها في النظامية، وباب بدر، وجامع القصر، ومدرسة ابن النجيب،
ودار ابن حديد الوزير، وكان فصيحاً مليح الصوت، وكان متشيعاً،
وأنشد يوماً في النظامية:

سقامهم الليل كاسات السرى فغدوا
منه سكارى كأن الليل خمار
وصير الشوق أطواقاً أعما ثمهم
لا يعقلون أقام الحي أم ساروا
ونسمة الفجر إذمرت بهم سحرا
تمايلوا وبدأ للسكر آثار

فلم يبق في المجلس إلا من قام وصاح وتواجد، وأنشد أيضاً:
مددت يدي في الحب نحوك سائلاً
وقلت لجفني أذر دمعي سائلاً
تفقهت في علم الصبابة والهوى
فمن شاء فليلق علي المسائلاً

وحكي أنه نقل إلى الخليفة عنه أنه يعاشر النساء، ويرتكب المحرمات،
فأرسل إليه الوزير وهو على المنبر فقال: قد رسم أن تخرج من البلد
فأنشد:

أبابل لا واديك بالجود منعم
لدي ولا واديك بالرفد أهل
لئن ضقت عني فالبلاد فسيحة
وحسبك عارا أنني عنك راحل
وإن كنت بالسحر الحرام مدله
فعندي من السحر الحلال دلائل

ماكانت، ويحىء إلى بغدادويكون الخليفة من تحت يده كما كانت السلجوقية، فانزعج الخليفة وأهله، وغلب الأمصار وقيل إن خوارزم شاه توفي في هذه السنة، ست وتسعين كما سيأتي.

وفيها: كانت وقعة أخرى ليعقوب بن يوسف مع الفنش، وكان الفنش قد جند وجمع جمعا أكثر من الأول والتقوا، فهزمه يعقوب وساق خلفه إلى طليطلة، وضربها بالمجانيق، وضيق عليها ولم يبق إلا فتحها فخرجت إليه والددة الفنش وبناته ونساؤه وأهله، وبكين بين يديه، وسألته إبقاء البلد عليهن، فرق لهن ومن عليهن به، ووهب لهن المال والجواهر، وردهن مكرمات بعد القدرة، ولو فتح طليطلة لفتح إلى مدينة النحاس^(٥) وعاد إلى قرطبة فأقام شهرا يقسم الغنائم، وجاءته رسل الفنش تسأله الصلح فصالحه مدة، وأمن أهل الأندلس، وقيل إن هذه الوقعة كانت سنة إحدى وتسعين.

وفيها: توفي عبيد الله بن المظفر بن هبة الله ابن رئيس الرؤساء ويلقب بالأثير، هبة الله هو: الوزير الذي قتله الباطنية وهو خارج إلى الحج في أيام المستضىء، وكان عبيد الله فاضلا عاقلا ومن شعره:
إن حاول الدهر اخفائي فإن له
في حبي الآن سراسف يبيديه
أعدني للعلا ذخرا ومن ذخرت
يداه في الدهر شيئافهو يخفيه

وفيها: توفي محمد بن أحمد بن يحيى أبو منصور ويعرف بابن باقة، ولد بالكوفة سنة ثلاثين وخمسة، واشتغل بالأدب، ومات ببغداد وحمل إلى الكوفة، وكان أبوه فاضلا أيضا فمن شعره:
وكم شامت بي إن هلكت بزعمه
وجاذب سيف عند ذكر وفاتي

ولو علم المسكين ماذا يصيبه
من الذل بعدي مات قبل مماتي

وفيها: قتل الوزير ابن القصاب المقدم ذكره، وهو: أبو الفضل محمد ابن علي بن أحمد، ولقبه مؤيد الدين، أصله من شيراز، وقدم بغداد سنة أربع وثمانين، واستخدم في ديوان الانشاء، ترقى إلى الوزارة وقرأ الأدب على أبي السعادات ابن الشجري، وكان داهية له خبرة بأمر الحرب، وفتح البلاد، وكان الناصر الخليفة يثني عليه ويقول: لو قبلوا من رأيه ماجرى ماجرى، ولقد أتعب الوزراء بعده، وكان الخليفة قد سلم إليه ابن يونس استاذ الدار لما قبض عليه، فسلمه ابن القصاب إلى ولده أحمد، ولما خرج عن بغداد كتب الوزير إلى ابنه أحمد وهي له:

يا خازن النار خذ إليك أبا

السائب حلف الفضول والحمق

ولا تكله إلى زبانية

يأخذهم بالخداع والملق

فلس تدرى أي ابن زانية

عندك ملقى في القدر والحلق

وقيل إن رأس المؤيد ابن القصاب دفن بالري بعد أن طافوا به البلاد، ومن العجائب أنه وصل خبره مع الركابية يوم الجمعة رابع عشر شعبان، وقد اجتمع على باب ولده شمس الدين أحمد أرباب الدولة ليعبروا في خدمته إلى تربة الخلاطية نيابة عن أبيه، فجاء خادم من عند الخليفة فرد بابه وصرف أرباب الدولة عن بابه، ونقل ابنه من دار الوزارة التي تقابل باب المتولي وأسكنها ناصر بن مهدي.

وفيها: توفي أبو شجاع محمد بن علي بن شعيب بن الدهان الفرضي الحاسب البغدادي، وكان فاضلاً وصنف تاريخاً من سنة عشر وخمسمائة إلى هذه السنة، وكانت وفاته بالحلة السيفية، وكان قدم الشام ومدح

الشيخ تاج الدين الكندي، واسمه زيد بن الحسن، رحمه الله تعالى
بأبيات حسنة فقال:

لا بدل الله حالاً قد حبّاك بها
مادار بين النحاة الحال والبدل

النحو أنت أحق العالمين به
أليس باسمك فيه يضرب المثل

وفيها: في رجب توفي ابن المعلم الشاعر، واسمه أبو الغنائم محمد بن
علي بن فارس الهروي — والهريث بضم الهاء وسكون الراء وآخره ثاء مثلثة،
قرية تحت واسط في نهر جعفر، بينها وبين واسط عشرة فراسخ — توفي
ابن المعلم بها وأصله منها، وكان رقيق الشعر، مليح المعاني أكثر في
الغزل، ووصف المحبة والشوق والصبابة فمالت القلوب إليه، ومولده
سنة إحدى وخمسمائة، ومدح الأمراء والرؤساء والأعيان، وديوانه مشهور
ومن شعره:

يانازلين الحمى رفقا بقلب فتى
إن صاح للبين داع باح مضمرة
لا تحسبوا الصد عن عهدي يغيري
غيري ملازمة البلوى غيره
وما ذكرتكم إلا وهمت جوى
وأففة المبتلى فيكم تذكره
يزداد في مسمعي تكرار ذكركم
طيباً ويحسن في عين تفكره

وقال ابن المعلم: اجتزت ببغداد بباب بدر تحت منظره الخليفة وقد
ازدحم الناس، فقلت: ما هذا؟ قالوا: الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي
جالس، فزاحمت الناس حتى شاهدته وهو يعظ فاستشهد بهذا البيت:

يزداد في مسمعي تكرار ذكر كم
طيبا ويحسن في عيني تفكره

ثم قال: لقد أحسن ابن المعلم حيث يقول هذا البيت، فتعجبت
حيث اتفق حضوري وانشاد الشيخ هذا الشعر، ولم يعرفني هو، ولا أحد
من الحاضرين.

وفيها: في ثالث صفر توفي الفخر النوقاني الشافعي، واسمه محمد بن
أبي علي، ولد سنة عشر وخمسة، وتفقه على محمد بن يحيى صاحب
الغزالي، وقدم بغداد فاستوطنها، وولي التدريس بمدرسة أم الخليفة
المجاورة لتربتها عند قبر معروف، وكان فاضلا مناظرا، وله تصانيف
وجدل، خرج حاجا وعاد إلى الكوفة وهو مريض، فتوفي بها ودفن
بمشهد أمير المؤمنين.

وفيها: توفي الصدر ابن الخجندي واسمه محمد بن عبد اللطيف بن
محمد، أبو بكر رئيس أصبهان وابن رئيسها، وبه مشهور بالرياسة،
والتقدم والجاه العظيم، قدم بغداد في سنة ثمان وثمانين، فأنعم عليه
ال خليفة إنعاما كثيرا، وقربه وخلع عليه واحترمه وولاه تدريس النظامية
وأوقافها، فلما خرج الوزير ابن القصاب إلى همدان خرج معه ودخل
معهم إلى أصبهان، وولى ابن القصاب سنقر الطويل أصبهان، وكان ابن
الخجندي ليس على يده يد، فحسده سنقر الطويل على مكانته فجرت
بينهما منافرة، وقيل اتهموه بمكاتبة خوارزم شاه فذبحوه.

وفيها: توفي المجير مدرس النظامية، واسمه محمود بن المبارك بن علي
ابن المبارك أبو القاسم، ولد في رمضان سنة سبع عشرة وخمسة
واشتغل بالأصولين، المذهب، وعلم النظر، والحساب وبرع فيها، وقرأ على
أبي الفتوح الاسفرائيني وغيره، وسمع الحديث، وكان تفقه أولا على
هذه أحمد بن حنبل، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي، وأعطى تدريس

النظامية وخرج إلى همدان فتوفي بها في ذي القعدة سمع قاضي المارستان وأبا القاسم ابن السمرقندي، والأنباطي وغيرهم وكان صالحا دينا ثقة.

وفيها: توفي زعيم الدين ابن الناقد، واسمه نصر بن علي بن محمد أبو طالب، ولي حجة الباب ثم ولي صاحب ديوان، ثم ولي المخزن وهو الملقب بقنبر، وإنما لقب قنبر لأنه صاد ولده قنبرا وخبأه إلى جانب مسنده، فخرج القنبر فصاح قنبر قنبر، فلقب به، وكان إذا بلغه أن أحدا لقب قنبر يسعى في هلاكه، وقيل إنه كان يميل إلى التشيع، وكانت عمامته طويلة فلقبه أهل باب الأزج قنبر — وهو ذكر العصافير — وكان إذا ركب صاحوا: قنبر قنبر، وقرب العيد فأمره الخليفة بالركوب في صدر الموكب، فجمع العوام قنابر كثيرة وعزموا على أن يرسلوها حوله في الموكب، وقيل للخليفة إن وقع هذا بقي الموكب هتكة فعزله وولى أبا سعيد بن المعوج.

وفيها: جاء في جمادى الآخرة من نقل الخبر بوفاة سابق الدين عثمان صاحب شيزر بها إلى دمشق، وعمل عزاه بالكلاسة، وهو أحد أولاد الداية الأربعة، وأمهم داية نور الدين بن زنكي رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة

ففيها: توفي بهاء الدين قراقوش الأسدي، وقيل أنه لم يكن مملوكا لأسد الدين وإنما كان لابن الطقطقى فصحب أسد الدين، وتقدم عنده بعد وفاة سيده.

وفيها: كانت حوادث كثيرة عظيمة منها هبوط نيل مصر، فهرب الناس إلى المغرب، والحجاز، واليمن، والشام وتفرقوا أيدي سبأ، ومزقوا كل ممزق أعظم من سنة اثنين وستين وأربعمائة في أيام الملقب بالمستنصر ابن الظاهر بن الحاكم أحد الخلفاء المصريين، فإن الناس في هذه السنة كان الرجل يذبح ولده الصغير وتساعد أمه على طبخه وشيه، وأحرق السلطان جماعة فعلوا ذلك ولم ينتهوا، وكان الرجل يدعو صديقه وأحب الناس إليه إلى منزله ليضيفه فيذبحه ويأكله، وفعلوا كذلك بالأطباء كانوا يدعونهم ليصروا المرضى فيقتلونهم ويأكلونهم، وفقدت الميتات والجيف من كثرة ما أكلوها، وكانوا يخطفون الصبيان من الشوارع فيأكلونهم، وكفن السلطان في مدة يسيرة مائتي ألف وعشرين ألفاً، وامتألت طرقات المغرب والحجاز والشام برمم الناس، وصلى إمام جامع الاسكندرية في يوم على سبعمائة جنازة.

قال العز بن تاج الأمناء: وجاءت في شعبان زلزلة هائلة من الصعيد فعمت الدنيا، في ساعة واحدة هدمت بنيان مصر، فمات تحت الهدم خلق كثير، ثم امتدت إلى الشام والساحل فهدمت مدينة نابلس فلم يبق فيها جدار قائم إلا حارة السامرة، وكان اشتداد الغلاء والوباء بالديار المصرية من شهر رمضان بحيث بلغ ثمن الأردب ستة دنانير مصرية، وخلا أهل الأعمال، وصار إلى بلاد الفرنج منهم جمع حملوا إلى الجزائر البحرية، وأقر كثير ممن تفرق في البلاد الاسلامية بالعبودية لمن يؤويه

ويطعمه، وأشرفت الأعمال المصرية على الخراب الكلي لولا تدارك لطف الله تعالى بإجراء نيلها، والاسعاد بما كان للملك العادل فيها من الغلال التي صرفها في تقاوي البلاد ومؤن وإعانة، وبيعا، وصدقة فتماسك من كان مقيما بها، وتراجع إليها من قدر على الرجوع من أهلها.

قال أبو المظفر: ومات تحت الهدم ثلاثون ألفا وهدمت عكا، وصور وجميع قلاع الساحل، وامتدت إلى دمشق فرمت بعض المنارة الشرقية بجامع دمشق، وأكثر الكلاسة، والبيمارستان النوري وعامة دور دمشق إلا القليل، وهرب الناس إلى الميادين وسقط من الجامع ست عشرة شرفة وتشققت قبة النسر، وتهدمت بالناس وهو بين بين، وخرج قوم من بعلبك يجنون^(٩) الرياس من جبل لبنان فالتقى عليهم الجبلان فماتوا بأسرهم، وتهدمت قلعة بعلبك مع عظم حجارتها ووثيق عمارتها وامتدت إلى حمص، وحماة، وحلب، والعواصم وقطعت البحر إلى قبرص وانفرد البحر فصار أطوادا، وقذف بالمرائب إلى الساحل فتكسرت، ثم امتدت إلى أخلاط، وأرمينية، وأذربيجان، والجزيرة، وأحصى من هلك في هذه السنة على سبيل التقريب فكان ألف ألف انسان ومائة ألف انسان، وكانت قوة الزلزلة في مبدأ الأمر بمقدار ما يقرأ الانسان سورة الكهف، ثم دامت بعد ذلك أياما، نقلت جميع ذلك من تاريخ أبي المظفر سبط ابن الجوزي رحمه الله.

قال: وفي مستهل ذي القعدة حوصرت دمشق، جاء الأفضل، والظاهر وكان العادل بمصر، وجاء حسام الدين بشارة من بانياس نجدة لهما فقاتلوا دمشق أياما، وكان بها المعظم عيسى بن العادل، وبلغ العادل فجاء ونزل نابلس وبعث فأصلح الأمراء، وزحف الأفضل، والظاهر فوصلوا إلى باب الفراديس، وأحرقوا فندق تقي الدين، فقاتلهم المعظم وحفظ البلد فأقاموا نحو شهرين، وبعث العادل فأوقع الخلف بين

الأخوين، فرحلوا سلخ ذي الحجة، وجاء العادل فدخل دمشق ومضى المعظم، وشركس، وقراجا فحاصروا بانياس وبها حسام الدين بشارة فقاتلهم فقتل ولده وأخرجوه من البلاد وتسلمها شركس، وتسلم قراجا صرخد وحج بالناس طاشتكين، وكان الخليفة قد أفرج عنه ورد إليه أقطاعه وماله.

وفيها، توفي عز الدين إبراهيم بن المقدم، وكان شجاعا عاقلا وله قلعة بارين، وفامية، ومنبج، والراوندان، ودفن بدمشق بمقبرة باب الفراديس، وكان له بنات وابن وهو المقتول بعرفات.

وفيها توفي ناظر نهر الملك ببغداد، واسمه إبراهيم، بن محمد بن إبراهيم، وكان متزهذا يلبس القطن الفوط ويعدل في الرعية ويحسن اليهم، أمر الخليفة الناصر بصلبه فصلب على كرسي جسر بغداد، وعليه القميص الفوط على جانب نهر عيسى، فمر به الخليفة وهو مصلوب في وسط الجذع، فقال: يتنمس علينا ارفعوه إلى رأس الجذع، وكان شجاعاً مهيباً وحزن الناس عليه.

وقبل ذلك في سنة ست وثمانين واقعة أبشع من هذه، وكان ببغداد عبد الرشيد بن عبد الرزاق الكرجي — بالجيـم — الصوفي يتفقه بدار الذهب، وكان ورعا عاقلا عابداً، وكان ببغداد صوفي يقال له النفيس يضحك منه ويسخر به، وكان يدخل على الخليفة فدخل يوما مدرسة دار الذهب فجعل يتمسخر، فقال له الكرجي: اتق الله نحن نبحت العلم وأنت تهزل ما هذا موضعه، فدخل على الخليفة وبكى بين يديه وقال: ضربني الكرجي وعيرني، فغضب الخليفة وأمر بصلبه، فأخرج وعليه ثوب أزرق من ثياب الصوفية إلى الرحبة ونصبوا له خشبة ليصلبوه، فقال: دعوني أصلي ركعتين فصلي وصلبوه، فجاء خادم من عند الخليفة فقال: لاتصلبوه وقد فات فلن الناس النفيس الصوفي

وبقي أياما لا يتجاسر يظهر ببغداد، ورأى الكرجي بعض الصالحين في المنام فقال: ما فعل الله بك؟ فقال: وقفني الحق بين يديه، فقلت: يا إلهي رضيت ماجرى علي؟ فقال: أو ما سمعت ما قلت في كتابي: (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا) (١٠) الآية، أي أني أردت أن تصل إلى مرتبة الشهداء.

وفيهما: توفي الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي الواعظ، واسمه عبد الرحمن ابن علي بن محمد بن علي بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد ابن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أبو الفرج ابن أبي الحسن القرشي التيمي، وجعفر الجوزي منسوب إلى فرضة من فرض البصرة، يقال لها جوزة، وفرضة النهر ثلمته التي يستقى منها، قال سبطة أبو المظفر: ولد جدي ببغداد بدرب حبيب في سنة عشر وخمسةة تقريبا، وتوفي أبوه وله ثلاث سنين، وكانت له عمّة صالحة، وكان أهله تجارا في النحاس، ولهذا رأيت في بعض سماعاته: وكتب عبد الرحمن الصفار، فلما ترعرع حملته عمته إلى مسجد أبي الفضل بن ناصر فاعتنى به وأسمعه الحديث، وقرأ القرآن وتفقه، وقد ذكر من مشايخه في المشيخة نيفا وثمانين شيخا، وعني بأمه شيخه ابن الزاغوني وعلمه الوعظ واشتغل بفنون العلم، وأخذ اللغة عن أبي منصور الجواليقي، وصنف الكتب في فنون قيل بلغت مصنفاته نحو ثلاثائة مصنف، وحضر مجالسه الخلفاء والوزراء والأمراء والعلماء، والأعيان وأقل ما كان يحضر مجالسه عشرة آلاف، وربما حضر عنده مائة ألف، وأوقع الله له في القلوب القبول والهيبة، وكان زاهدا في الدنيا متقللا عنها، وسمعتة يقول على المنبر في آخر عمره: كتبت بإصبعي هاتين ألفي مجلدة، وتاب على يدي مائة ألف، وأسلم على يدي عشرة آلاف يهودي ونصراني، وكان يجلس بجامع القصر بالرصافة، وجامع المنصور وباب بدر، وتربة أم الخليفة وغيرها وكان يختم القرآن في كل سبعة أيام ولا يخرج من بيته إلا إلى الجامع للجمعة، وللمجلس وممازح

أحد قط، ولالعب مع صبي، ولا أكل من جهة لا يتيقن حلها، وما زال على ذلك الأسلوب حتى توفاه الله تعالى.

وقد ذكرنا محنته التي زاحم بها الأنبياء، والعلماء، والفضلاء، والأولياء وتلقى ذلك بالصبر والحمد والشكر، وقد أثنى عليه العلماء فذكره أبو عبد الله محمد بن الدبيثي في الذيل الذي ذيله على تاريخ السمعاني فقال:

شيخنا الإمام جمال الدين ابن الجوزي صاحب التصانيف في فنون العلم من التفاسير، والفقه، والحديث والتواريخ وغير ذلك، وإليه انتهت معرفة الحديث وعلومه، والوقوف على صحيحه من سقيمه، وله فيه المصنفات من المسانيد والأبواب والرجال، ومعرفة الأحاديث الواهية، والموضوعة، والإنقطاع والإنفصال، وكان من أحسن الناس كلاماً وأتمهم نظاماً، وأعذبهم لساناً، وأجودهم بناناً.

تفقه على أبي بكر الدينوري، وقرأ الوعظ على الشريف أبي القاسم العلوي وأبي الحسن بن الزاغوني، وبورك له في عمره وعمله، فروى الكثير، وسمع الناس منه أكثر من أربعين سنة، وحدث بمصنفاته مراراً.

قال: وأنشدني بواسط لنفسه:

ياساكن الدنيا تاهب

وانتظري يوم الفراق

وأعد زادا للرحيل

فل فسوف تحدي بالفراق

وابك الذنوب بأدمع

تنهل من سحب المآق

يامن أضاع زمانه

أرضيت ما يفنى بيباق

فصل

في نتف من كلامه:

قال له قائل: مانمت البارحة من شوقي إلى المجلس، فقال: نعم، لأنك تريد أن تتفرج، وإنما ينبغي أن لاتنام الليلة لأجل ماسمعت.

وقيل له: إن فلانا أوصى عند الموت، فقال: طين سطوحه في كانون .

وقال له قائل: أيما أفضل أسبح، أم أستغفر؟ فقال: الثياب أحوج إلى الصابون من البخور.

وقال في قوله عليه السلام: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين»^(١١) إنها طالت أعمار القدماء. لطول البادية، فلما شارف الركب بلد الإقامة قيل حثوا المطي.

ووعظ الخليفة يوما فقال: يا أمير المؤمنين إن تكلمت خفت منك، وإن سكت خفت عليك، فأنا أقدم خوفاً عليك على خوفاً منك لمحبتى لدوام أيامك، إن قول القائل اتق الله خير من قول القائل إنكم أهل بيت مغفور لكم، وقد قال الحسن البصري: لئن تصحب أقواما يخوفونك حتى تبلغ المأمن خير من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى تبلغ المخاوف، وكان عمر بن الخطاب يقول: إذا بلغني عن عامل أنه ظلم الرعية، ولم أغیره فأنا الظالم.

يا أمير المؤمنين: كان يوسف عليه السلام لايشبع في زمان القحط لئلا ينسى الجوع، وكان عمر يضرب بطنه عام الرمادة ويقول: قرقر إن شئت أو لاتقرقر فوالله لاشبعت والمسلمون جوع ، فتصدق الخليفة المستضىء بصدقات كثيرة وأشبع الجوع، وأطلق الحبوس.

وقال في قول فرعون: (أليس لي ملك مصر)^(١٢)، أيفتخر فرعون بنهر ماء أجراه ما أجراه، وقال في قصة الذين عبدوا العجل: لو أن الله خار لهم ما خار لهم.

وذكر قصة معاذ بن جبل في القراءة، فقال: طاب له ارتضاع ثدي التلاوة فمر على وجهه، فقليل له: أفتان أنت؟ ليس الكل على طريقك، الولد لا تعد عليه الرضعات إنما تعد على الأجانب لاثبات نسب الرضاع.

وقال يوما وقد طرب أهل المجلس: فهتم، فهتم.

وسئل عن قوله عليه السلام: «لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله». فأعطاها عليا، فأين كان أبو بكر؟ فقال: لما كان يوم بدر قام أبو بكر ليقاتل، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «متعنا بنفسك»، ولما كان يوم خيبر سلم الراية إلى علي فقال له: «أخرج» ففعود من قعد بالأمر كخروج من خرج بالأمر. ولكن في قوله متعنا بنفسك، فضيلة.

وسئل، لم لم ينص النبي صلى الله عليه وسلم على خلافة أبي بكر؟ فأجاب: إنه قد جرت أشياء تجري مجرى النص منها قوله: «مرورا أبا بكر فليصل بالناس»، و«اقتدوا بالذين من بعدي» و«هلموا أكتب لأبي بكر كتابا لئلا يختلف عليه المسلمون» فهذه أحاديث تجري مجرى النص، فهمها الخصوص غير أن الرافضة في إخفائها كاللصوص.

قال السائل: لما قال: أقيسوني، ماسمعنا مثل جواب علي: والله لأقلنك، فقال: لما غاب علي عن البيعة في الأول أخلف مافات بالمدح في المستقبل ليعلم السامع والرأي أن بيعة أبي بكر وإن كانت من ورائي فهي رأيي، ومثل ذلك الصدر لايرائي، وما أحسن استدلاله حين قال: رضيك رسول الله صلى الله عليه وسلم لدينا أفلا نرضاك لديانا.

وسأل سائل: ما الذي وقر في صدر أبي بكر؟ فقال: قوله ليلة المعراج: إن كان قال فقد صدق فله السبق.

وسأل آخر: سيف علي نزل من السماء فسعفة أبي بكر من أين؟ فقال: إن سعفة أبي بكر هزت يوم الردة فأثمرت سببا جاء منه مثل ابن الحنفية لأمضى من سيوف الهند.

ثم قال: ياعجبنا الرافضة إذا مات لهم مبت تركوا معه سعفة من أين ذا الصلح؟! .

سأل سائل: مامعنى قوله صلى الله عليه وسلم: «من أراد أن ينظر إلى ميت يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى أبي بكر؟» فقال: الميت يقسم ماله، ويلبس الكفن، وأبو بكر أخرج المال كله وتجلل بالعباء.

وقال في قوله تعالى: (ونزعنا ما في قلوبهم من غل)^(١٣) قال علي: والله إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان، وطلحة، والزبير منهم.

ثم قال أبو الفرج: إذا أصطلح الخصوم فما بال النظارة؟!

وقال: قال جبريل للرسول عليه السلام: سلم على عائشة ولم يواجهها بالخطاب احتراماً لزوجها، وواجهه لمريم لأنه ما كان لها زوج فمن يحترمها جبريل كيف يجوز في حقها الأباطيل.

وسئل عن لعنة يزيد بن معاوية، فقال: قد أجاز أحمد بن حنبل لعنته ونحن نقول: مانحبه لما فعل بابن بنت نبينا، وحمله آل رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا إلى الشام على أقتاب الجمال. وتجبرئه على الله

ورسوله رضيتم بهذه المصالحة في قولنا: مانحبه وإلا رجعنا إلى أصل الدعوى يعني جواز لعنته، ثم قال: أما أبوه ففي خفارة «الصبيحة» فدعوه من أيديكم وأنتم في حل من الابن، قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» وما رآها يزيد قط ودخلها.

ثم قال: لاتدنسوا وقتنا بذكر من ضرب بالقضيب ثنايا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلها، وجعلها يزيد غرضاً لبلوغ غرضه.

قلت: كان أبو الفرج رحمه الله مبتلي بالكلام في مثل هذه الأشياء، لكثرة الرافضة ببغداد وتعنتهم له في السؤالات فيها، وكان بصيراً بالخروج منها بحسن إشارته، وذكر يوماً حديث داود وهبة آدم له من عمره ستين سنة، وأن الله تعالى أتم لداود مائة ولآدم ألفاً، ثم قال: المتوسط بين اثنين إذا كان كريماً غرم.

ولأبي الفرج أشعار كثيرة، قيل إنها نحو عشر مجلدات، وقد ذكره العماد الكاتب في الخريدة وأثنى عليه فمن الأشعار المنسوبة إليه:

يا صاحبني إن كنت لي أو معي
فعج على وادي الحمى نرتع
وسل عن الوادي وسكانه
وانشد فؤادي في ربا المجمع
حي كتب الرمل رمل الحمى
وقف وسلم لي على لعلع

واسمع حديثاً قدروته الصبا
تسنده عن بانة الأجرع
وابك فما في العين من فضله
ونب فدتك النفس عن مدمعي

وانزل على الشيخ بـوادهم
وقل ديار الطاعين اسمعي
رفقا بنضو قد براه الأسى
يا عاذلي لو كان قلبي معي
لهفي على طيب ليال خلّت
عودي تعودى مدنفاً قد نعي
إذا تذكرت زماناً مضى
فويح أجفاني من مدمعي
يا نفس كم أتلو حديث المنى
ضاع زمانى بالمنى فاقطعي

ومنها:

في شغل من الرقاد شاغل
من هاجه البرق بسفح عاقل
يا صاحبي هذي ديار ربهم
قد أخبرت شمائل الشماثل
واطري إذا رأيت أرضهم
هذا وفيها رميت مقاتلي
ما للصبامولة بذي الصبا
أصبا فوق الغرام القاتل
ما للهوى العذري في بلادنا
أين العذيب من قصور بابل
يا بانة الشيخ سقيت أدمعي
ولا ابتليت به الهوى تمايلي
ملك عن زهو وميلي أسى
ما طرب المخمور مثل الثاقل
لله در العيشش في ظلالهم
ولي وكم أسار في المقاصل

ومنها:

تملكوا واحتكموا
وصار قلوبهم
تصرفوا في ملكهم
فلا يقيم الظلموا
إن وصلوا محبه
أو قطعوا فاهمهم
اصبر على مشاءوا
شاء الذي قد حكموا
ياليست شعري إذ غدوا
أنجدوا أم أتهموا
تشققهم أرض منى
ومكة وزمزم

فصل

في وفاة أبي الفرج رحمه الله

جلس يوم السبت سابع رمضان تحت تربة أم الخليفة المجاورة لمعروف
الكرخي، قال سبطه أبو المظفر: وكنت حاضراً، فأنشداً أبياتاً قطع عليها
المجلس وهي:

الله أسأل أن تطول مدتي
وأنا بالإنعام ما في نيتي
لي همة في العلم ما من مثلها
وهي التي جنت النحول هي التي
خلقت من العلق العظيم إلى المنى
دعيت إلى نيل الكمال فلبت
كم كان لي من مجلس لو شبهت
حالاته لتشبهت بالجنة
أشتاقه لما مضت أيامه
عطلا وتعذر ناقة إن حنت
يا هل ليلات تقضت عوده
أم هل إلى وادي منى من نظرة
قد كان أحلى من تصاريف الصبا
ومن الحمام مغنياً في الأيكة
فيه البدييات التي ماناها
خلق بغير تبصر ومبىيت
برجاجة وفصاحة وملاحة
يقضي لها عدنان بالعربية
وبلاغة وبراعة ويراعة
ظن النبأتي أنها لم تنبت
وإشارة تبلي الأديب وصحبة
في رقعة ماقالها ذو الزرمة

قلت: أظن هذه الأبيات نظمها في أيام محنته إذ كان محبوسا بواسط،
فمعانيها دالة على ذلك، والله أعلم.

ثم قال أبو المظفر: ونزل من المنبر فمرض خمسة أيام، وتوفي ليلة
الجمعة بين العشائين في داره ببغداد.

قال: وحكت لي والدتي رحمها الله أنها سمعته يقول قبيل موته: إيش
أعمل بطواويس —يردها— قد جبتهم لي هذه الطواويس.

وحضر غسله شيخنا ضياء الدين ابن الجبير وقت السحر، واجتمع
أهل بغداد وغلقت الأسواق، وجاء أهل المحال، وشددنا التابوت
بالخبال وسلمناه إليهم، فذهبوا به إلى تحت التربة مكان جلوسه فصلى
عليه ابنه أبو القاسم علي اتفاقا، لأن الأعيان لم يقدروا على الوصول إليه،
ثم ذهبوا به إلى جامع المنصور فصلوا عليه وضاق بالناس، وكان يوما
مشهودا لم نصل إلى حفرة عند قبر أحمد بن حنبل إلى وقت صلاة
الجمعة، وكان في تموز وأفطر خلق كثير ممن صحبه ورموا نفوسهم في
خندق الظاهرية في الماء وماوصل إلى حفرة من الكفن إلا قليل، وأنزل
في الحفرة والمؤذن يقول: الله أكبر، وحزن الناس عليه حزنا شديدا، وبكوا
بكاء كثيرا، وباتوا عند قبره طول شهر رمضان يختمون الختمات بالقناديل
والشموع والجماعات، ورآه تلك الليلة رجل صالح في منامه وهو على
منبر من ياقوت مرصع بالجواهر وهو جالس في مقعد صدق والملائكة
جلوس بين يديه، والحق سبحانه حاضر، يسمع كلامه. قال: وأصبحنا
يوم السبت عملنا عزاءه، وتكلمت فيه وحضر خلق عظيم.

قال: ومن العجائب إننا كنا جلوسا عند قبره عند انفضاض العزاء،
وإذا بخالي محيي الدين يوسف قد صعد من الشط وخلفه تابوت فعجبنا
وقلنا: ترى من مات في الدار؟ وإذا بها خاتون أم ولد جدي، والدة محيي

- ٩٠٢٣ -

الدين وعهدي بها في ليلة الجمعة التي مات فيها جدي في عافية قائمة
ليس بها مرض، فكان بين موتها وموته يوم وليلة، وعد الناس ذلك من
كراماته لأنه كان مغرى بها في حال حياته، وأوصى جدي أن يكتب على
قبره:

يـا كـثـيـر العـفـو عـمـن
كـثـر المـذنب لـيـد يـه
جـاء كـالمـذنب يـرجـو الـ
صـفـح عـن جـرم يـد يـه
أنا ضيف وجزاء الضـ
يف إحسان إليه

وفي هذا البيت تضمين.

فصل

في ذكر أولاده

قال أبو المظفر: وكان له من الأولاد الذكور ثلاثة: عبد العزيز، وهو أول أولاده، وأبو القاسم علي، وأبو محمد يوسف، فأما عبد العزيز وكنيته أبو بكر: تفقه على مذهب أحمد وسمع أبا الوقت، وابن ناصر، والأرموي، وجماعة من مشايخ والده، وسافر إلى الموصل ووعظ وحصل له القبول التام، فيقال إن بني السهروردي حسدوه فسدوا إليه من سقاء السم فمات بالموصل سنة أربع وخمسين في حياة والده.

وأما أبو القاسم: فكتب الكثير، وسمع الحديث من ابن البطي وغيره، وهو الذي أظهر مصنفات والده وباعها مع العسر فيمن يزيده، ولما مضى والده إلى واسط كانت كتبه في داره بدرب دينار، فتحيل عليها بالليل والنهار حتى أخذ منها ما أراد وباعها ولائثمن المداد، وكان أبوه قد هجره منذ سنين، فلما امتحن أبوه صار إلبا عليه للمعادين، وتوفي سنة ثلاثين وستمائة وله ثمانون سنة.

وأما أبو محمد يوسف ولقبه محيي الدين، فولد في سنة ثمانين وخمسمائة، وسمع الحديث الكثير وتفقه ووعظ بعد وفاة أبيه تحت تربة والدته الخليفة، وقامت بأمره أحسن قيام، ثم ولي الحسبة في جانبي بغداد في سنة أربع وستمائة إلى تسع وستمائة، ثم وليها من سنة خمس عشرة وستمائة إلى وسلك طريق العقل، والسداد وترسل عن الخلفاء إلى الملوك، وأول ترسله عن الإمام الظاهر ابن الناصر في سنة ثلاث وعشرين وستمائة إلى أولاده العادل: الأشرف. والمعظم. والكامل، وآخر ما انفصل عن الشام في سنة خمس وثلاثين وستمائة إلى بغداد، وفي تلك السنة توفي صاحب الروم والأشرف والكامل، ثم ولي أستاذية الدار في سنة أربعين للإمام المستعصم بن المستنصر بن الظاهر.

قلت: وبقي على ذلك إلى أن قتله التاتار لعنهم الله سنة استولوا على بغداد وهي سنة خمس وخمسين وستمائة مع من قتلوه من الأكابر الذين خرجوا مع الخليفة إليهم على ماسنذكره إن شاء الله.

قال أبو المظفر: كان لجدي عدة بنات منهن والدتي رابعة، وشرف النساء، وزينب وجوهرة وست العلماء الكبرى، وست العلماء الصغرى، وكلهن سمعن الحديث من جدي وغيره:

وقال الشيخ أبو الفرج في كتابه المنتظم في أخبار سنة إحدى وسبعين خمسمائة وفي هذه السنة عقد عقد ابنتي رابعة بباب حجرة الخليفة، وحضر قاضي القضاة والعدول والخدم والأكابر على أبي الفتح بن رشيد الطبري، قال: وزوجت ابني أبا القاسم بابتة الوزير يحيى بن هبيرة في ذلك اليوم، وكان الخاطب ابن المهدي^(١٤).

قال أبو المظفر: هذه رابعة والدتي هي تزوجها ابن رشيد الطبري، وهو أول أزواجها ولم يطل عمره معها، ثم زوجها جدي بوالدي بعد موت ابن رشيد، وقد سمعت الحديث على ابن البطي، وثابت بن بندار، ومعظم مشايخ جدي، قال أبو الفرج: وزفت إلى ابن رشيد في المحرم سنة اثنتين وسبعين في دار الجهة بنفسا جهة الخليفة، وجهزتها بهال عظيم.

قال أبو المظفر: ما قصد جدي بهذا الكلام إلا الإعلام بمكانته وعلو منزلته عند الخليفة، وإن أحدا من أبناء جنسه لم يصل إلى مرتبته.

فصل

وفي هذه السنة أيضا وهي سنة سبع وتسعين وخمسمائة توفي في
مستهل شهر رمضان العماد الكاتب الأصفهاني، وكان كاتب الإنشاء في
الدولتين النورية، والصلاحية، وكان مبرزاً في النظم والنثر، عارفاً بالأدب،
حافظاً لدواوين العرب، وقد ذكرت له ترجمة حسنة في تاريخ دمشق في
حرف الميم، وأخباره مفرقة في كتابي الذي سميته بالروضتين، وقد ذكر
هو نفسه أيضاً في كتابه الذي سماه بالخريدة ومن شعره:

بـالله يـاريـح الشـمال تحملي
منـي التـحيـة نـحو ذاك المنـزل
خـفي عـلى حـل السـلام وخـفـفي
عـن قـلب صـب الصـبابة مـثـقل
قـولي لـمن شـغل الفـؤاد بـحبـه
وـيخـال أن فـؤاده مـنـه خـلي
حـلت عـقود دـمـوعه وعـقودـه
وعـهـوده مـعـقودـة لـم تـحـل
سـقيا لأحـباب تـبـدل ودهـم
بـعـدي وـلـم أنقـض وـلـم أـتـبـدل
الطـاعـين وودهم مـستـوطـن
والرـاحـلـين وذكـرهم لـم يـرحـل
فـي بـعدهم حـال المـعنى المـبـتلى
حـزنا وعـين السـاهر المـتـمـلـل
يـارا كـبا يـطوي الفـلا مـستـعـجـلا
هـيـجت أحـزاني فـلا تـسـتـعـجـل
أقـفلت بـاب مـسـرقي وفـتـحت مـن
دـمـعي وحـزني كـل بـاب مـقـفل
عـرج وعـج نـحو الحـمى سـقي الحـمى
أعـدل فـليس عـن الحـمى مـن مـعـدل

ومنه

أياساكنامصر عفا الله عنكم
وعفاكم عما ألقى به منكم
أبيت على هجرانكم متندما
ومن ينأ عنكم كيف لا يتندم
فإن كنتم لم تعلموا ما لقيته
من الوجد والأشواق فالله يعلم
بقيتكم وعشتكم سالمين من الأذى
ومنية قلبي أن تعيشوا وتسلموا.

وفيها: توفي مكلبة بن عبد الله- المستنجدي، وكان صالحا يقوم الليل
سمع المؤذن يقول وقت السحر في المئذنة:

يارجال الليل جدوا
رب صـوت لا يـرد
ما يقـوم الليـل إلا
من له عزم وجد

فبكى مكلبة بكاء شديدا، وصاح: يا مؤذن زدني، فقال المؤذن:
قد مضى الليـل وولـى
وحبيبي قـد تجلى

فصاح مكلبة ومات. فأصبح جمع من أهل بغداد على باب داره، وكان
يوما عظيما لم ير ببغداد مثله، فالسعيد من وصل إلى كفنه ، وقطع الكفن
ودفن بالوردية.

وفيها: توفي أبو منصور بن نقطة المزكش كان يقول:

كان وكان. ولا يعرف الخط، وهو: أخو عبد الغني بن نقطة الزاهد، وهو: عبد الغني بن أبي بكر بن شجاع، كان له زاوية ببغداد يأوي إليها الفقراء، وكان دينا جوادا سمحا لم يكن ببغداد في عصره من يقارنه في التجريد. كان يفتح عليه قبل غروب الشمس بألف دينار فيفرقها، والفقراء صيام لا يدخر لهم منها شيئا ويقول: نحن لانعمل بأجرة — يعني لانصوم ونذكر مانفطر عليه — وكانت والدته الخليفة الناصر تحسن الظن به، زوجته بجارية من خواصها، ونقلت معها جهازا يساوي عشرة آلاف دينار، فما حال الحال وعنده منه سوى هاون، فجاء فقير فوقف على الباب وقال: لي ثلاثة أيام ما أكلت شيئا، فأخرج الهاون وقال: لاتشنع على الله كل هذا ثلاثين يوما، وتوفي عبد الغني رابع جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ودفن بزاويته.

وأخوه أبو منصور ابن نقطة المزكلكش كان ينشد كان، وكان في الأسواق، ويسحر الناس في رمضان، فقليل له: ماتستحي أخوك زاهد العراق، وأنت تزكلكش في الأسواق فقال مواليا:

قد خاب من شبه الجزعة إلى الدرة
وشابه قحبة إلى مستجنة حرة
أنا مغني وأخي زاهد إلى مرة
في الدار بثرين ذي حلوة وذو مرة

وأجرى حديث قتل عثمان وأن عليا كان بالمدينة ولم يقدر على الوصول إليه، فقال ابن نقطة:

«ومن قتل في جواره مثل ابن عفان واعتذر»

«يجب عليه أن يقبل في الشام عذر يزيد»

فأراد الشيعة قتله، فوثب عليه ليلة، وكان يسحر الناس في شهر رمضان، وكان الإمام الناصر تلك الليلة في المنظرة وهو واقف يسحر ويقول: أي نياما: قوما. قوما السحور، قوما. فعطس الخليفة. فقال ابن نقطة: يا من عطس في الروزنة، يرحمك الله قوما. فبعث الخليفة إليه مائة دينار وحماه من الشيعة فمات بعد قليل.

وفيها: توفي مسند الشام في وقته أبو طاهر بركات بن إبراهيم بن طاهر الخشوعي، شارك الحافظ أبا القاسم في كثير من شيوخه الدمشقيين سماعا، والغرباء إجازة، وعمر حتى ألحق الصغار بالكبار، أخبرنا عنه جماعة رحمه الله.

ثم دخلت

سنة ثمان وتسعين وخمسمائة

والغلاء بمصر مستمر، ثم تناقص لاستقبال جمادى الآخرة لما ظهر من زيادة نيلها، وأقلع في أواخرها والله الحمد.

قال أبو المظفر: كان الملك الأفضل بحمص عند شيركوه، وهو أخو زوجته سعدى ابنة ناصر من محمد بن شيركوه الكبير، فجاء إلى عمه العادل فالتقاه عند ثنية العقاب فأكرمه وعوضه عن ميافارقين سميساط وسروج، وقلعة نجم، وقرايا في المرح ومصر وتسلم الظاهر فامية من ابن المقدم، ونزل العادل على حماة فصالحه الظاهر ورجع العادل إلى حمص.

وجاءت في شعبان زلزلة عظيمة فشقت قلعة حمص، ورمت المنطرة التي على القلعة، وأخربت حصن الأكراد وتعدت إلى جزيرة قبرس، وامتدت إلى نابلس فأخربت مابقي.

وقال العز بن تاج الأمناء: هذه الزلزلة العظمى التي هدمت بلاد الساحل: صور، وطرابلس، وعرق، وشعث كثيرا من البلاد الإسلامية الشمالية، ورمت بدمشق رؤوس منائر الجامع، وبعض شراريفه من شماله فقتلت رجلا مغربيا بالكلاسة، ومملوكا تركيا لرجل صيرفي ساكن في درب السمسياطي عند تنفس الصبح من يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان، الموافق العشرين من آب وأعقبها زلزلة خفيفة في ضحوة الغد.

قال أبو المظفر: وفيها شرع الشيخ أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد ابن قدامة شيخ المقادسة رحمه الله تعالى في بناء الجامع بالجبل، وكان بقاسيون رجل فامي يقال له أبو داود محاسن، فوضع أساسه وبلغ قامه، وأنفق عليه ما كان يملكه، وبلغ ابن زين الدين مظفر الدين صاحب

إربل فبعث إلى الشيخ أبي عمر مالا فتممه ووقف عليه وقفاً، وبعد ذلك أراد ابن زين الدين أن يسوق الماء إليه من برزة، وبعث ألف دينار لذلك، فقال الملك المعظم عيسى بن العادل: طريق الماء كلها قبور وكيف يجوز أن تنبش عظام المسلمين، اشتروا بغلا واعملوا مداراً وبالباقى مكاناً أوقفوه عليه، ولا تؤذوا أحداً، ففعلوا.

وحج بالناس من العراق وجه السبع. ومن الشام خشر بن الهكاري.

وفيها: توفيت بنفسها ابنة عبد الله جارية المستضىء، وكانت كريمة صالحة كثيرة الصلاة والصدقات، عمرت الربط والمساجد والجسر ببغداد، وتصدقت بأموال كثيرة على العلماء والفقراء والمساكين، وهي التي اشترت دار الوزير ابن جهير بباب الأزج ووقفتها على الخابلة، وفوضت نظرها إلى الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي، وهي التي أشارت على المستضىء بولاية الإمام الناصر، وكان في عزمه أن يولي الخلافة ولده الأمير أبا منصور فرأى الناصر لها ذلك، فلما ولي الخلافة أنزلها في الدار التي كانت بها والدته وأحسن إليها، ولما توفيت تولى أمرها والدته الخليفة وجهزتها أحسن جهاز، ودفنتها في تربتها المجاورة لمعروف الكرخي وذلك في ربيع الأول.

وفيها: توفي أبو الشاء حماد بن هبة الله بن حماد الباخري، ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وهي السنة التي ولد فيها نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله تعالى، وسمع الحديث ببغداد، ومصر، والاسكندرية، سمع بمصر أبا محمد بن رفاعة السعدي، وبالاسكندرية الحافظ أبا طاهر السلفي، وببغداد ابن السمرقندي وغيرهم، وحدثنا عنه جماعة، ومات بحران في ذي الحجة وأنشد لنفسه:

تنقل المرء في الأفق يكسبه

محاسن لم يكن فيها يلدته

أما ترى بيدق الشطر نرج أكسبه
من التنقل فيها فوق رتبته

وفيها: توفي هبة الله بن الحسن بن المظفر أبو القاسم الهمداني، ويقال له ابن السبط، والسبط هو جده المظفر، كان سبطاً لأحمد بن علي بن لال الفقيه الهمداني، ولد هبة الله في سنة عشر وخمسمائة وهو محدث، ابن محدث، وكانت وفاته في باب المراتب ببغداد في المحرم، ودفن بالريان سمع أبا القاسم بن الحصين وقاضي المارستان، وابن السمرقندي وأنشد لغيره:

إذا الفتى ذم عيشاً في شبيبته
فما يقول إذا عصر الشباب مضى
وقد تعرضت عن كل بمشبهه
فما وجدت لأيام الصبا عوضاً

وفيها: توفي الشيخ علي بن محمد بن غليس اليميني الزاهد. كان مقياً بكلاسة جامع دمشق في شرقها، وتوفي يوم الاثنين سابع عشر شهر رمضان سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، ودفن بمقبرة باب الصغير قبلي الخطيرة التي فيها قبر معاوية وغيره بغرب، وحكي عنه كرامات جليلة، حكى عنه جماعات من المشايخ السادة مثل شيخنا أبي الحسن السخاوي، وأبي القاسم الصقلي، وأبي البركات ميمون الضرير، وأبي الحسن ابن أبي جعفر وغيرهم.

أخبرني أبو علي حسن بن عبد الله بن صدقة الصقلي، الشيخ الصالح، وفقه الله قال: سمعت شيخنا السخاوي يقول: سمعت ابن غليس يقول: كنت مسافراً مع قافلة، فرأيت في المنام كأن سبعة اعترضهم، فقطع الطريق عليهم فوقفوا حائرين، فتقدمت إليه وقلت: يا كلب الله أنت كلب، وأنا عبد الله فاحضع وارجع لمن سكن له ما في السموات

والأرض وهو السميع العليم، فذهب وانفتحت الطريق للقافلة، ثم انبهت فسرنا قليلا وإذا بالقافلة قد وقفت، فسألت: ما خبر؟ فقليل: السبع على الطريق فتقدمت إليه وهو مقع على ذنبه فقلت ذلك الكلام، وتقدمت إليه فادخلت يدي في فمه، وقلبت أسنانه وشممت من فيه رائحة كريهة.

قال الشيخ السخاوي: فقلت له: إنه يأكل اللحم وما يتخلل، قال: وأدخلت يدي فقلبت خصيتيه وإذا هما مثل خصيتي القط. قال: وأخبرني الشيخ ميمون الضرير عن صاحب لابن غليس قال: أمرني بإيقاد السراج، ولم يكن به زيت فأوقدت الفتيلة فوقدت، ثم أمرني في الليلة الثانية فأوقدتها فوقدت، ثم أمرني في الليلة الثالثة بإيقادها، فقلت: أفلا زيت في السراج، قال: وإيش فضولك في هذا لو سكت لكنت تقد أبدأ، أو كما أخبرني الشيخ أبو القاسم الفضل. قال: مات مهر لابن غليس، فحزن عليه كثيرا فقليل له: لم تحزن عليه؟ غيره يقوم مقامه، فقال إنه فرس صالح كان معي في سفري بالعراق فأواني الليل مع جماعة إلى قرية، وكانت ليلة باردة ذات ريح ومطر، فلم يقدر لنا مكان نأوي إليه إلا موضع صغير، فقلت لأصحابي: إن تركنا الفرس خارج البيت هلك بالبرد وخفنا عليه، وإن أدخلناه معنا خفنا من بوله وتلويثه الجماعة لصغر المكان، فتقدمت إليه وقلبت له: نحن ندخلك معنا بشرط أن لاتفعل مايتأذى به الجماعة من بول وغيره، ثم أدخلناه فبات ليلته لم يتحرك بحركة يتأذى منها، ولم يببل، فلما أصبحنا أخرجناه معنا، فلما صار خارج الباب بال نحو قرية ماء، أو كمال قال، قال: وحدثني محمد بن أبي جعفر قال: ابن غليس مايسوى فليس، رحمه الله.

وفيها: توفي بدمشق خطيبها الدولعي الكبير، الملقب بضياء الدين، واسمه: أبو القاسم عبد الملك بن زيد بن ياسين التغلبي، والدولية قرية من قرى الموصل، ولد سنة ثمان مائة وخمسة قبل جمال الدين

يحيى القرشي، وجميع من ذكرنا من أجداده ولوا القضاء بدمشق، وجده الأعلى يحيى بن علي بن عبد العزيز، وهو جد الحافظ أبي القاسم بن عساكر لأمه، ويعرف بابن الصائغ، ذكره الحافظ في ترجمته وترجمة والده في تاريخ دمشق، وذكر أيضا ترجمة ولديه محمد بن يحيى، وسلطان بن يحيى وهما خالا الحافظ أبي القاسم، ولم يرفع نسب أحد منهم بما يتصل بأمر المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه كما تدعيه ذريته في زماننا، ولو كان ذلك الاتصال صحيحا لما خفي على الحافظ أبي القاسم، ولو كان يعرفه لما أغفل ذكر هذه المنقبة لأجداده وأمه وأخواله.

تولى أبو المعالي قضاء دمشق أولا نيابة عن الشيخ شرف الدين أبي سعد الله بن محمد بن عصرون، ثم تولى قاضي القضاة في أيام السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله وبأمره في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، وبقي على ذلك إلى أن توفي في هذه السنة في سابع شعبان ودفن بتربته في الجبل، ولما فتح صلاح الدين مدينة حلب أضاف إليه أيضا قضاءها وكان عالما صارما كاتباً حسن الخط واللفظ، وهو أول من خطب بالبيت المقدس شرفه الله تعالى لما فتحه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة بخطبة فائقة من إنشائه قد ذكرتها في كتاب الروضتين، وكان بيده الأوقاف التي للجامع وغيره، ثم عزل عنها في جمادى الأولى سنة وفاته، وتولاها شمس الدين ابن التيتي ضمنا، ثم في صفر من سنة أربع وستمئة عزل الشمس ابن التيتي عنها وتولاها الرشيد ابن أخته ضمنا بزيادة ثلاثة آلاف دينار، ثم في تاسع شعبان من هذه السنة سنة أربع وستمئة أبطل ضمنا وتولاها المعتمد ولي دمشق، وكان يحيى الدين قد اختل في آخر عمره، وجرت له قصة مع الإسماعيلية بسبب قتل شخص منهم يعرف بالفافا، ولذلك فتح له بابا سرا إلى الجامع لصلاة الجمعة، ودرس عنه عماد الدين ابن الحرساني وأثنى عليه في فصاحته وحفظه لما يلقيه في درسه، قال: وتوفي وله ثمان وأربعون سنة، وكذا ولده الزكي

الطاهر، وكان رحمه الله يحرص على كتابة عقيدة الغزالي الملقبة بالمصباح، ويأمر بتحفيظ الصغار لها، وكذا أخيه من بعده، وكان ينهى عن الاشتغال بكتب المنطق والجدل، ولقد استدعى بكتب من كانت عنده من سكان مدرسته التقوية فقطعها بحضور الجمع في مدرسته بالكلاسة قبالة الشباك الصلاحي، وثم كان يذكر الدرس العام للتفسير فقطعها ومالكها حاضر.

قال: وكان قد تنزل ذكر نيابته عن ابن عصرون، فأرسل السلطان صلاح الدين مجد الدين ابن النحاس والد العماد إليه، وأمره أن يضرب على علامته في مجلسه ففعل به ذلك، فلزم بيته حياء من الناس فطلب ابن عصرون من يستنييه فأشير عليه بالخطيب ضياء الدين الدولعي، فأرسل إليه فتاب عنه وعن ابنه إلى أن عزل، قال: وكان قد اختلط عقله في آخر عمره، فبينما هو في داره يوما وعنده جماعة من أكابر دمشق ثار به الخلط، فخرج من ساعته على الهيئة التي كان عليها في داره، فوجد بغلة، لبعض من كان عنده فركبها فخيف عليه فارتدفه غلام صاحب البغلة، فخرج على وجهه إلى الميدان فلحقه الجماعة، وأمر له بضرب خيمة، وبات والناس عنده تلك الليلة، ثم أدخل من الغد فبقي أياما ومات.

ثم دخلت

سنة تسع وتسعين وخمسمائة

وهي سنة مولدي، ففي سلخ المحرم ليلة السبت ماجت النجوم في السماء شرقا وغربا، وتطairت كالجراد المنتشر يمينا وشمالا، ولم ير هذا إلا في مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، وفي سنة إحدى وأربعين ومائتين، كانت هذه السنة أعظم، قاله أبو المظفر سبط ابن الجوزي.

وقال العز بن تاج الأمناء: في سلخ المحرم رئي في السماء نجوم متكاثفة متطائرة شديدة الاضطراب إلى غاية، قال: وشرع في عمارة سور قلعة دمشق في الشهور الأواخر من هذه السنة، وابتدىء بـبرج الزاوية الغربي القبلي منها المجاور لباب النصر.

قال أبو المظفر: وتمت عمارة رباط المربانية الذي بناه الخليفة على نهر عيسى، ورتب فيه الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي وعنده جماعة من الصوفية.

وفيها: بعث الخليفة الخلع وسراويلات الفتوة إلى العادل وأولاده، فلبسوها في شهر رمضان، وأخذ الظاهر قلعة نجم من أخيه الأفضل بأمر العادل، وابتدىء بعمارة قلعة دمشق.

وحج بالناس من العراق طاشتكين.

قال وفيها: توفيت والددة الإمام الناصر واسمها زمرد خاتون أم ولده المستضىء، كانت صالحة كثيرة المعروف والصدقات، دائمة البر

والصلوات، متفقدة لأرباب البيوت، وحجت فأنفقت مالا عظيما نحو ثلاثمائة ألف دينار، وكان معها نحو ألفي جمل، وتصدقت على أهل الحرمين وأصلحت البرك والمصانع، وعمرت التربة عند قبر معروف والمدرسة إلى جانبها، ووقفت عليها الأوقاف، وتوفيت في جمادى الأولى وحزن الخليفة عليها حزنا لم يحزنه ولد على والدة، وفعل في حقها ما لم يفعل أحد من أمثاله، وصلى عليها في صحن السلام ومضى بين يدي تابوتها إلى دجلة من ناحية التاج، ثم حملت في الشبارة نهارا والوزير ناصر بن مهدي قائم مشدود الوسط، وأرباب الدولة في السفن، وصعدوا بتابوتها إلى التربة، وأمر الخليفة أن يمشي الناس من دجلة إلى تربتها المجاورة لمعروف والمسافة بعيدة، وكان الوزير سميئا فكاد يهلك وقعد في الطريق نحو من ثلاثين مرة، وعمل لها العزاء شهرا كاملا، وأنشدت المراثي، وختمت الختمات طول الشهر، وفرق الخليفة بعد الشهر أموالا كثيرة في الزوايا، والربط، والمدارس، وخلع على الأعيان، ومن لم يخلع عليه أعطاه مالا، وأمر بأن يفرق جميع ما خلفته من ذهب، وفضة، وحلي، وجواهر، وثياب في جواربها ومما ليكها فقسّم بينهم، وحمل ما كان في خزانتها من الأشربة، والمعاجين، والعقاقير إلى المارستان العضدي، وكان يساوي ألّوفا، وحزن عليها أهل بغداد حزنا عظيما لأنها كانت محسنة إلى الناس.

قال وفيها: توفي القاضي أبو الفضل أحمد ابن قاضي القضاة أبي طالب علي بن هبة الله بن محمد بن البخاري، استنابه أبوه في القضاء بحريم دار الخلافة فلم يزل على ذلك حتى توفي والده فانعزل، ثم ولي سنة أربع وتسعين فأقام حتى ولي ضياء الدين بن الشهرزوري في رمضان سنة خمس وتسعين وخمسمائة، فأقره على حاله، ثم عزله في ذي الحجة من السنة المذكورة فلزم بيته إلى أن توفي في ذي الحجة من هذه السنة، وصلي عليه بالنظامية ودفن عند أبيه بمشهد موسى بن جعفر، وكان نزلها عفيفا.

وفيها: توفي عبد الله بن الحسن بن زيد أبو محمد الكندي، أخو الشيخ تاج الدين زيد بن الحسن الكندي، العلامة، وكان عبد الله أصغر من الشيخ وكان جواداً، سمع ببغداد أبا الفضل بن ناصر وغيره، واستوطن دمشق إلى أن توفي بها في ذي القعدة، وصلى عليه أخوه تاج الدين بجامع دمشق، ودفن بجبل قاسيون.

قلت: وهو والد أمين الدين أبي العباس أحمد، الذي ورث عمه تاج الدين، وكان آدم اللون^(١٦) رحمهم الله.

وفيها: توفي علم الدين سليمان بن شيرويه بن جندر، أخو العادل لأمه في التاسع والعشرين من المحرم ودفن بداره بدمشق، وهي التي وقفها مدرسة للشافعية المعروفة بالفلكية، بحارة باب الفراديس، وقف عليها قرية الخان.

وفيها: توفي الأمير سيف الدين إيازكوج الأسدي بمصر سابع عشر ربيع الآخر.

وفيها: توفي الفقيه برهان الدين مسعود بن شجاع الحنفي مدرس المدرسة النورية بدمشق في خامس عشر جمادى الآخرة، ودفن بالمقبرة التي بجبل قاسيون غربي دار ابن سمندار، وكان هو وابن العقادية ممن يشتغل على الشيخ علي البلخي رحمه الله.

قال أبو المظفر وفيها: توفي عبيد الله بن علي بن نصر أبو بكر البغدادي، يعرف بابن المارستانية أحد الفضلاء المعروفين بجمع الحديث، والطب، والنجوم، وعلوم الأوائل وأيام الناس، وصنف كتاباً سماه ديوان الإسلام في تاريخ دار السلام، قسمه ثلاثمائة وستين كتاباً إلا أنه لم يشتهر، وهو الذي صنف سيرة ابن هبيرة، وهو الذي قرأ كتب عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر يوم أحرقت كان يقرأ

الكتاب ويقول: يا عامة هذا عبد السلام يقول في هذا الكتاب: من بخر زحل بكذا وكذا، وقال: يا إلهي يا علة العلل نال ما أريد، وكان ابن المارستانية محمولا على ابن عبد القادر، وكان الخليفة قد أمر الوزير أن يخلع عليه ويبعثه رسولا إلى الكرج بتفليس فخلع عليه خلعة سوداء سنينة وخرج من دار الوزير بين يديه الحجاب وأرباب الدولة، فوقف له عبد السلام بن عبد الوهاب الذي أحرق كتبه وتقدم إليه وقال له سرا بينهما: الساعة من بخر زحل أنا أم أنت؟ فقال: أنا، ولما قضى الرسالة وعاد من تفليس توفي بمكان يقال له جرخ بند، في ذي الحجة وقد تكلموا فيه فذكره ابن الديبشي في الذيل، فقال عبيد الله بن نصر بن حمرة —بحاء مهملة وراء مهملة— أبو بكر ابن أبي الفرج ويعرف بابن المارستانية جمع الكتب، وادعى الحفظ وسعة الرواية عمن لم يلقه ولم يأخذ عنه، وكان ينتسب إلى أبي بكر لصديق، وكان أبوه ينكر ذلك، وكان أبوه وأمه يخدمان المارستان، ولهذا نسبت أمه إليه، وأطلق الناس القول في جرحه بهذه الأسباب، حتى قال أبو جعفر الوائقي:

دع الأنساب لاتعرض لتيم
فأين الهجن من ولد الصميم
لقد أصبحت من تيم دعيّا
كدعوى حيص يص إلى تيم

فطعن فيه ابن الديبشي طعنا كثيرا، وقال في كتابه أخبرنا: والدي، أنبأنا: قاضي المارستان، وهذه قحة عظيمة وأبوه عامي لا يعرف الحديث ولا سمعه، وكان قصده أن يقال عنه محدث ابن محدث.

قلت: هذا غلو من قائله لا يلزم من كونه عاميا أن لا يكون له سماع في صغره يوما، فلا يسمع قوله ولا سمعه فإنها شهادة على نفي.

قال: وماتم كتابه المسمى بديوان الإسلام، ولو تم لظهرت فضائحه،
سمع الكاتبة شهدة، وشيوخ ذلك العصر.

وفيها: توفي زين الدين ابن نجية الواعظ، واسمه أبو الحسن علي بن
ابراهيم بن نجية الحنبلي، ولد بدمشق سنة ثمان وخمسمائة ونشأ بها، وهو
سبط الشيخ أبي الفرج الحنبلي جد بني الحنبلي الدمشقيين، فهو ابن عمه
نجم بن عبد الوهاب بن أبي الفرج، ونجم هذا والد الناصح ابن الحنبلي
وأخوته، اشتغل ابن نجية المذكور بالتفسير، والوعظ، وبعثه نور الدين
محمود بن زنكي رحمه الله رسولا إلى بغداد في سنة أربع وستين وخمسمائة،
فسمع بهذا عبد الخالق بن أحمد بن يوسف وغيره، وصاهر سعد الخير
الأنصاري على ابنته، ثم سكن مصر قبل دولة صلاح الدين، وفي أيامه،
وكان له منه منزلة جليلة، وهو الذي نم على عمارة اليمنى الشاعر،
وأصحابه بما كانوا عزموا عليه من قلب الدولة، فشنعهم صلاح الدين
على ماذكرناه في كتاب الروضتين، وقد ذكرنا من أحوال زين الدين هذا في
كتاب الروضتين أشياء منها: ما كاتب به صلاح الدين في تفضيل مصر
على الشام وغير ذلك، وكان صلاح الدين يكاتبه ويحضر مجلسه هو
وأولاده العزيز وغيره، وكان له جاه عظيم وحرمة زائدة وكان يجري بينه
وبين الطوسي العجائب، لأن الطوسي أشعري، وابن نجية حنبلي وكلاهما
واعظ، جلس يوما ابن نجية في القرافة بالجامع فوقع عليه وعلى جماعة
ممن عنده السقف، فعمل الطوسي خطبة، وذكر فيها قوله تعالى: (فخر
عليهم السقف من فوقهم)^(١٧) وعاینوا كلبا يشق الصفوف، فقال ابن
نجية: هذا من هناك، وأشار إلى مكان الطوسي، وكان ابن نجية ينشد
على المنبر شعر الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير خليفة مصر فمناه:

مشييك قد نضاصبغ الشباب
وحل الباز في وكر الغراب
تنام ومقللة الحدثان تعطي
وماناب النوائب عنك ناب

وكيف بقاء عمري وهو كنز
وقد أنفقت منه بلا حساب

قال أبو المظفر: وكان ابن نجية قد اقتنى أموالاً عظيمة، وتنعم تنعمًا زائدًا بحيث أنه كان في داره عشرون جارية للفراش نسائي كل جارية ألف دينار، وأما الأطعمة فقد كان يعمل في داره ما لا يعمل في دور الملوك، وتعطيه الخلفاء والملوك أموالاً عظيمة كثيرة، ومع هذا مات فقيرًا كفته بعض أصحابه وتمزقت الأموال، وحالت الأحوال، وكانت وفاته بمصر ودفن بالقرافة.

وفيها: توفي أبو الحسن علي بن الحسن بن اسماعيل العبدى، من عبد القيس، ولد سنة أربع وعشرين وخمسمائة بالبصرة، وبرع في علم الأدب والترسل، وسمع الحديث ببغداد من ابن ناصر وطبقته، ثم عاد إلى البصرة فتوفي بها في شعبان.

وأنشد لنفسه:

لا تسلك الطرق إذا أخطرت
لو أنها تفضي إلى المملكة
قد أنزل الله تعالى (ولا
تلقوا بأيدكم إلى التهلكة) (١٨)

وفيها: توفي أبو القاسم علي بن نجى بن أحمد الصوفي البغدادي، ويعرف ببسط حامد البناء، سمع قاضي المارستان وطبقته، وتوفي ببغداد، ودفن بباب الأزج وكان أنشد لنفسه:

أي شيء يكون أعجب من ذا
أن تفكرت في صروف الزمان

حادثات السرور - وزن وزنا

والبلاليات كال بالقفزان

وفيها: توفي القاضي ضياء الدين الشهرزوري وهو: أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله بن القاسم وهو ابن أخي القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم، قاضي قضاة الشام في الأيام النورية، وبعض الصلاحية إلى أن توفي سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، وأوصى بالقضاء لابن أخيه ضياء الدين المذكور، فأقام قليلا، استقال من القضاء لما فهم من غرض صلاح الدين تولية أبي سعد ابن عصرون، فأقاله ورتبه للرسالة بينه وبين الخليفة، فترسل عنه إلى بغداد مرارا، ولد ضياء الدين في سنة أربع وثلاثين وخمسمائة وتفقه ببغداد على يوسف الدمشقي بالنظامية، وسمع الحديث، وعاد

إلى الشام، وبيته مشهور بالرئاسة والتقدم والقضاء والفضل، وآخر قدومه رسولا عن صلاح الدين في سنة ثمان وثمانين، ثم قدمها رسولا عن الأفضل عقيب موت صلاح الدين، ولما أخذ العادل دمشق أخرجه منها بسبب الأفضل، فاستدعي إلى بغداد في سنة خمس وسبعين، فولاه الخليفة قضاء القضاء، ورد إليه أمور المدارس والأوقاف الشافعية والحنفية وغيرها، وكانت مطالعات الخليفة تصدر إليه دائما، وحظي عنده، وحصلت له منه منزلة لم تحصل لغيره من الغرباء، وكانت زوجته ست الملوك تدخل على أم الخليفة الناصر، وتحسن إليها، وأقام ببغداد فلم تطب له، واشتاق إلى الشام فطلب الانفصال فلم يجبه الخليفة، فدخلت ست الملوك على أم الخليفة وسألته في مخاطبة الخليفة في الإذن له في العود إلى الشام، فسأله فأذن له.

قال أبو المظفر: وسمعت بعض عوام بغداد يقولون كان سبب عزله أن مسح يوما القلم في شرابة الدواة، ولم يمسه في الخرقة الزرقاء التي

عند الدواة، وبلغ الخليفة فعزله، قال: وهذا ليس بشيء، ولم يعزله الخليفة إنما هو اشتاق إلى الشام ولم يعتد قواعد العراق، وخاف على نفسه أن يبدو منه ما لا يليق فطلب الخروج إلى الشام، وكان قد حسده أرباب الدولة على قربهِ ومنزلته من الخليفة، وميله إليه فخاف من التحريف عليه، فكانت مدة ولايته بها سنتين وأربعة أشهر، ولما سافر عن العراق جاء إلى حماة فأقام بها وولي القضاء فعتب عليه ذلك بعد قضاء بغداد، فقال: ما عزلت من قضاء بغداد، وحماة، والشام، والشرق، والغرب، في ولايتي فإذا نظرت في بعض ولاياتي فليس ذلك بعيب، وكانت وفاته بحماة منتصف رجب ودفن بها، ولقد حكى لي أنه لما احتضر جعل يسبح ويذكر الله وتتفرقع أصابعه حتى قضى، وكان فاضلاً جواداً، سخياً، لم يكن في أبناء جنسه أكرم منه، وذكره العماد الكاتب في الخريدة وأثنى عليه ومن شعره:

في كل يوم ترى للبين آثار
وماله في التمام الشمل إثار
يسطو علينا بتفريق فواعجبا
هل كان للبين فيما بيننا آثار
يهزني أبداً من بعد بعدهم
إلى لقائهم وجد وتذكـار
ما ضرهم في الهوى لو واصلوا دنفا
وما عليهم من الأوزار لو زاروا
يانا زلين همى قنبي وإن بعدوا
ومنتصفين وإن صدوا وإن جاروا
ما في فؤادي سواكم فأعطفوا وصلوا
ومالكـم فيه إلا حبكم جار

وفيها: توفي أبو البركات محمد بن أحمد بن سعيد البكري، ويعرف بالمويد وكان أديباً، فاضلاً، شاعراً ومن شعره أبيات حسنة شائعة قالها

في الوجيه النحوي، وكان الوجيه قديما على مذهب أحمد فأذاه الحنابلة فتحنف، فأذاه الحنفية فانتقل إلى مذهب الشافعي، فجعلوه يدرس النحو في النظامية فقال المؤيد:

ألا مبلغ عني الوجيه رسالة
وإن كان لا تجدي لديه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل
وذلك لما أعوزتك المأكلا
وما اخترت رأي الشافعي تدينا
ولكنما تهوى الذي هو حاصل
وعما قليل أنت لاشك صائر
إلى مالك فافطن لما أنا قائل

وفيها: توفي أبو زكريا يحيى بن طاهر بن محمد الواعظ، ويعرف بابن النجار البغدادي، ولد يوم عرفة سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، وسمع الحديث الكثير من أبي الفضل الأرموي وطبقته، وتوفي في ذي الحجة، ودفن بالمختارة شرقي بغداد وأنشد في مجلسه:

عاشر من الناس من تبقى مودته
فأكثر الناس جمع غير مؤتلف
منهم صديق بلا قاف ومعرفة
بغير فاء وأخوان بلا ألف

وفيها: ولد مصنف هذا الكتاب الفقير إلى الله تعالى عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان بن أبي بكر بن ابراهيم بن محمد المقدسي الشافعي، ليلة الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الآخر عفا الله عنه، عرف بأبي شامة، لأنه كان به شامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر، يكنى أبا القاسم محمد، وكانت ولادته من هذه السنة برأس درب الفواخير

بدمشق داخل الباب الشرقي، وأصل جده أبي بكر من بيت المقدس، كان أبوه أحد الأعيان بها، ولعل محمدا الذي انتهى إليه النسب هو أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي القاسم علي الطوسي المقرئ الصوفي إمام صخرة بيت المقدس، ذكره الحافظ أبو القاسم في تاريخ دمشق.

قال ابن الأكفاني: قتلته الفرنج خذلهم الله عند دخولهم بيت المقدس في شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وهو أحد الشهداء الذين رؤوسهم بالمغارة المقصودة بالزيارة في مقبرة ساملة بالقدس الشريف، فانتقل ولده أبو بكر إلى دمشق، فأقام بها فولد له ولدان: عثمان بن أبي بكر، وعبد الرحمن بن أبي بكر الذي كان معلما بباب الجامع الشامي، وسيأتي ذكره، وكثر الله نسلهم بدمشق ومسكنهم بنواحي الباب الشرقي، فأولد عثمان بن ابراهيم بن عثمان جد مصنف الكتاب، توفي في شعبان سنة خمس وسبعين وخمسمائة، ودفن بمقبرة باب المراديس، فأولد ابراهيم

ابن عثمان ولدين: أبا القاسم بن ابراهيم، توفي يوم الجمعة تاسع شهر رمضان سنة أربع وستمائة، ودفن بمقبرة بين الباب الشرقي وباب توما، واسماعيل بن ابراهيم توفي في ثالث عشر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين وستمائة، فأولد اسماعيل ولدين: ابراهيم بن اسماعيل، ومولده ليلة الاثنين الخامس والعشرين من محرم سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، ومصنف الكتاب عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم، وحبب الله تعالى إليه من صغره حفظ الكتاب العزيز، وطلب العلم، فجعل ذلك همته فلم يشعر والده به إلا وهو يقول: لقد ختمت القرآن حفظا. ثم أخذ في معرفة القراءات السبع والفقه، والعربية، والحديث، وأيام الناس ومعرفة الرجال وغيرها من العلوم، وصنف في ذلك مصنفات كثيرة سيأتي ذكرها، وحج مع والده سنة إحدى وعشرين وستمائة، ثم حج في التي بعدها أيضا، ثم سافر إلى البيت المقدس زائرا سنة أربع وعشرين، وسافر إلى الديار المصرية سنة ثمان وعشرين، واجتمع بشيوخ هذه البلاد في ذلك الوقت

بمصر، والقاهرة، ودمياط، والاسكندرية، ثم لزم الإقامة بدمشق عاكفا على ما هو بصدد من الاشتغال بالعلم وجمعه في مؤلفاته، والقيام بفتاوى الأحكام وغيرها، وكان في صغره يقرأ القرآن في جامع دمشق، ينظر إلى مشايخ العلم كالشيخ فخر الدين أبي منصور ابن عساكر، ويروي طريقه في فتاوى المسلمين، وحاجة الناس إليه وسماع الحديث النبوي عليه، وهو يمر من مقصورة الصحابة رضي الله عنهم إلى تحت قبة النسر لسماع الحديث إلى المدرسة التقوية، لإلقاء دروس الفقه، ويرى إقبال الناس عليه وترددهم إليه مع حسن سمته واقتصاده في لباسه فيستحسن طريقته ويتمنى رتبته في العلم، ونشره له، وانتفاع الناس بفتاويه، فبلغه الله من ذلك فوق ما تمناه، وظهر الشيب في لحيته ورأسه، وله خمس وعشرون سنة، فجعل الله تعالى له الشيخوخة صورة ومعنى، فنظم في ذلك بعض الفضلاء:

إن يشب إذا بلغ خمسا وعشرين
فما كان المشيب فيه بعاب
جهل الناس قدر شيخوخة العلم
ثم فجلت أنواره في الشباب
نور الله الوجه والقلب منه
إن فيه هداية المرتاب
هو شيخ معنى فعاجله الشيب
بوقار اله على الأتراب
فحوى الفضل يا فعلا ومسنا
إن زلفى له وحسن مآب

ورويت له منامات حسنة كانت مبشرات له بما وصل إليه من العلم، وما يرجوه من الخير، منها: أن والدته رحمه الله أخبرته وهو إذ ذاك صغير يتردد إلى المكتب، وأبوه رحمه الله يعجب من حبه المكتب وحرصه على القراءة على خلاف المعروف من عادة الصبيان، فقالت الوالدة: لا تعجب فإني لما كنت حاملا به رأيت في المنام كأي في أعلى مكان من المئذنة عند

هلاهما، وأنا أؤذن فقصصتها على عابر فقال: تلدين ذكرا ينتشر ذكره في الأرض بالعلم والخير.

ورأى هو في صفر سنة أربع وعشرين وستمائة كأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد أقبل إلى الشام، منجدا لأهله على الفرنج، خذلهم الله: وكان له به خصوصية من إفضاء أمره إليه، والتحدث معه في أمور المسلمين، وهو يمشي إلى جانبه ملاصقا منكبه حتى كان الناس يسألونه عنه وعما يريد أن يفعل وهو يخبرهم، وكأنه واسطة بينه وبين الناس.

وفي هذه السنة رأى أيضا كأنه والفقيه عبد العزيز بن عبد السلام —سلمه الله— داخل باب الرحمة بالبيت المقدس، وقد أرادوا فتحه، وثم من يمنع من فتحه ويدفعونه لينغلق، فما زالا يعالجان الأمر حتى فتحا مصراعيه فتحا تاما بحيث اسند كل مصراع إلى الحائط الذي خلفه.

ورأى أيضا في جمادى الآخرة من هذه السنة كأن المسلمين في صلاة الجمعة في حر شديد وهو خائف عليهم من العطش ولاماء ثم يعرف، فنظر إلى قليب ماء قريبا منه وحوض، فخطر له ان يسقي من ذلك القليب ويسكب في الحوض حتى يشرب منه الناس إذا انصرفوا من الصلاة، فاستقى شخص قبله لايعرفه دلوا أو دلوين، ثم أخذ منه فاستقى دلاء كثيرة لم يعرف عددها وسكب في الحوض.

ورآه المهتار هلال بن مازن الحراني متقلدا هيكلا، وهو يقول: انظروا فلانا كيف تقلد كلام الله، ورأت امرأة كبيرة كأن جماعة صالحين اجتمعوا بمسجد قرية بيت سوا، وهي قرية من قرى غوطة دمشق، وكأنهم سئلوا ما شأنهم قالوا: ننتظر النبي صلى الله عليه وسلم يصلي بنا، قالت: فحضر، يعني مصنف هذا الكتاب، فصلى بهم، وجاءه رجل يستفتيه وهو بالمجلس الكبير الذي للكتب في صدر الإيوان بالمدرسة العادلية، وهو

الموضع الذي يجلس فيه غالباً للفتوى وغيرها، ومنه يخرج إلى الصلاة بالمدرسة، فتعجب فقل له مم تتعجب؟ قال: هذا مكان مارأيت قط.

قال: ورأيت في المنام كأني كنت بهذه المدرسة العادلة، وفيها خلق كثير وكان قائل يقول للناس: تنحوا فالنبي صلى الله عليه وسلم يمر، قال: فنظرت فخرج علينا من المجلس الذي للكتب ومر كما هو إلى المحراب.

ورأى الصلاح الصوفي أول ليلة من جمادى الآخرة سنة خمس وخمسين وستمائة كأن مصنف الكتاب متوجه إلى الحج، ومعه من الزاد جميع ما يحتاج إليه تزوداً تاماً يعجب منه الرائي.

ورأى حسن الحجازي في شهر رمضان سنة سبع وخمسين وستمائة كأن قائلاً في عالم الغيب، لا يراه بل يسمع صوته، يقول: الشيخ أبو شامة نبي هذا الوقت، أو كما قال. ورآه مرة أخرى فوق قنطرة عالية، وتحت القنطرة حنطة كثيرة.

ومن ذلك منامات حسنة رآها له أخوه الشيخ برهان الدين أبو اسحاق إبراهيم بن اسماعيل وهو أسن منه بنحو تسع سنين وكان من الصالحين، رأى والدهما رحمه الله يقول له: عليك بالعلم انظر إلى منزلة أخيك، فنظر فإذا هو في رأس جبل والوالد والرأي يمشيان في أسفله.

ورأى في صفر سنة سبع وخمسين وستمائة كأن مصنف الكتاب متمسك بجبل قد دلي من السماء، وهو مرتفع فيه، فسأل إنساناً عن ذلك في المنام، فانكشف لهما البيت المقدس، والمسجد الأقصى، فقال: ذلك الإنسان: من بنى هذا المسجد؟ فقال: سليمان بن داود، فقال: أعطي أخوك مثل ما أعطي سليمان، فقال له: كيف ذلك؟ فقال: أليس سليمان أوتي (ملكا لا ينبغي لأحد من) (١٩) بعده، أليس أعطى كذا وكذا،

وعدد أنواع ما أوتي؟ فقال: بلى، قال: وكذا أخوك أوتي أنواعا من العلم كثيرة أو كما قال.

قال: رآه الشرف الصرخدي فوق سطح بيت منعزل، وهو يؤذن، ثم بعد الأذان قرأ (واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب) (٢٠) ورأى أيضا كأن القيامة قد قامت، ومصنف الكتاب راكب على حمار، وهو مسرع، فقبل له في ذلك، فقال: أطلب النبي صلى الله عليه وسلم على الحوض، ورأى الشرف ابن الرئيس أيضا القيامة ووصف من أهوالها، قال: ورأيت فلانا يعني صاحب هذا الكتاب فسألته عن حاله فقلت له: ماذا مالقيت؟ قال: لقيت خيرا.

وإنما سطرت هذه المنامات وغيرها تحدثا بنعم الله تعالى كما أمر سبحانه في قوله تعالى: (وأما بنعمة ربك فحدث) (٢١) وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له» (٢٢) اللهم اوزعنا شكر هذه النعم واختم بخير واسترنا في الدنيا والآخرة وآمنا مكرك ولا تنسنا ذكرك.

سمع المذكور جماعة من المشايخ والعلماء من أصحاب أبي الوقت، والحافظ أبي طاهر السلفي، وأبي الفرج الثقي، وأبي طاهر بركات بن ابراهيم الخشوعي، وغيرهم، وجمع وألف، وهذب وصنف في فنون العلوم النافعة كتب كثيرة، ومصنفات جليلة مختصرة، ومطولة تم أكثرها وسمعتها ووقفها، وكثرت النسخ بها، فأول ما أظهر من مصنفاته شرح القصائد النبوية مجلد، ومنها: شرح قصيدة الشيخ الشاطبي رحمه الله الذي سماه ابراز المعاني من حرز الأمان، وهما شرحان أصغر وأكبر، والأكبر إلى الآن لم يتم والأصغر مجلدان.

ومنها: اختصاره لتاريخ دمشق وهما أيضا أكبر وأصغر وكلاهما تام، فالأكبر بخطه في خمسة عشر مجلدا، والأصغر في خمسة مجلدات، ومنها:

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين في مجلدين، ومختصره في مجلدة صغيرة ومنها: الكتاب المرقوم في جملة من العلوم، يجمع عدة مصنفات في مجلدين الأول فيه خطبة العلم الكبرى التي سماها خطبة الكتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول، وكتاب نور المسرى في تفسير آية الأسراء، وشرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى وضوء السارى إلى رؤية معرفة الباري، والمحقق من علم الأصول فيما يتعلق بأفعال الرسول، وكتاب البسملة، والباعث على إنكار البدع والحوادث وكتاب السواك، وما أشبه ذلك، ومختصر كتاب البسملة وغير ذلك، ومنها: كشف حال بني عبيد والواضح الجلي في الرد على الحنبلي، وإقامة الدليل الناسخ لجزء الفاسخ، والأصول من الأصول، ومفردات القراءة، وشيوخ الحافظ البيهقي، ومقدمة في النحو، والألفاظ المعربة، والقصيدة الدامغة وقصيدتان في منازل طريق الحج ونظم مفصل الزمخشري، ونظم العروض والقوافي ونظم شيء من متشابة القرآن، وشرح عروس السمر، وابتدأ كتباً كثيرة لم يتفق إلى الآن إتمامها، ونجز في سنة تسع وخمسين وستائة التي تعقبها سنة ستين فيها كتاب جامع أخبار مكة والمدينة وبيت المقدس شرفهن الله تعالى، ومختصر تاريخ بغداد وتقييد الأسماء المشككة، ورفع النزاع بالرد إلى الإتيان والمذهب في علم المذهب، ونية الصيام وما في يوم الشك من الكلام، وشرح نظم المفصل، والإعلام بمعنى الكلمة والكلام، وشرح لباب التهذيب، والأجوزة في الفقه، وذكر من ركب الحمار، ومشكلات الآيات، ومشكلات الأخبار، وكتاب القيامة، وشرح أحاديث الوسيط، وتعاليق كثيرة في فنون مختلفة من غير ترتيب على طريقة التذكرة لأبي علي الفارسي، وأمالى ثعلب، وأمالى الزجاجي، ونحو كتاب المجالسة واختصار جملة من الدواوين.

وقد نظم أحد الفضلاء بعض هذه المصنفات في أبيات كتبها له فقال:

هذا الشهاب الثاقب الفهم الذي
قد فاق في بحر العلوم وشطه
أكرم بتحقيقه واتقان وتصـ
نيف له وبراعة في ضبطه
وعناية من ربه فيما يحاو
له به فأحله في وسطه
فكلامه في الفقه يشبه ما تقد
م من كلام الشافعي وسبطه
ينبي على نص الكتاب وسنة
للمصطفى في رفعه أو حطه
ومذاهب العلماء يلحظها فيفتي
بالمرجح عنده من قسطه
ويفسر القرآن والأخبار عن
حذق بمفهوم الكلام وربطه
وينص أسماء الوري وحديثهم
ووفاتهم فكأنهم من رهطه
شرح الصدور بشرحه لقصائد
نبوية في قبضه أو بسطه
والشاطبية جولو أفكاركم
في شرحها إن كنتم من شرطه
وله كتاب الروضتين وهذب التـ
ـار يخ مختصره من شحطه
وكتاب المرقوم فيه مصنفه
ت في علوم حازها في مرطه
منها المحقق والسواك وباعث
مع مبعث أحسن به وبقمطه
والضوء والإسرا وبسملته ومن
شدها الذي أحيا بحسن محطه

ولنظمه في النحـــــو والأوزان والأ
حكام لم يك ما مضى من سمطه
وقد ابتدأ كتباً فإن أبقاه من
قواه أكملها بجودة سفته
رفع النزاع ومشكل الآ
يات والأخبار مما شده في قمطه
أرجوله عفو الإله فإنه
ما زال يطلب عفووه في خطه

كان المذكور لا يكاد يكتب في فتوى، أو شهادة، أو طبقة سماع، أو
نسخ كتاب إلا أردف اسمه بكتابة عفا الله عنه، وكان حريصاً على
الاجتهاد في الأحكام المختلف فيها، فيفتي بما يراه أقرب إلى الحق، وإن
كان خلاف مذهبه تبعاً للأدلة.

ونظم بعض الأدباء فيه:

أيها الحاسدون فضل شهاب الد
ين عبد الرحمن رب المعالي
لاتطيقون ما أطاق دعوا الته
في فلن تدركوه غير خيال
متع بفسه صبيها وكهلا
ثم شيخاً مواظب الاشتغال
ومحب مجالس العلم والدي
من جميعاً بجانب الأنذال
جد حرصاً على الفوائد منها
وسؤالاً عن مشكل الأقوال
لا يرى غير قارىء لكتاب
أومجيباً بالحق للسؤال

كم كتاب أنباه حفظا وشرحا
واطلاعا علارؤوس الرجال
لايماري ولايماري ولاينف
ك عن نشره علمه للموالي
ولهذا يجب دينه فممن
أبغضه نال لعنة المتعالي
إن عبد الرحمن فيه فنون
من علوم معها كريم خلال
حاز مذكنا بالقناعة عزا
مع بهاء وهيبة وجلال
واعتلاء على الأمثال في بت
بت جواب له وحسن سؤال
ناشر العلم قائل الحق كم
نصر الشرع عن صحيح الجدل
صائن نفسه ومافيه من
علم ودين عن مهنة وابتذالي
وسواه في السذل إن خاب أو
أنجح يسعى أيامه والليالي
فارسا راجلا يرويأتي
نحو قاض وتارة نحو والي
ذو التصانيف المغنيات بعون الـ
له عن مصنفات قيل وقال
من يرد قدر فضله فليطالع
كتبه فهي عين عين الكمال
ليرى ما آتاه خالقه جل
من العلم من جليل الفعال
فمواليه في الهدى ومعاديـ
ه وحسادة معافي ضلال

وهو من نفسه الأيية في عز
زوم من علمه رخي البال
وهو من قنعه غني وراض
لا يدانيه في الغنى ذو المال

وكتب إليه بعض الأدباء وأنشده إياها بجامع دمشق بحلقته عند
رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام، في زمن كان يسمع فيه تاريخ دمشق
الذي اختصره وغيره وذلك ثامن ذي الحجة سنة ثمان وأربعين وستمائة
قصيدة منها:

هو الشيخ شيخ العلم والحلم والهدى
وناهيك من علم القراءة من فحل
هناء له منا بصحة جسمه
فصحته في جسمه صحة العقل
ولما اعتراه ما اعتراه تألموا
جميع الورى كالنفس والصحب الأهل
وعوفي بحمد الله والحمد لم يزل
دواء له هذا شعار ذوي الفضل

ووالده كالسيد السلمي خذ
بكنيته والشيخ في ورع الشبلي
وفي العلم بحر قد تدفق موجه
ويملا منه بالجواهر ما يملئ
فهذب تاريخ الشآم دراية
وتهذيبه قد صح عند ذوي العقل
كما أنه علامة الوقت بمفرد
بعلم حديث المصطفى سيد الرسل
فحاشا حياة العلم من فقد مثله
وحاشا أحاديث النبي من الجهل

ومسألة في شرح بسملة لها
سمو وشرح الشاطبية يستعلي
بنظم عروض والمفصل قبله
رويته تروي الوري ديمة الهطل
فحاشا يدي التصنيف أن لاتنج من
عزيز وحاشا الروضتين من المحل
وحاشا الفتاوى أن تعطل بعده
وحاشا جمال البحث يخلو من الحفل
كثير المعالي والمعاني مفنن
تقي زكي طيب الفرع والأصل
يقول لنا مالا سمعناه قبله
وقال لنا ما سدت إلا بمن قبلي

وكتب إليه أيضا قصيدة منها:
يقصد المجلس الأجل جنابا
عالم الأرض كيف قال أصابا
وسماه فيها شمس علوم
وبدور تهدي وتدعى الشهابا

ملك الفضل بل خليفة علم الديـ
من وازداد من الفنون عجابا
وفتى وهو في المعالم مفت
فهو يهمي صبا ويهمي صوابا
سله والله تلق جوابا وجو
ادافه وشيخ في الفضل ينمي شبابا
وهو بحر قد ساغ عذب فرات
وسواه لم يلق إلا سرايبا

وكتب إليه قصيدة منها:

سرعت امتدادها
لامناه مستقيم
ركن دين الله في الد
نيابا أنواع العلوم
كهف تصنيف تحلى
حالة الطرز الرقيم
وإذا ألصف في تأ
ليفه ألصف الحميم
هذب التباريح حتى
راق في حسن نوسيم
وليه في الشرح شرح الن
فس والصدر الكظيم
فتعجب مننه إذا
انقص أنمى في الجسيم
وليه الشاممة في تر
جمة في حرف ميم
تلك أسماء ابن اد
ريس ياشهاب عميم
رم شمل الدهر حتى
خلف الميت الريم
فهو بالكل اعتياض
من حديث وقديم
بربر فيه بحر
بحر عرفان عظيم
زاخر كل غريب
وعجيب ويثيم
فهو يندي وهو يدي
أنفس الصدر النظيم
ملك الفضل انفرادا
فيه من غير قسيم

ولفتت وفتى فضي
لعل عليهم كريم

وكان يحضر عنده بالجامع والتربة الأشرفية جماعة من الأكابر
والفضلاء لسماع التاريخ والروضتين وغيرهما من تصانيفه، فنظم الرئيس
الأصيل الفاضل محيي الدين يحيى بن علي بن محمد التميمي من بني
القلانسي:

أنا والله والجماعة طرا
من سماع التاريخ في بستان
ورياض أنيقة أطلقتها
بأزاهيرها لنا الروضتان
أيده الله شيخنا فلقدا
دع في الاختصار والتبيان
فهو قطب الحجى وبدر المعالي
وشهاب الفتيا وشمس البيان
دام في نعمة ورفعة قدر
سالم من نوائب الحدثنان
ما تغنى ورق على غصن بان
وتسنى بسرى ورق على نعيان

وكان المصنف عفا الله عنه محبا للعزلة والانفراد، غير مؤثر للتردد إلى
أبواب أهل الدنيا، متجنباً المزاومة على المناصب لا يؤثر على العافية
والكفاية شيئا، ومن شعره:

الثوب واللقمة والعافية
لقانع من عيشة كافية
وما يزد فالنفس ليست به
وإن تكن مملكة راضية

وله أيضا:
أنافي عز القنـاعـة
رافـل في كل سـاعـة
رب أتمهمـــــــــــــــــــــــــــــــــ
في معافاة و طـاعـة

وله أيضا:
أردت راحـــــــــــــــــــــــــــــــــة سري
مما يضيـق صـدري
لما ألقـي مـن الخـلـــــــــــــــــ
نـلق مـن جفـاء و غـدر
وحسـد و اغـتـيـاب
في اضيـاع العـمـري
فـاخـتـرت أن اتـنـحـي
وأستـقل بـأـمـري
فلسـت أمـشي إلى مـن
يـرى خـطـير الـقـدري
لأجل دنـيـا فـمـشيـي الـيـــــــــــــــــ
بـه بـالـعـلـم يـزري
لـكـن إلى عـالـم أو
شـيـخ نـيـه الـذـكـر
في الـديـن يـقـصـد للـــــــــــــــــ
عـلـم و التـقـى لا الفـخـر
أما إذا أحـوجـتـني
ضـرورة مـن فـقـــــــــــــــــر
فـلا يـكـون فـري
يـمـن فـيـه اـبـصـر

- ٩٠٦٠ -

يارب فـاشرح صـدري
للخير وأشـدد أـزري
ولا تـكلنـي إلى الخـلا
بـلق أنـت حـسبـي وذـخـري
هـب لي مـدى الدـهر سـتـم
راحتـي أوسـد قـبري
واختـم بـخير واعظـم
مـن جـنة الخـلد أجـري

وله أيضا:

نـزـهـت نـفـسـي وعـرضـي
وصنـت هـذا البـقـيـة
لما انـعـزلت بـيـتـي
قـولا وفـعـلا ونـيـة
وبقيـت عـلقتـي بـالـ
مـدارس الفـقـهـيـة
وسـوف أخلـص مـنـها
حـقـا وربـ البريـة
إني عـبـد ضـعـيف
أخـاف نـعت المـنـيـة
ولسـت أـرضـي لـنـفـسـي
دوام هـذا البـليـة
إلى المـات فـرـي
لـه هـبـات عـلـيـه
وكـان مـعـرفـة الله
النـعمـة الأخرى

أننا لها بانشرح
راضية مرضية

وقال فيما ينبغي أن يكون عليه المصلي:
القسما واحضر بقلب وعقل
بالمصلي ورتل القرآننا
وتدبر آياته وتفكر
واجمع لهم مقبلا يفظلنا

أي مقبلا عليه متيقظا.

وكتب إلى من كان عنده أصل المصنف بكتاب الوسيلة إلى كشف
العقيلة بخط مصنفه شيخنا السخاوي رحمه الله يستعيرة منه:

يامن نراه وسيلة
يحوز كل فضيلة
ومن مدى الدهر يسعى
فيما يسر خلية
ما زال يتعب صعب
يهوى وصال العقيلة
وطالب العلم هو
ي كثيره وقليله
فابعث إليه معينا
له كتاب الوسيلة

وقال أيضا:

بدمشق سقى إله ربها
وحماها ذكرى أولي الأبواب

وعجيب أشجارها حين تبدو
مزهرات تشيب قبل الشباب

وله أيضا أبيات في حصر السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، على ما صح في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ بعبادة الله، ورجلان تحابا في الله فاجتمعا على ذلك وتفرقا، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ورجل دعت امرأته ذات حسب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شالها ما أنفق يمينه» (٢٣) فقال في حصرهم:

إمام محب ناشيء متصدق
وباك مصمل خائف سطوة الباس
يظلمهم الله الجليل بظلمه
إذا كان يوم العرض لا ظل للناس
أشرت بألفاظ تدل عليهم
فيذكرهم بالنظم من بعضهم ناس
أي من هو ناس بعضهم.

وله في هذا المعنى:
وقال النبي المصطفى إن سبعة
يظلمهم الله العظيم بظلمه
محب عفيف ناشيء متصدق
وباك مصمل والإمام بعدله

وله أيضا:

- ٩٠٦٣ -

لا تقم في مدينة ليس فيها
خمسمة إن أردت دار قـرار
قهـر ملك وعدل قـاض
وطب حاذق مع سوق ونهر جار

وله أيضا:
قول ابن أدهم قول الناصحين لنا
العجب والحرص ثم السخط فاجتنبوا
ثلاثة حجبت عن اليقين قـلو
بنا فلا بد من أن ترفع الحجب
نسر بالمدح والمجود يفرحنا
والقلب سخطا من المفقود يضطرب

وله في حصر السبع الموبقات الوارد في الحديث الصحيح:
أكل مال اليتيم والشرك والسحـ
ر وأكل الربا وقذف المبرا
والتولي يوم زحف وقتل نفس
سبع قد أوبقت من تجرا

وله أيضا:
فلا تحفل بمن يغتاب شخصا
ويحسده فيذكر من هناته
فمن حسناته تهدي إليه
فإن نفدت تحمل سيآته

ثم دخلت

سنة ستمائة

قال أبو المظفر: سار نور الدين بن عز الدين صاحب الموصل إلى تل عفر فأخذها، وكانت لابن عمه قطب الدين بن عماد الدين صاحب سنجار، فاستنجد القطب بالملك الأشرف ابن العادل، فجمع جمعا كثيرا والتقى مع نور الدين فكسره وأسر جماعة من أمرائه منهم المبارز سنقر الحلبي، وولده الظهير غازي، وذلك في شوال، ثم اصطلحا في ذي الحجة، وتزوج الأشرف أخت نور الدين، وهي الأتابكية بنت عز الدين مسعود صاحب التربة بجبل قاسيون.

وفيها: تمكن ناصر الدين ابن أرتق بقلعة ماردين، وقتل زوج أمه نظام الدين الذي كان قد قهره واستولى عليه.

وفيها: حج بالناس من العراق طاشتكين.

وفيها توفي الحافظ أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الجماعلي، ولد بجماعيل قرية من أعمال نابلس في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة في ربيع الآخر، وكان أكبر من الموفق عبد الله ابن أحمد بأربعة أشهر لأن مولد الموفق في شعبان من سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، والموفق ابن عمه الحافظ.

قرأ عبد الغني القرآن وسمع الحديث الكثير، وسافر إلى الأمصار، وكتب كثيرا، وصنف، وقدم بغداد هو والموفق في سنة ستين أو إحدى وستين في السنة التي توفي فيها الشيخ عبد القادر، فنزلا في مدرسته، وما كان يمكن أحدا من النزول بها، ولكنه لما رآهما تفرس فيهما الخير

والصلاح فأكرمهما وسمعا عليه، ثم توفي الشيخ عبد القادر بعد قدومهما بخمسين ليلة، وكان ميل عبد الغني إلى الحديث والموفق إلى الفقه، فاشتغلا في الفقه على أبي الفتح ابن المنى، ثم قدما دمشق بعد أربع سنين، وسافر عبد الغني إلى مصر والاسكندرية ثم عاد إلى دمشق ونزل إلى الجزيرة وسمع بها وعاد إلى بغداد ثم رحل إلى أصبهان فسمع بها ثم عاد إلى دمشق، وكان لما دخل أصبهان وقف على كتاب أبي نعيم الحافظ في معرفة الصحابة، فأخذ عليه في مائة وتسعين موضعا فطلبه بنو الخجندي ليقتلوه، فاختلفوا وخرج من أصبهان في إزار، ولما دخل الموصل قرأ كتاب الجرح والتعديل للعقيلي، وفيه جرح أبي حنيفة، فثار عليه الحنفية وحسوه ولولا البرهان البرلي الواعظ خلصه لقتلوه، فإنه قطع الكراسي التي فيها ذكر أبي حنيفة ففتشوا على اسم أبي حنيفة فلم يجدوه فأطلقوه (فخرج منها خائفا يترقب)^(٢٤) فلما قدم دمشق كان يقرأ الحديث بعد صلاة الجمعة بحلقة الحنابلة، ويجتمع الناس إليه فحصل له قبول، وكان رقيق القلب سريع الدمعة فحسدة الدماشقة ودخلوا عليه بطريق الناصح ابن الحنبلي فحسنوا له أن يعظ بعد الصلاة تحت قبة السر، ففعل فشوش على عبد الغني الدولعي، وجماعة من الدماشقة، وصعدوا إلى القلعة وواليها صارم الدين بزغش فقالوا: هذا قد أضل الناس ويقول بالتشبيه فعقدوا له مجلسا وأحضره، فناظرهم فأخذوا عليه مواضع، منها: « ولأنزه تنزيها ينفي حقيقة النزول ».

ومنها قوله: « كان الله ولا مكان وليس هو اليوم على ما كان » ومنها: مسألة « الصوت والحرف » فقالوا له: إذا لم يكن على ما كان فقد أثبت له المكان، وإذا لم تنزهه تنزيها ينفي حقيقة النزول فقد أجزت عليه الانتقال، وأما الحرف والصوت فإنه لم يصح عن إمامك الذي تنتمي إليه فيه شيء، وإنما المنقول عنه أنه كلام الله لا غير، وارتفعت الأصوات، فقال له صارم الدين: كل هؤلاء على ضلالة وأنت على الحق؟ قال: نعم، فأمر

الأمراء فنزلوا إلى جامع دمشق فكسروا منبر عبد الغني وما كان في حلقة الحنابلة من الدرازينات ومنعواهم من الصلاة، ففاتهم صلاة الظهر، فجمع الناصح ابن الحنبلي السوقة وقال لئن لم نرجع إلى مكاننا فعلنا وصنعنا، فأذن لهم القاضي في ذلك وخرج عبد الغني إلى بعلبك، ثم سافر إلى مصر، فنزل عند الطحانين وصار يقرأ الحديث، فأفتى فقهاء مصر بإباحة دمه، وكتب أهل مصر إلى الصفي ابن شكر وزير العادل يقولون: قد أفسد عقائد الناس ويذكر التجسيم على رؤوس الأشهاد، فكتب إلى والي مصر بنفيه إلى المغرب، فمات قبل وصول الكتاب، وكانت وفاته بمسجد المصنع يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الأول، ودفن بالقرافة عند الشيخ أبي عمر بن مرزوق، وكان إذا اجتاز بذلك المكان يقول: روعي ترتاح إلى ههنا فدفن فيه.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: وكان زاهدا عابدا ورعا يصلي كل يوم ليلة ثلاثمائة ركعة — ورد أحمد بن حنبل — ويقوم الليل وعامة دهره صائم، وما دخر شيئا قط، وكان جوادا سمحا إذا فتح بشيء من الدنيا حمله بالليل إلى أبواب الأرامل واليتامى، فألقاه إليهم ومضى لئلا يعرفوه، وكان يرقع ثوبه يمينه وكان قد ضعف بصره من كثرة المطالعة والبكاء، وكان أوحده زمانه في علم الحديث، سمع بأصبهان الحافظ أبا موسى محمد بن عمر المديني وغيره، وبيغداد عبد الله بن النقور، ويحيى ابن ثابت بن بندار وغيرهما، ودمشق أبا المكارم عبد الواحد بن المسلم ابن هلال وغيره، وبمصر عبد الله بن بري النحوي وغيره وبالاسكندرية أبا طاهر السلفي الحافظ وغيره، وسأله السلفي يوما: من هو محمد بن عبد الرحمن الذهبي؟ فقال له: المخلص. وكان له ثلاثة أولاد محمد، وعبد الله، وعبد الرحمن، سيأتي ذكرهم إن شاء الله تعالى. وله مصنفات كثيرة منها الكمال، في معرفة رجال الصحيحين وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه في نحو عشر مجلدات.

قلت وفيها: توفي الحافظ بهاء الدين أبو محمد القاسم بن الحافظ الأكبر أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن عبد الله بن الحسين المعروف بابن عساكر، ودفن على أبيه بمقبرة باب الصغير خارج الحظيرة التي فيها قبر معاوية وغيره من الصحابة رضي الله عنهم من جهة الشرق، وكان قد شارك أباه في أكثر شيوخه سماعاً فأجازه.

صنف عدة مصنفات، وخلف أباه في القيام بهذا الشأن وإظهار كتب أبيه وإسماعها بالجامع ودار الحديث النورية، وبيض تاريخ دمشق بخطه في ثمانين مجلداً، ورحل إلى مصر وأسمع بها، وكانت وفاته يوم الخميس ثامن صفر، ودفن بعد العصر ولي منه إجازة رحمه الله تعالى.

وفيها: يوم الجمعة العشرين من ربيع الآخر توفي، إمام الملك الناصر ضياء الدين أبو بكر محمد بن يوسف بن أبي بكر الأملي الطبري المقرئ، المعروف بخواجه إمام، سمع الحافظ أبا العلاء الهمداني وغيره واعتنى بكتب القراءات سماعاً ونسخاً، وفي خطه كثير من تصحيف وتحريف، ودفن بعد الصلاة في الجبل رحمه الله.

وفيها: قدم بغداد أبو الفتوح بن أبي نصر الغزنوي رسولا من صاحب غزنة، وجلس بباب بدر وقال: يا أهل بغداد هنيئاً لكم أنتم تحظون بأمر المؤمنين، ونحن محرومون، وتشاهدون سدة سيادته، ونحن محجوبون وأنشد متمثلاً:

الأقل لسكان وادي العقيق
هنيئاً لكم في الجنان الخلود
افيضوا علينا من الماء فيضاً
فنحن عطاش وأنتم ورود

وكان يمكنه أن يصرح بمراده فيقول:

الأقل لسكان دار السلام

ولكنه أتى به على لفظه ليعلم إنه تمثل به.

وأول هذه السنة سافر الشيخ شمس الدين أبو المظفر يوسف سبط ابن الجوزي الواعظ رحمه الله من بغداد إلى الشام، وقد ذكر صفة تنقله في البلاد في تاريخه الذي سماه «مرآة الزمان» فقال: في أول هذه السنة سافرت عن بغداد إلى الشام، وهي أول رحلتي فاجتزت بدقوقا، فجلست بها. يعني عقد مجلس الوعظ، قال: وبها خطيبها الحجة وكان يعظ بها، ثم قدمت إربل، فاجتمعت بشيخ فاضل كيس ظريف يقال له محيي الدين الشاتاني فأنشدني مقطعات لغيره وهذه الأبيات منها:

رحمت أسود هذا الخال حين بدا

في حمرة الخدم مرميا بإبصار

كأنه بعض عباد المجوس وقد

ألقى بمهجته في لجة النار

وجلست بإربل، ثم قدمت الموصل، وجلست بها، وحصل لي القبول التام، بحيث أن الناس كانوا ينامون ليلة المجلس في الجامع من كثرة الزحام، وأدركت بها جماعة من العلماء، فسمعت النقورية على أبي طاهر أحمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد الطوسي الخطيب وغيره، ثم قدمت حران فجلست بها وسمعت الخطيب فخر الدين ابن تيمية وابن الطباخ وعبد القادر الرهاوي وغيرهم، ثم قدمت منها إلى حلب وجلست بها وسمعت شمائل النبي صلى الله عليه وسلم من الافتخار، وأسباب النزول من عبد الرحمن ابن الأستاذ وغيرهما، ثم قدمت دمشق فنزلت بقاسيون عند المقادسة وجلست به، وبجامع دمشق فكانت مجالسي والله الحمد والله مثل غدوات الجنة، ثم زرت بيت المقدس وجلست به وقبر الخليل عليه السلام وعدت إلى قاسيون فأقامت به إلى سنة ثلاث وستمئة، ورجعت إلى حلب.

قال: وصحبت الشيخ أبا عمر شيخ المقادسة، وشاهدت منه الزهد في الدنيا والورع والفضل والتواضع، ومن أخيه الموفق ونسيبه العباد وهو أخو الحافظ عبد الغني ما يرويه عن الصحابة والأولياء الأفراد فأنساني حالهم أهلي وأوطاني، ثم عدت إليهم بعد ذلك على نية الإقامة عسى أن أكون معهم في دار المقامة.

قال: وحضر مجلسي بجامع دمشق في سنة عشر وستائة القضاة والأشراف والأعيان، والملك المعظم عيسى بن العادل رحمه الله وشيوخنا جمال الدين الحصري، وتاج الدين الكندي، والقاضي شمس الدين بن الشيرازي، والقاضي شمس الدين بن سني الدولة، وكان مجلسا عظيما احتوى على عشرة آلاف وزيادة على باب مشهد علي، وكان بدمشق قارئان أحدهما يقال له النجيب البغدادي، والآخر يقال له الشرف بن مي صوته مزعج، وكان النجيب إذا قرأ أطربنا وابن مي إذا قرأ ينغصنا، فحكيت للجماعة أن جدي رحمه الله قرأ بين يديه قارئان فأطربا الجمع فأنشد:

ألا يا حامي بطن نعمان هجتما
على الهوى لما تغنيتمالي
ألا أيها القمر يتران تجاوبا
بلحنكما ثم اسجعا لي علانيا

قال: وقرأ بين يديه قارئ حسن الصوت فأطرب الجماعة، ثم قرأ بعده آخر مزعج الصوت فنغص الجماعة، فقال جدي: كان لبعضهم جاريتان مغنيتان إحداهما تغني طيبا، والأخرى مزعجا، فكان إذا غنت الطيبة الصوت يمزق ثيابه، وإذا غنت القبيحة الصوت يقعد يخيظ مامزق، فحكيت للجماعة حكاية الجاريتين المغنيتين، وكان الشيخ الكندي قاعدا في القبة التي في وسط المجلس، فقال: يا بني كلنا اليوم نخيظ.

قلت: كانت مجالس الوعظ التي للمذكور من محاسن الدنيا ولذاتها، فكان الله قد جمع له حسن الصورة وطيب الصوت، وظرافة الشئائل في الإيراد والجوابات واللباس وسائر الحركات، فكان يزدحم في مجلسه مالا يحصى من الخلق رجالا ونساء، والنساء بمعزل عن الرجال في جامع دمشق، وجامع الجبل حضرت مجالسه في صغري وكبري في الموضعين مرارا، وكان لا يفارق أحد مجلسه إذا انفض إلا وشوقه مستمر إلى عودته في الأسبوع الآخر، فإنه كان يجلس كل سبت، وتبسط السجادات والحصر، والبسط في كل المواضع القرية من المنبر ما بينه وبين القبة في يوم الجمعة، ويبعث الناس ليلة كل سبت حلقا يقرؤون القرآن بالشموع كل ذلك فرحا بالمجلس مسابقة إلى الأماكن، وعادة الدمشقيين التفرج في أيام السبت، ويطلقون عن أشغالهم بالمدينة وينقطعون في بساتينهم، وكانوا لا يفوتون حضور المجلس، ثم ينصرفون منه إلى فرجهم فلا ينقضي يومهم إلا بالتذاكر لما وقع فيه من المحاسن وأنشاد الأشعار والتحدث بمن أسلم فيه أو تاب، وإيراد ما كان فيه من سؤال وجواب، ولم يزل على ذلك مدة سنين، ثم اقتصر على المجلس في الأشهر الثلاثة: رجب وشعبان ورمضان كل سبت، فانقطع بمنزله عند ترتبه بالجبل إلى أن توفي سنة أربع وخمسين وستائة، وسنعود لذكره في سنة وفاته إن شاء الله تعالى.

قال أبو المظفر: ولما أردت فراق دمشق في سنة ثلاث وستائة قاصدا حلب، جلست بقاسيون وودعت الناس فلم يتخلف بدمشق إلا القليل، وامتلا جامع الجبل بالناس فصاحوا علينا من الشبايبك والأبواب: لا، لا، يعنون قوموا فاخرجوا، فخرجنا إلى المصلى وكان شيخنا تاج الدين الكندي حاضرا، فلما خرج من الباب زحموه فانكشف رأسه ووقعت عمامته فعز علي وسألته أن يمضي إلى دمشق ولا يحضر في المصلى، فامتنع وقال: لا والله حتى يتم المجلس وتاب في ذلك اليوم زيادة على خمسمائة شاب، وقطعوا شعورهم، وكان سيف الدين بن تميرك حاضرا، وجرى

الكلام في المغناطيس، وأنه يعشق الحديد قلت والخبازي^(٢٦) تعشق الشمس، ولهذا كلما مالت الشمس إلى جهة مال الخبازي إليها فصاح سيف الدين بن تيمرك: يامولاي شمس كلنا اليوم خبازي.

قال العز ابن^(٢٧) تاج الأمناء:

وفيها: احترقت خزانة السلاح لحامية دمشق التي تعمل النشاب، وذهب جميع ما فيها ليلة الاثنين خامس جمادى الآخرة.

وفي سابع عشري رمضان توجه أسطول الفرنج من عكا عشرون قطعة، ودخل يوم العيد من فم رشيد إلى قرية فوة من عمل الديار المصرية ونهبها، وأقام بنواحيها يومين، ثم خرج من حيث دخل غانما سالما، ولم يسمع أن أحدا أقدم على هذا الفعل منذ فتوح الديار المصرية، ثم في سنة تسع وستمئة دخلوا من فم دمياط إلى قرية بورة ففعلوا نحو ذلك، وسيأتي ذكره.

وفي هذه السنة أخذت العملة المشهورة من مخزن أيتام سيف الدولة ابن السلار بن بختيار من قيسارية الفرش بدمشق، ومبلغها ستة عشر ألف دينار مصرية، ومصاغ، وبقيت سنين إلى أن ظهرت، واعتقل بسببها خلق كثير، ومات منهم جماعة ثم ظهرت على المعروف بابن الدخينة.

وفيها: قتل الفقيه القزويني الزاهد بيباب الكلاسة من جامع دمشق، حالة خروجه إلى زيارة القدس بيد اسماعيلي واجهه يظهر أنه يصفاحه، وضربه بسكين في خاصرته، وانحرف عنه منهزما فوق القزويني إلى الأرض وحمله أصحابه إلى داخل الكلاسة فمات في وقتة، ودفن بمقابر الصوفية على الشرف القبلي، وأما القاتل فإن بعض أصحاب القزويني لحقه إلى الزيادة فتناول عصا أعمى وأدخلها بين رجلية فوقه، وركبه

- ٩٠٧٢ -

وأخذ السكين من يده، واجتمع الناس يضربون العجمي ظنا أنه
الاسماعيلي، وكادوا يفلتون الاسماعيلي منه ثم عرفوا القصة، فأوثقوا أكتاف
القتال، وحملوه إلى المعتمد فحمل إلى السجن فأقام به إلى أن عرض له
مرض، وحمل إلى البيمارستان فهلك.

ثم دخلت

سنة إحدى وستائة

ففي جمادى الآخرة، وقيل الأولى عزل الخليفة الناصر ولده أبا نصر محمدا، عدة الدنيا والدين عن ولاية العهد، بعد أن دعي له بذلك على المنابر سبعة عشر عاما، ومال إلى ولده علي ورشحه للخلافة فاخترم في إبان شبابه، فألجأت الضرورة إلى أن رجع الحق إلى نصابه، فعهد إلى أبي نصر فتولى بعهدده ولقب بالظاهر، كما سيأتي، وأما صورة العزل فإنه أُلجئ إلى أن كتب خطه مما سذكروه.

قال أبو المظفر: اجتمع أرباب الدولة في دار الوزير ابن مهدي، والقضاة والعلماء والفقهاء والأمراء، وأخرج الوزير رقعة خط ولي العهد إلى والده مضمونها أنه حين ولاه العهد، لم يكن يعلم مايجب عليه فيه، ولا قدر ذلك، وأنه يسأل أباه إقالته وعزله، وأنه لا يصلح لذلك، وشهد عليه أبو منصور بن سعيد ابن الرزاز، وأبو أحمد بن زهير العدلان بذلك، وأن الخليفة أقاله، وأنشأ محمد بن محمد القمي الذي ناب في الوزارة وعزل في أيام المستنصر، وكتب المكين كتابا يقول فيه:

« أما بعد: فإن أمير المؤمنين كان قد قلد ولده أبا نصر محمدا ولاية العهد في المسلمين، ورشحه بعده لإمرة المؤمنين، وألقى عليه هذا القول الثقيل، ونهج له من مرشد الدنيا والدين أوضح سبيل، مؤملا فيه الاستقلال بأعبائه، والإتيان بما يبين عن اضطباعه وغنائه، والتخلق بأخلاقه التي هي من أخلاق الباري مكتسبة، وعلى التقوى مؤسسة، فلما أن أوان تكامل رشده، وبلغ المبلغ الذي أمل فيه سداد رأيه وقصده، رأى من نفسه القصور عن التزام شروط الخلافة، ومايجب عليه من الرحمة

للأمة والرافة، فأقر بالعجز عن تأدية حق الأمة في أمره، وأشهد عليه أنه لا يصلح لها فيما مضى ولا فيما بقي من عمره، وخلع نفسه مما كان أمير المؤمنين فوضه إليه، واعتمد فيه عليه، ولم يسع الخليفة إلا استخارة الله تعالى في إقالته، وطلب رضاه في حل عقدة ولايته، فأسقط اسمه من السكك والمنابر والأقلام والمحابر، ولما خلعه لم ير أن يعين أحدا ليلقى الله بدمته يوما من الأيام غير متعلقة بوزر يخص الخاص ويعم العام، وقد وافق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث جعلها شورى في الستة المذكورين. من أعيان المهاجرين، ولما قال له عبد الله ابنه: ما يمنعك أن تعين من تراه أهلا؟ فقال: لا والله لا أتحميلها حيا وميتا» وذكر القمي كلاما طويلا، وكتب نسخا إلى الأطراف، وحج خالي أبو محمد يوسف في هذا العام وقرأ الكتاب بمكة عند البيت المحرم وبالمدينة عند قبر النبي عليه أفضل الصلاة والسلام.

قال: وفي جمادى الآخرة عقيب هذه الواقعة وقع حريق بدار الخلافة لم يجر في الدنيا مثله، فتحت أبواب الدار بالليل، وركب الوزير ابن مهدي وأرباب الدولة إلى خزانة السلاح فرأوا النار قد لعبت فيها، واجتمع جميع من ببغداد من السقائين، والفراشين، بالقرب، والروايا، والصناع والفعلة وأقاموا يوما وليلة يقلبون الماء على النار وهي تزداد فاحترق جميع ما كان في الخزانة من السلاح، والأمتعة، والقسي، والنشاب، والرماح، والجروح، والسيوف، والجواشن، والزرديات، وقدور النفط، والخوذ المرصعة بالجواهر، واليواقيت، وعملت النار وساعدها الهواء ودبت إلى الدور والتاج، والدار البيضاء، فخرج الخليفة منها إلى دجلة، واحترقت خزانة فيها رأس البساسيري، وطغريل وغيرهما، ويقال إن قيمة ما ذهب ثلاثة آلاف ألف دينار وسبعمئة ألف دينار، وكان في ذلك عبرة لمن اعتبر، وفكرة لمن افكر.

قال وفيها: جاءت الفرنج إلى حماة بغتة، وأخذوا النساء الغسلات من

باب البلد على العاصي، وخرج اليهم الملك المنصور بن تقي الدين وثبت وأبلى بلاء حسنا، وكسر الفرنج عسكره، ووقف في الساقة من الرقيطا إلى باب حماة، وامتلات أيديهم بالمكاسب وأسروا من حماة شهاب الدين أحمد بن شداد البلاعي، من قرية بلاعة وكان فقيها شجاعا متولى حماة مرة، وسلمية أخرى، وحمل إلى طرابلس، فهرب وتعلق بجبال بعلبك. ووصل إلى حماة سالما، ولولا وقوفه ما أبقوا من المسلمين احدا، وحج بالناس من العراق وجه السبع، ومن الشام صارم الدين بزغش العادلي والي قلعة دمشق، وزين الدين قراجا صاحب صرخد وغيرهم.

قال وفيها: توفي عبد المنعم بن علي بن الصقلي أبو محمد الحراني، ولقبه: نجم الدين، قدم بغداد أول مرة في سنة ثمان وسبعين وخمسائة، وتفقه على أبي الفتح ابن المنى، وسمع الحديث الكثير من أبي الفتح ابن شاتيل، وأبي السعادات بن رزيق، وجدي رحمه الله وغيرهم، وعاد إلى حران ووعظ بها وحصل له القبول التام، فاستشعر منه الفخر محمد بن تيمية خطيب حران، وخاف أن يتقدم، فلما رأى النجم ذلك عاد إلى بغداد ووعظ بها، وحضرت مجالسه بمسجد باب المشرعة، وكان يقصد التجانس في كلامه وسمعه ينشد:

وأشتاكم يا أهل ودي وبيننا
كما حكم البين المشت فراسخ
فأما الكرى عن ناظري فمشرد
وأما هو اكم في فؤادي فراسخ

وكان صالحا ديننا نزها عفيفا كيسا لطيفا متواضعا كثير الحياء، وكان يزور جدي بالنظامية، ويسمع معنا الحديث، وكانت وفاته يوم الخميس سادس عشر ربيع الأول، وصلي عليه بالنظامية ودفن بباب حرب، وخلف ولدين: النجيب عبد الله، والعز عبد العزيز صارا تاجرين لديوان الخلافة.

وفيها: توفي محمد بن سعد الله بن نصر أبو نصر بن الدجاجي الواعظ
الحنبلي في ربيع الأول، ودفن بباب حرب ومولده سنة أربع وخمسمائة
سمع أبا منصور القزاز وغيره، وأنشد لنفسه:
نفس الفتى إن أصلحت أحوالها
كانت إلى نيل التقى أحوى لها
وإن تراها سددت أقوالها
كان على حمل العلى أقوى لها
فلو تبدت حال من لهاها
في قبره عندها لهاها

قال العز بن تاج الأمناء: وفي شهور هذه السنة الأواخر تغلبت طائفة من الفرنج البحرية، يعرفون بالبنادقة على قسطنطينية، وأخرجوا الروم منها بعد حصر وقتال، وحازوا مملكته، وانتهبوا ذخائرها، وما حوته كنائسها من آلات ورخام، وحملوه إلى الديار المصرية، والشامية فبيع، ووصل منه إلى دمشق رخام كثير، وكان سامة يعمر داره فحصل له منه شيء لم يكن قبله مثله، وزخرفها.

قلت: هي الدار التي جعلها البازارئي رسول الخليفة مدرسة للشافعة.

قال وفيها: توفي العدل أبو محمد المعروف بعدل الزبداني سابع عشر
المحرم بدمشق (٢٨).

وفيها: توفي القاضي محيي الدين بن عصرون في أول ربيع الأول
بدمشق.

وفيها: توفي الأمير علم الدين كرجي الأسدي بدمشق، ثالث عشر

ربيع الآخر وصلى العادل عليه بمرج باب الحديد ودفن بالجبل، ووصل
الخبر بموت بوزبا التقوي غريقا ببلاد المغرب في خدمة ابن عبد المؤمن.

وفيها: قتل قاضي دارا ظاهر حلب بالمنزلة المعروفة في السعدي في
أواخر ذي القعدة.

وفيها: في ربيع الآخر توفي الشاعر الحلي علي بن الحسن الملقب
بشميم، وكان قليل الدين ذا حماقة ورقاعة، وله حماسة ورسائل، وقال
أقمت مدة آكل في يوم شيئا من الطين وضعته أشتمه فلا أجد له رائحة
فسميت لذلك شميا ذكره ابن المستوفي في تاريخ إربل.

ثم دخلت سنة اثنتين وستمئة

فيها: استوزر الخليفة نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي الحسني، وخلع عليه خلعة الوزارة القميص والدراعة، والعمامة، والسيف، وخرج من باب الحجر، فقدم له فرس من خيل الخليفة وبين يديه دواة عليها ألف مثقال، ووراء المهد الأصغر، وألوية الحمد، وطبول النوبة والكوسات تخفق، والعهد منشور بين يديه، وجميع أرباب الدولة مشاة بين يديه، وضرب الطبول والبوقات له بالرحبة في أوقات الصلاة الثلاث: المغرب، والعشاء الآخرة، والفجر.

وفيها: هرب أبو جعفر محمد بن حديدة الوزير الأنصاري من دار الوزير ابن مهدي، وكان محبوسا بدرب المطبخ عند ابن مهدي ليعذبه، فخلق ابن حديدة رأسه ولحيته، وخرج فلم يظهر خبره إلا من مراغة بعد مدة وعاد إلى بغداد.

وفيها: توجه ناصر الدين صاحب ماردين إلى خلاط، بمكاتبة أهلها، فجاء الملك الأشرف فنزل على دنيسر، وأقطع بلد ماردين فعاد ناصر الدين إلى بلده، بعد أن غرم مائة ألف دينار، ولم يسلموا إليه خلاط.

وفيها: أغار ابن لاون على بلد حلب، وأخذ الجشار من نواحي حارم، فبعث الملك الظاهر بن صلاح الدين ميمون القصري، وأيبك فطيس، وحسام الدين بن أمير تركمان فنزلوا على حارم فقالوا لميمون: نحن على حذر فتهاون، فكبسهم ابن لاون فقتل جماعة من المسلمين وثبت أيبك فطيس، وابن أمير تركمان فقاتلا شديدا ولولاهما لأخذ ميمون، وبلغ الظاهر فخرج من حلب فنزل مرج دابق، وجاء إلى حارم فهرب ابن لاون إلى بلاده، وكان قد بنى قلعة فوق دريساك، فأخربها الظاهر وعاد إلى حلب.

وفيها: حج بالناس من العراق وجه السبع، ومن الشام الشجاع علي ابن السلال.

قلت: كذا قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي فيما نقلته من خطه (٢٩) وقد نقلت من خط محمد بن تاج الأمناء قال: وفي التاسع والعشرين من رمضان سنة اثنتين وستمئة نادوا الحج على إيلة صحبة ابن الخزاعي.

وفيها: توفي طاشتكين بن عبد الله المقتفوي أمير الحاج، ولقبه فخر الدين، حج بالناس ستا وعشرين سنة، وكان في طريق الحج مثل الملوك، فقصده ابن يونس الوزير وقال للخليفة: إنه يكتاب صلاح الدين وزور عليه كتابا فحبسه مدة، ثم تبين له أنه بريء من ذلك فأطلقه وأعطاه خورستان، ثم أعاده إلى إمرة الحج، وكانت الحلة السيفية اقطاعة، وكان سمحا، جوادا، شجاعا، قليل الكلام، يمضي عليه الأسبوع ولا يتكلم، استغاث إليه رجل يوما فلم يكلمه، فقال الرجل: الله كلم موسى، فقال: وأنت. فقال الرجل: وأنت الله. ففضى حاجته، وكان حليما التقاه رجل فاستغاث إليه من نوابه فلم يجبه، فقال له الرجل: أحمار أنت؟ فقال طاشتكين: لا، وفي قلة كلامه يقول سبط ابن التعاويذي:

وأمر على البلاد مولى
لا يجيب الشاكي بغير السكوت
كلما زاد رفعة حط الله
بتغفيله إلى البهموت (٣٠)

وقام يوما إلى الوضوء فحل حياصته وتركها موضعه ودخل ليتوضأ وكانت الحياصة تساوي خمسمائة دينار فسرقتها الفراش وهو يشاهده. فلما خرج طلبها فلم يجدها، فقال استاذ داره: اجمعوا الفراشين واحضروا

المعاصير، فقال له طاشكتين: لاتضرب أحدا فإن الذي أخذها مايردها، والذي رآه ما يغمز عليه، فلما كان بعد مدة رأى على الفراش الذي سرق الحياصة ثيابا جميلة، وبزة ظاهرة فاستدعاه سرا وقال له بحياتي هذه من ذيك؟ فحجل، فقال: لابس عليك فاعترف فلم يعارضه، وكان طاشكتين قد جاوز تسعين سنة فاستأجر أرضا وقفا ثلاثمائة سنة على جانب دجلة ليعمرها دارا، وكان ببغداد رجل يحدث في الخلق يقال له فتيحة المحدث، فقال: يا أصحابنا نهنيكم مات ملك الموت، قالوا: وكيف؟ قال: طاشكتين عمره مقدار تسعين سنة وقد استأجر أرضا ثلاثمائة سنة فلو لم يعلم إن ملك الموت قد مات ما فعل هذا فتضحك الناس، وكانت وفاته بتستر^(٣١) وأوصى بأن يحمل إلى مشهد أمير المؤمنين علي، فحمل في تابوت فدفن فيه.

وفيها: توفي الاخوان مسعود وممدود أبناء الحاجب مبارك بن عبد الله، فمسعود لقبه سعد الدين، وكان صاحب صفد، وممدود لقبه بدر الدين وكان شحنة دمشق، وأمهما أم فرخشاہ بن شاهنشاه بن أيوب صاحب دار السعادة، وأصل أمهم من المنيطرة، وفرخشاہ أخوهما لأُمهما وأختهما لأُمهما ست عذراء صاحبة المدرسة المجاورة لدار السعادة وبها تربتها وكانت دارها، وأما أخوها مسعود فداره هي المجاورة لرباط زهرة خاتون قريب حمام جاروخ هي الآن لجمال الدين موسى بن يغمور، وأما ممدود فداره بحارة البلاطة هي الآن لنجم الدين بن الجوعي، وكان مسعود وممدود أميرين كبيرين لهما مواقف كثيرة مع صلاح الدين، وتقدمت وفاة ممدود على وفاة أخيه بشهر واحد، فإنه مات بداره بدمشق يوم الأحد خامس شهر رمضان، وتوفي مسعود بصفد يوم الإثنين خامس شوال.

وفيها: توفي أبو يعلى حمزة بن علي بن حمزة الحراني المقرئ، ويعرف بابن القبيطي، ولد سنة أربع وعشرين وخمسمائة ببغداد، وقرأ القرآن بالروايات على الشيخ أبي منصور الخياط وغيره، وسمع الحديث وكان

حسن الصوت بالقراءة يصلي إماما بالمسجد الذي بجانب البدرية، وكان الناس في ليالي شهر رمضان يأتون إليه من أقطار بغداد يستمعون قراءته، وكانت وفاته في ذي الحجة وصلي عليه بالنظامية، ودفن بباب حرب، سمع أبا الكرم ابن الشهرزوري، وإبراهيم بن نبهان الرقي، وسعد الخير الأنصاري، وأبا الفضل الأرموي وغيرهم، وكان صالحا، عفيفا، زاهدا ثقة.

ونقلت من خط العز بن محمد تاج الأمناء: أبو الفضل أحمد بن محمد ابن الحسن قال: يوم الجمعة العشرين من ربيع الأول توفيت أم المعظم ودفنت بالجبل، قلت: يعني بالقبة التي في المدرسة المعروفة بالمعظمية، وفي تلك القبة معها أبناء المعظم عيسى، والعزيز عثمان أبناء الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وأخوهما المتوفى قبلهما الملك المغيث عمر بن العادل.

قال: وفي رابع عشر جمادى الآخرة توفي الفقيه شرف الدين أبو الحسن علي بن محمد بن علي جمال الاسلام بن الشهرزوري بمدينة حمص، كان قد سكنها منذ أخرج من دمشق.

قلت: وكان مدرس المدرسة الأمنية والزاوية المقابلة لباب البرادة بالجامع، وكان عالما بالمذهب والخلاف، ماهرا في ذلك.

قال: وفي شعبان هدموا قنطرة الباب الشرقي الرومية لينشر حجارتها بلاطا لصحن الجامع، وفرغ منه في رمضان سنة أربع وستائة، وفي أول شوال غيروا من قبة الجامع عدة أضلاع من شالها.

وفي خامس عشر توفي مسعود الحبشي الزاهد، ودفن بالجبل، وفي يوم الخميس سابع ذي القعدة وجد التقي الأعمى مشنوقا بالمئذنة الغربية.

قلت: هذا التقي اسمه عيسى بن يوسف بن أحمد الغرافي، ولد

بالغراف من أرض العراق، وكان ضريرا عفيفا. فقيها مفتيا شافعيًا مدرسا بالمدرسة الأمينية خارج باب الجامع القبلي، وكان يسكن في أحد بيوت منارة الجامع الغربية، وكان ابتلي بأخذ مال له من بيته واتهم به شخصا كان يقرأ عليه ويطلع معه إلى البيت يقضي حاجته، ويقوده من المدرسة إلى البيت، ومن البيت إلى المدرسة فأنكر الشخص المتهم ذلك، وتعصبت له أقوام عند والي البلد، فوقع الناس في عرضه من اتهامه من ليس من أهل التهم، ومن كونه جمع ذلك المال وهو وحيد غريب، ونسبوه إلى أنه غير صادق فيما أدعاه فزاد عليه الهم من ضياع ماله والوقوع في عرضه، ففعل بنفسه مافعل، وقد وقع مثل هذا الجماعة وفعلوا فعله، وجرى لي أخت هذه القضية وعصمني الله سبحانه بفضله، وبلغني أن جماعة من المتفقهة امتنعوا من الصلاة عليه، وقالوا: قتل نفسه، فتقدم شيخنا فخر الدين أبو منصور عبد الرحمن بن عساكر فصلى عليه، فاقتدى الناس به رحمهم الله، ودرس بالمدرسة الأمينية بعده الجمال المصري وكيل بيت المال، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وفي ثامن عشر ذي القعدة توفي الفقيه جامع المغربي، والد العلاء محمد بن جامع ودفن من الغد بالجبل، وتربته مشهورة على الطريق وكان يتولى عقود الأنكحة، وسمع من الحافظ الكبير أبي القاسم وغيره رحمه الله.

ثم دخلت سنة ثلاث وستمائة

ففيها: فارق وجه السبع (٣٢) حاج العراق وقصد الشام، وكان في الحاج العراقي جماعة من الأعيان فبكوا وضجوا وسألوه فقال: مولاي أمير المؤمنين محسن إلي وما أشكو إلا من الوزير ابن مهدي فإنه يقصدني لقربي من مولاي، وما عن الروح عوض، وسار إلى الشام ودخل الحاج بغداد وعليهم وحشة وكآبة، وأمر الخليفة أن لا يخرج الموكب إلى لقائهم، ولا يخرج إليهم أحد، وأدخل الكوس والعلم والمهد في الليل، فأقام الخليفة حزينا أياما، وأما وجه السبع فوصل إلى دمشق فالتقاه العادل وأولاده، وخدموه، وأحسنوا إليه.

وفيها: ولي الخليفة عماد الدين أبا القاسم عبد الله بن الدامغاني قضاء القضاء ببغداد، فاستتاب أبا الفتح محمد بن المندائي الواسطي في القضاء بواسط.

وفيها: قبض الخليفة على الركن عبد السلام بن عبد الوهاب ابن: الشيخ عبد القادر الذي أحرقت كتبه في الرحبة، فاستأصله وأصبح يطلب من الناس، وكان قد بلغه فسقه وفجوره، وكان عبد السلام المذكور هو الذي وشى بالشيخ أبي الفرج ابن الجوزي حتى نكب بما ذكرناه في سنة تسعين وخمسمائة.

قال أبو المظفر: لما قبض ابن يونس الوزير تتبع ابن القصاب أصحابه، فقال الركن عبد السلام بن عبد الوهاب: أين أنت من ابن الجوزي؟ هو من أكابر أصحاب ابن يونس وأعطي مدرسة جدي وأحرق كتبي بمشورته، وهو ناصبي من أولاد أبي بكر، وكان ابن

القصاب متشيعا، فكتب إلى الخليفة وساعده جماعة من أهل مذهبه ولبسوا على الخليفة، فأمر بتسليمه إلى عبد السلام.

قال سبط ابن الجوزي: وكان جدي يسكن بباب الأزج في دار بنفشا، وكان الزمان صيفا، وجدي رحمه الله جالس في السرداب يكتب، وأنا صبي صغير، وإذا عبد السلام قد هجم على جدي في السرداب فأسمعه غليظ الكلام، وختم على كتبه وداره، وشتت عياله وجرى عليهم ما لم يجر على أقل الناس، فلما كان أول الليل حملوا جدي إلى السفينة فأنزلوه فيها ونزل معه عبد السلام لاغير، وعلى جدي غلالة بغير سروال وعلى رأسه تحفيفة، وحدروه إلى واسط فاستوفى من جدي بالكلام وجدي لا يجيبه، فسبق عبد السلام إلى واسط وكان ناظرها العميد ابن امسينا، وكان متشيعا فقال له عبد السلام: حرس الله أيامك مكني من عدوي لأرميه في المطمورة، فعز عليه وزجره وقال: يازنديق أرمي ابن الجوزي في المطمورة بقولك، هات خط الخليفة، والله لو كان من أهل مذهبي لبذلت روحي ومالي في خدمته، فعاد عبد السلام إلى بغداد وكان إحراق كتبه في سنة ثمان وثمانين، وسببه أنه كان بين ابن يونس وبين أولاد الشيخ عبد القادر عداوة قديمة لأنه كان جارهم بباب الأزج في حال خوله وفقره، وكانوا يؤذونه بحيث أنهم ربوا كلبا ولقبوه جليل، يعنون جلال الدين، وهو لقب ابن يونس، وكان لابن يونس أخ صالح يقال له العماد فسموا بغلا للطحن العماد، وكان من ولد الشيخ عبد القادر لصلبه طحان اسمه سليمان، وكان أشرف خلق الله هو الذي فعل هذه الأفاعيل، فلما ولي ابن يونس الوزارة، ثم استاذية الدار، أظهر ما كان في قلبه منهم فبدد شملهم، وبعث بعضهم إلى المطامير إلى واسط فماتوا بها، وكان عبد السلام هذا مداخلًا للدولة، وكان عنده كتب كثيرة فبعث ابن يونس فكبس داره وأخرج منها كتب في فنون منها: الشفاء لابن سينا، والنجاة، ورسائل أخوان الصفا، وكتب الفلاسفة، والمنطق، وتبخير الكواكب، والنارنجيات، والسحر، فاستدعى ابن يونس، وهو يومئذ

أستاذ دار الخليفة، العلماء، الفقهاء، والقضاة، والأعيان، وكان جدي فيهم وقرىء في بعضها: «أيها الكوكب الفرد أنت تدبر الأفلاك وتحيي وتميت وأنت إلهنا» وفي حق المريخ من هذا الجنس، وكان عبد السلام حاضرا فقال له ابن يونس: هذا خطك؟ قال: نعم، قال: لم كتبه؟ قال: لأرد على قائله ومن يعتقده، فسأله فيه فقال: لا بد من تحريق الكتب، فلما كان يوم الجمعة ثاني عشر صفر جلس قاضي القضاة، والعلماء، وجدي معهم على سطح المسجد المجاور للجامع الخليفة وأضرموها تحت المسجد نارا عظيمة، وخرج الناس من الجامع فوقفوا على طبقاتهم والكتب على سطح المسجد بين أيديهم، فقام رجل يقال له ابن المارستانية فجعل يقرأ كتابا كتابا ويقول: العنوا من كتبه ومن يعتقده، فيصيح العوام باللعن، وعبد السلام حاضر وتعدى اللعن إلى الشيخ عبد القادر، وأحمد بن حنبل، وظهرت الأحقاد البدرية، وقال الخصوم أشعرا منها قول المذهب الرومي ساكن النظامية:

لي شعر أرق من دين ركن الد

ين عبد السلام لفظا ومعنى

زحلي ايشنا عليا ويهوى

آل حرب حقداء عليه وضعنا

منحته النجوم إذ رام سعدا

وسرورا نحسا وهما وحزنا

سار احراق كتبه سير شعري

في جميع الأقطار سهلا وحزنا

أيها الجاهل الذي جهل الحـ

ق ضلالا وضيع العمر غبنا

رمت جهلا من الكواكب بالتبخـ

ير غرافلنت ذلا وسجنا

ما زحيل وماعطارد والمر

يخ والمشتري ترى مامعنى

كل شيء يورى ويفنى سوى الـ
له فإنه ليس يفنى

ثم حكم القاضي بتفسيق عبد السلام، ورمى طيلسانه وولى جدي
مدرسة الشيخ عبد القادر فذكر الدرس بها في ربيع الأول.

وفيها: قدم البرهان محمد بن مازة البخاري، ويلقب بصدر جهان
حاجا إلى بغداد، وتلقاه جميع من ببغداد ماعدا الخليفة والوزير، وأنزل في
دار زبيدة على نهر عيسى، وحملت إليه الإقامات والضيافات، وكان معه
ثلاثمائة من الفقهاء والمتفقهة، وجرى له في حجه ماسنذكره في أول
السنة الآتية.

وفيها: نزلت الفرنج على حمص، وكان الظاهر بعث إليها المبارز
يوسف بن خلطخ الحلبي نجدة لأسد الدين الأصغر شيركوه الأصغر،
وأسر في هذه المرة الصمصام بن العلائي، وخادم صاحب حمص.

قال ابو المظفر وفيها: فارقت دمشق قاصدا حلب فوصلتها في ذي
الحجة، واجتمعت بالنقاش الحلبي الشاعر، واسمه مسعود بن أبي
الفضل أبو الفتح، ولقبه تاج الدين، مولده سنة أربعين وخمسمائة، وقدم
دمشق سنة تسع وستمائة وأنشد الجماعة قطعا من قصائده منها:

مالي سوى حبكم مذهب
ولالي إلى غيركم مذهب
ناشدتك الله نسيما الصبا
من أين هذا النفس الطيب
أودعت برداك وقت الضحى
مكان القت عقدها زينب
أم باسمت رياك روض الحمى
وذبلها من فوقه يسحب

فهاات اتحفنني بأخبارها
فعهـدك الآن بها أقرب

ومنها:

أي يـد عنـدي وأي منـه
للـركـب إن بشرني بهنـه
صاحوا الرحيل فظللـت والها
أنشـد قلبـي بين عيشهنـه
كأنني بالحي قد شدوا العرى
ليلهم وأرخـوا الأعنـه
وما سمعت قبل أن يرحلوا
بمطلع الشهب من الأسنـه
يا حادي الأظعان رب فرح
أحدثه طيب حديثهنـه
فاسلم وقل للراحلين أن يكن
بين فرقة باقتيلكن

ومنها قصيدة في صاحب بعلبك الأجد بن فرخشا:

زارو طرف النجم لم يرقـد
متزرمـن حسنـه مرتد
أحـور يحكي الخال في خـده
نقطة يد فوق وردنـد
يا حسنـه من زائر ما بدا
إلا وأنسى قمر الأسعد
ويا ضلالي فيه من بعد ما
يمرأ وجهه اهتدي
فيها لمن ليلة لم يفز
بمثلها الهادي ولا المهتدي

إذا جتلى في ليل أصل داغته
من وجهه شمس صباح الغد
وعاذل عنف فيه ومن
ينام البدن ولم يحسد
ظن خلاصي في يدي فاعتدى
وقال يهوى قاتلا لا يدي
فقلت لا تخرج سلوى فقد
خلعت سلواني على عودي
أهجر العيس لهجري له
وأخرج الفوز به عن يدي
وانثنى منه إلى هجره
لا وحياة الملك الأمجد (٣٣)

وفيها: توفي اسماعيل بن علي أبو محمد الخطيري، من حظيرة الدجيل،
كان أديبا فاضلا شاعرا أنشد لنفسه:

لا عالم يبقى ولا جاهل
ولانيبسه لا ولا خامل
على سبيل مهيع لاحب
يوري أخو اليقظة والغافل

وفيها: توفي عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر الجيلي، كان زاهدا
عابدا ورعا لم يكن في أولاد الشيخ مثله، ولد سنة ثمان وعشرين
 وخمسة، وسمع الحديث الكثير، وكان مقتنعا من الدنيا باليسير، وكانت
وفاته في شوال، ودفن بباب حرب، سمع أبا الكرم بن الشهرزوري
وطبقته، وكان صالحا ثقة لم يدخل فيما دخل فيه غيره من أخوته.

وفيها: في ربيع الأول توفي أبو منصور عبد الرحمن بن الحسين بن عبد
الله النعماني النيلي المعروف بالقاضي شريح، لقب بذلك لذكائه وفطنته،

وكان يتوقد ذكاء وفضلاً، كأنهم شبهوه بالقاضي شريح الأكبر الذي كان في زمن الصحابة رضي الله عنهم، ولي شريح هذا قضاء النيل مدة، ثم قدم بغداد، فندب إلى المراتب الكبار، فلم يدخل في شيء منها فرمى طاشتكين أمير الحاج نفسه عليه وسأله أن يكتب له فاستحيا منه وكتب له، فأقام عنده مدة عشرين سنة، فقصده الوزير ابن مهدي حسداً لفضله، وكان فاضلاً، مترسلاً بليغاً، جواداً، سمحاً حسن الصورة فصيح اللسان متواضعاً لطيفاً، يصلح للوزارة فلبس على الخليفة في أمره فحبسه في دار طاشتكين بدار الخليفة، ولم يقدر طاشتكين على الكلام فيه ومات طاشتكين وهو محبوس، ثم مات شريح بدار طاشتكين، فأخرج منها ميتاً فدفن بداره في القبيبات، ومن العجائب أن ابن مهدي نكب بعد وفاة شريح وحبس بدار طاشتكين أيضاً، وبها مات كما سنذكر في أخبار السنة الآتية، ورسائل شريح مدونة في مجلدين رحمه الله.

وفيهما. توفي بالموصل في شوال أبو الحرم مكّي بن ربان بن شبة الماكسيني الموصلّي النحوي، قدم بغداد وقرأ على ابن الخشاب، وابن العصار، والكمال الأنباري، وبرع في علم النحو، وقدم الشام فأقام بحلب مدة، وانتفع به خلق عظيم، وقدم دمشق وقرأ عليه شيخنا أبو الحسن السخاوي، رحمه الله كتاب أسرار العربية للأنباري، وربما يقع تصحيف في اسم أبيه وجده فاعلم: أن اسم أبيه أوله راء بعدها باء معجمة بواحدة من تحت وشبة على وزن حبة، وبدأ بذكره في تاريخ إربل شرف الدين ابن المستوفي لأنه شيخة ووصفه وأثنى عليه، وقال ولد بياكسين من ولاية سنجار، ونزل بالموصل بعد أن رحل في طلب العلم إلى بغداد، وكان سبب عماء جذريا لحقه وهو ابن ثمان أو تسع، وكان يتعصب لأبي العلاء أحمد بن سليمان المعري للجامع بينهما من العمى والأدب، وكان قد نصب نفسه للانتفاع عليه بالقرآن العزيز، وجميع ضروب الأدب، فكان لا يتفرغ إلا للصلاة المكتوبة أو إلى ما لا يلبد منه،

- ٩٠٩٠ -

وتخرج عليه جماعة من أصحابه، وكان أخذ عن أبي بكر يحيى بن سعدون
القرطبي الأصل الموصلبي الوفاة ومن شعره:

إذا احتاج النـوال إلى شفيـع
فلا تقبله تضحـق ريرعين
إذا عيـف النـوال لفرد مـن
فأولى أن يعـاف لمتين

وله الغازي في اسم دعد:

اسم الذي أنا عبدها
يا أيها الرجل الحكيم
تلقيه معكوسا كما
تلقيه إذهو مستقيما

قلت: وكفى من ذلك أن يقول اسمها إن عكسته مثله إن تركته.

وفيها: توفي جمال الدولة إقبال الخادم بالبيت المقدس رابع عشر ذي
القعدة بعد أن وقف داريه بدمشق مدرستين إحداهما للشافعية وهي
الكبرى، والأخرى للحنيفية وهي الصغرى، ووقف عليهما مواضع ثلاثها
لمدرسة الشافعية، والثلث الباقي لمدرسة الحنيفية، وكان من خدام صلاح
الدين رحمه الله.

ثم دخلت سنة أربع وستمئة

ففيها: قدم حاج العراق بغداد في صفر، وحكوا ما لقوا من صدر جهنم وشدة العطش، وأن غلمانهم كانوا يسبقون الناس إلى المناهل فيأخذون الماء فيرشون به حول خيمته، ويسقون أحواض البقل على الجمال، ومات أكثر الناس عطشا، وسموا هذه السنة صدر جهنم ولما وصل إلى بغداد لم يخرج أحد للقائه ولعنوه في وجهه، وسبوه في الأسواق، وكتبوا لعنته على المساجد والجوامع، وكان النساء يخرجن متبرجات منشرات الشعور يلطمن على موتاهن ويقلن العنوا صدر جهنم، فسأل الوزير أن يأذن له في الرجوع إلى بلده، فتخلع عليه جبة وعمامة وطيلسان، وخرج من بغداد والناس خلفه يسبونهم ولم يقدر أحد على منعهم.

قال أبو المظفر وحججبت أنا في هذه السنة وهي الرابعة، فرأيت من الموتى ما أذهلني وخصوصا في النقرة والعسيلة فإني رأيت فيها ما يزيد على خمسة آلاف ميت، ومشينا ثلاثة أيام في الأموات.

وفيها: في جمادى الآخرة قبض الخليفة على الوزير ابن مهدي ليلا، بعث إليه من أغلق بابه، فأقام أياما، ثم نقله في رجب إلى دار طاشتكين في دار الخليفة الذي مات فيها القاضي شريح، ونقل أهله وأولاده وأمواله وذخائره ووجد له من الأموال والذخائر ما لم يوجد في خزائن الخلفاء، ولم يتعرض له الخليفة وفوض الأمر إلى المكين محمد القمي كاتب الإنشاء بين يدي ابن مهدي، وناب القمي بعد ذلك في الوزارة إلى أيام المستنصر فقبض عليه، واختلفوا في سبب عزل الوزير ابن مهدي، فقال قوم: كان ظالما جبارا قاسيا، متكبرا قليل الرحمة، قل أن حبس أحدا فتخلص منه.

حكى لي خالي أبو محمد يوسف قال: شفعت إليه يوما في محبوس،

فقال: وكم له في الحبس؟ فقلت: خمس سنين، قال: ليس هذا بمحبوس المحبوس عندنا في العجم من يمضي عليه خمسون سنة^(٣٤).

وقال آخرون إن المكين القمي سعى به إلى الخليفة وقال: إنه طمع في الخلافة ويقول إنه علوي ونحن أحق، وأنه ينفذ الأموال إلى العجم في قواصر التمر إلى أهله بخراسان ليجندوا العساكر وقيموا ملكا يقصد بغداد، وقال آخرون أنه اتفق مع ابن ساوا النصراني على قتل علاء الدين ايتامش مملوك الخليفة في هذه السنة، وسنذكره، ولما ظهر خبره واستقلاله بالأمور، هجاه أهل بغداد وكتبوا الأشعار وأوصلوها إلى الخليفة منها ماكتب به يعقوب بن صابر المنجنيقي:

خليلي قــــولاً للخليفة أحمـد
توق وقيت السوء ما أنت صانع
وزيرك هذا بين أمرين فيهما
صنيعك يا خير البرية ضائع
فإن كان حقاً من سلالة حيدر
فهذا وزير في الخلافة طامع
وإن كان فيما يدعي غير صادق
فأضيع ما كانت لديه الصنائع

وجلس يوماً في الديوان فوقعت بين يديه ورقة مختومة فلم يتجاسر على فتحها، فبعث بها إلى الخليفة وكان فيها:

إن صح فيما تزعم يا مدعي
إلى نبي لست من نسله
لا قاتل الله يزيـدا ولا
مدت يد السوء إلى نعله
لأنه قد كان ذا قدرة
على اجتثاث العود من أصله

- ٩٠٩٣ -

وإنما أبقاك أحـدوثـة
للناس كي يعزـز في فعله

فكان سبب حتفه، لأن الخليفة قال: ماكتبوا هذه إلا وقد أهلك
الحرث والنسل.

وفيها: رتب الخليفة في شهر رمضان دور الضيافة ببغداد من الجانبين
عشرين دارا في كل دار في كل ليلة خمسمائة قدح وألف رطل من الطبخ
الخاص، والحبز النقي، والحلواء وغير ذلك مستمر في رمضان.

وفيها: وصل إلى بغداد من دمشق قاضي عسكر الشام نجم الدين
خليل الحنفي رسولا من العادل أبي بكر بن أيوب، وأخرج في مقابله
الشيخ شهاب الدين السهروردي وسنقر السلحدار، ومعهما الخلع للعادل
وأولاده وكان في خلعة العادل الطوق والسواران.

وفيها ملك الأوحـد بن العادل مدينة خلاط، كاتب أهلها بعد قتل
ابن بكتمر صاحبها والهزار ديناري، وكان ديناري هو الذي قتل ابن
بكتمر، وكان شابا لم يبلغ عشرين سنة ولم يكن فيها احسن منه، وقيل
إنه أغرقه في بحر خلاط، وكانت أخته مع صاحب أرزن الروم فقالت:
لا أرضى حتى تقتل الهزار ديناري وتأخذ بشأـر أخي، فسار إلى خلاط
وخرج الهزار ديناري للقاءه فأبان رأسه، وعاد إلى الروم وبقيت خلاط
بغير ملك، وكان الأوحـد هو صاحب ميفارقين فكاتبوه فجاء إليهم
واستولى عليها، وكانوا جبابة وتشرط عليه المقدمون بها فشرع فيهم
فأبادهم في بحر خلاط وبدد شملهم.

ذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه أن ابن بلبان مملوك شاه أرمن، لما أخذ
خلاط من ابن بكتمر قصد الأوحـد موشى من أعمال خلاط فأخذها
وغيرها، ثم طمع في خلاط فقصدها فهزمه بلبان فرجع الأوحـد إلى

ميفارقين وحشد وعاد إليه، فاستنجد بلبان بصاحب أرزن الروم وهو مغيث الدين طغرلشاه بن قلع أرسلان فأنجده بنفسه، وهزما الأوحـد، ثم غدر مغيث الدين بلبان فقتله طمعا في البلاد، وسار إلى خلاط فمنعه أهلها فعاد عنها، فأرسلوا إلى الأوحـد فحضر إليهم فسلموها إليه (٣٥).

وفيها: حج بالناس من الشام بدر الدين مودود فرحل من دمشق ثامن عشر شوال وصحبه الملك المحسن بن صلاح الدين، جاور في تلك السنة، وودعهم السلطان العادل إلى الكسوة وحج معه تلك السنة شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية وأولاده، وشبل الدولة الحسامي، وخلق كثير منهم: أبو المظفر سبط ابن الجوزي وهي أول حجاته، وكانت الوقفة يوم الأربعاء وعاد إلى العراق، وحج بالناس من العراق في هذه السنة والتي قبلها مجاهد الدين ياقوت.

وفيها: توفي علاء الدين إيتامش بن عبد الله مملوك الخليفة الناصر، وكان شجاعا عاقلا صالحا متصدقا رحوما رقيق القلب، ولا يعرف المسكر، ولا الفواحش، وكان يطعم المسكين ويكسو العاري، وكان الخليفة يحبه ويقربه، والوزير ابن مهدي يشنأه لقربه من الخليفة، وكان ابن مهدي قد ولي الدجيل ودقوقا رجلا نصرانيا يقال له ابن ساوا، فتسلط على المسلمين وفتك وظلم وأهان المسلمين وأذلهم، وكان يركب مثل صاحب الديوان وجميع الناس مشاة بين يديه، قالوا: وكان ابن ساوا يحمل مغل البلاد إلى ابن مهدي فيأخذ منها ما يريد ويعطي الخليفة ما يريد، فأقطع الخليفة إيتامش دقوقا والدجيل، فخرج إليهما واطلع على الأحوال فخاف ابن مهدي، قالوا: فاتفق مع ابن ساوا على أن يسم إيتامش فمضى النصراني إلى دقوقا وتوصل إلى إيتامش ودس عليه من سقاه السم فمرض إيتامش وعاد إلى بغداد مريضا، فمات بعد أيام، فتقدم الخليفة، بأن يفتح له جامع القصر ولا يتخلف عن جنازته أحد

من أرباب الدولة إلا الخليفة والوزير، وحمل إلى مشهد موسى بن جعفر فدفن هناك، وعلم الخليفة بباطن الحال فأمر بأن يسلم ابن ساو إلى غلمان إيتامش، فكتب إلى المهدي إلى الخليفة يقول: إن النصاري قد بذلوا في ابن ساو خمسين ألف دينار ولا يقتل، فكتب الخليفة على رأس الورقة:

إن الأسود أسود الغاب همتهما
يوم الكربة في المسلوب لا السلب

فسلم ابن ساو إلى مماليك علاء الدين فأخرج من دار الوزير وفي رقبته حبل وهو مكتوف فقتلوه وأحرقوه، وكان لابن مهدي مملوك عاقل يقال له آق سنقر الدوادار، كان يطالع الخليفة بأخبار ابن مهدي، وأنه يكتب الأعاجم ويسعى في فساد الدولة، وعلم الوزير فسقاه السم فمات في ربيع الآخر هو وعلاء الدين إيتامش في أيام قريبة وقبض الخليفة على ابن مهدي في جمادى.

وفيها: في شهر رمضان توفي شرف الدين الناقد بن قنبر، واسمه الحسن بن أبي طالب. ولاه الخليفة حجة الباب وناب في الوزارة، ثم ولاه صاحب المخزن فتحبر وطغى، وبنى بدرب المطبخ دارا تناهى في بنائها فلم يكن ببغداد مثلها، وشرع في الظلم والفسق وتجاهر به، ومد عينيه إلى أولاد الناس، وكان قبيح السيرة، فرفع أمره إلى الخليفة فأخذه أخذ عزيز مقتدر، وقبض عليه واستأصله، ونقض داره إلى الأساس، وحبسه فأخرج في رمضان ميتا فدفن بمشهد باب البير.

وفيها: توفي أبو علي حنبل بن عبد الله بن الفرغ بن سعادة المكبر بجامع الرصافة وكان فقيرا جدا، وكان قد سمع المسند من ابن الحصين، فقليل له: لو سافرت إلى الشام، فخرج من بغداد فأسمع المسند بإربل فسمعه ابن زين الدين، وبالموصل، وبدمشق فسمع عليه الملك المعظم

عيسى بالكلاسة في جمع كثير، وهو آخر من رواه عن ابن الحصين، فألحق الصغار بالكبار، وكان كثير الأمراض بالتخم، وكان الملك المعظم يطعمه ألوان الطعام وأشياء مارآها ولا في المنام وكان معودا ببغداد أكل الهرطمان^(٣٦) وتلك الألوان، وبلغني أن الشيخ تاج الدين الكندي حضر عندهم يوما في السماع، ولم يحضر حنبل فقال تاج الدين: وأين حنبل؟ فقال المعظم: هو متخوم، فقال تاج الدين: أطعمه عدس، فضحك المعظم والجماعة، وكان عمر بن طبرزد قد رافقه من بغداد إلى الشام وحصل ما لا طائلا، وعاد إلى بغداد، فاشتري حنبل العتابي والكاغد، وعزم على العود إلى الشام في تجارة فأدركته المنية رابع عشر محرم سنة أربع وستمئة وله تسعون سنة، وحمل المال إلى بيت المال ولم يكن له وارث ودفن بباب حرب، ومات ابن طبرزد في سنة سبع وستمئة كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وفيها: في صفر توفي عبد الرحمن بن عيسى بن أبي الحسن البزوري الواعظ من أهل باب البصرة ولد سنة تسع وثلاثين وخمسائة، وقرأ على الشيخ أبي الفرج بن الجوزي الوعظ، والفقه، والحديث، ثم حدثته نفسه بمضاهاته حتى كنى نفسه أبا الفرج واجتمع إليه سفاف أهل باب البصرة، وانقطع عن خدي ولما جاء من واسط ماجاء إليه ولازاره، وكان في عشر السبعين تزوج صبية واغتسل في يوم بارد فانتفخ ذكره، ومات، وسمع أبا الوقت وغيره.

وفيها: توفي عبد المجيد بن أبي القاسم عبد الله بن زهير أبو محمد الحربي ابن أخي عبد المغيث الحربي، ولد سنة سبع وعشرين وخمسائة وسمع الحديث الكثير، وكان تردد من عند الخليفة إلى العادل في أمور خاصة فخرج في السنة الماضية وعاد في هذه السنة، فتوفي بحماة وكان صالحا ثقة.

وفيها: توفي الأمير زين الدين قراجا الصلاحي، صاحب صرخد،
وداره في دمشق بالذلاقة بنواحي باب الصغير، وكان شجاعا جوادا توفي
بدمشق ودفن بجبل قاسيون وقبره عند تربة ابن تميرك في قبة على الجادة
على يمين السالك شرقا، كذا قال أبو المظفر.

. وقال العز بن تاج الأمناء: توفي بالعسكر على بحيرة قدس مرابطا يوم
السبت أول جمادى الأولى، وحمل إلى دمشق في محفة فدفن في المقبرة
العادية من جبل قاسيون حالة وصوله بكرة يوم الاثنين ثالث جمادى
الأولى المذكور، ووصل ابنه ناصر الدين يعقوب من قلعة صرخد إلى
خدمة السلطان العادل وهو على القدس، فأكرمه وأنعم عليه بما كان بيد
أبيه، ثم توفي في سنة أربع عشرة وستمائة وعمره، إحدى وعشرين سنة
وثلاثة أشهر.

وفيها: توفي أبو الثناء محمود بن هبة الله بن أبي القاسم الحلي البزار،
قرأ القرآن على علي بن عساكر البطائحي، والأدب على أبي محمد بن
الخشاب، وسمع الحديث على أبي الوقت، وحكي عن اسماعيل بن
موهوب الجواليقي قال: كنت في حلقة والدي أبي منصور موهوب يوم
جمعة بعد الصلاة بجامع القصر والناس يقرأون عليه، فوقف عليه شاب
فقال: ياسيدي مامعنى قول القائل؟:

وصل الحبيب جنان الخلد أسكنها
وهجره النار تصليني بها النهارا
فالشمس بالقوس أضحت وهي نازلة
إن لم يـزرني وبـالجوزاء إن زارا

فقال له والدي: يا بني هذا شيء يتعلق بسير الشمس بالبروج،
وما يتعلق بعلم الأدب، ثم قام والدي وآلى على نفسه ألا يعود إلى مكانه
ذلك حتى ينظر في علم النجوم ويعرف سير الشمس والقمر، فنظر فيه

وعلمه بحيث إذا سئل عن شيء أجاب، ومعنى الشعر: إن الشمس إذا
نزلت في القوس يكون الليل في غاية الطول، فإذا كانت في الجوزاء كان
الليل في غاية القصر.

وفيها: في ربيع الأول توفيت ست الكتبة واسمها نعمة بنت علي بن
محمد بن يحيى بن محمد بن الطراح، وكانت صالحة زاهدة عابدة راوية
للحديث، روت كتاب الشائل للترمذي عن أبي شجاع عمر بن أبي
الحسن البسطامي، وعن جدها أبي محمد بن يحيى بن محمد الطراح
وغيرهما، ودفنت بباب الفراديس:

وفيها: في تاسع شهر رمضان توفي عمي الشيخ أبو القاسم بن إبراهيم
ابن عثمان بن الخشاب ودفن بالمقبرة التي بين الباب الشرقي وباب توما
رحمه الله.

وفيها: في ذي القعدة توفي عبد العزيز الطيب فجأة، وهو والد سعد
الدين الطيب الأشرفي وهو الذي عناه القائل أظنه ابن عنين بقوله:

فرادى ولاخلف الخطيب جماعة
وموت ولاعبد العزيز طيب^(٣٧)

وفي شعبان سار أولاد صلاح الدين إلى حلب، وفي ثالي رمضان تجدد
هواء قوي عقيب مطر وثلج بحيث رمى بعض رصاص المسجد على
رجلين في صلاة الجمعة فقتلها.

وفي سابع عشر رمضان وصلت رسل الخلافة والشيخ شهاب الدين
السهروردي، ونور الدين التركي الخليفة، ولبس السلطان العادل أبو
بكر، وولده المعظم، والأشرف، والوزير صفى الدين بن شكر، وأستاذ
الدار شمس الدين الدكز العادلي الخلع من القصر إلى القلعة، وكان

دلدرم حامل التقليد على رأسه بين يدي السلطان، ودخل جميعهم من باب الحديد عند آذان الظهر، وأنزل الرسل بدار عز الدين فرخشاه، ورباط خاتون، وقرأ الوزير التقليد قياما الى أن فرغ من قراءته، واتقن حضور شهاب الدين بن شداد قاضي حلب رسولا من الظاهر صاحبها، وعلى يده ألف دينار للنشار فلم يأذن له العادل بنثارها، وأمره بعد ذلك بحملها للرسل ثم عادت رسل الخليفة إلى بغداد وصحبته قاضي العسكر خليل الحنفي، وشمس الدين الدكر أستاذ الدار بهدايا سنينة وودعهم العادل إلى القصير.

وفي رجب ركبوا الساعة بالمئذنة الشمالية بالجامع، وشرعوا في عمارة البرج الذي في قبالة المدرسة القيازية، وفي ثالث شوال ذكر القاضي شرف الدين عبد الله بن زين القضاة عبد الرحمن بن سلطان الدرس في مدرسة ابن رواحة، وفي رابع وعشرين شوال سار الشيخ فخر الدين بن عساكر إلى القدس للإقامة بالمدرسة الناصرية، وفي الخامس والعشرين منه اعتقل السلار بهرام وأولاده على العملة بالقيسارية، وهي العملة المعروفة بابن الدخينة، واشتهرت في البلاد.

وفيها: وصل الخبر إلى دمشق بحدوث زلازل بنواحي بلد خلاط، وريح بحيث وقع خسف بموضع قد كان الأوحاد بن العادل نازلا به، ورحل عنه قبل ذلك ليلة.

وفيها: توفي العفيف ابن الدوجي إمام مقصورة الحنفية الغربية بجامع دمشق.

ثم دخلت

سنة خمس وستائة

ففيها: تكاملت دار الضيافة ببغداد بالجانب الغربي للحجاج الواردين من البلاد، ورتب لهم الخليفة فنون الأطعمة والزاد، وإذا عادوا من الحج فرقت فيهم الدنانير والثياب، ووصل حاج الشام دمشق في التاسع والعشرين من المحرم، وجاور الملك المحسن وتوفي أخوه الأشرف بحلب، وفي تاسع المحرم يوم الجمعة دخل عند الأذان في السحر مملوك افرنجي كان لفلک الدين سليمان وكان سكران إلى مقصورة الخطابة وفي يده سيف مشهور ضرب به جماعة مات منهم اثنان أو ثلاثة، ووقعت بعض الضربات في جانب المنبر فأثرت فيه، والناس مجتمعون لصلاة الصبح، وعملت في ذلك أشعار كان يغنى بها في الأسواق وسمعتها وأنا صغير أحفظ منها:

مقصورة الخطيب طلب
والناس ولـوا الحرب
في جانب المنبر ضرب
بـالسيف حتى انكسر

ثم قبض عليه وترك بالمارستان وشنق بجسر اللبادين آخر النهار، ولم يكن على الجسر ذلك الزمان هذه العمارة بل كان على حافته الشرقية درابزين يدلى المشنوق فيه إلى الطريق المسلوكة، بجيرون، فيراه الناس من الطريق كما يرون المارة بالجسر المذكور.

وفيها: دخل الشيخ شهاب الدين السهروردي إلى بغداد من الرسالة بالشام، ومعه شمس الدين ألكز أستاذ دار العادل، فتلقى الموكب ألكز، وكان معه الهدايا والتحف، وأعرض عن الشيخ الشهاب ونقم

عليه حيث مَدَّ يده إلى الأموال بالشام وحضر دعوات الأمراء سامة وغيره، وقد كان قبل الرسالة زاهدا فقيرا، وأخذ منه الربط التي كانت بيده: رباط الزوزني، والمرزبانية، ومنع من الوعظ، فقال: ما قبلت هذه الأموال إلا لأفرقها على الفقراء ببغداد وشرع يفرق الأموال والثياب في الزوايا والربط.

قال أبو المظفر: كان من عادة خالي أبي محمد يوسف يجلس يوم السبت تحت تربة أم الخليفة، والشهاب يجلس يوم الثلاثاء بباب بدر، فمَنَعَ الشهاب من الجلوس، وأمر خالي فجلس مكان الشهاب بباب بدر فانفق أن حكى خالي حكاية الذي نظر في الرحبة إلى شخص مستحسن فاسود بعض وجهه، فرأى في المنام قائلا يقول: اذهب إلى بغداد إلى شيخك الجنيد فسله أن يستغفر لك: فنزل إلى بغداد وطرق زاوية الجنيد فقال له الجنيد: تذنّب بالرحبة واستغفر لك ببغداد، فقال الناس: ما قصد إلا الشهاب، ومعناه لو تركت هذه الأموال بالشام كان أصلح من أخذها وتفريقها ببغداد، والظاهر أن خالي ما قصد نكت الشهاب، وإنما وقع ذلك على سبيل الاتفاق، وقد أغنى خلقا كثيرا من فقراء المسلمين بالشام والعراق والأموال كلها للمسلمين فقد صرفت إلى أرباب الاستحقاق.

قال: وكان الفخر بن تيمية قد حج في السنة الماضية وكتب مظفر الدين بن زين الدين معه كتابا إلى الخليفة بالوصية عليه فلما عاد من مكة سأل الجلوس بباب بدر فأجيب إلى ذلك، وتقدم إلى خالي بالحضور فحضر وقعد على دكة المحتسب بباب بدر، ووعظ ابن تيمية ومدح الخليفة وأنشد في أثناء ذلك:

وابن البون إذا مال في قرن
لم يستطع صولة البزل القناعس

فقال العوام: ما قصد إلا خالي يعني أن ابن تيمية كان شيخا وخالي شاب، قال: وكان الخليفة خلع على الشمس الدكر أستاذ دار العادل، وعاد إلى الشام بالهدايا.

وزلزلت نيسابور زلزلة عظيمة ودامت عشرة أيام، فمات تحت الهدم خلق عظيم.

وحج بالناس من العراق المجاهد ياقوت، ومن الشام حسام الدين قايماز والي القدس الشريف.

قال العز بن تاج الأمناء: في عشية ثالث عشر رجب جرى بين التاج الكندي وابن دحية كلام ومشاتمة عند الوزير.

قلت: حكى لي من حضر ذلك المجلس أن الشيخ الحافظ أبا الخطاب عمر بن دحية لما عاد من رحلته الخراسانية قصد مجلس الوزير صفى الدين عبد الله بن علي المعروف بابن شكر وزير العادل، وكان الشيخ العلامة تاج الدين الكندي جالسا إلى جنبه فأجلس ابن دحية إلى الجانب الآخر، فشرع ابن دحية يورد حديث الشفاعة، فلما وصل إلى قول إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وقوله: «إنما كنت خليلا من وراء، وراء» لفظ باللفظتين بفتح الهمزة فيهما فقال الكندي: «وراء. وراء» بالضم فعز ذلك على ابن دحية وكان جريئا ذا أنفة من الرد عليه، فقال للوزير: من ذا الشيخ؟ فقال له: هذا تاج الدين الكندي، فسمع ابن دحية في حقه بكلمات فلم يسمع من الكندي إلا قوله: هو من كلب فنبج، وهذه تورية حسنة من لفظ حلوا، وذلك أن ابن دحية كان ينسب إلى كلب من العرب، وهي قبيلة دحية الصحابي رضي الله عنه، وفي الانتساب إليه كلام ونظر، فإن جماعة من المتقدمين قالوا لم يعقب على ما ذكرناه في ترجمته في تاريخ دمشق، ووقع الناس في أبي الخطاب بسبب ذلك حتى

قال بعضهم:

دحية لم يعقب فلا تنتسب
إليه بالبهتان والإفك
ماصح عند الناس شيء سوى
إنك من كلب بلا شك

فأخذ الشاعر المعنى الذي أشار إليه الكندي بذلك اللفظ الوجيه، أما اللفظتان المتنازعتان فيهما، فرأيت في أمالي أحمد بن يحيى ثعلب جواز الأمرين فيهما، والجر أيضا وقد نظمت ذلك في كتاب مفصل الزمخشري وغيره من المسائل النحوية وبالله التوفيق.

وفيها: في ثالث شهر رمضان توفي عم جدي عبد الرحمن بن أبي بكر ابن ابراهيم محمد المقدسي ويعرف بعبدان المعلم، كان معلما في المكتب الذي بباب الجامع الشامي قبالة خانقاه السميساطي، وعمر طويلا نحو تسعين سنة، ودفن بباب الفراديس، ومات جدي الذي هو ابن أخيه قبله بزمان، قرأت بخط عمي أبي القاسم بن ابراهيم بن عثمان الخشاب رحمه الله قال: توفي الشيخ الإمام أبو اسحاق ابراهيم بن الفقيه الإمام عثمان ابن أبي بكر المقدسي إلى رحمة الله في السابع والعشرين من شعبان سنة خمس وثمانين وخمسمائة قال: وتوفيت والدته أبي القاسم المذكور في ثاني شعبان سنة خمس وثمانين وخمسمائة وهي جدتي أم أبي اسماعيل، فبينها وبين وفاة جدي شهر واحد، ودفنت بباب شرقي، ودفن جدي بباب الفراديس قبالة تربة الصفي بن القابض بينهما الطريق وعلى قبر عم جدي بلاطة فيها اسمه وتاريخ وفاته.

وفيها: توفي أبو العباس الخضر بن علي الجزري، ولد بجزيرة ابن عمر في سنة خمس وعشرين وخمسمائة، وقدم بغداد وله يد في تعبير الرؤيا وانشد لنفسه:

أنست بوحدي حتى لو أني
رأيت الأنس لاستوحشت منه
وما ظفرت يدي بصديق صدق
أخاف عليه إلا خفت منه
وماترك التجار لي حبيبا
أميل إليه إلا ملت عنه

وفيها : توفي محمد بن بختيار بن عبد الله أخو أستاذ دار الخليفة، كان
فاضلا أدبيا أنشد يوما:

قسما بمن سكن الفؤاد وإنه
قسم به لو تعلمون عظيم
إني به صب كئيب مدنف
قلق الفؤاد موله مهموم
لا يستطيع مع التنائي سلوة
حتى الممات وإنني لسليم
فتعطفوا بالوصل بعدتها جر
فالصبر ينفد والرجاء مقيم

وفيها: توفي الأمير سنقر الصلاحي بحلب رابع عشر المحرم، وهو
أحد الأمراء المذكورين المجاهدين.

وفيها: في ربيع الأول توفي الشيخ أبو الخير مصدق بن شبيب بن
الحسن النحوي الصلحي، من أهل فم الصلح، ولد سنة خمس وثلاثين
وخمسائة، وصحب الشيخ صدقة الزاهد، وقرأ عليه القرآن والنحو، وأقام
برباط صدقة، وقرأ على ابن الخشاب، وابن القصار، والكمال الأنباري،
وسمع الحديث من أبي الفتح ابن البطي ودفن مع الشيخ صدقة في
ضريحه، وكان على طريقه في الزهد والعبادة ومنقطعا عن الناس.

وفي ليلة الخميس ثاني شوال توفي الفصيح الواعظ بدمشق وهو:
أرسلان بن علي بن غرلو الواعظ الحنفي، ودفن بباب الصغير على
الطريق بالقرب من قبة ابن زين العابدين، واسمه على قبره.

وفي الرابع والعشرين من شوال وصل الخبر بأن الشرف الفلكي وجد
مذبوحا في فراشه، ذبحه غلام له ليلة عيد الفطر بخلاط، وكان قد وزر
للملك الأوحده وهو أخو الصفي الأسود، واسمه عبد المحسن بن
اسماعيل بن محمود المحلي، وكان قد ناب بديوان دمشق عن الصاحب
صفي الدين بن شكر في الدولة العادلية، ثم وزر لأخي العادل لأبيه
فلك الدين فنسب إليه، ثم استقل وزيرا بخلاط للأوحده بن العادل إلى
أن قتله مملوكه بها ليلة عيد الفطر سنة أربع أو خمس وستائة، وحمله من
خلاط إلى دمشق صديقه الرشيد عبد الله بن المظفر الصفوي ودفنه
بجبل قاسيون، وصلب قاتله على قبره، وعند صلبه بدره الرشيد قطعنه
بمدية في نحره .

وفي السابع والعشرين من ذي القعدة توفي الأمير المعروف بالجناح
الكردي ابراهيم بن أحمد ودفن بالجبل، وخرج السلطان في جنازته، وفي
الغد عمل عزاءه في الجامع، وحضر جميع الأمراء الأكراد بالجوخ ومناديل
على رؤوسهم، وهو أخو المشطوب وكبير أمراء الأكراد، وفي الخامس
والعشرين من ذي الحجة شنق فضيل الخلاطي لكونه قتل تاجرا قزوينيا
كان استشفع بالحشيشية ثم أنزل وحملت جنازته على الأصابع.

وفيها: وصل الخبر من حلب، بموت الأشرف عز الدين محمد بن
صلاح الدين، ومن القدس بوفاة الأجد حسن بن العادل وهو: شقيق
المعظم والعزیز، ومن مصر بوفاة قاضيه صدر الدين عبد الملك بن
درباس الكردي، ومن الجزيرة بقتل صاحبها سنجرشاه بن غازي بن
مودود بن زنكي بن آق سنقر قتله ولده الأكبر غازي، وكان سنجرشاه

قد اطلع على سعي ولده هذا في دمه، فسجنه مدة وتسبب إلى أن خلص من السجن واختفى بالقلعة عند بعض النساء وأظهر أنه قد هرب، وندب واحدا من جهته يطوف البلاد متنكرا ويظهر أنه هو ففعل، ووفد على الأشرف فأكرمه ثم وصل إلى دمشق وشاع خبره فسكن سنجرشاه إلى ذلك وكان متحرزا فلما أمكنت الولد الفرصة هجم عليه ليلا فقتله بسيفه، وحلف الأمراء فملك الجزيرة يوما وليلة فأوثقه بماليك والده وأقاموا ولده الصغير محمود الملقب بالمعظم معزالدين، ثم قتل غازي.

وفيها: غارت الفرنج ووصلوا إلى باب تدمر من حمص بعد أن مدوا على نهر العاصي جسرا من خشب كانوا صنعوا آله ببلادهم، وحملوها معهم وعبروا العاصي عليه، ثم رفعوه على جماهم وقصدوا حمص فقصدتهم العساكر الإسلامية فهربوا على طريق قدس وحاز المسلمون أخشابهم وأثقالهم ومن انقطع منهم.

ثم دخلت

سنة ست وستائة

ففيها: نزلت الكرج على مدينة خلّاط في خلق عظيم مع ملكهم إيبوي فضايقتها وبها الأوحّد بن العادل، فأشرف على أخذها وقال له منجمه يوما: ماتبيت الليلة إلا في قلعة خلّاط فشرب الخمر حتى ثمل، وركب في جيوشه وقصد باب أرجيش فخرج إليه المسلمون فقاتلوه ورأوا مالا قبل لهم به، فبيناهم كذلك عثر به حصانه فقتل عليه جماعة من خواصه، وأخذ أسيرا فحمل إلى القلعة فما بات إلا بها، ورحل الكرج عن البلد، وفرج الله عن أهله، ثم اتفق مع الأوحّد على أنه يرد مافتح من بلاد المسلمين ويطلق الأسارى ومائة ألف دينار، ويزوج ابنته للأوحّد وقيل إنما كانت وقعة إيبوي بعد حصار سنجار في سنة سبع وستائة.

وفي ربيع الأول نزل العادل على سنجار بعساكر مصر والشام وحلب وديار بكر، ومعه أولاده الأوحّد وغيره، وأقام يضربها بالمجانيق إلى رمضان، ولم يبق إلا تسليمها فأرسل الملك الظاهر من حلب أخاه المؤيد يشفع في السناجرة، وصاحبها يومئذ قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي والد نور الدين محمود رحمه الله فلم يشفعه، ومات المؤيد في هذه السفرة، وكره المشاركة مجاورة العادل فاتفقوا عليه مع صاحب إربل، وأرسل الخليفة ابن الضحاك أستاذ داره أقباش الناصري يشفع إلى العادل فيهم، فرحل بعد أن أخذ نصيبين والخابور، ونزل بحران، وفرق العساكر، وصالح المشاركة صاحب إربل والموصل والجزيرة ومالدين وحلب، وحج بالناس من العراق ياقوت، ومن الشام فخر الدين إياس الشحامي.

وفيها: توفي الملك المؤيد مسعود بن صلاح الدين بمدينة رأس عين عند منصرفة من رسالة أخيه الظاهر إلى عمه العادل في أمر سنجار في النصف من شعبان وكان قد نام في بيت مع ثلاثة وعندهم منقل فيه نار ولا منفذ في البيت فانعكس البخار فأخذ بأنفاسهم فماتوا جميعا فحمل المؤيد في محفة إلى حلب ودفن بها.

وفيها: توفي الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك العادل بدمشق، ودفن بسفح قاسيون بالتربة التي فيها أخوه الملك المعظم.

وفيها: توفي الفخر الرازي ابن خطيب الري صاحب الكلام، والمنطق واسمه: محمد بن عمر بن الحسين، وكنيته أبو المعالي مصنف التفسير، والمحصول والمحصل، ونهاية العقول، والأربعين وغيرها واعتنى بكتب ابن سينا في المنطق وشرحها، وكان يعظ وينال من الكرامية، وينالون منه سبا وتكفيرا، وقيل إنهم وضعوا عليه من سقاء السم فمات ففرحوا بموته، وكانوا يرمونه بالكبائر وكانت وفاته في ذي الحجة ولا كلام في فضله، وإنما الشناعات عليه قائمة بأشياء منها: أنه كان يقول: قال محمد التازي^(٣٩) يعني العربي يريد النبي صلى الله عليه وسلم، وقال محمد الرازي: يعني نفسه، ومنها أنه كان يقرر في مسائل كثيرة مذاهب الخصوم وشبههم بأتم عبارة فإذا جاء إلى الأجوبة اقتنع بالإشارة، وقد رأيت من أصحابه جماعة قدموا علينا دمشق وكلهم كان يعظمه تعظيما كثيرا، ولا ينبغي أن يسمع فيمن ثبتت فضيلته كلام شنع لعله صاحب غرض من حسد أو مخالفة في مذهب أو عقيدة رحمه الله تعالى.

وبلغني أنه خلف من الذهب العين ثمانين ألف دينار خارجا عما كان يملكه من الدواب، والثياب والعقار والآلات، وخلف ولدين أخذ كل واحد منهما أربعين ألف دينار، وكان ابنه الأكبر قد تجند في حياته وخدم السلطان محمد بن تكش، وكان في زمانه القاضي الوحيد كبير القدر في

الوعظ يحضر مجلسه الأكابر من الملوك، والأمراء، والرؤساء وكان فخر الدين يتكلم فيه، فبلغه فأثاه مسلماً فوقف على رأسه فرفع فخر الدين رأسه إليه ولم ينهض له وأنكر عليه مشافهته، بما كان ينكر عليه في غيبته فتبسم الوحيد، وقال: اطبخ لك أرزا بلبن تأكله ينفع رأسك ومزاجك، ثم دعا بالقدر والنار وجعل ينفخ النار بنفسه ليطبخ ذلك بحضرة فخر الدين ويتولى ذلك بنفسه على جلالة قدره، فقام فخر الدين فوق على رجله وبكى وسمع سلطان البلد فحضر وأحضر الأطعمة وآلات السماع وجرى لهم يوم طيب، وكان فخر الدين بعد ذلك يحضر مجلس الوحيد ويجلس قبالة وجهه بين ذلك الجمع العظيم.

وفيها: في سلخ ذي الحجة توفي المجد بن الأثير الجزري الأصل، الموصل الدار، واسمه: أبو السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم، كاتب، مصنف، صدر كبير، ولد سنة أربعين وخمسمائة بجزيرة ابن عمر، وانتقل إلى الموصل ونشأ بها، وقرأ الأدب والحديث وفنون العلم، وقدم بغداد حاجاً، وسمع بها الحديث، وعاد إلى الموصل وكتب لأمرائها، وكان أمراء الموصل يحترمونه، ويعظمونه، ويستشيرونه، وكان بمنزلة الوزير الناصح إلا أنه كان منقطعاً إلى العلم وجمعه، وصنف كتباً حسناً منها: جامع الأصول، والنهاية في غريب الحديث، وشرح مسند الشافعي رحمه الله تعالى، وكان به نقرس، وكان يحمل في محفة وكان يسكن بدرب دراج بالموصل وبه دفن، قرأ النحو على أبي محمد بن الدهان، ثم على أبي الحرم الضريمر مكي بن ريان، وسمع الحديث من أبي بكر بن سعدون القرطبي، وأبي الفضل عبد الله بن الطوسي، وسمع ببغداد أبا الفرج ابن كليب وغيره، روى الحديث وانتفع به الناس وكان عاقلاً بهيماً ذا بر وإحسان وكان له أخوان فاضلان: ضياء الدين ابن الأثير الكاتب، كان وزير الأفضل بن صلاح الدين صاحب المثل السائر وغيره، وعز الدين علي بن الأثير صاحب التاريخ وغيره، قدم علينا دمشق، وأسمع بها بالجامع ودار الحديث النورية رحمه الله.

وفيها: في ذي الحجة أيضا توفي ببغداد أبو علي يحيى بن الربيع بن سليمان الواسطي، مدرس النظامية، ولقبه مجد الدين، ولد بواسط سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، وقرأ القرآن على جده سليمان، وتفقه على أبيه ورحل إلى نيسابور صحبة أبو القاسم بن فضلان، وعاد إلى بغداد وتولى تدريس النظامية، وكان عارفا بالتفسير، والمذهب، والأصولين، والخلاف، وصنف تفسيراً في أربع مجلدات، وبعثه الخليفة في رسالة إلى خراسان، سمع أبا الوقت وطبقته، وكان ثقة دينا صدوقاً فدفن إلى جانب ابن فضلان رحمه الله تعالى.

وفيها: توفي الحسن بن أحمد بن جكينا من أهل الحريم الطاهري، كان فاضلاً ومن شعره:

قد بان لي عذر الكرام فصدهم
عن أكثر الشعراء ليس بعار
لم يسأوا بذل النوال وإنما
حمد الندي لبرودة الأشعار

وفيها: توفي شمس الدين بن البعلبكي، والد المجد، وكان قاضي الفتيان بدمشق في العشرين من صفر، وهو الذي بعث إلى مصر ليشد الكامل فتوة للخليفة، جاء من بغداد الأمر بذلك.

وفيها: توفي شمس الدين سلام بن سلام والد اسماعيل، واسحاق الشاهد بدمشق حادي عشر ربيع الآخر.

ثم دخلت

سنة سبع وستائة

ففيها وصل الحاج إلى دمشق صحبة ابن محارب ثاني صفر.

وفيهما: أظهر الخليفة الاجازة التي أخذت له من الشيوخ وذكرهم في كتاب روح العارفين، ودفع إلى كل مذهب إجازة عليها مكتوبا بخطه: أجزنا لهم ما سألوه على شرط الإجازة الصحيحة، وكتب العبد الفقير إلى الله تعالى أبو العباس أحمد أمير المؤمنين، وسلمت إجازة أصحاب الشافعي إلى ضياء الدين عبد الوهاب بن سكيئة وإجازة أصحاب أبي حنيفة إلى الضياء أحمد بن مسعود التركستاني، وإجازة أصحاب أحمد إلى أبي صالح نصر بن عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر، وإجازة أصحاب مالك إلى التقي علي بن جابر التاجر المغربي.

قال أبو المظفر سبط بن الجوزي: وفيها: خرجت من دمشق إلى نابلس بنية الغزاة، وكان الملك المعظم عيسى رحمه الله بها، وجلست بجامع دمشق يوم السبت خامس ربيع الأول، وكان الناس من باب المشهد الذي لزين العابدين إلى باب الناطفانيين، وإلى باب الساعات، وكان القيام في الصحن أكثر بحيث امتلأ جامع دمشق وحزروا ثلاثين ألفا، وكان يوما لم ير بدمشق مثله ولا غيرها، وكان قد اجتمع عندي شعور كثيرة، يعني التي كان يقطعها من رؤوس التائين.

قال: وقد وقفت على حكاية أبي قدامة الشامي مع تلك المرأة التي قطعت شعرها وبعثت به إليه وقالت: اجعله قيذا لفرسك في سبيل الله قال: فعملت من الشعور التي اجتمعت عندي شكلا لخيل المجاهدين وكرفسارات ولما صعدت المنبر أمرت بإحضارها فحملت على أعناق الرجال، وكانت ثلاثمائة شكال، فلما رآها الناس صاحوا صيحة عظيمة

وقطعوا مثلها وقامت القيامة، وكان المبارز المعتمد ابراهيم والي دمشق حاضرا فقام وجمع الأعيان، فلما نزلت من المنبر قام المبارز يطرق لي ويمشي بين يدي إلى باب الناطفانيين، فقدم لي فرس، فأمسك بركابي وأركبني، وخرجنا من باب الفرج إلى المصلى، وجميع من كان بالجامع بين يدي، وسرنا من الغد إلى الكسوة، ومعنا خلق كثير مثل التراب، وكان معنا من قرية واحدة يقال لها زملكا نحوا من ثلاثمائة رجل بالعدد والسلاح، وأما من غيرهم فخلق كثير والكل خرجوا احتسابا وجئنا إلى عقبة أفيق، والطير لاتقدر تطير من خوف الفرنج، فسرنا على الجادة إلى نابلس، ووصلت أخبارنا إلى عكا، وخرج المعظم فالتقانا وسر بنا، وجلست بجامع نابلس وحضر وأحضرنا الشعور فأخذها وجعلها على وجهه وجعل يبكي، وكان يوما عظيما، ولم أكن اجتمعت به قبل ذلك اليوم، وخدمنا وأكرمنا وخرجنا نحو بلاد الافرنج فأخربنا وهدمنا وقطعنا أشجارهم وأسروا جماعة ولم يتجاسروا أن يخرجوا من عكا فأقمنا أياما ثم عدنا سالمين غانمين إلى الطور المطل على الناصرة، والمعظم معنا فقال: أريد أن أبني عليه قلعة، وطلب أخاه الملك الأشرف، وعساكر الشرق، وحلب وشرع في عمارة الطور وأقام العسكر تحته من ذي الحجة من هذه السنة إلى آخر سنة ثمان وستمائة فأكمل سورته ودار واستوى فخاف الفرنج فأرسلوا إلى العادل فصالحهم وأعطى العساكر دستورا فتفرقوا، وأقام المعظم يعمر الطور إلى قبيل وفاة العادل، فلا يحصى ماغرم عليه، وحج بالناس من الشام سيف الدين علي بن علم الدين سليمان بن جندر، وكان قدم من حلب لذلك واحتفل الناس له.

وفيها: توفي صاحب الموصل نور الدين أرسلان بن عز الدين مسعود ابن قطب الدين مودود بن زنكي في رجب وقيل في صفر.

قال أبو المظفر: وكان متكبرا، جبارا، بخيلا، فاتكا، سفاكا للدماء،

حبس أخاه علاء الدين فمات في حبسه، وولى الموصل رجلا ظالما يقال له السراج، فأهلك الحرث والنسل.

وفيها: توفي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن علي الصوفي المعروف بابن سكينه، ولقبه ضياء الدين. ولد سنة تسع عشرة وخمسمائة، وقرأ القرآن على الشيخ أبي محمد المقرئ شيخ تاج الدين الكندي، وسمع الحديث الكثير، وكان صديق أبي الفرج بن الجوزي، ملازما لمجالسه ويزوره، وسأله أبو الفرج لما عاد من واسط أن يلبس ابنه يوسف خرقة التصوف فألبسه إياها بقطفتا، وكانت وفاته في ربيع الآخر وقد قارب سبعين سنة وصلى عليه بجامع القصر، وكان يوما مشهودا حضره أرباب الدولة ودفن عند باب جامع القصر إلى جانب رباط الزوزني.

وذكره محمد بن الديلمي في ذيله وقال: هو سبط شيخ الشيوخ أبي البركات اسماعيل بن أحمد النيسابوري، ورافق أبا سعد ابن السمعي ببغداد، وسمع من قاضي المارستان، وابن الحصين وأبي غالب محمد بن الحسن الماوردي، وأبي البركات الأنطاقي، وجده لأمه شيخ الشيوخ اسماعيل، وزاهر بن طاهر الشحامي، وأبا الفتح الكروخي، وأبا الوقت وغيرهم، وحدث ببغداد والشام ومكة ومصر والمدينة وغيرها وكان من الأبدال.

وفيها: توفي ببغداد أبو حفص عمر بن محمد بن يحيى المعروف بابن طبرزد الدارقزي.

قال أبو المظفر: ولد في ذي الحجة سنة عشر وخمسمائة، سمع حديثا كثيرا من أبي غالب بن البناء، وأبي الحسن بن الزاغوني، وأبي القاسم بن الحصين، وابن السمرقندي وقاضي المارستان، وأبي الوقت وغيرهم، وكان معلما للصبيان بدار القز ببغداد، وكان خليعا ماجنا، وسافر مع حنبل إلى الشام، وحصل له مال بسبب الحديث، وعاد مع حنبل إلى بغداد فأقام

حنبل يعمل له تجارة، فتوفي سنة ثلاث وستمائة، فسلكت طريق حنبل في استمعال الكاغد والعتابي فمرض مدة ثم توفي ودفن بباب حرب، ولم يكن له وارث، فرجع المال إلى بيت المال. وجدت بخط الحافظ عبد العظيم المنذري: إن الشيخ أبا عمر المذكور، توفي في يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من ربيع الأول من السنة رحمهما الله تعالى ودفن بجبل قاسيون^(٤١).

وفيها: توفي الشيخ أبو عمر شيخ الصالحية والمقادة الزاهد العابد واسمه: محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة، أخو الشيخ الموفق، ولد سنة ثمان وعشرين وخمسائة بقرية الساويا من أعمال نابلس، وقيل بجما عيل.

قال أبو المظفر: حدثني أبو عمر قال: هاجرنا من بلادنا فنزلنا بمسجد أبي صالح بباب شرقي، فأقمنا به مدة، ثم انتقلنا إلى الجبل فقال الناس: الصالحية، الصالحية، نسبونا إلى مسجد أبي صالح لأننا صالحون.

قال: ولم يكن بالجبل عمارة إلا دير الحوراني وأماكن يسيرة.

قال أبو المظفر: وكان معتدل القامة، حسن الوجه، عليه أنوار العبادة لا يزال مبتسماً، نحيل الجسم من كثرة الصيام والقيام، قرأ القرآن بحرف أبي عمرو، وحفظ مختصر الخرق في الفقه، وقرأ النحو على ابن بري بمصر، وسمع الحديث بدمشق ومصر، واشتغل بالعبادة عن الرواية، وكتب الحلية لأبي نعيم، وتفسير البغوي، والمغني لأخيه الموفق، والإبانة لابن بطة، ومصاحف كثيرة للناس ولأهله، وكتب كثيرة والكل بغير أجر، وكان يصوم الدهر إلا من عذر، ويقوم الليل من صغره، ويحافظ على الصلوات في الجماعات، ويخرج من ثلث الليل الأخير إلى المسجد في الظلمة فيصل إلى الفجر، ويقرأ في كل يوم سبعا من القرآن بين الظهر

والعصر، ويقرأ بعد العشاء الآخرة يس، وتبارك، والواقعة، والمعوذتين،
وقل هو الله أحد، وإذا ارتفعت الشمس لقن الناس القرآن إلى وقت
الضحى، ثم يقوم فيصلّي الضحى ثمان ركعات، ويقرأ قل هو الله أحد
ألف مرة، ويزور المقابر بعد العصر في كل يوم جمعة، ويصعد يوم الاثنين
والخميس إلى مغارة الدم ماشيا بالقباب فيصلّي فيها مابين الظهر
والعصر، وإذا نزل جمع الشيخ من الجبل وربطه بحبل وحمله إلى بيوت
الأرامل واليتامى، ويحمل في الليل إليهم الدراهم والدقيق ولا يعرفونه،
ولا ينام إلا على طهارة ومتى فتح له شيء من الدنيا أثر به أقاربه
وغيرهم، وتصدق بشيابه، وربما خرج الشتاء وعلى جسده جبة بغير ثوب،
ويبقى مدة طويلة بغير سراويل، وعمامته قطعة من بطانة فإن احتاج
أحد إلى خرقة أو مات صغير يحتاج إلى كفن قطع له منها قطعة، وكان
ينام على الحصير ويأكل خبز الشعير، وثوبه خام إلى أنصاف ساقيه،
وما نهر أحدا، ولا أوجع قلب أحد، وكان يقول: أنا زاهد ولكن في الحرام،
ولما نزل صلاح الدين على القدس كان هو وأخوه والجماعة في خيمة
فجاء العادل إلى زيارته وهو في الصلاة فما قطعها ولا التفت ولا ترك
ورده، وكان يصعد المنبر في الجبل وعليه ثوب خام مهدول الجيب، وفي
يده عصا والمنبر يومئذ ثلاث مراقي، وكان يجاهد في سبيل الله يحضر
الغزوات مع صلاح الدين، وكان أخوه الموفق يقول عنه: هو شيخنا ربانا
وأحسن إلينا وعلمنا، وحرص علينا، وكان للجماعة كالوالد يقوم
بمصالحهم ومن غاب منهم خلفه في أهله، قال: وكان أبو عمر قد تخلّى
عن أمر الدنيا وهمومها وكان المرجع في مصالح الأهل إليه، وهو الذي
هاجر بنا، وسفرنا إلى بغداد، وبني لنا الدير، ولما رجعنا من بغداد زوجنا
وبني لنا دورا خارجة عن الدير، وكفانا هموم الدنيا، يؤثرا ويدع أهله
محتاجين، وبني المدرسة والمصنع بعلو همته، وكان مجاب الدعوة،
وما كتب لأحد ورقة للحمى إلا وشفاه الله تعالى، وكراماته كثيرة وفصائله
غزيرة.

فمنها: أنني صليت يوم الجمعة بجامع الجبل في أول سنة ست وستمائة والشيخ عبد الله اليونيني إلى جانبي، فلما كان في آخر الخطبة، وأبو عمر يخطب نهض الشيخ عبد الله مسرعا وصعد إلى مغارة التوبة، وكان نازلا بها فظننت أنه قد احتاج إلى الوضوء، وآلمه شيء، فلما صلينا الجمعة صعدت وراءه وقلت له: خير ما الذي أصابك؟ قال: هذا أبو عمر ماتحل خلفه صلاة، قلت: ولم؟ قال: لأنه يقول على المنبر مالا يصلح، قلت: وما الذي قال؟ قال: الملك العادل، وهو ظالم فما يصدق، وكان أبو عمر يقول في آخر الخطبة: اللهم وأصلح عبدك الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب، فقلت له: إذا كانت الصلاة خلف أبي عمر ماتصح فياليت شعري خلف من تصح؟! وخطر لي قول عبد الرحمن بن عوف لما رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يمشي في أزقة المدينة فتبعه فأتى إلى بيت عجوز فدخله، قال: فقلت لأنظرن ما يصنع فتواريت وإذا به قد خرج من عندها فدخلت بعده وقلت للعجوز: ما كان هذا يصنع عندك؟ فقالت: يحمل إلي ما أكل ويخرج الأذى عني، قال عبد الرحمن فقلت في نفسي: ويحك يا عبد الرحمن اعثرات عمر تتبع.

قال أبو المظفر: وبينما نحن في الحديث وإذا بالشيخ أبي عمر قد صعد إلى مغارة التوبة فدخل ومعه مئزر فسلم وحل المئزر وفيه رغيف وخيارتان، فكسر الجميع وقال: بسم الله الصلاة ثم قال: ابتداء قد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ولدت في زمن الملك العادل كسرى»^(٤١) فنظر إلي الشيخ عبد الله وتبسم ومده يده فأكل، وقام أبو عمر فنزل فقال لي عبد الله ياسيدي ماذا إلا رجل صالح.

قلت: الشيخ عبد الله اليونيني كان أيضا من الصالحين، وقد رأيته وسيأتي ذكره في أخبار سنة سبع عشرة بعد عشر سنين من وفاة الشيخ أبي عمر، وهو لفرط صلاحه وورعه مارأى مسامحة مثل الشيخ أبي عمر في إطلاق لفظ العادل على من هو في ظنه غير مستحقه، وعذر الشيخ أبي

عمر في ذلك أنه اسم من الأسماء الأعلام لا تلحظ فيه الصفة فهو كالتسمية بسالم، وغانم، ومحمود، ومسعود، بغير قصد المعنى المسمى بذلك في حالة يكون فيها متصفا بضد ما يقتضيه اشتقاق هذه الأسماء، فيكون عاطبا، ولا يدعى إلا بسالم، أو مذموما ولا يدعى إلا بمحمود، تعريفا لامدحا، فكذا إطلاق لفظ العادل في حق من أطلقه فيه الشيخ أبو عمر على أنه قد اعتذر بعذر آخر وهو إطلاق هذا اللفظ على كافر، ولا ظلم أعظم من الشرك بالله تعالى. قال الله تعالى: (إن الشرك لظلم عظيم) (٤٢) قال: (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) (٤٣) أي بشرك، فإذا لم يمنع الشرك المحقق من إطلاق لفظ العادل من اتصف به لا يمنع ظلم ما في شيء من الأشياء التي دون الشرك أولى، بقي في قضية الشيخ عبد الله إشكالا من كونه ترك صلاة الجمعة، ولعله كان مسافرا فلم تكن الجمعة واجبة عليه، والله أعلم.

قال أبو المظفر: وأصابني قولنج عانيت فيه شدة فدخل علي أبو عمر وبيده خروب شامي، فقال: استف هذا وكان عندي جماعة فقالوا: هذا يزيد في القولنج ويضره، فما التفت إلى قولهم وأخذته من يده فأكلته فبرئت في الحال.

قال: وحكى لي الجهم البصراوي الواعظ قال: أصابني قولنج في رمضان فاجتهدوا أني أفطر، فلم أفعل، فصعدت إلى قاسيون فقعدت موضع الجامع اليوم وإذا أنا بالشيخ أبي عمر قد أقبل من الجبل وبيده حشيشة فقال شم هذه تنفعك فأخذتها وشممتها فبرئت.

قال: وجاء رجل مغربي فقرأ عليه القرآن، ثم غاب عنه مدة، وعاد فلازمه، فسئل عن ذلك فقال: دخلت ديار بكر فأقمت عند شيخ له زاوية وتلامذة، فبينما هو ذات يوم جالس بكى بكاء شديدا وأغمي عليه ثم أفاق وقال: مات القطب الساعة، وقد أقيم أبو عمر شيخ الصالحية مقامه.

قال: فقلت له: ذلك شيخي، قال: فإيش قعودك ههنا قم فاذهب إليه وسلم عليه عني، وقل له لو أمكنني السعي إليه لسعيت، ثم زودني وسافرت.

قال أبو المظفر: وقلت له يوما أول ما قدمت الشام، وما كان يرد أحدا شفاعته كائنا من كان، وقد كتب ورقة إلى الملك المعظم عيسى بن العادل، وقال فيها: إلى الولد المعظم، فقلت: كيف تكتب هذا والملك المعظم في الحقيقة هو الله، فتبسم ورمى إلي الورقة وقال لي: تأملها وإذا به لما كتب المعظم كسر الظاء فصارت المعظم، وقال: لا بد أن يكون يوما قد عظم الله تعالى، فتعجبت من ورعه وتحفظه في منطقه عن مثل هذا.

قلت: وساعده على تمشية تلك الكسرة أن كل من رآها يعتقد أنها للميم المستحقة للجر فلا ينكرها وحصل له مانواه، نظير هذا القصد ما يروى عن سفيان الثوري أنه أنكر على ابن أبي ذئب رحمه الله قوله للمنصور أبي جعفر في مخاطبته له أنا أنصح لك من ابنك المهدي، وقال له: لم قلت المهدي؟ فقال: يا أبا عبد الله كلنا كان في المهدي.

قال أبو المظفر: وقال أبو عمر يوما للمبارز المعتمد قد أكثرت عليك من الرقاع والشفاعات؟ فقال له: ربما تكتب إلي في حق أناس لا يستحقون الشفاعة وأكره رد شفاعتك، فقال له: أنا أقضي حق من قصدي، وأنت إن شئت تقبل، وإن شئت فلا تقبل، فقال: ما أرد ورقتك أبدا.

قال: وكان على مذهب السلف الصالح حسن العقيدة، متمسكا بالكتاب والسنة والآثار المروية وغيرها كما جاءت، من غير طعن على أئمة الدين وعلماء المسلمين، وينهى عن صحبة المبتدعين، ويأمر بصحبة الصالحين.

وكان سبب موته أنه حضر مجلسا بقاسيون في الجامع مع أخيه الموفق والعماد والجماعة، وكان قاعدا في الباب الكبير وجرى الكلام في رؤية الله تعالى ومشاهدته فاستغرقت في ذلك وكان وقتا عجيبا وأبو عمر جالس إلى جانب أخيه الموفق، فقام وطلب باب الجامع ولم أره فالتفت فإذا بين يديه شخص يريد الخروج من الجامع فصحت على الرجل أقعد، فظن أبو عمر أنني أخاطبه، فجلس على عتبة باب الجامع الجوانية إلى أن فرغ المجلس، ثم حمل إلى الدير فكان آخر العهد به، وأقام أياما مريضا، ولم يترك شيئا من أوراده، فلما كان عشية الاثنين ثامن عشر ربيع الأول جمع أهله واستقبل القبلة ووصاهم بتقوى الله ومراقبته، وأمرهم بقراءة يس وكان آخر كلامه: (إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون)^(٤٤) وتوفي رحمه الله وغسل في وقت السحر، ومن وصل إلى الماء الذي غسل به نشف به النساء مقانعهن والرجال عائمهم، ولم يتخلف عن جنازته أحد من القضاة، والأمرء، والعلماء، والأعيان وعامة الخلق، وكان يوما مشهودا، ولما خرجوا بجنازته من الدير كان يوما شديد الحر فأقبلت غمامة فأظلت الناس إلى قبره وكان يسمع منها دوي كدوي النحل، ولولا المبارز المعتمد، والشجاع بن محارب، وشبل الدولة الحسامي ما وصل من كفنه إلى قبره شيء، وإنما أحاطوا به بالسيوف والدبابيس، وكان قبل وفاته بليلة رأى إنسان كأن قاسيون قد وقع أو زال من مكانه فأولوه بموته، ولما دفن رأى بعض الصالحين في منامه تلك الليلة النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: «من زار أبا عمر ليلة الجمعة فكأنها رأى الكعبة، فأخلعوا نعالكم قبل أن تصلوا إليه» ومات عن ثمانين سنة ولم يخلف دينارا ولادرها ولا قليلا ولا كثيرا، قال: وعلمني دعاء السنة فقال: مازال مشايخنا يواظبون على هذا الدعاء أول كل سنة وآخرها وما فاتني طول عمري.

فأما أول السنة فإنك تقول: اللهم إنك الأبدى القديم، وهذه سنة جديدة أسألك فيها العصمة من الشيطان وأوليائه، والعون على هذه النفس الأمارة بالسوء، والإشتغال بما يقربني إليك يا ذا الجلال والإكرام، فإن الشيطان يقول قد آيسنا من نفسه فيما بقي، ويوكل الله به ملكين يحرسانه.

وأما دعاء آخر السنة فإنك تقول في آخر يوم من أيام السنة: اللهم ما عملت في هذه السنة مما نهيتني عنه ولم ترضه ولم تنسه وحمّلت عني بعد قدرتك على عقوبتي ودعوتني إلى التوبة من بعد جرأتي على معصيتك فإني استغفرك منه فاغفر لي، وما عملت فيها مما ترضاه ووعدتني عليه الثواب فأسألك أن تتقبله مني ولا تقطع رجائي منك يا كريم.

قال: فإن الشيطان يقول: تعبنا معه طول السنة فأفسد فعلنا في ساعة، قال: وأنشدني أبو عمر:

ألم يك ملهاة عن الله وأنني
بدلي شيب الرأس والضعف والألم
ألم بي الخطب الذي لو بكيته
حياتي حتى ينفد الدمع لم ألم

قال: وأنشدني أبو عمر لنفسه:
أوصيكم بالقول في القرآن
بقول أهل الحق والإتقان
وليس بمخلوق ولا بفان
لكن كلام الملك الديان
آياته مشرقة المعاني
نتلوه الله باللسان

محفوظة في الصدر والجنان
مكتوبة في الصحف بالبنان
والقول في الصفات يا أخواني
كالذات والعلم مع البيان
أسرارها من غير ما كفران
من غير تشبيهه ولا عطلان

وكان له من الأولاد من الذكور: عمر والد أحمد بن عمر، وبه كان
يكنى أبو عمر، والشرف عبد الله والد العز، وأحمد، وعبد الرحمن، الباقي
منهم في هذا الزمان، وهو سنة خمس وخمسين وستمائة أصغرهم شمس
الدين عبد الرحمن خطيب جامع الجبل بعد أخيه الشرف عبد الله. قال:
وكان لأبي عمر بنات كما قال الله تعالى: (مسلمات مؤمنات قانتات
تأبات عابدات سائحات)^(٤٥) الآية وبما رثي به أبو عمر قول محمد بن
سعد المقدسي:

أبعد أن فقدت عيني أبا عمر
يضمنني في بقايا العمر عمران
مال المساجد منه اليوم مقفرة
كأنها بعد ذاك الجمع قيعان
مال المحارب بعد الأنس موحشة
كأن لم يتل فيها الدهر قرآن
تبكي عليه عيون الناس قاطبة
إذ كان في كل عين منه إنسان
وكان في كل قلب منه نور هدى
فصار في كل قلب منه نيران
وكل حي رأينا فهو ذو أسف
وكل ميت رآه فهو فرحان
لا زال يسقي ضريحا أنت ساكنه
سحائب غيثها عفو وغفران

كم ميت ذكره حي ومتصف
بالحي ميت له الأنواب أكفان

قلت: وقبره في طريق مغارة الجوع في الزقاق المقابل لدير الحوراني على يمين المار إلى المغارة وإلى جانبه قبر أبيه الشيخ أحمد رحمه الله، وأول ماوقفت على قبره وزرته وجدت بتوفيق الله تعالى رقة عظيمة وبكاء صالحا، وكان معي رفيق لي وهو الذي عرفني قبره وجد أيضا مثل ذلك، وأخبرني أصحابنا الثقات أنه رأى الإمام الشافعي رحمه الله في المنام فسأله إلى أين يمضي؟ فقال: أزور أحمد بن حنبل، قال: فاتبعته أنظر ماذا يصنع، فدخل دارا فسألت لمن هي؟ فقليل للشيخ أبي عمر رحم الله الجميع.

وفيها: اتفقت الملوك على العادل منهم سلطان الروم، وصاحب الموصل، وصاحب إربل، وصاحب حلب، وصاحب الجزيرة، وصاحب سنجار، ومن تابعهم اتفقوا على مشاققة العادل وأن تكون الخطبة بالسلطنة لصاحب الروم خسرو شاه بن قليج أرسلان، وأرسلوا إلى الكرج بالخروج إلى جهة خلاط، وخرج كل منهم بعساكره إلى حدود بلاده مجمعا على الاجتماع بصاحبه على قصد الملك العادل وإيجافهم عليه بخيلهم ورجلهم وكتبهم ورسلمهم، وهو مقيم ثابت بظاهر حران، وعنده صهره صاحب آمد ابن قرا أرسلان، ونزل الكرج على خلاط سابع عشر ربيع الآخر مع مقدمهم إبواي، وصاحبها يومئذ الأوحاد أيوب بن العادل، فزحفوا على البلد بين الصلاتين من يوم الاثنين تاسع عشرة، وهجموا الرض وقدر الله تعالى وقوع مقدمهم إبواي بفرسه في حفرة بالرض، وهو سكران فأخذ أسيرا، وعرفه ياقوت الخادم المالطي فحمله إلى الأوحاد فأكرمه وخلع عليه والتمس منه صد الكرج عن البلد، فاستدعى إليه منهم من يثق به ليشاهد أنه سالم، وأمرهم بالرحيل عن خلاط فرحلوا من ساعتهم نحو بلادهم، ثم لم يجسروا على مخالفته

ولاتعرضوا لقرية من عملها بأذية، وقد كان من بخلاط أيقن بذهاب
الأنفس والأموال، فدفع الله عنهم، وبادر الأوحـد باطلاع والده العادل
على مـامـنـحه الله من الظفر، فكاد يذهل فرحا واستطارت الأخبار بذلك
شرقا وغربا، وعلم من كان مجمعا على قصد العادل من الملوك بالحالة
فتقهقرت أراؤهم وبادر كل منهم بالرسـل إليه ويحيل على غيره ويبدل
الطاعة، فقبل أعداؤهم، وعقد معهم صلحا، في جمادى الأولى، ورغب
إبـواي إلى الأوحـد في أن يفدي نفسه، وبذل ثمانين ألف دينار وإطلاق
ألفي أسير من المسلمين، وتسليم إحدى وعشرين قلعة متاخمة لأعمال
خلاط كان تغلب عليها وتزويج بنت الملكة بالأوحـد، وتزويج ابنته
لأخي الأوحـد من أمه، وأن تكون الكرج معه أبدا سلما لا يؤذون شيئا من
أعماله، وإن قصد بلاده عدو سارعوا في دفعه عنها، فاستأذن الأوحـد
والده العادل في ذلك فأمضاه وأمر بإطلاقه بعد الإستياق منه بالإيمان
والرهان ففعل، وأطلقه في ثاني عشر جمادى الآخرة.

قال العز بن تاج الأمـناء: ومن أعجب ما سمعته في هذه القضية أن
إبـواي لما نزل بخلاط قال له منجمه في بكرة يومه: إنك ستدخل إلى
قلعة خلاط قريب العصر من يومك في زي غير زيـك هذا، فتخيل قوله
في نفسه وشرب، فلما سكر ذكر قول المنجم، وكان قسيسه فركب لوقته
وزحف فكان من أمره ما قدر الله تعالى، وأدخل إلى القلعة وقت العصر
أسيرا لابسا خلعة الأوحـد فاعجب لهذا الإتفاق.

ولما وصل إلى بلاده عاد إلى ماكان عليه من التقدمة على عساكر
الكرج، وحمل بعض ماكان بذل للأوحـد وسومح بالباقي، ثم لما أن
صارت خلاط للأشرف تزوج بابنته.

وفي ثاني شعبان كان إـمـلاك نور الدين رسلان شاه صاحب الموصل
على ابنة العادل، وعقد العقد في آخر رجب، وقام ولده عز الدين
مسعود بالأمر، وكان العقد مع وكيله بعد موته ولم يعلم بذلك.

وفي الخامس والعشرين من شعبان ظهرت عملة ابن السلار على المعروف بابن الدخينة بعد طول مكثه في السجن، وموت زوجته تحت الضرب وعصره دفوعا، وعصر بناته وابنه فلم يقرؤا بشيء، وكان أكثر الذهب مدفونا تحته بسجن القلعة وانكشف أمرها بأيسر حال من جهة منصور بن السلار، فإنه كان الباحث عنها بسبب أنه كان حبس عليها واتهم بها، وجمع من الليل إلى آخر النهار عشرة آلاف دينار، ثم تحصل فيها بعد بقية مبلغها ثم مات ابن الدخينة في الحبس وصلب ميتا على قيسارية الفرش يوم السبت الثامن والعشرين من رجب، وأنا رأيته مصلوبا وعمري يومئذ ثمانين سنين، ودخلت في التاسعة، اللهم استر في الدنيا والآخرة.

وفيها: في سابع شوال شرع في عمارة المصلى بظاهر دمشق المجاور لمسجد النارنج برسم صلاة العيدين، وهدم حائطه القبلي ومنبره ليجدد، فبني بغير سقف بل انتهت حيطانه من الجوانب الأربع، وفتحت له الأبواب وشرفت أعالي حوائطه، وبني له منبر كبير عالي بجوانب المحراب، وفوقه قبة مبيضة، وتحت أرض القبة خلوا إلى الأرض يتصل به الصف الأول خلف الإمام، وكان يركز العلمان الأسودان في أعلى الدرج ويقف الخطيب بينهما فيراه جميع من في المصلى من كل جانب، وكان بناء حيطانه وإغلاق أبوابه صيانة له مما كان يوضع في أرضه من الدواب الميتة، والعظام، والأرواث ولاسيما مؤخر المصلى من شاميه، ثم إنه بعد ذلك في سنة ثلاث عشرة وستمائة ترتب الخطيب لإقامة الجمعة فيه سابع عشر رمضان بعد أن جدد في قبلته رواقان سقف أحدهما، ولم يتم الآخر لوفاة الملك العادل الأمر بذلك، ولزم من ذلك خراب ذلك المنبر، فجعل له منبر خشب كالذي في سائر الجوامع، وترتب فيه إمام راتب يصلي الجمعة وغيرها.

وفيها: في حادي عشر شوال جددت أبواب جامع دمشق الغربية من جهة باب البريد بالنحاس الأصفر وركبت، وفي سادس عشر شوال شرع في إصلاح الفوارة، بجيرون، وعمل الشاذروان والبركة بساحتها، واتخذ فيها مسجدا بإمام راتب، وأول من ترتب فيه بأمر صاحب الوزير ابن شكر النفيس المصري، كان يلقب بوق الجامع لقوة صوته، وكان قرأ على الشيخ أبي منصور الضرير المتصدر بالجامع، وكان حسن الصوت، وكنت أقرأ عليه في صباي، وكان يجتمع الناس إذا قرأ النفيس عليه كثيرا.

قال العز بن تاج الأمناء: وفي العشر الأوسط من ذي الحجة كان الابتداء بعمارة حصن الطور بتولي الملك المعظم واقتراحه ومساعدة والده له برجال العسكر ودوابه نوبا.

وفي العشر الأخير من ذي الحجة توجه اليان القبرسي لعنه الله في مراكب من عكا إلى الديار المصرية، فوصل إلى ساحل دمياط فأرسي غربيا، وسلك في البر بخيله ورجله إلى القرية المعروفة ببورة، وهي على ساحل النيل فكبسها سحرا وسبى أهلها وحاز ذخائرها وعاد على أثره في بقية يومه إلى مراكبه، وبلغ إلى دمياط خبره فبادر الرجال إليه فألفوه قد حصل بظهر البحر في مراكبه، وامتنع عن طالبه، ووصل الأسرى والغنائم إلى عكا، وقد نال بفعلته هذه والتي قبلها نوبة فوة من الديار المصرية في سنة ستائة مالم ينله أحد من الفرنج قبله ولا أقدم اقدامه (٤٦).

قال: وفي عاشر المحرم وصل حسن الحمار من مكة سابقا للحاج، وأخبر بأن قتادة صاحب مكة قتل المعروف بعبدا الأسير ثم وصل كتاب مرزوق الطشتدار الأسدي في الخامس والعشرين من المحرم، وكان حاجا يخبر فيه بأن قتادة قتل إمام الحنفية وإمام الشافعية بمكة، ونهب الحاج اليمني، ثم وصل الحجاج إلى دمشق صحبة ابن محارب يوم الاثنين ثاني صفر، وفي عاشر صفر توفي المخلص بلدق الزاهد المعظم بدمشق.

وفيها: توفي مظفر بن شاشير الواعظ الصوفي البغدادي، ولد سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة، وكان يعظ في الأعزية، وترب الرصافة، والمساجد، والقرى، وكان مطبوعا كيسا ظريفا، وكان يسكن دار العميد عند الصوفية، فتوفي في المحرم، ودفن عند قبر معروف الكرخي، سمع أبا الوقت وطبقته، جلس يوما في مسجد بالقرية فقام إليه انسان فقال له: أنا مريض وجائع، فقال له: إحمد ربك فقد عوفيت، واجتاز يوما على قصاب يبيع لحما هزيلا والقصاب ينادي: أين من حلف أن لا يغبن؟ فقال له ابن شاشير حتى تحننه. وقال: خرجت يوما إلى بعقوبا فتكلمت بها في الليل في جامعها، فقام واحد فقال: عندي للشيخ نصفية، وقال آخر: عندي نصفية فعدوا نحو خمسين نصفية، فقلت في نفسي: استغنيت الليلة، فلما أصبحت وإذا في زاوية المسجد مقدار كارة شعير، فقلت: ما هذا؟ فقالوا النصافي كل كيل شعير نصفية، قال: وجلست بباجسرى فجمعوا شيئا ما أعلم ماهو، فلما أصبحنا إذا في جانب المسجد صوف الجاموس وقرونه، فقام واحد ينادي عليه: من يشتري صوف الشيخ وقرونه، فقلت: ردوا صوفكم وقرونكم إليكم^(٥٧).

ثم دخلت

سنة ثمان وستمائة

والسلطان العادل مخيم بالعساكر على الطور، وابنه المعظم مباشر
لعمارة حصنه مجتهدا في إدارته حوشا، ووصل الخبر من جهة طرابلس بأن
الأخبار تتابعت إليها من الغرب في البحر بأن ابن عبد المؤمن كسر
الفرنج بأرض طليطلة كسرة عظيمة أباد فيها خلقا منهم ونازل طليطلة
وربما فتحها^(٤٨).

وفي ليلة السابع والعشرين من ذي القعدة حدثت زلزلة عظيمة
هدمت مواضع كثيرة بمصر والقاهرة وأبراجا، ودورا بالكرك، والشوبك،
وهلك جماعة من الصبيان والنسوان تحت الهدم وكان قوتها من جهة إيالة
مما يلي البحر، وقيل أنه تقدمها يوم ربيع أسود، وتساقطت نجوم كثيرة.

وفي خامس عشري رمضان رثي دخان نازل من السماء إلى الأرض فيما
بين الغرب والقبلة بنواحي أرض عاتكة ظاهر دمشق وقت العصر.

وفيها: ابتاع الأشرف جوسق الرئيس بالنيرب من الظاهر خضر ابن
عمه.

وفيها: قدم رسول جلال الدين حسن صاحب ألكوت^(٤٩) يخبرهم بأنهم
قد تبرؤوا من الباطنية وبنوا الجوامع والمساجد، وأقيمت الجمعة
والجماعات عندهم وصاموا رمضان، فسر الناس والخليفة بذلك، وقدمت
خاتون أم جلال الدين فاحتفل بها الخليفة.

وفيها: أمر الخليفة أن يقرأ مسند أحمد بن حنبل بمشهد موسى بن
جعفر بحضرة صفى الدين محمد بن جعفر الموسوي بالإجازة عن

الخليفة، وأول ما قرىء فيه مسند أبي بكر الصديق، وحديث فذك وما جرى فيها.

وفيها: نهب الحاج العراقي، وكان حج بالناس في هذه السنة من العراق علاء الدين محمد بن ياقوت نيابة عن أبيه ومعه ابن أبي فراس ينفعه ويدبره، وحج من الشام الصمصام اسماعيل أخو سياروخ النجمي عل حاج دمشق، وعلى حاج القدس الشجاع علي بن السلار، وكانت ربيعة خاتون أخت العادل في الحج، فلما كان يوم النحر بمنى بعد مارمى الناس الجمرة وثب الاسماعيلية على رجل شريف من بني عم قتادة لشبهه به وظنوه إياه فقتلوه عند الجمرة، ويقال إن الذي قتله كان مع أم جلال الدين، وثار عبيد مكة والأشراف وصعدوا على الجبلين بمنى، وهللوا، وكبروا، وضربوا الناس بالحجارة والمقاليع والنشاب ونهبوا الناس يوم العيد واللييلة واليوم الثاني وقتل من الفريقين جماعة، فقال ابن أبي فراس محمد بن ياقوت: ادخلوا بنا إلى الزاهر إلى منزلة الشاميين، فلما حصلت الأثقال على الجمال حمل قتادة أمير مكة والعبيد فأخذوا الجميع إلا القليل، وقال قتادة: ما كان المقصود إلا أنا والله ما أبقيت من حاج العراق أحدا، وكانت ربيعة خاتون بالزاهر ومعه ابن السلار، وأخو سياروخ وحاج الشام، فجاء محمد بن ياقوت أمير الحاج العراقي فدخل خيمة ربيعة خاتون مستجيرا بها ومعه خاتون أم جلال الدين، فبعثت ربيعة خاتون مع ابن السلار إلى قتادة تقول له: ما ذنب الناس قد قتلت القاتل، وجعلت ذلك وسيلة إلى نهب المسلمين واستحللت الدماء في الشهر الحرام في الحرم والمال وقد عرفت من نحن، والله لئن لم تنته لأفعلن، وأفعلن. فجاء إليه ابن السلار فخوفه وهدده وقال: ارجع عن هذا وإلا قصدك الخليفة من العراق، ونحن من الشام فكف عنهم وطلب مائة ألف دينار فجمعوا له ثلاثين ألفا من أمير الحاج العراقي ومن خاتون أم جلال الدين، وأقام الناس ثلاثة أيام حول خيمة ربيعة خاتون بين قتيل وجريح، ومسلوب، وجائع وعريان، وقال قتادة: ما فعل

هذا إلا الخليفة ولئن عاد أحد من بغداد إلى هنا لأقتلن الجميع ويقال إنه أخذ من المال والمتاع وغيره ما قيمته ألف ألف دينار، وأذن للناس في الدخول إلى مكة، فدخل الأصحاء الآقوياء فطافوا وأي طواف، ومعظم الناس مداخلوا ورحلوا إلى المدينة ودخلوا بغداد على غاية من الفقر، والهبوان ولم ينتطح فيها عنزان.

وفيها: توفي أبو سعد الحسن بن محمد بن الحسن، ويلقب بتاج الدين ابن حمدون مصنف كتاب التذكرة، قرأ اللغة على أبي الحسن ابن العصار، وسمع أبا الفتح البطي وغيره، وولاه الخليفة المارستان العضدي، وأغري بجمع الكتب والخطوط المنسوبة، فجمع منها شيئا كثيرا وتوفي بمدائن كسرى وحمل إلى مقابر قریش فدفن بها وكان فاضلا بارعا.

وفيها: توفي الأمير فخر الدين سرکس بن عبد الله الصلاحي، ويقال أياز جركس ويقال: جهاركس يعني أنه اشترى بأربعمئة دينار^(٥٠) وكان من أمراء صلاح الدين، شهد معه الغزوات، وأعطاه العادل بانياس، وتبنين، والشقيف، وهونين، وقلعة أبي الحسن، وتلك البلاد فأقام بها وكان يتردد إلى دمشق فمرض وتوفي في رجب ودفن بقاسيون، وخلف ولدا فأقره العادل على ما كان لأبيه وقام بأمره الأمير صارم الدين خطلبا المعروف بالتبيني أحسن قيام وسد تلك الثغور، وقوم الأمور، واشترى ضيعة بوادي بردى تسمى الكفر وقفها على تربة فخر الدين بالصالحية، وعمر له قبة عظيمة على الجادة قبالة قبة خاتون، ثم توفي ولد سرکس بعد قليل، وأقام صارم الدين بالحصون إلى سنة خمس عشرة فانتزعت منه وسيأتي ذكره^(٥١).

وفيها: توفي المعين عبد الواحد بن الشيخ عبد الوهاب بن علي بن سكينه، ومولده سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة، وسافر إلى الشام في أيام الملك الأفضل علي بن صلاح الدين، وبسط لسانه في الدولة، فأرسل

إليه من بغداد ابن التكريتي ليقتله، فوثب عليه مرارا بدمشق فلم يقدر عليه، فكتب إلى الخليفة كتاباً يتنصل فيه مما قيل عنه ويعتذر ويسأله العفو فعفا عنه وكتب له كتاب أمان، فقدم بغداد فولّي مشيخة الشيوخ وأعطى رباط المشرعة، ثم بعثه في رسالة إلى جزيرة كيش^(٥٢) ومعه جماعة من الصوفية فغرق في البحر ومن معه، سمع جده لأمه أبا القاسم عبد الرحيم شيخ الشيوخ، وأبا الفتح بن البطي، وأبا زرعة وغيرهم.

وفيها: أخذ حاجب الباب كمال الدين محمد بن الناعم، وكان حسن الصورة، قبيح الفعال، صادر جماعة وماتوا تحت الضرب، فلما قبض عليه ضرب ضرباً مبرحاً فلم يقر بشيء، فمات تحت الضرب ورمي به في دجلة كما كان يفعل بالناس، وظهر له بعد ذلك أموال عظيمة ودفائن كثيرة.

وفيها: توفي الشيخ العماد محمد بن يونس الفقيه الموصلّي، ولد سنة خمس وثلاثين وخمسمائة وتفقّه وانتهت إليه رئاسة مذهب الشافعي بالموصل، وبعث رسولا إلى بغداد لما توفي صاحبها نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود، وكان به وسواس في الطهارة يبعث كل يوم غلامه إلى الجسر فيقف في وسط الشاطئ ويملا الأباريق فيتوضأ بها، وكان على ما قيل يعامل الناس بالغيبة، فالتقاه قضيب البان الموله يوما فقال له العماد: سلام عليك يا أخي كيف أنت؟ فقال: أما أنا فبخير، بلى قد بلغني عنك تغسل أعضائك بأباريق ماء كل يوم، فلم لا تنظف اللقمة التي تأكلها؟! ففهم العماد قوله فرجع عن ذلك وكانت وفاته في رجب بالموصل.

وفيها: توفي بنيسابور في شعبان منصور بن عبد المنعم بن عبد الله الفراوي، من أهل بيت الحديث رواية ودراية، ولد سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة في رمضان، وقدم بغداد حاجا في سنة تسع وتسعين وخمسمائة،

وحدث بها عن أبيه وجد أبيه فقيه الحرم أبي عبد الله محمد بن الفضل
الفراوي، وزاهر بن طاهر الشحامى وغيرهم، وحدثنا عنه شيخنا أبو
عمرو بن الصلاح، ومحمد، بن أبي الفضل المرسى وغيرهما. وكان له
ثلاث كنى: أبو القاسم، أبو بكر، أبو الفتح.

وفيها: توفي صارم الدين بزغش العادلى بدمشق فى الثالث والعشرين
من صفر، ودفن بترتبه فى الجبل غربى الجامع المظفرى.

ووصل الخبر بقتل الأمير المعروف بأبيك فطيس بظاهر حلب فى
حام، قتله فيه مملوك له تركى خامس عشر رجب.

وتوفى قاسم التركمانى بالعقبة ظاهر دمشق فى التاسع والعشرين من
شوال، وهو والد ابن قاسم الدين والى دمشق.

وفيها: توفي صاحب الروم خسرو شاه بن قليج أرسلان، وخلف
ولدين: كيكافوس توفي سنة خمس عشرة وستائة كما سيأتى ذكره، وهو
الذى تسلطن بعده، وكيقباد وتولى بعده أخوه.

ثم دخلت

سنة تسع وستمائة

ففيها: كانت نكبة سامة الجبلي، صاحب دار سامة داخل باب السلامة التي هي الآن مدرسة للشافعية، وكان أحد الأمراء الكبار، وهو الذي ذكر عنه أنه سلم بيروت إلى الفرنج كما تقدم.

قال أبو المظفر: اجتمع العادل وأولاده: الكامل، والفائز، والمعظم بدمياط، وكان سامة بالقاهرة قد استوحش منهم واتهموه بمكاتبه الظاهر صاحب حلب، وحكى لي المعظم أنه وجد له كتباً إليه وأجوبة فخرج سامة من القاهرة كأنه يتصيد، فاغتنم اجتماع الملوك بدمياط، وساق إلى الشام في مماليكه يطلب قلاعه وهما: كوكب، وعجلون، وذلك يوم الاثنين سلخ جمادى الآخرة، فأرسل صاحب بلييس الحمام إلى دمياط يخبرهم بذلك، فقال العادل: من ساق خلفه فله أمواله "قلاعه"، فقال المعظم: أنا، وركب من دمياط يوم الثلاثاء غرة رجب، وكنت معه، فقال لي: أنا أريد أن أسوق، فسق أنت مع قماشي ودفع لي بغلة، وساق معه نفر يسير وعلى يده حصان، وكان صباح يوم الجمعة في غزة، ساق مسيرة ثمانية أيام في ثلاثة أيام فسبق سامة، وأما سامة فإنه انقطع عنه مماليكه ومن كان معه، وبقي وحده وبه نقرس فجاء إلى بلد الداروم، وكان المعظم قد أمسك عليه من البحر إلى الزرقاء، فرآه بعض الصيادين في بركة الداروم فعرفه فقال له: إنزل، فقال: هذه ألف دينار وأوصلني إلى الشام، فأخذها الصياد، وجاء رفاقه فعرفوه أيضاً فأخذوه على طريق الخليل عليه السلام ليحملوه إلى عجلون، فدخلوا به القدس، يوم الأحد سادس رجب، جاء بعد المعظم بثلاثة أيام، فقال لي المعظم رحمه الله: ماكنت خائفاً إلا أن يصادفني في الطريق غلمانة فيقتلونني، لو رماني أيديكين

بسهم قتلني فأهلك الله أيديكم والجميع، فأنزل سامة في صهيون وبعث إليه بثياب وطعام ولطفه وراسله وقال: أنت شيخ كبير وبك نقرس وما يصلح لك قلعة سلم إلى كوكب وعجلون، وأنا أحلف لك على مالك وملكك وجميع أسبابك وتعيش بيننا مثل الوالد، فامتنع وشم المعظم، فلما يئس المعظم منه بعث به إلى الكرك فاعتقله واستولى على قلاع وأمواله، وذخائره، وخيله، فكان قيمة ما أخذ منه ألف ألف دينار (٥٣) .

وحج بالناس من العراق حسام الدين بن أبي فراس نيابة عن محمد ابن ياقوت وكان معه مال وخلع لقتادة حتى سكت عنهم، ومن الشام شجاع الدين محارب على إيلة.

وفيها: استولى اليان القبرسي على أنطاكية فرميت تلك الأعمال منه بداهية، وتابع الغارات على تركمانها فشردهم فتجمعوا وأخذوا عليه المضايق، وحصر في واد فقتلوه وجميع رجاله وطافوا برأسه في أعماهم، ثم حملوه في البحر إلى الملك العادل بمصر، وهذا الملعون هو الذي كان هجم على فوة وبورة كما تقدم.

وفيها: كان عزل الوزير صفى الدين بن شكر عن وزارة العادل، والقبض على أملاكه، ثم نفي إلى الشرق.

وفيها: تظاهرت اسماعيلية الموت ولمسر وما والاهما من بلاد العجم بالاسلام وإقامة شعائره والرجوع عما كانوا عليه من الفساد، وأرسل زعيمهم جلال الدين حسن إلى الخليفة الناصر يبذل الطاعة ويستدعي قضاة وفقهاء يفقهونهم ويقضون بينهم فأجيب، وبعث إلى الحصون الشامية مصياف، والخوابي، والقلعة وما ينضاف إليها مما ينسب إلى

الاسماعيلية من أظهر فيها شعائر الاسلام، وتجديد المساجد، وإقامة الحد على من ارتكب محرما.

وفيها: خرب حصن كوكب ونقل ذخائرها إلى الطور.

وفيها: توفي مادح الرحمن، وفخر الدين اسرائيل، وعز الدين عبيد الفلكي، صاحب الدار والحمام المنسويين بعده إلى ابن موسك مقابلة دار الحديث النورية.

وفيها: في ثامن ربيع الأول، توفي الملك الأوحده صاحب خلاط، واسمه أيوب بن أبي بكر بن أيوب، ولقبه نجم الدين، وكان قد سفك دماء المقدمين من أهل خلاط، فلم يطل عمره، ملك خلاط أقل من خمس سنين وابتلى بأمراض مزمنة كان يتمنى الموت معها، وكان قد استزار أخاه الأشرف من حران فأقام عنده أياما، فاشتد مرضه فطلب الأشرف الرجوع إلى حران لئلا يتخيل منه الأوحده، فقال له الأوحده: يا أخي: كم تلح والله إني ميت وأنت تأخذ البلاد، وكان الأوحده قد صاغ للأشرف طلعة ذهب من خمسمائة دينار للسنجق وبقيت في الخزانة، واشتغلوا بمرض الأوحده فتوفي وملك البلاد الأشرف، وأول ركوبه في خلاط بالسنجق كان بتلك الطلعة، وكانت وفاة الأوحده بملازكرد فدفن بها وجاء الأشرف فدخل خلاط فأحسن إلى أهلها وخلع عليهم وعدل فيهم فأحبوه وأطاعوه.

وفيها: توفي أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن أبي بكر القفصي المحدث المقرئ، سمع الكثير بدمشق وغيرها، وكتب كتبا كثيرة، وكانت وفاته في ربيع الأول، ودفن عند المنيع بمقابر الصوفية.

وفيها: توفي بمرؤ أبو الفتح محمد بن سعد بن محمد الديباجي، من أهل مرو، ولد في المحرم سنة سبع عشرة وخمسمائة، وسمع الحديث، وقدم

بغداد حاجا سنة ستمائة ومعه كتاب سماه «المحصل في شرح المفصل»
للزحشري في النحو، وعاد إلى مرو، وسمع أبا سعد بن السمعاني وغيره
وكان فاضلا ثقة.

وفيها: توفي الشيخ أبو الثناء محمود بن عثمان بن مكارم النعال الحنبلي
الزاهد، ولد في سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ببغداد بالبدرية، وقرأ
القرآن، وسمع الحديث، وكان أمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، وكان له
رياضات ومجاهدات، وساح في بلاد الشام وغيرها، وبنى رباطا بباب
الأزج يأوي إليه أهل العلم من المقدسة وغيرهم، وكان يؤثرهم، وانتفع به
خلق كثير، وكان شيخا مهيبا لطيفا كيسا - باشا متبسما، يصوم الدهر
ويختم القرآن كل يوم وليلة، ولا يأكل إلا من غزل عمته.

وحكي أنه كان ببغداد رجل عواني يقال له شروين، وكان فاتكا ذا
شر إذا رأى امرأة أو صبيا مستحسنا في طريق تبعه، فإذا صادف رجلا
من أولاد الناس لزمه، وقال: كانت هذه أو هذا عندك ومقصوده يأخذ
منه شيئا ويقول له امش إلى المحيس فيأخذ مامعه، قال: فسألني جماعة
من الأخيار أن نمضي إلى زيارة قبر معروف الكرخي، واشترى مأكولا
وعبرنا دجلة وقد تبعنا شروين ولم نعلم، فدخلنا بستانا وقعدنا نأكل وإذا
به قد هجم علينا وقعد بيننا فخاف الجماعة منه، ومدّ يده فأخذ لقمة
فصحت عليه صيحة عظيمة، وقلت له: ويلك قم فنحن لا يأكل معنا
إلا من هو ولي الله تعالى، قال: فتغير لونه ورمى باللقمة من يده وولى
منصرفا وما عاد إلى مثلها، وكانت وفاة محمود في صفر ودفن برباطه رحمه
الله تعالى.

ثم دخلت

سنة عشر وستمائة

ففيها: أمر العادل بإحداث تركيب سلاسل، على أفواه السكك المجاورة للجامع، ومدها في أيام الجوع ليمنع الخيل من قرب أبواب الجامع، وذلك لما كان ينال الناس من المشقة من زحمة الخيل التي يركبها بعض المصلين إلى الجامع، فحصل للناس بذلك رفق عظيم، ثم ترك ذلك بعد زمان، وعاد الأمر إلى ماكان عليه إلى الآن، وعمل بعض المتفرغين في ذلك نظماً كان يغني به في الأسواق أوله:

إن ذاعام جـديـد
إن ذايوم سعيـد
والمدينة هـاربـة
قيـدوهـا بالحدـيد
كل جمعة يسجنـوهـا
كأنهم مايعرفـوهـا
والنبي لوأطـلـقهـا
مابرح باب البريـد

وفيهما: وصل الفيل من الديار المصرية ليحمل هدية إلى الكرج، وازدحم الناس للتفرج عليه وذلك في ثاني صفر.

وفيهما: ولد الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب.

وفيهما: قدم إلى بغداد شمس الدين التبرني رسولا من الملك العادل وكان قد أحسن إلى العادل لما حوضر بدمشق، وأقرض له أموال التجار

وضمنها، فرأى له العادل ذلك فأحببه وقربه وحسده الصفي بن شكر فأبعده بالرسالة.

وحج بالناس ابن أبي فراس من العراق، ومن الشام الغرز صديق بن تمرتايش التركماني على إيلة بحاج الكرك والقدس.

وفيها: قدم الملك الظافر خضر ابن السلطان صلاح الدين رحمه الله من حلب بعزم التوجه إلى الحج، فنزل بالقايون يوم الأحد رابع شوال، ثم انتقل إلى مسجد القدم خامسه ووصل ابن عمه المعظم من حيث كان بنواحي شام حوران واجتمع به على جسر الخشب سادسه، وعمل له دعوة بداره تاسعه، ودعتها جميعا عمتها ست الشام إلى دارها ثامن عشره، ورحل من دمشق متوجها إلى الحج في جمع من الحجاج تاسع عشر شوال، وخرج معه المعظم فودعه وتوجه نحو الجابية، فاجتمع الحاج ببصري، فرحل بهم الظافر منها ضحوة يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شوال الموافق لثاني عشر آذار فسلخوا طريق تيماء إلى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، فحصل على الزيارة ثم أحرم بالحج فلما وصل إلى بدر رد من الطريق.

قال أبو المظفر: وكان حج معه يعقوب الخياط المغاري، كان مقيما بمغارة الجوع بقاسيون، وكان صديق الظافر، فلما وصل الظافر إلى بدر وجد عسكر الكامل ابن عمه العادل صاحب مصر قد سبقه خوفا منه على اليمن، فقالوا: ترجع، فقال: قد بقي بيني وبين مكة مسافة يسيرة ووالله ماقصدي اليمن، وإنما أريد الحج فقيدوني واحتاطوا بي حتى أقضي المناسك، وأعود إلى الشام، فلم يلتفتوا فرجع إلى الشام، وعاد يعقوب الخياط معه ولم يحج.

وحكى لي والدي رحمه الله وكان ممن حج معه في تلك السنة: أنه شق

على الناس ماجرى عليه، وأراد كثير منهم أن يقاتلوا الذين صدوه عن المضي في حجته، فنهاهم عن ذلك واختار الرجوع على الفتنة، وفعل ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم عام الحديبية حين صدّه الكفار عن البيت فقصر من شعره وذبح ما تيسر وكان محرماً من ذي الحليفة، ولبس ثيابه وودع الناس، ورجع وعيون الناس باكية ولهم ضجيج وعويل، ولحقهم عليه حزن طويل من جهة صدّه عن مشاعر الدين وهو ابن مثل صلاح الدين، رحم الله الجميع.

وفيها: وصل كتاب من جهة بلاد خراسان من بعض فقهاء الحنفية إلى الشيخ تاج الدين الكندي بدمشق يخبر فيه بخلاص خوارزم شاه محمد من أسر التتر وعوده إلى مملكته، وهو أنه كان منازلًا لطوائف التتر بعساكره فخطر له أن يكشف أمورهم بنفسه فتنكر ودخل عسكرهم ومعه ثلاثة نفر في زي القوم، فأنكروهم وقبضوهم وضربوا اثنين فماتا تحت الضرب ولم يقرأوا، ووكّلوا بخوارزم شاه ورفيقه فهربا بالليل ووصل إلى معسكره سالماً، وعاد إلى ماكان من التصدي لمنزلتهم.

وفيها: ظهرت بلاطة وهم يحفرون في خندق حلب فقلعت فوجد تحتها تسع عشرة قطعة من ذهب وفضة على هيئة اللبن، فاعتبرت فكان منها ذهباً مصرياً ثلاثة وستون رطلاً بالحلبى وعشرة أرطال ونصف صوري، وأربعة وعشرون رطلاً فضة، ثم وجدوا حلقة من ذهب وزنها رطلان ونصف فأكمل الجميع قنطاراً.

وفيها: قتل أحمد بن محمد بن عمر الأزجي، ويعرف بالموفق نشأ بباب الأزعج وسمع الحديث من ابن كليب، وابن يونس، وابن طبرزد وغيرهم، وكان فقيراً خرج إلى الشام واجتمع بالملك الظاهر صاحب حلب، وقال له: قد بعث لك الخليفة معي إجازة، وتقول على الخليفة فخلع عليه وأعطاه خمسين ديناراً ودار على ملوك البلاد فحصل له منهم ثلاثمائة دينار.

قال أبو المظفر: واجتمعت به في دمشق وقد رجع من زيارة القدس فقلت له: إلى أين انتهت زيارتك؟ فقال: إلى لوط، وكان مطبوعاً، وبلغني حديثه فقلت له: قد فعلت ما فعلت فلا تقرب بغداد فقال: «أتتك بحائن رجلاه» فقلت: ما أخوفني أن يصح المثل فيك، فكان كما قلت، نزل إلى بغداد في سفينة من الموصل، وصعد باب الأزج إلى بيت أخته وقت المغرب، فلما كان بعد العشاء الآخرة طرق الباب طارق فقال: من هذا؟ فقال كلم من يطلبك فخرج وإذا برجل فسحبه عن الباب وضربه بسكين حتى قتله، ثم صاح على الباب أخرجني خذي أخاك ومامعه، فخرجت أخته وإذا به مقتول فأخذت المال ودفنته في الليل.

وفيها: توفي أبو الفضل أحمد بن مسعود بن علي التركستاني، الحنفي، قدم بغداد وكان قد تفقه وبرع في علم النظر، وانتهت إليه الرئاسة في مذهب أبي حنيفة، ولاة الوزير ابن مهدي المظالم، والتدريس بمشهد أبي حنيفة.

وفيها: توفي أبو محمد اسماعيل بن علي بن الحسين الملقب بالفخر غلام ابن المنى، ويعرف بابن الرفاء وبابن الماشطة الحنبلي، ولد سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وقرأ المذهب والخلاف على أبي الفتح، وقرأ طريقة الشريف، وصنف له تعليقة وجدلاً من كلام الشريف، وزاد عليه ونقص منه حتى سماه أهل بغداد النظيف من تعليق الشريف، وكان فصيحاً وله عبارة جيدة وصوت رفيع، وكان له حلقة بجامع الخليفة يجتمع إليه الفقهاء فيها ويناضونهم، وولاه الخليفة ضياع الخاص فظلم الرعية وجبى الأموال من غير حلها، فشكوه إلى الخليفة فسخط عليه وعزله فأقام في بيته خاملاً فقيراً يعيش من صدقات الناس إلى أن مات في ربيع الأول، ودفن بداره بدرب الجب، ثم نقل بعد مدة إلى باب حرب وبيعت الدار.

قال أبو المظفر: وولده محمد بن اسماعيل الملقب بالشمس قدم الشام بعد سنة عشرين وستائة وتعاطى الوعظ، وكان فاسقا مجاهرا خبيث اللسان، وكان معه جماعة من المردان من أبناء الناس يقول إنهم مماليكه، وسمى نفسه ابن المنى، وإنما هو ابن غلام ابن المنى، وبدت منه بدمشق ومصر والشام هنات قبيحة، وكان يضرب الزغل مع هذه الهنات، وورد خالي أبو محمد يوسف رسولا إلى الكامل فكتب في حقه إلى بغداد شيئا وشنع عليه، وكان الخليفة هو المستنصر فلم يسمع منه، ونفاه الكامل من مصر، فجاء إلى دمشق وأنا بها فهجا قاضيها شمس الدين بن الخوئي، ومحتسبها وشيخ شيوخها الصدر البكري، وأعيان الدماشقة هجاهم بقصيدة يقول فيها:

شيخ شيوخ الشام مسخرة

هذا وقاضي قضاتهم بردى

وكان نازلا في مدرسة الحنابلة عند الناصح بن الحنبلي فهجا الناصح والمقادسة، واتفق أنه أخذ غلاما في السوق ومعه دراهم زغل ووصل الخبر إلى المعظم فأراد قطع يده، ثم نفاه ومات المعظم وهو بدمشق، وأقام بالشام مدة ثم خطر له النزول إلى بغداد فقدمها في أيام المستنصر بالله، وتوصل حتى جلس بباب بدر، ثم شرع في السعيات بالناس، واتفق أن غلاما له تعرض لبعض حرم الناس من السطح فجاء زوجها وشنع عليه، فمضى إلى أستاذ الدار ولبس عليه وقال: أمرك الوزير أن تضرب زوجها مائة خشبة وتحلق لحيته، ففعل بالرجل ذلك، وبلغ الخبر المستنصر فقامت عليه القيامة وبعث إلى الوزير فأنكر عليه، فأحضر أستاذ الدار وسأله عن القضية فأحال على غلام ابن المنى، فأمر الخليفة بأن يخرج إلى باب النوي ويضرب مائة خشبة ويقطع لسانه ففعلوا به ذلك، وأعطوه لسانه في مداسه بيده ونادوا عليه جزاء من يكتر كلامه، وحمل إلى البيمارستان العضدي فتكلم، وكان قطع لسانه من أصله وبرأ وأخرج من البيمارستان فعاد إلى السعاية بالناس فقال المستنصر: لا يجيء

من هذا خير أبدا يحمل إلى واسط ويرمى في مطمورة، فنفي إلى واسط وألقي في مطمورة، فمات بها في أيام المستنصر، وكان مافعل به المستنصر من أكبر حسناته^(٥٥).

وفيها: توفي ابن حديدة الوزير، واسمه سعيد بن علي بن أحمد، أبو المعالي، ولقبه معز الدين، وهو من ولد قطبة بن عامر بن حديدة الأنصاري الصحابي رضي الله عنه، ولد بسامراء سنة ست وثلاثين وخمسمائة، ونشأ ببغداد وكان أحد الموسرين له مال كثير، وجاء عريض، واستوزره الإمام الناصر في سنة أربع وثمانين وخمسمائة، وخلع عليه خلعة الوزارة الكاملة القميص الأطلس، والفرجية الممرج والعمامة القصب والمكحلية بأعلام الذهب، وقلده سيفاً محلى وقدم له فرساً من خيل الخليفة فركبه وخرج أرباب الدولة يمشون بين يديه من باب حجرة الخليفة إلى دار الوزارة، وهو الذي كان الشيخ أبو الفرج بن الجوزي يجلس في داره ويمدحه، ولم يزل على الوزارة حتى ولي ابن مهدي نقابة العلويين فشرع فيه، ومازال بالخليفة حتى عزله واعتقله وطالبه بهال، فالتجأ إلى التربة الأخلاطية فلم ينفعه وأدى المال وأقام في بيته إلى أن ولي ابن مهدي الوزارة، فسلم إليه فاعتقله في داره بدرج المطبخ، وعزم على تعذيبه فواطأ الموكلين به وحلق رأس نفسه ولحيته وخرج في زي النساء إلى مراغة، وأقام بها حتى عزل ابن مهدي وعاد إلى بغداد فنزل داره بالصويين وأقام بها حتى توفي في جمادى الأولى، ونقل إلى الكوفة فدفن في مشهد أمير المؤمنين، وكان جواداً، سمحاً كثير الصدقات، والمعروف، متواضعاً.

وفيها: في شوال توفي سنجر بن عبد الله الناصري الذي كان عصى على الخليفة ثم عفا عنه. وكان ذليلاً بخيلاً ساقط النفس مع كثرة البلاد والأموال، وتولى إمارة الحاج في سنة تسع وثمانين وخمسمائة وعاد في صفر سنة تسعين، فاعترض الحاج رجل بدوي من الأعراب يقال له دهمش في

نفر يسير ومع سنجر خمسمائة فارس فلم يلقه وذله، فطلب دهمش منه خمسين ألف دينار فجمعها سنجر من الحاج وضيق عليهم، ولما ورد بغداد وكل عليه الخليفة بذلك المال، وأخذته منه، وردته على أصحابه وعزله عن إمارة الحاج وولاها طاشتكين.

وفيها: توفي تاج الأمناء أبو الفضل أحمد بن محمد بن الحسن بن هبة الله من بني عساكر، أخو الفخر وزين الأمناء، وهو أكبر منهما، سمع عميه الضياء بن أبي الحسن: والثقة الحافظ أبا القاسم وغيرهما، ودفن عند مسجد القدم، وخلف أولادا كثيرين، وكان من أصدقاء الشيخ تاج الدين الكندي، وكان له سمت حسن، وكانت وفاته يوم الأحد ثاني رجب، ودفن في الغد بمقبرة مسجد القدم على جده لأمه قبلي المحراب.

وفيها: توفي الصفي إبراهيم بن التبنيني ودفن بالجبل وهو والد البدر.

وفيها: توفي بحلب تاج العلاء النسابة الشريف الحسني الرملي الذي كان بآمد، وكان اجتمع هو وأبو الخطاب بن دحية فقال له تاج العلاء: إن دحية لم يعقب، فرماه ابن دحية بالكفر في مسائله الموصلية.

وفيها: توفي عبد الجليل والد الشمس وصديقنا الشيرجاني، راوي كتاب البخاري عن أبي الوقت، سمعه عليه خلق كثير بدمشق، وكان نازلا بدويرة حمد في سابع عشر جمادى الأولى ودفن بالجبل.

- ٩١٤٣ -

ثم دخلت

سنة إحدى عشرة وستمائة

ففيها شرع في تبليط رواقات الجامع الداخلية، وابتدأ بالحجر الشرقية مكان السبع الكبير في ثالث عشر المحرم، وكانت أرض الجامع كلها قد تكسر رخامها فبقي حفرا وجورا.

وفيهما فوض تدريس المدرسة النورية الحنفية إلى الشيخ جمال الدين محمود الحصري العجمي، وحضر المعظم مع الفقهاء، ودرس في ثالث ربيع الأول.

وفيهما: توفي ابن سيف الاسلام صاحب اليمن، واستولى عليها سليمان ابن شاهنشاه بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب باتفاق من أجنادها وتزوج بأم ابن سيف الاسلام المتوفى فأذن العادل للكمال في تنفيذ ابنه إلى اليمن ليملكها ففعل، فملك أوتيس بن الكامل بن العادل اليمن وتلقب بالملك المسعود، وكان جبارا فاتكا قتل باليمن ثمانمائة شريف، وخلقاً من الأكابر والعظماء.

وفيهما: أخذ المعظم قلعة صرخد من ابن قراجا، وعوضه عنها مالا وإقطاعا.

وحج بالناس من العراق أبو فراس بن ورام نائبا عن محمد بن ياقوت، ومن الشام علم الدين الفقيه نصر الله الجعبري. إمام الملك المعظم عيسى.

وفيهما: حدثت المعاملة بالقرطيس السود العادلة، فبقيت زمانا، ثم بطل ضربها وتناقصت من أيدي الناس إلى أن فنيت.

وفيها: أعطى المعظم صرخد وأعمالها مملوكه استاذ داره عز الدين أيك المعظمي، فبقيت في يده إلى أن أخرجه منها الصالح أيوب بن الكامل سنة أربع وأربعين وستمائة.

وفيها: حج بالناس المعظم بن العادل، فسار من الكرك على الهجن حادي عشر ذي القعدة، وعماد الدين بن موسك، والظهير بن سنقر الحلبي وغيرهم، وسلكوا طريق العلا وتبولك، وجدد المعظم البرك والمصانع، وأحسن إلى الناس، وتلقاه سالم أمير المدينة وخدمه، وقدم له الخيل والهدايا وسلم إليه مفاتيح المدينة، وفتح الأهرار وأنزله في داره وخدمه خدمة عظيمة، ثم سار إلى مكة فوصلها يوم الثلاثاء سادس ذي الحجة وكانت وقفة تلك السنة يوم الجمعة، وانفصل عن مكة بعد أداء الفرض يوم الثلاثاء ثالث عشر الشهر، وقدم المدينة فأقام بها، ثم انفصل عنها عائدا إلى الشام صحبة الأمير سالم صاحبها في الخامس والعشرين منه.

قال أبو المظفر: وحكى لي رحمه الله قال: قلت له: أين نزل؟ فأشار إلى الأبطح بسوطه فقال: هناك، فنزلنا بالأبطح، وبعث لنا هدايا يسيرة، وحج السلطان على مذهب أبي حنيفة، وأتى بجميع المناسك وإحياء السنة، أحرم قارنا، وبات بمنى ليلة عرفة، وصلى بها الصلوات الخمس، وسار إلى عرفة وقضى نسكه كما أمره الله تعالى.

ولقد رأيت كتفه بعد ما عاد وقد أكلته الشمس وانكشط، وقيح، فقلت: ماهذا؟ قال: ماغطيت رأسي ولاكتفي منذ ثلاثة عشر يوما، قلت: لم تكن له حاجة إلى كشف كتفه فإنه لا يستحب إلا حالة الاضطباع في طواف القدوم والله أعلم.

قال أبو المظفر: وتصدق على فقراء الحرمين بهال عظيم، وحمل

المنقطعين وزودهم وأحسن إليهم. ولما عاد إلى المدينة شكوا إليه سالم من جور قتادة فوعده أن ينجده عليه.

قال: ولما رجع كنت مقبياً بالكرك فخرجت للقائه مع جماعة من الأعيان، والأمراء، والفقراء، والفقهاء فما التفت إلى أحد منهم، ولما رأي ترجل عن ناقته وعانقني وسقنا إلى برزا وكان لقاءنا له على غدير الطرفاء في البرية وشرع يحكي لي صفة حجه وما فعل، وكان والده العادل نازلاً على خربة اللصوص فقال: أريد أن أبغته حتى لا يلتقيني أحد، وسار إليه واجتمع به وحكى له خدمة سالم وتقصير قتادة، فجهز جيشاً مع الناهض بن الجرجي إلى المدينة والتقاهم سالم فأكرمهم، وقصدوا مكة فانهزم قتادة منهم إلى البرية ولم يقف بين أيديهم^(٥٦).

وفيها: هدمت الدور والحوانيت المجاورة للقلعة لتوسيع الخندق ومن جملة ما هدم حمام قاياز النجمي، ووقف دار الحديث النورية وكان قريباً وحوانيت تقابل المار من جهة دار الحديث إلى القلعة.

وفيها: في الثامن والعشرين من ذي القعدة الموافق لآخر آذار على إحدى عشرة ساعة منه أظلم الجو ووقع شبيه بالرمل إلى بعد المغرب ثم ارتفع ذلك.

وفيها: أنشأ المعظم الفندق الكبير المنسوب إليه بأرض عاتكة قبلي القنوات.

وفيها: توفي الأمير بدر الدين دلدرم الياروقي صاحب تل باشر في آخر السنة.

وفيها: توفي إبراهيم بن علي بن محمد بن بكروس الفقيه الحنبلي، ولد سنة تسع وخمسين وخمسمائة وقرأ القرآن وتفقه على مذهب أحمد، وسمع

الحديث على أبيه وغيره وشهد عند القاضي ضياء الدين الشهرزوري، وناظر، وأفتى، ثم إن الله تعالى مكر به فصار صاحب خبر بباب النبوي، ورمى الثوب الواسع ولبس المزنر، وتقلد السيف وظلم وفتك في المال والحريم، وضرب جماعة بالخشب ورماهم في دجلة، وما كانت تأخذه في أذى مسلم لومة لائم، وولي نيابة الباب، وكان مآله أن ضرب بالخشب حتى مات تحت الضرب، وكان يقول وهو يضرب: (ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون)^(٥٧) فكان ذلك آخر كلامه، ورمى به في دجلة ليلاً، وسر الناس بموته لأنه فتك في المال والحريم، وكان أبوه من الصالحين زوجه أبو الفرج بن الجوزي إحدى بناته، وليست أم المذكور.

وفيها: توفي ركن الدين عبد السلام بن عبد الوهاب ابن الشيخ عبد القادر الذي أحرقت كتبه بالرحبة، وحكم القاضي بتفسيقه على ما ذكرناه في أخبار سنة ثلاث وستائة، وكان الخليفة قد استأصله حتى طلب من الناس، ثم توصل حتى ولي وكالة الأمير الصغير على الخليفة.

قال أبو المظفر: وكان خالي أبو القاسم صديقه، وكذا كانت عادته أن يوالي من يعادي أباه، قال لي خالي أبو القاسم يوماً بعد مامات جدي: تيسر لي صديق يشتهدني أن يراك ولم يعرفني من هو فأدخلني إلى دار شممت من دهليزها رائحة الخمر، ودخلنا وإذا الركن عبد السلام جالس وعنده صبيان مردان وهو في حالة قبيحة فلم أقعد، فصاح خالي والركن، فخرجت ولم التف، فتبعني خالي وقال: خجلتني من الرجل، فقلت له: لا جزاك الله خيراً وأسمعتة غليظ الكلام ومرض عبد السلام بعلقة البطن فرمى كبده قطعاً، ومات في هذه السنة^(٥٨).

وفيها: توفي أبو محمد عبد العزيز بن محمود بن المبارك البزار المعروف بابن الأخضر، ولد سنة ست وعشرين وخمسائة، وقيل هو جنابذي الأصل بغدادي الدار والمولد، سمع الحديث الكثير، وصنف الكتب

الحسان من الأبواب والشيوخ والفضائل، وأول سماعه سنة ثلاثين وخمسة، وكانت له حلقة بجامع القصر يقرأ فيها الحديث، ويقرأ عليه، وتصانيفه تدل على فهمه وضبطه وحسن معرفته، وكانت له دكان بزقاق الريحانيين بخان الحسبة، وكانت وفاته في شوال، وصلي عليه بجامع القصر وحضر جنازته العلماء والأعيان، ودفن بباب حرب إلى جانب أبي بكر المرزوقي، سمع قاضي المارستان، وابن السمرقندي: وأبا الوقت: وابن ناصر، والأنباطي وسعد الخير، وغيرهم وكان فاضلاً صالحاً ديناً عفيفاً لطيفاً.

وفيها: في شعبان توفي محمد بن علي بن نصر الحنبلي الواعظ الدوري أصله من الدور قرية بدجيل، سمع أبا نصر، وأبا الوقت وغيرهما، وتعاطى الوعظ ولم يكن من صنعته، وكان يضاهي أبا الفرج بن الجوزي حتى قيل له أيما أعلم أنت أم أبو الفرج؟ فقال: ما أرضاه يقرأ علي الفاتحة، وبلغ ذلك أبا الفرج: فقال: ما أقرأ عليه الفاتحة بل أقرأ عليه قل هو الله أحد، وكان يتعصب له حاكاً قطفتا ودفن في رباطه بقطفتا، وكان ينتحل أشعار الناس ادعى يوماً بيتين لنفسه وأنشدهما على المنبر مشيراً إلى الخليفة، وهما لأبي الفتح البستي:

علم في دجى وشهاب
كلنا في ضيائه واقبأسه
متلف الأموال في وقت بؤس
وجواد بالعفو في وقت بأسه (٥٩)

ثم دخلت

سنة اثنتي عشرة وستمائة

وفيها: شرع في عمارة المدرسة العادلية^(٦٠)

وفيها: وصل الملك المعظم من الحجاز بعد إداءه فريضة الحج والعمرة إلى والده الملك العادل وهو بخربة اللصوص بعد المغرب من ليلة الاثنين سابع عشر المحرم، وفي بكرته وصل الأمير سالم صاحب المدينة النبوية على ساكنها السلام والتحية، فركب العادل وتلقاه وبالغ في إكرامه ودخل الجميع دمشق في الثالث والعشرين من المحرم، وقدم الأمير سالم هديته من تحف الحجاز وعشرين رأساً من الخيل العرب.

وفيها: وصل الخبر بغارة الفرنج على بلاد الاسماعيلية وأخذهم منها نحو ثلاثمائة أسير، وبغارة الكرج على أذربيجان فحازوا ذخائرها وما يزيد على مائة ألف أسير.

وفيها: وصل الصلاح بن شعبان الإربلي من مصر مبشراً بفتح اليمن، واستيلاء ولد الكامل عليه وطاعة من به من العسكر له بغير حرب، وانضمام سليمان شاه المستولي عليه إلى قلعة تعز بعياله وأمواله، ثم وصل الخبر بتملك ولد الكامل قلعة تعز، حصرها وقبض سليمان شاه بن تقي الدين منها، وأحضر إلى مصر تحت الحوطة هو وزوجته بنت سيف الاسلام.

ووصل الخبر من جهة الحجاز بنزول قتادة صاحب مكة على المدينة حرسها الله تاسع صفر وحصرها أياماً وقطع ثمرها جميعه، وكثيراً من نخيلها فقاتله من فيها، وقتل جماعة من أصحابه ورحل عنها خاسراً.

وفي سابع ربيع الآخر عزل القاضي الزكي بن محيي الدين عن الحكم بدمشق وأعمالها، وولي من الغد جمال الدين ابن الحرساني وهو ابن اثنتين وتسعين سنة، ففضى بالحق وحكم بالعدل رحمه الله تعالى.

وفي رابع جمادى الآخرة شرع في عمارة العادلية المقابلة لدار العقيقي من الغرب، وحضر السلطان لترتيب وضعها بين الصلاتين يوم السبت، ثم أحرقت بالنار في رمضان سنة أربع وعشرين.

وفيها: أبطل السلطان ضمان الخمر والقيان في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة، وبقي الأمر على ذلك إلى أن توفي العادل في سنة خمس عشرة — نحو ثلاث سنين — فكان الذين يريدون شرب الخمر يتكلفون الخروج إلى ضياع جبل سنير، وفي صيدنايا ومعربا ونحوهما.

وفيها: وصل رسول الخليفة من بغداد إلى دمشق وهو الشيخ شهاب الدين السهروردي، ونزل بجوسق العادل في رمضان، وسار إلى لحاق السلطان بالقدس وعاد راحلا إلى بغداد في خامس عشر شوال.

وفي ثالث شعبان سار الأمير سالم صاحب المدينة بمن استخدمه من التركمان والراجل إليها من المخيم السلطاني بالكسوة، ثم توفي بالطريق قبل وصوله إلى المدينة، وقام ولد أخيه جمار بالأمر بعده واجتمع أهله على طاعته فمضى بمن كان مع عمه لقصد قتادة صاحب مكة، فجمع قتادة عسكره وأصحابه والتفوا بوادي الصفراء، وكانت الغلبة لعسكر المدينة فاستولوا على عسكر قتادة قتلا ونهباً، ومضى قتادة منهزماً إلى ينبع فتبعوه وحصلوه بقلعته، وحصل الحميد بن راجب من الغنيمة ما يزيد على مائة فرس، وهو واحد من جماعة كثيرة من العرب الطائيين وعاد الأجناد الذين كانوا مضوا مع الأمير سالم من الشام من التركمان وغيرهم صحبه الناهض بن الجرجي خادم المعتمد، وفي صحبتهم كثير مما غنموا

من أعمال قتادة ومن وقعة وادي الصفراء من نساء وصبيان، وظهر فيهم
أشراف حسنيون وحسينيون فاستعيدوا منهم، وسلموا إلى المعروفين من
أشراف دمشق ليكفلوهم ويشاركوهم في قسمهم من وقفهم.

وفيها: كسر كيكافوس ملك الروم الفرنج المتغلين على أنطالية وأخذها
منهم، وأخذ خوارزم شاه محمد بن تكش غزنه من غير قتال، وأخذ ابن
لاون أنطاكية من الفرنج ثم عاد أبرنس طرابلس وأخذها من ابن لاون.

وفيها: في العشرين من المحرم توفي بدمشق الشيخ الفقيه كمال الدين
مودود بن الشاغوري الشافعي وكان فقيها، صالحا، ديناً، خيراً، متواضعاً،
زاهداً، وكان يقرئ الناس الفقه بالجامع قبالة مقصورة الخطابة احتساباً،
ويشرح التنبيه للطلبة، ويطول روحه على تعليمهم وتفهمهم لله تعالى،
ودفن بمقبرة باب الصغير شمالي الحظيرة التي فيها قبر معاوية وغيره من
الصحابة رضي الله عنهم، وكتب على قبره في نصيبة حجر أبيات حسنة
من نظم الشهاب فتیان الشاغوري رحمهما الله، أفادني قراءة ذلك على قبره
شيخنا أبو الحسن السخاوي رحمه الله، وقد خرجت معه لزيارة القبور
فوقف عليه مترجماً، وقال لي: اقرأ ما على القبر فإنه من نظم الشهاب
فتيان فقرأت الأبيات وهو يستحسنها:

كم ضم قبرك يا مودود من دين
ومن عفاف ومن بر ومن لين
ما كنت تقرب سلطاناً لخدمه
لكن غيت بسلطان السلاطين
نبكي عليك وعنا أنت في شغل
بردت سليم حور فردعين
سقى الإله ضريحاً أنت ساكنه
حتى يرى منبتا خضر الرياحين

وفيها: توفي بحران يوم السبت ثاني جمادى الآخرة الحافظ عبد القادر ابن عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الرهاوي، ولد بالرها سنة ست وثلاثين وخمسمائة، ونشأ بالموصل، وكان مولى لبعض المواصلة فأعتقه فطلب العلم وسمع الحديث الكثير، ويقال إنه مولى لبني فهم الحرائين، سافر إلى بغداد، وأصفهان، ونيسابور، والشام، ومصر وغيرها وأقام بالموصل بدار الحديث المظفرية يحدث بها مدة ثم خرج إلى حران فأقام بها إلى أن مات، ودفن بها، سمع بمصر الحافظ السلفي، وببغداد ابن الخشاب، وشهدة، وبأصفهان أبا عبد الله الرستمي وغيرهم، وكان صالحا مهيبا زاهدا ناسكا، خشن العيش صدوقا ورعا رحمه الله.

وفيها: توفي ببغداد في شعبان الوجيه النحوي، واسمه المبارك بن المبارك أبو بكر الواسطي، ولد سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، وكان حنبليا فأذاه الحنابلة فانتقل إلى مذهب أبي حنيفة ثم انتقل إلى مذهب الشافعي لأسباب عرضت له، وكان يقول: ما انقلبت عن مذهبي، وهجي بأبيات تقدم ذكرها في أخبار سنة تسع وسبعين وخمسمائة، وقرأ الأدب على ابن الخشاب وغيره، وبرع فيه وكان يقرئه بالمدرسة النظامية، وله مقدمة في النحو، وصلي عليه بالنظامية، ودفن بالوزيرية عند ابن فضال رحمه الله.

وفيها: توفي بدمشق يوم السبت الثالث والعشرين من شوال الوجيه ابن البوني، واسمه ابراهيم بن يوسف بن محمد بن أبي الفرج المغربي، أحد مشايخ القراء المعبرين بجامع دمشق، وكان يؤم بمقصورة الحنفية الغربية داخل الجامع، وكان يعقد حلقة الإقراء بحلقة ابن طاووس شرقي البرادة، وقبالة حلقة جمال الاسلام ابن الشهرزوري، وكان فاضلا، خيرا، متواضعا، ساعيا في حوائج الناس، قرأت عليه الجزء الأول من القرآن ودفن بالجبل وكان يوما مشهودا، وفي شوال توفي السيد ابراهيم ابن عمر بن سحاق الأسعدي الفقيه الشافعي بخلط.

وفيها: توفي يوم الجمعة العشرين من ذي القعدة ولد الخليفة الناصر، وهو الولد الصغير الذي جعل ولي العهد بدل الكبير، واسمه أبو الحسن علي.

قال أبو المظفر: ويلقب بالملك المعظم وكان جوادا كثير الصدقات وافر المعروف كريم الأخلاق حسن العشرة، مرض أياما، ثم توفي وصلي عليه بتاج الخليفة، وأخرج التابوت وبين يديه أرباب الدولة لم يتخلف سوى الخليفة، وحمل إلى تربة أم الخليفة فدفن معها في القبة.

قال: ومن العجائب أنه دخل يوم الجمعة رأس منكلي مملوك السلطان أزيك الذي كان قد عصى على مولاه وعلى الخليفة، وقطع الطريق، وسفك الدماء، وأخذ المال، ثم تعدت إليه العساكر فقتل أصحابه ونهبت أثقاله وذلك بالقرب من همدان، فهرب في الليل فضل عن أصحابه فجاء إلى بيت صديق له في بعض القرى فقيده الرجل، ثم قتله وحمل رأسه إلى أزيك فبعث به إلى ابن زين الدين، فبعث به إلى الخليفة وأدخل رأسه بغداد على خشبة، وقد زين له البلد وظهر السرور والفرح، ولما وصل الرأس إلى باب درب حبيب وافق في تلك الساعة وفاة علي ابن الخليفة، فوقع صراخ عظيم من دار الخليفة فرد الرأس إلى عقد اللكافين، ورمي في بيت في الخان، وكوسات منكلي مشقة، وأعلامه منكسة، وانقلب ذلك السرور حزنا، وأمر الخليفة بالنيابة عليه في أقطار بغداد ففرشوا البواري والرماد، وخرج العواتق من خدورهن ونشرن شعورهن ولطمن، وقام النوائح في كل ناحية، وعظم حزن الخليفة بحيث امتنع من الطعام والشراب، وغلقت الأبواب وعطلت الحمامات، وبطل البيع والشراء، وجرى في بغداد مالم يجر في بلد آخر، وكان الخليفة قد رشحه للخلافة ففعل في ملكه ما أراد، ورد الخلافة إلى أخيه الأكبر أبي نصر بعد ما كان صرف عن ولاية العهد لأجله، وخلف علي ولدين: أبا عبد الله الحسين ولقبه المؤيد، ويحيى ولقبه الموفق^(٦٢).

- ٩١٥٣ -

وفيها: توفي بدمشق الصمصام أبو ساروخ النجمي، والشريف مؤمن،
وفي رابع ذي الحجة توفي الشريف مجد الدولة إبراهيم بن أبي الحسن
الحسيني بدمشق.

ثم دخلت

سنة ثلاث عشرة وستمائة

ففيها: أحضرت الأوتاد الخشب لأجل قبة النسر في الجامع، بدمشق وعدتها أربعة طول كل واحد منها اثنان وثلاثون ذراعاً بذراع النجارين حيث كانت قطعت من الغوطة، والدخول بها من باب الفرج إلى المدرسة العادلةية إلى باب الناطفانيين، وأقيم هناك لها الصاري، ورفعت ثم وضعت.

وفيهما: في المحرم أيضاً شرع في تحرير خندق باب السر، وهو المقابل لدار المعظم العتيقة المجاورة لنهر بانياس، وكان المعظم ومماليكه وعسكره ينقلون التراب كل واحد يأخذ معه قفة يجعلها على قربوس سرجه ويمضون جميعاً مع المعظم نحو الميدان الأخضر يفرغون القفاف ويرجعون يفعلون ذلك كل يوم، ثم انقسموا فرقتين وكان المعظم وعسكره ينقلون يوماً، وكان أخوه الصالح اسماعيل مع من انضم إليه من العسكر ينقلون يوماً، والناس في الخندق يعملون، وكثير منهم يتفرجون، وكان كل يوم عمل الخندق على طائفة من أهل البلد، وعمل فيه الفقهاء، والصوفية، ولم يبق أحد، ونظم في ذلك أشعار كان يغني بها في الأسواق وتحت القلعة.

وفيهما: كانت الحادثة بدمشق بين أهل الشاغور والعقبيّة وحملهم السلاح وقتلهم بالرحبة والصيارف، وبركوب العسكر للفصل بينهم، وحضور المعظم من جوسق الريس لتسكين الفتنة، وكان مقيماً به وقبض جماعة من مقدمي الحارات منهم ريس الشاغور، وأودعوا السجن في السادس والعشرين من ربيع الأول، ووصل الخبر بتسلم نواب الكامل ينبع من نواب قتادة حماية له من قاسم بن جمار صاحب المدينة على

ساكنها السلام، وكان قاسم بن جمار أخذ وادي القرى ونخلة من قتادة وهو مقيم به ينتظر الحجاج حتى يقضوا مناسكهم، وينازل هو مكة بعد انفصالهم عنها.

وفيها: سار المعظم من قرية العبادية بالمرج إلى أخيه الأشرف على الهجن في البرية على حصن مسلمة بظاهر حران بعد أن كان وصل في سيره، ففاوضه في أمر حلب، وذلك حين كان بلغه موت صاحبها ابن عمه الظاهر غازي صلاح الدين، وكان قد سبق من الأشرف الاتفاق مع القائم بأمرها، فرجع إلى العبادية بعد سبعة عشر يوما، ولم يظهر للناس إلا أنه كان منصورا.

وفيها: ترتب الخطيب بالمصلى لإقامة الجمعة به تاسع عشر رمضان، وأول من خطب به الصدر وكان شيخا صالحا، معيدا بالمدرسة الفلكية، ثم خطب بعده بهاء الدين بن أبي اليسر، ثم بنو حسان إلى الآن.

وفيها: امتنع تجار الفرنج من الوصول إلى الاسكندرية، وصار وصولهم إلى عكا بالبضائع وبيعهم بها فحصل للملك عكا جملة وافرة، وبلغ ضمان قصبتها مائة وعشرين ألف دينار، وكانت سنة قليلة الأمطار غالية الأسعار.

وفيها: سافر أبو المظفر سبط ابن الجوزي إلى خلاط قال: وبعث الخليفة كتاب روح العارفين إلى الأشرف وعرضه على العلماء الذين هم في خدمته وأمرهم أن يشرحوه فلم يقدروا على شرح حديث واحد فأشار إلى شرحه وتبيين ما فيه من الفوائد فشرحته، والنسخة موقوفة بدار الحديث الأشرفية بدمشق. قال: وجلست بقلعة خلاط وحضر الأشرف وبكى وانتفع.

ووصل شهاب الدين عبد السلام بن أبي عصرون من حلب رسولا

من الملك العزيز محمد بن الظاهر إلى الخليفة يسأله تقريره على ما كان عليه أبوه، ونزل الأشرف من خللاط إلى حران في شعبان، وسألني الجلوس بجامع حران فضربت له خركاة في الجامع وحضر وكان يوما مشهورا وجلس في الخركاة، وجاء الفخر بن تيمية الخطيب فقعد عنده وكتبوا إلي رقاعا كثيرة فجمعتها وقلت أتركوها إلى يوم يجلس شيخكم يجيب عنها فهو يطول روحه عليكم، أما هذا اليوم فالوقت ما يجتمل، فأعجب الأشرف وانقضى المجلس، فقلت للأشرف: لا بد لي في هذه السنة من شيئين أحدهما الحج على بغداد، والثاني الإعتكاف بالرقعة، فقال: مبارك.

وخرجت من حران في آخر شعبان أريد الرقة فبينما أنا بين حصن (٦٣) والرقعة وإذا بنجاين بينهم رجل عليه بغلطاق (٦٤) احمر فقلت لأصحابي: هذه شمائل الملك المعظم، فقالوا: الملك المعظم في دمشق ايش جاء به إلى هنا، فلما قربوا منا وإذا به المعظم، وقد أعيت ناقته فنزل وتحدثنا وأكلنا شيئا كان، وأعطانا ناقته وأخذ فرسي، وقال: اين أخي؟ فقلت في الزراعة، فساق واجتمعا، وفاوضه في أمر حلب، وكان الأشرف قد حلف لشهاب الدين طغرل الخادم، وأنه أتاكك العزيز محمد بن الظاهر، فشق ذلك على المعظم، ولم يقل شيئا وجاءا معا إلى الرقة وأنا معتكف بالخانكاه، وحضرا عندي وسار المعظم إلى دمشق وجهزني الأشرف إلى الحج وعمل لي سبيلا مثل سبيله، وتوجهت إلى بغداد.

وحج بالناس من العراق ابن أبي فراس، ومن الشام علم الدين الجعبري، وعدت من الحج على طريق العلا، وتبوك، وجمعت بين زيارة النبي صلى الله عليه وسلم وبين زيارة الخليل عليه السلام في المحرم (٦٥).

وفيها: في ثاني صفر توفي بالقاهرة العضد مرهف بن مؤيد الدولة أسامة بن منقذ، وله من العمر اثنان وتسعون سنة ونصف، وشيع

السلطان جنازته، وكان جليلا عند الملوك وأبوه من قبله، وقد ذكرنا من أخباره في التاريخ وفي كتاب الروضتين مادل على جلالة بيته وأدبه، وشجاعته، وفضائله مع طول عمره رحمه الله.

وفي جمادى الأولى قتل المعروف بابن الطيب الكتبي بباب الجامع بيد الاسماعيليه وكان ينسب إلى خدمتهم متها بمذهبهم بقرب باب السلامة عند غروب الشمس به من يوم الأحد السادس والعشرين منه.

وفيها: في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة توفي الشيخ حسان بن قوام الرصافي بدمشق، وفي أول رجب توفي الشريف اسماعيل بن تغلب بالقاهرة، وفي ثامن ذي القعدة توفي الشريف المدعي الخلافة المستولي على صنعاء وما والاها من أرض اليمن، وقام ولده مقامه فلم يغن شيئا، واستعيد منه كثير مما تغلب عليه أبوه، وفي ثالث المحرم توفيت بدمشق خاتون الشيزرية وبلغت من العمر حدود مائة سنة.

وفيها: توفي صاحب حلب الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب، وعمره أربع وأربعون سنة وتسعة أشهر وخمسة أيام، ومدة ولايته حلب ثلاثون سنة وتسعة أشهر وأيام، ولما اشتد مرضه أوصى بالملك لولده الأصغر محمد لأنه من بنت عمه العادل، وطلب بذلك أن يستمر الأمر له لأجل جده العادل، وأخواله، وأولاده لأنهم ملوك البلاد يومئذ، وأوصى بالملك من بعده لولده الأكبر أحمد، ثم من بعده للمنصور محمد ابن أخيه العزيز عثمان بن صلاح الدين الذي كان أبوه أوصى له

بملك مصر فلم يتم العادل له ذلك، وكان العادل قد زوجه ابنته، وفوض ولاية القلعة إلى خادم أبيض يعرف بالشهاب طغريل كان وصل إلى خدمته من بلاد الروم، وكان مشتهرا بالزهد فصار له عنده مكانة. قال أبو المظفر: وكان الظاهر مهيبا له سياسة وفطنة وكانت دولته

معمورة بالعلماء، والفضلاء، مزينة بالملوك والأمراء، وكان محسنا إلى الرعية وإلى الوافدين عليه، وحضر معظم غزوات والده، وانضم إليه أخوته وأقاربه، وكان ملجأ للغرباء، وكهفا للفقراء يزور الصالحين ويعتقدتهم، ويغيث الملهوفين ويرفدهم، قال: وكان يتوقد ذكاء، وفطنة، سريع الإدراك جلست عنده في سنة اثنتي عشرة وستمئة وكان الأشرف قد أرسلني إليه في فضايا لا يطلع عليها كاتب، وكتب كتابا بيده إلى الظاهر، وكان بحلب فقير ممن يحضر مجالسي قبل ذلك في سنة ثلاث وأربع وخمس وستمئة، وكان ذلك الفقير يقوم في المجلس ويصيح: واه، واه، فيزعج الحاضرين وكان صالحا، والظاهر أنه تغير حاله، فلما جلست سنة اثنتي عشرة عند الظاهر بقي ذلك الفقير يحترق ويقول: كيف أعمل ويرددها، فقال الظاهر: قدموه إلى عندي فقدموه له، فقال له: هذا الذي يقول الشيخ ماهو بمليح؟ قال: بلى، قال: إن أردت أن تصيح صيح فعجب الحاضرون.

وحضره في ذلك المجلس رجل عجمي يقال له أبو بكر النصيبي، وكان صالحا وكان يحمل عصا أبنوس فطابت قلوب الجماعة في ذلك اليوم وبكوا، فقام النصيبي ودار وجاء إلى الظاهر وقال له: أنت فرعون ماتتحرك، وثار في وجه النصيبي مثل التفاحتين وخرج من المجلس فمات بعد ثلاث.

وحضرنا عنده يوم الخميس في دار العدل فجاء بامرأة قد تحدثت على شخص واعترفت بالكذب، فقال للقاضي ابن شداد: ماذا يجب عليها؟ قال: التأديب فقال تضرب بالدرة شريعة، ويقطع لسانها سياسة فقلت له: الشريعة هي السياسة الكاملة وما عداها يكون تعديا عليها، فأطرق فأدبت المرأة وسلمت من قطع اللسان، وله من هذا الجنس نوادر في « الموارد والمصادر ».

وتوفي ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة بعلّة الذرب ودفن بقلعة حلب، ثم بعد ذلك نقل إلى مدرسته التي أنشأها، وقام بعده ولده الملك العزيز محمد وأتابكه شهاب الدين طغريل الخادم فقام بأمره أحسن قيام، واستمال الملك الأشرف يدنيه متى شاء، ويقصيه متى شاء فحفظ مملكة حلب على ولد الظاهر بحسن تدبيره إلى أن كبر واستقل به (٦٦).

وفيها: توفي الشيخ العلامة تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد الكندي، أوجد العصر، وفريد الدهر رواية ودراية، بأنواع علم الأدب، وجمع أصول الكتب وامتعة الله بطول العمر، وعلو المنزلة عند الملوك والأمراء، والقضاة، والأعيان، وجلالة من كان يتردد إلى منزله وحيث كان للسمع عليه والافتباس من فوائده، وفرائده، وكان مولده في الخامس والعشرين من شعبان سنة عشرين وخمسمائة، وقرأ القرآن بالروايات، وله عشر سنين على شيخه الشيخ أبي محمد عبد الله بن علي سبط الشيخ أبي منصور الحافظ، وهو الذي رباه، وكان خصيصا به فأسمعه عليه وعلى غيره كتب كثيرة مثل كتاب سيبويه، والمقتضب للمبرد، والحجة لأبي علي الفارسي، وقرأ العربية أيضا على أبي السعادات ابن الشجري، واللغة على أبي منصور الجواليقي، وسمع الحديث الكثير من ابن ناصر، وابن السمرقندي، والأنماطي، وسعد الخير، ومحمد بن عبد الباقي الأنصاري، وأبي منصور القزاز، وروى عنه تاريخ بغداد للخطيب وغيرهم، وكان مسكنه بدمشق بجيرون بدرب العجمي فكم ازدهم في ذلك الدرب من شيوخ العلم وطلبته أولاد الملوك وخدمته، ومتى ما أريد اعتبار ذلك فليُنظر في الكتب التي عليها طبقات السماع عليه ليعلم جلالة من كان يتردد إليه، وكان فارق بغداد في سنة ثلاث وستين وخمسمائة، وورد الديار المصرية فسمع بفضله فتقرب إليه من هو من أهله، فاشتمل عليه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب وهو: ابن أخي صلاح الدين، ثم ولده الملك الأجد صاحب بعلبك من بعده، ثم

بالشام تردد إليه الملك الأفضل علي في سلطنته، وأخوه الملك المحسن ابنا صلاح الدين، والملك المعظم عيسى بن العادل وغيرهم.

وأخبرني القاضي ضياء الدين بن أبي الحجاج، صاحب ديوان الجيوش المصرية رحمه الله، وكان من أعلم من رأيت بأخبار الناس، وعمل للشيخ أبي اليمن مشيخة حسنة، قال: سألته كيف كان اتصاله بعز الدين فرخشاه؟ فقال: كنت بمجلس القاضي الفاضل رحمه الله في داره بالقاهرة، فدخل عليه فرخشاه فلما استقر بمجلسه جرى ذكر شرح بيت من الشعر لأبي الطيب المتنبي فذكرت منه شيئاً فأعجب فرخشاه. فسأل القاضي الفاضل عني فقال: من هذا؟ قال: هذا العلامة تاج الدين الكندي، أو كما قال، فنهض فرخشاه وقبض علي يدي وأخرجني معه إلى منزله ودام اتصالي به، وكان يحضر مجلسه للقراءة في داره والسماع منه جميع المتصدرين بجامع دمشق من المشايخ المعتبرين. كأبي الحسن السخاوي، ويحيى بن معطي، والوجيه البوني، والفخر التركي، وغيرهم، وقال لي شيخنا أبو الحسن رحمه الله: أنا حرّضت الملك المحسن علي التردد إليه فحمل ذلك ابن عمه الملك المعظم علي ملازمته والقراءة عليه.

وقال في كتابه شرح المفصل: لقيت جماعة من أهل العربية منهم: الشيخ الفاضل أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي رحمه الله تعالى، وكان عنده في هذا الشأن ما لم يكن عند غيره، وأخذت عنه كتاب سيبويه، وقرأت عليه كتاب الإيضاح لأبي علي مستشراحاً، وأخذت عنه كتاب اللمع لأبي الفتح، وكان واسع الرواية، وافر الدراية، ومن العجب أن سيبويه اسمه عمرو و الكندي اسمه زيد، فقلت في ذلك:

لم يكن في عصر عمرو مثله

وكذا الكندي في آخر عصر

وهما زيد وعمرو وإنما

بني النحو على زيد وعمرو

وهذا معنى حسن، وهو نظير قول أبي شجاع بن الدهان من أبيات
تقدم ذكرها في أخبار سنة اثنتين وسبعين وخمسة، وهي:

النحو أنك أحق العالمين به
أليس باسمك فيه يضرب المثل

وقرأ على: شيخنا أبي الحسن من نظمه قصيدة فائقة جامعة لفضائل
أبي اليمن الكندي رحمه الله وهي:

أيها الدائب المعنى المعاني
مقتضى الكد في معاني المعاني
لذباب الكندي زيد أبي اليم
من إمام الأنام فرد الزمان
فعقول الوري في الفهم عنه
ذات فقر للفضل والعرفان
هو بحر فيه نفيس لآل
وسواه كالآل عند العيان
غير بدع إن قر في البحر در
وهو تاج والدر للتيجان
صورة صورة من السؤدد المح
ض وطيب الأنفاس والاحسان
علم سبيويه منفرد في
به بأسناده وبالائقان
وكذا شرح سبيويه وما ح
ل بأقطار هاله فيه بان
وكتاب الإيضاح قد فاق فيه
بحل الإيضاح والتيبان
وكذا كامل المبرد مع مقتض
ب النحو ذي الفصول الحسان

وأصول السراج واللمع الفر
دو شرحاه حبذا الشرحان
والذي حرر ابن برهان في النحـ
ووما قال قبله الرمان
وكذا الحجة الذي فاق فيه
علماء الأعصار والأزمان
والتفاسير والقراءات والتجـ
وويد فيها ومشكل القرآن
وحديث النبي والقول فيه
قوله في غريبه والبيان
والتواريخ والقوافي من الشعـ
ووعالم العروض والأوزان
وليه في العروض ما لم تجده
لمجيد القريض في ديوان
بين جزل غدا حبيب حبيب
وحسان كانت هوى حسان
يقظ واسع المجال رجب البـ
عاع فيما ينأى عن الأذهان
يرشد العاقل الذكي من السهـ
وبقلب ذي فطنة يقظان
وجنان له وقد جاوز التسـ
وعين حولاً نضارة العنـوان
ويدير قم الطروس كما فصـ
ل عقيان ناظم بجمان
فانظر الحظ واسمع اللفظ تنعم
ثم في روضتي يد ولسان
وقر الله بعد طول بقاء
في نعيم نعيمه في الجنان

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: شيخنا تاج الدين الكندي انتهت إليه القراءات، والروايات وعلم النحو واللغات، قرأت عليه من كتاب الصحاح، والمتنبي والحماسة، والإيضاح، والمعرب لابن الجواليقي، وكان يحضر مجالسي بجامع دمشق، وقاسيون ويقول: أنا قد صرت من زبون المجلس، وكان حسن العقيدة، طيب الخلق، لا يسأم الإنسان من مجالسته وله النوادر العجيبة، ولما خرجت في سنة سبع وستمئة إلى الغزاة كتب لي إلى نابلس كتابا بخطه وكان يكتب مثل الدر:

جزى الله بالحسنى ليالي أحسنت
إلينا بإيناس الحبيب المسافر
ليالي كانت بالسرور قصيرة
ولم تك لولا طيها بالقصاير
فيالك وصلا كان وشك انقضائه
كزورة طيف أو كنغمة طائر

قال وكتب أيضا:

أيسا كنا قلبي على بعد دارهم
لقد عيل صبري منذ شطت نواكم
سرى معكم نومي فأصبحت بعدكم
ألوم السرى منه وأبكي سراكم
رضيتم بعادي عنكم فرضيتهم
لأنى أهواكم وأهوى هواكم
شجاني غرام لو وفيتهم ببعضه
لقلب المعنى فيكم لشجاكم
أعيد والناعيد الوصال على اللوى
سقى الله أيام النوى وسقاكم
دعاني اشتياق لم تصبكم سهامه
فياليت له لما دهاني دهاكم

وإني لأخشى أن أموت بغصتي
عليكم ولا أبقى إلى أن أراكم
ولو كان قلبي كالقلوب لغيركم
لقد كان لما أن سلوتم سلاكم

وله ديوان شعر. قال: وحكى لي قال: كتبت إلى الملك الأجد إلى
بعلبك:

لا يضجرنكم كتبتي إذا كثرت
فإن شوقي أضعاف الذي فيها
والله لو ملكت كفي مهادة
من الليالي التي أحيانا نأديها
لما تصرم لي في غير داركم
ليل ولا مت إلا في نواحيها
عدوا احتما لكم لي حين أضجركم
من الصلات التي منكم أرجيها

قال وكتب إلي بخطه وهي له:

إننا لتتحفنا بالشوق كتبكم
وإن بعدتم فإن الشوق يدينها
فكيف نضجر منها وهي مذهبة
من وحشة الشوق لوعات نعانيها
وإن ذكرتم لنا فيها اشتياقكموا
فعندنا منكم أضعاف ما فيها
سلوانسيم الصبا يهدي تحيتنا
إليكم فهي تدري كيف تهديها

قال: وكان المعظم عيسى رحمه الله يقرأ عليه دائما، قرأ عليه كتاب

سيبويه نصبا وشرحا، والإيضاح والحماسة، وشيئا كثيرا، وكان يمشي من القلعة راجلا إلى دار تاج الدين والكتاب تحت أبطه، توفي رحمه الله يوم الاثنين سادس شوال وأنا يومئذ متوجه إلى الحج على بغداد، وصلي عليه بجامع دمشق وحمل إلى قاسيون فدفن به، ولم يتخلف عن جنازته أحد من الأعيان وعمره ثلاث وتسعون سنة وشهر وستة عشر يوما، وكان صدوقا ثقة.

قلت: وقرأت في ديوانه بخطه:

لبست من الأعمار تسعين حجة
وعندي رجاء بالزياده مولع
وقد أقبلت إحدى وتسعين بعدها
ونفسي إلى خمس وسست تطلع
ولاغرو أن آتي هنيذة سالما
فقد يدرك الإنسان ما يتوقع
وقد كان في عصري رجال عرفتهم
حيوها وبالآمال فيها تمتعوا
وماعاف قبلي عاقل طول عمره
ولا لامهم من فيه للعقل موضع

هنيذة اسم علم على المائة.

وقرأت بخطه فهرس كتبه التي وقفها على فتاه ياقوت، ثم على ولده ثم على العلماء فوجدتها سبعمائة وإحدى وستين مجلدا: في علوم القرآن، مائة وأربعون، الحديث تسعة عشر، الفقه تسعة وثلاثون، اللغة مائة وثلاثة وأربعون، الشعر مائة واثنان وعشرون، النحو والتصريف مائة وخمسة وسبعون، علوم الأوائل من طب وغيره مائة وثلاثة وعشرون، وكان

معتقه نجيب الدين ياقوت قد هيا له خزانة كبيرة بمقصورة ابن سنان الحنفية المجاورة لمشهد زين العابدين بجامع دمشق، ونقل إليها جملة من هذه الكتب، ثم إنها تفرقت وخرجت عن الخزانة وعدمت ويبيع جملة منها سرا وجهرا، نسأل الله عفوا وغفرا وصيانة وسترا.

وكان الشيخ تاج الدين رحمه الله قد عمل شرحا لديوان أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبى، فلما انتهى سماعه عليه كتب شيخنا أبو الحسن الثبت فيه بيتان يريد بهما مصنفه أبا اليمن الكندي وهما:

فلو أن أحمد يدري بما
ينال من السعد ما قاله
لرام من التيه وطء السهى
وجر على النجم أذياله

وأخبرني صاحبنا جمال الدين أحمد بن عبد الله بن شعيب، وكان أحد من قرأ على الشيخ تاج الدين أنه كان مع علو منزلته وجلالته متواضعا مع طلبته، يخاطب كلا منهم بقوله: ياسيدنا.

قال: وكنا نقرأ يوما عنده أنا ورفقائي فدخل الملك المعظم فجلس فسكتنا فقال الشيخ للمعظم: إنما سكتوا لأجل السلطان ولم يفرغوا من حزبهم، فقال: لا والله إنما القراءة بالنوبة فليتمموا، فأمرنا الشيخ فأتممنا حزبنا، قال: وكان منصفاً لمن يدخل عليه ولقد سمعته وهو يعتذر لهم عن ترك القيام لكبره وأنشد:

تركت قيامي للصديق يزورني
ولا ذنب لي إلا الإطالة في عمري
فإن بلغوا من عشر تسعين نصفها
تبين في ترك القيام لهم عذري

ومن شعره وقد شرب دواء:

تداويت لامن علة خوف علة
فأصبح دائي في حشاي دوائي
فيا عجب الأقدار من متحذلق
يحاول بالتدبير رد قضاء

وفيها: توفي أبو الغنائم سعيد بن حمزة بن أحمد، ويقال له ابن ساروخ الكاتب النيلي العراقي، ولد بالنيل سنة ثمان عشرة وخمسمائة، وسمع شيوخ ذلك العصر، وسافر إلى الشام والروم، ومدح الملوك والأمراء، وذكره العماد في الخريدة وقال: قدم دمشق ومدح أمراءها وعاد إلى بغداد فكبر وأسن وانقطع في بيته إلى آخر عمره وكان بارعا وله رسائل، ومكاتبات، وأشعار رائقة، وألفاظ فائقة شائقة فمن شعره:

يا شائم البرق من نجد كاظمة
يسدو مرارا وتخفيه الديات جبر
إذا سقيت الحيامن كل معصرة
وعاد مغناك خصبها وهو مطور
سلم على الدوحة الغناء من سلم
وعفّر الخدين لآح التعافير
أحن شوقا إلى تلك الرياض وقد
ضاهها بنفسجها ورد ومنثور
ومالت السرو في خضر الثياب كما
تمايلت في الحريير الأخضر الحور
والغصن سكران من ظل النداف إذا
دعا ابن ورقاء أضحى وهو مخمور
وهاتفات على الأغصان قد رقدت
عنهن في غسق الدجى النواطير
فظل يسجعن حتى كدت من ولهي
أقضي ولكني في العمر ترأخير

لكن وجدي بترجيع الهديل وما
غردن باق إلى أن ينفخ الصور

وكانت وفاته ببغداد في رمضان.

وفيها: توفي محمد بن الحافظ عبد الغني المقدسي، ولقبه عز الدين ولد سنة ست وسبعين وخمسمائة، وسمع الحديث، رحل إلى أصبهان، ثم عاد إلى بغداد وقرأ مسند أحمد ببغداد، وسمع أبا الفرج ابن الجوزي وغيره، وعاد إلى دمشق، وحدث عن أصحاب الحداد وغيرهم، وكانت له حلقة بجامع دمشق، وصحب الملك المعظم عيسى، وسمع بقراءته الكثير، وكان حافظ دينا زاهدا ورعا، وتوفي بقاسيون رحمه الله.

وفيها: توفي أبو الفتوح محمد بن علي بن المبارك بن الجلاجلي البغدادي التاجر، ويلقب بالكمال، ولد سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وقرأ القرآن وسافر إلى الأقطار، وسمع الشيوخ وكان يتردد من الخليفة إلى الأشرف في رسائل خفية، سمع ببغداد أبا السعادات المبارك بن علي الوكيل، وأبا بكر عبد الله بن النقور، وابن البطي، وبالاكندرية الحافظ أبا الطاهر السلفي وغيرهم، وكان عاقلا دينا صالحا ثقة صدوقا بساما متواضعا ومات بالقدس.

وفيها: توفي محمد بن يحيى بن عبد الله بن نصر بن النحاس الواسطي الأديب، كتب من واسط إلى أبي المظفر سبط ابن الجوزي رحمه الله: وقائله لما علمت وصار لي
ثمانون عش كذا وأبق واسلم
ودم وانتشق روح الحياة فإنه
لأطيب من بيت بصعده مظلم
فقلت لها عذري ليدك ممهد
بيت زهير فاعلمي وتعلمي

سُميت تكاليف الحياة
ومن يعيش ثمانين حولاً لا محالة يسأم

وفيها: توفي أبو جعفر يحيى بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد
—أربع مرات— العلوي الحسيني البصري يعرف بـابن أبي زيد، ولي نقابة
الطالبيين بالبصرة بعد أبيه مدة، وسمع الحديث من أبيه وغيره، وقرأ
الأدب على أبي علي بن الأحمر الحماني بالبصرة، ومولده سنة ثمان وأربعين
 وخمسمائة، وقدم بغداد ومدح الإمام الناصر بقصائد وكان رقيق الشعر،
توفي ببغداد في رمضان، ودفن بمقابر قريش ومن شعره:

هذا العذيب وهذا الجزع والبان
فاحبس في فيه أوطار وأوطان
آليت والحر لا يلوي أليته
أن لا يلد بطيب النوم أجفان
حتى تعود لي النالتي سلفت
بالأجر عين وجيراني كما كانوا

ثم دخلت

سنة أربع عشرة وستائة

قال أبو المظفر: ففيها قدم شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية إلى بغداد رسولاً من العادل، وقدم بعده ولده فخر الدين رسولاً من الكامل ابن العادل إلى أخيه المعظم في خطبة ابنته لابنه، وحضر المعتمد لطرح البلاطة الخاتمة بيده بحضرة مقصورة الخضر في ثالث المحرم.

وفيهما: قدم بأسرى فرنج وعلى صدر كل واحد منهم رأس فرنجي مقتول معلق، وأحضرت خيمة فرنجية سرقها العرب من نخيم الفرنج بظاهر عكا قيل إنها كنيسة لهم، فنصبت في الميدان الأخضر الصغير، وعمل فيها طعام للفقراء.

وفيهما: ذكر محيي الدين محمد بن يحيى بن فضالان الدرس في النظامية.

وفيهما: زادت دجلة زيادة عظيمة، وركب الخليفة في شعبان وخاطب الناس وجعل يقول لهم: لو كان هذا الماء يرد بهال أو حرب دفعته عنكم، ولكن أمر مالأحد فيه حيلة، وانهدمت بغداد بأسرها والحال، ووصل الماء إلى رأس السور وبقي مقدار أصبعين حتى يطفح على السور، فأيقن الناس بالهلاك، ودام سبع ليال وثمانية أيام ثم نقص الماء، وبقيت بغداد من الجانبين تلولا لا أثر لها.

وفيهما: قدم محمد خوارزم شاه إلى همدان بقصد بغداد في أربع مائة ألف على ماقيل، وقيل ستائة ألف، واستعد له الخليفة، وفرق الأموال والسلاح، وأرسل إليه الشيخ شهاب الدين السهروردي في رسالة فأهانه واستدعاه وأوقفه إلى جانب تخته ولم يأذن له في القعود، فحكى الشيخ شهاب الدين قال: استدعاني فأتيت إلى خيمة عظيمة لها دهليز لم أر في

الدنيا مثله، والدهلير والشقة أطلس والأطناب حرير، وفي الدهليز ملوك العجم على اختلاف طبقاتهم، منهم صاحب همدان، وأصبهان، والري وغيرها، ثم دخلت إلى خيمة أخرى ابريسم وفي دهليزها ملوك خراسان: مرو، ونيسابور، وبلخ وغيرها، ثم دخلت خيمة أخرى وملوك ماوراء النهر في دهليزها كذلك ثلاث خيام فدخلنا عليه وهو في خروكة عظيمة من ذهب وعليها سجاج مرصع بالجواهر وهو صبي له شعرات قاعد على تحت ساذج، وعليه قباء بخاري يساوي خمسة دراهم، وعلى رأسه قطعة من جلد تساوي درهما، فسلمت عليه فلم يرد ولا أمرني بالجلوس فشرعت فخطبت خطبة بليغة ذكرت فيها فضل بني العباس، ووصفت الخليفة بالزهد، والورع والتقوى، والدين: والترجمان يعيد عليه قولي، فلما فرغت قال للترجمان: قل له: هذا الذي يصفه ماهو في بغداد بل أنا أجيء وأقيم خليفة يكون بهذه الأوصاف، ثم ردنا بغير جواب، ونزل الثلج عليهم فهلكت دوابهم، وركب خوارزم شاه يوما فعثر به جواده فتطير، ووقع الفساد في عسكره وقلت الميرة، وكان معه سبعون ألفا من الخطا فرده الله تعالى: «ونكب تلك النكبة العظيمة وسندكرها».

وذكر المنشئ محمد بن أحمد النسوي في كتابه الذي ذكر فيه وقائع التاتار مع علاء الدين محمد خوارزم شاه المذكور، ومع ولده جلال الدين وقد اختصرته^(٦٩) قال: حكى القاضي مجير الدين عمر بن سعد الخوارزمي أنه أرسل إلى بغداد مرارا آخرها لأجل مطالبة الديوان بما كان لبني سلجوق من الحكم والملك ببغداد، فأبوا ذلك وصحبت في عودة بالشيخ شهاب الدين السهروردي رسولا مدافعا، قال: وكان عند السلطان من حسن الاعتقاد برفيع منزلته ما أوجب تخصيصه بمزيد الإكرام ومزية الإحترام تمييزا له عن سائر الرسل الواردة عليه من الديوان، فوقف قائما في صحن الدار ثم أذن للشيخ في الدخول، فلما استقر المجلس بالشيخ قال رحمه الله: إن من سنة الداعي للدولة القاهرة أن يقدم على أداء رسالته حديثا من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم

تيمنا وتبركا، فأذن له السلطان في ذلك، وجلس على ركبته تأدبا عند سماع الحديث، فذكر الشيخ حديثا معناه التحذير من أذيه آل العباس رضي الله عنهم، فلما فرغ الشيخ من رواية الحديث، قال السلطان: أنا ما أذيت أحدا من ولد العباس ولا قصدتهم بسوء، وقد بلغني أن في مجالس أمير المؤمنين منهم خلقا مغلدين يتناسلون بها، فلو أعاد الشيخ الحديث بعينه على مسامع أمير المؤمنين كان أولى وأنفع^(٧٠).

فعاد الشيخ والوحشة قائمة بحالها، ثم عزم على قصد بغداد، وقسم نواحيها أقطاعا وعملا، وسار إلى أن علا عقبة أسد أباد فنزل عليه ثلوج حملت الأباطح والاعلام، وغطت الخراكي والخيام، ودام ثلاثة أيام بلياليها، فعظم إذ ذاك البلاء، وأعضل الداء، وشمل الهلاك خلقا من الرجال ولم ينج شيء من الجمال، وتلفت أيدي رجال وأرجل آخرين. فرجع السلطان عن وجهه ذلك حيثئذ مما هم به ويئس من مطلبه.

وفيهما: كانت جفلة السلطان العادل من الفرنج لما اجتمعوا وخرجوا عليه ووصلوا إلى عين جالوت، وهو ببيسان، فأحرقها وظهر إلى جهة عجلون، ووصل الغور وقطع الفرنج خلفه الأردن وأوقعوا باليزك وغاروا على البلاد وكتب العادل إلى المعتمد وإلى دمشق بالاهتمام والاستعداد واستخدام الرجال، وتدريب دروب قصر حجاج، والشاغور، وطرف البساتين ونقل غلة داريا إلى القلعة، وتغريق أراضيها بالماء فإن الفرنج مظهرون قصدها، واختبئ البلد لأجل هذه الشائعة، وأرسل السلطان إلى ملوك الشرق مستحثا لعساكرهم، ووصل إلى مرج الصفر، ونزل به بنية المقام لإجتماع العساكر إليه، ورد خزانته إليه بعد أن كانت وصلت إلى مسجد القدم في السحر للدخول إلى دمشق، وجفلت أهل القرى من عقربا، وحرستا، وغيرهما، وغلت الأسعار وعزم الناس على النزوح عن البلد متى تحققوا طلوع الفرنج من الغور، وكان للناس ضجيج بالجامع في أوقات الصلاة وبكاء ودعاء، ثم رجع الفرنج متوجهين إلى عكا بمن

حصل في أيديهم من الأسارى بعد أن تمت غارتهم وصلوا إلى خربة اللصوص، وما قرب منها، وإلى أفيق وإلى كثير من أعمال الشعرا والناس بين أيديهم جافلين.

ووصل الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص مع من اجتمع معه من العساكر لنجدة الاسلام، ولم يبق بالبلد أحد لتلقيه، وكان يوما مشهودا طلعت له الشمس عند حرستا، فما وصل إلى البلد إلا وقت الظهر من كثرة الناس في طريقه، ودخل من باب الفرج ومضى على قدمه إلى دار الست فرج الشام أخت العادل الكبرى، أقام عندها ساعة، ثم عاد إلى داره وبات بها وأصبح متوجها إلى السلطان فسكنت قلوب الناس بدمشق بقدومه وزال خوفهم.

وقال أبو المظفر: وفيها: انفسخت الهدنة بين المسلمين والفرنج، وجاء العادل من مصر بالعساكر فنزل على بيسان والمعظم عنده في العساكر الشامية، وخرج الفرنج من عكا ومقدمتهم ملك الهنكر، فنزل عين جالوت في خمسة عشر ألفا، وكان شجاعا مقداما ومعه جميع ملوك الساحل فلما أصبحوا ركب الهنكر في أوائلهم وقصد العادل، وكان العادل على تل بيسان فنظر فرأى أنه لا قبل له بهم فتأخر، فقال له المعظم: إلى أين؟ فشتمه بالعجمية وقال له بمن أقاتل أقطعت الشام ممالكك، وتركت أولاد الناس الذين يرجعون إلى الأصول وذكر كلاما في هذا المعنى، وساق فعبّر الشريعة «عند يرقا» وجاء الهنكر إلى بيسان وبها الأسواق والغلال والمواشي وشيء لا يعلمه إلا الله تعالى فأخذ الجميع، وارتفع العادل إلى عجلون، ومضى المعظم فنزل بين نابلس والقدس على عقبة اللبن خوفا على القدس، وأقام الفرنج على بيسان ثلاثة أيام، ورحلوا طالبين قصر ابن معين الدين، وسار العادل فنزل رأس الماء وصعد الفرنج عقبة الكرسي إلى خربة اللصوص والجولان وأقاموا ثلاثة أيام ينهبون ويقتلون ويأسرون، ثم عادوا فنزلوا الغور، وبعث العادل

أثقاله إلى بصرى ونساءه، وأقام على رأس الماء جريدة، ولما نزل الفرنج الغور جاء العادل فنزل عالقين، ثم نزل الفرنج تحت الطور يوم الأربعاء ثامن عشر شعبان، وأقاموا إلى يوم الأحد ثاني رمضان، وكان يوماً كثيراً الضباب، فما أحس بهم أهل الطور إلا وهم عند الباب قد ألصقوا رماحهم بالطور، ففتح المسلمون الباب وخرج اليهم الفارس والراجل، وقاتلوهم حتى رموهم أسفل الطور، فلما كان يوم الثلاثاء رابع رمضان طلعوا بأسرهم ومعهم سلم عظيم فزحفوا من ناحية باب دمشق وألصقوا السلم بالسور فقاتلهم المسلمون قتالاً لم يجر في الإسلام مثله، ودخلت رماح الفرنج من المرامي من كل ناحية فضرب بعض الزرايين السلم بالنفط فأحرقه، وقتل عنده جماعة من أعيان الفرنج منهم كند كبير فلما رأوه مقتولاً صاحوا، وبكوا، وكسروا عليه رماحهم، واستشهد في ذلك اليوم من أبطال المسلمين الأمير بدر الدين محمد بن أبي القاسم، وسيف الدين بن المرزبان، وكان من الصالحين الأجواد، وأغلق المسلمون باب الطور، وباتوا يداوون الجرحى، وضربوا مشورة، واتفقوا على أنهم يقاتلون قتال الموت ولا يسلمون أنفسهم لئلا يجري عليهم ما جرى على أهل عكا، وكان في الطور أبطال المسلمين، وخيار عسكر الشام، وأوقد الفرنج حول الطور النيران، فلما كان وقت السحر يوم الخميس سادس رمضان رحلوا طالبين عكا، وجاء المعظم فصعد وأطلق المال، وأخلع وطيب قلوب الناس، ثم اتفق العادل والمعظم على خراب الطور كما سيأتي ذكره، وقيل أن المعظم أنفذ كتاباً إلى الخليفة وفي أوله بيتان وهما للأمر عبد المحسن الكاتب الحلبي:

قل للخليفة لازالت عساكره
لها إلى النصر إصــــــدار وإيــــــراد
إن الفرنج بحصن الطور قد نزلوا
لا يغفلن فحصن الطور بغداد

ولما انفصل الفرنج عن الطور قصد ابن أخت الهنكر جبل صيدا وقال: لا بد لي من أهل هذا الجبل، فنهاه صاحب صيدا: وقال: هؤلاء رماة وبلدهم وعرفهم يقبل، وصعد في «خمسائة» من أبطال الفرنج إلى جزين ضيعة الميارنة قريبا من مشغرا، فأخلاها أهلها، وجاء الفرنج فنزلوا بها وترجلوا عن خيولهم ليستريحوا فتحدت عليهم الميارنة من الجبال فأخذوا خيولهم، وقتلوا عامتهم وأسروا ابن أخت الهنكر، فهرب من بقي منهم نحو صيدا، وكان معهم رجل يقال له الجاموس من المسلمين قد أسروه، فقال لهم: أنا أعرف إلى صيدا طريقا سهلا أوصلكم إليه، فقالوا: إن فعلت أغنيناك فسلك بهم أودية وعرة والمسلمون خلفهم يقتلون ويأسرون، ففهموا أن الجاموس غرهم فقتلوه، ولم يفلت إلى صيدا سوى ثلاثة أنفس بعد أن كانوا خمسمائة وجاءوا إلى دمشق بالأسارى (٧١) وكان يوما عظيما.

وحج بالناس من العراق ابن أبي فراس .

وفيها: توفي بهاء الدين أحمد بن أبي الفضائل الميهني شيخ رباط الخلاطية، من بيت التصوف، وكان أبوه أبو الفضائل واسمه عبد المنعم شيخ المشايخ وسيد الصوفية، وكان الخليفة قد سلم إلى بهاء الدين رباط الخلاطية وأوقفها ثقة فيه من غير مشرف ولا عمل حساب، فأقام مدة يقصده الناس من البلاد وأطراف بغداد، وأرباب البيوت، والفقهاء، والفقراء، والأعيان فما رد قاصدا ولا منع سائلا، وكان له الجاه العظيم والذكر الجميل، وكان له مملوك عبد أسود اسمه ريجان، فرأى الذل والهوان بعد العز والإمكان، ومرض بهاء الدين في تلك الحال فولى الخليفة القاضي الريحاني أمر الرباط وحمل بهاء الدين إلى بيت أخته على نهر عيسى، فتوفي ثامن رجب ودفن في الشونيزية في صفة الجنيد عند أبيه، سمع شهادة الكاتبة، وابن البطي وغيرهما، وصحب أباه وأخذ عنه طريق التصوف.

وفيها: توفي الشيخ العماد الحنبلي، وهو الحافظ عبد الغني الزاهد العابد الورع واسمه: أبو اسحاق إبراهيم بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي، ولد بجما عيل سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، ثم سافر إلى بغداد، وقرأ القرآن على أبي الحسن علي بن عساكر بن المرحب البطائحي وغيره، وسمع الحديث الكثير ببغداد، ودمشق، وكان معتدل القامة شعره إلى أذنيه، فليح الوجه بساما عابدا مجتهدا لا يدخر من الدنيا شيئا، حسن الصلاة كثير السجود والدعاء، يقرأ القرآن والفقه دائما في الحلقة بجامع دمشق، ويجتمع إليه الطلبة كل ليلة بعد العشاء الآخرة فيحملهم إلى بيته، ويحضر لهم من الطعام ماتيسر، وما تعرف لأحد من أبناء الدنيا قط لا إلى سلطان ولا إلى غيره.

قال أبو المظفر: ولا تحرك بحركة، ولا مشى خطوة، ولا تكلم كلمة إلا الله تعالى، وكان يتعبد بالإخلاص، ولقد رأيت مرارا بالحلقة في جامع دمشق، والخطيب يوم الجمعة على المنبر، فيقوم عماد الدين ويأخذ الأبريق ويضع بلبه في فيه على رؤوس الأشهاد، ويوهم الناس كأنه يشرب وإنه لصائم، وكان الشيخ الموفق يثني عليه ويقول: أعرف العماد من صغره، وما عرفت أنه عصى الله تعالى قط، وكان من خيار أصحابنا وأعظمهم نفعا وأشدهم عبادة وورعا وأكثرهم صبرا على تعليم القرآن والفقه، داعية إلى السنة، وأقام بدمشق يعلم الفقراء، ويطعمهم ويبذل لهم ماله ونفسه وطعامه، وكان من أشد الناس تواضعا واحتقارا لنفسه، وما رأيت أشد خوفا لله تعالى منه، وكان كثير الدعاء والسؤال طويل الركوع والسجود، يصوم يوما، ويفطر يوما، وكان إذا سمع عليه جزء وكتبوا على ظهره سمع على العالم الورع ينهاتهم عن ذلك، وسافر إلى بغداد مرتين، الأولى في سنة تسع وستين وخمسمائة صحبة الموفق بعد أن حفظ القرآن، وغريب الحديث، ومختصر الخرقى، وتفقه في بغداد على أبي الفتح بن المنى وأفتى وناظر، والسفرة الثانية سنة إحدى وثمانين صحبة عز الدين

ابن أخيه عبد الغني الحافظ، وصنف كتاب الفروق بين المسائل الفقهية وكتاب الأحكام ، ولم يتمه .

قال: وكان يحضر مجالسي دائما بجامع دمشق وقاسيون لا ينقطع إلا من عذر، ويقول صلاح الدين يوسف فتح الساحل، وأظهر الاسلام، وأنت يوسف أحييت السنة بالشام.

قلت: السنة التي يشير إليها كون أبي المظفر رحمنا الله وإياه كان كثيرا ما يورد على المنبر من كلام جده أبي الفرج وخطبه ما يتضمن إمرأ آيات صفات الباري عز وجل وما جاء في الأحاديث الصحاح من ذلك على ماورد من غير ميل إلى تأويل ولا تشبيه ولا تعطيل ومشايخ الحنابلة العلماء هذا مختارهم، وهو جيد، لكن الإكثار منه على أسمع العوام ربما يحمل أكثرهم على شيء من التشبيه، فإذا قرن به ما يشرحه وينفي توهم التشبيه كان أولى والله أعلم.

قال أبو المظفر: ولما كان عشية الأربعاء سادس عشر ذي القعدة صلى العماد المغرب بجامع دمشق وكان صائما وأفطر في داره على شيء يسير، فجاءه الموت في الليل فجعل يقول: يا حي يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام، وتوفي، فغسل وقت السحر، وأخرجت جنازته إلى جامع دمشق فما وسع الناس الجامع، وصلى عليه الموفق بحلقة الحنابلة بعد جهد جهيد، وكان يوما لم ير في الاسلام مثله، وكان أول الناس عند مغارة الدم ورأس الجبل إلى الكهف وآخرهم بباب الفراديس ولولا المبارز والمعتمد رحمه الله وأصحابه لقطعوا أكفانه ، وما وصل إلى الجبل إلى آخر النهار.

وقال: وتأملت الناس من أعلى قاسيون إلى الكهف إلى قريب الميطور لو رمى الإنسان عليهم إبرة لما ضاعت، فلما كان في الليل نمت وأنا مفتكر في جنازته، وذكرت أبيات سفيان الثوري التي أنشدها في المنام:

نظرت إلى ربي كفا حاقا وقال لي
هنيئا رضاي عنك يا ابن سعيد
فقد كنت قواما إذا أقبل الدجى
بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أي قصر أردته
وزرني فإني منك غير بعيد

وقلت: أرجو أن العماد يرى ربه كما رآه سفيان عند نزول حفرتيه،
ونمت فرأيت العماد في النوم عليه حلة خضراء وهو في مكان متسع كأنه
روضة وهو يرقى في درج مرتفعة فقلت: يا عماد الدين كيف بت فيني والله
مفكر فيك؟ فنظر إلي وتبسم على عادته وقال:

رأيت إلهي حين أنزلت حفرتي
وفارقت أصحابي وأهلي وجيرتي
فقال جزيت الخير عني فإنني
رضيت فها عفوي لديك ورحمتي
دأبت زمانا تأمل الفوز والرضى
فوقيت نيرانا ولقيت جنتي

فانتبهت مرعوبا وكتبت الأبيات، سمع ببغداد أبا محمد الخشاب
النحوي، وشهادة الكاتبة وغيرهما، وبالشام أبا المكارم عبد الواحد بن
محمد بن المسلم وعبد الله بن صابر وغيرهما، ورثاه الصلاح موسى بن
الشهاب بأبيات منها:

يا شيخنا يا عماد الدين قد قرحت
عيني وقلبي منك اليوم متبول
أوحشت والله ربعا كنت تسكنه
لكنه اليوم بالأحزان مأهول

كم ليلة ست تحييها وتسهرها
والدمع من خشية الله مسسول
وسجدت طال ما طال القنوت بها
قد زانها منك تكبير وتهليل (٧٢)

قلت: كان رحمه الله كثير الصلاة مطيلا لأركانها قياما، وركوعا، وسجودا، شاهدته مصليا بالجماعة في حلقة الحنابلة مرارا، ولم يكن لهم في حياته هذا المحراب الآن، وإنما كان يصلي بالجماعة هو تارة والموفق تارة إلى خزانتي مجتمعين في موضع المحراب الآن سنة سبع عشرة أو نحوها، فجدد لهم هذا المحراب، وسببه أن قاضي دمشق جمال الدين يونس بن بدران حسن للسلطان المعظم عيسى بن العادل أن يجمع خزان الكتب التي في الجامع إلى مشهد ابن عروة فنقلت الخزان من الزاوية الغربية، ومن الكلاسة، ومن أروقة الجامع فكان من جملة المنقول الخزانان اللتان بحلقة الحنابلة فبقي مكان صلاة إمامهم مكشوفاً، فتعصب لهم الركن الأمير المعظمي في عمل هذا المحراب فركب في ليلة ذلك اليوم وصلى فيه الشيخ الموفق، ومن بعده ردت الخزانتان إلى الحلقة فجعلنا عن يمين المحراب ويساره، والشيخ العماد هو الذي سن الجماعة في الصلوات المقضية، وكان يصلي بالجماعة بحلقتهم بين المغرب والعشاء وما قدره الله تعالى، وبقي ذلك بعده مدة، حضرت جنازته والصلاة عليه رحمه الله.

وفيها: توفي القاضي جمال الدين أبو القاسم عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل الأنصاري، شيخ القضاة العالم العادل المعمر الزاهد، ولد بدمشق سنة عشرين وخمسة، وأصل أبيه من قرية بقرب دمشق تسمى حرستا، قدم دمشق ونزل منزله بباب توما وأم بمسجد الزينبي، ثم أم فيه ابنه جمال الدين بعده إلى أن انتقل إلى مسكنة بالحويرة قبلي الجامع، شارك الحافظ أبا القاسم علي بن الحسن رحمه الله في كثير من مشايخه

الدمشقيين سماعاً، وفي الغرباء إجازة، سمع بدمشق جمال الاسلام أبا الحسن علي بن المسلم، وعبد الكريم بن حمزة بن الخضر، وأبا الحسن علي ابن أحمد بن قعيس المالكي وغيرهم، ورحل إلى حلب وسمع بها أبا الحسن علي بن سليمان المرادي الحافظ وأكثر كتب الحافظ البيهقي وغيرهما، ثم رجع إلى دمشق فأقام بها وكان آخر من حدث عن عبد الكريم الحداد، وجمال الاسلام سماعاً، وممن أجاز له من أهل نيسابور أبو عبد الله الفراوي، وهبة الله بن سهل السيدي، وزاهر بن طاهر الشحامي، وأبو المعالي الفارسي، وعبد المنعم بن أبي القاسم القشيري، ومن أهل بغداد قاضي المارستان، وابن السمرقندي، والأنماطي وغيرهم، وكان مواظباً للصلوات في الجماعات، يصلي في الصف الأول بمقصورة الخضر بالجامع قبالة محرابها دائماً، وهنالك كان يقرأ عليه الكتب المسموعة ويجمع خلق عظيم مع حسن سمته وسكونه وهيئته، وكان بارعاً في فقهه، حكى لي الفقيه عز الدين أبو محمد العز بن عبد السلام أيداه الله وهو الآن حي بالديار المصرية أنه لم ير أفقه منه، وعليه كان ابتداء اشتغاله، ثم صحب الشيخ فخر الدين بن عساكر رحمه الله فسأله عنهما فرجح ابن الحرساني وقال: إنه كان يحفظ الوسيط للغزالي، ولي القضاء قديماً نيابة بدمشق في أيام شرف الدين بن أبي عصرون، وكان يكتب له في الأسجال في القضايا، ولما أضر شرف الدين بقي هو على نيابته مع ابنه محيي الدين ابن أبي عصرون، فلما عزل وولى محيي الدين بن الزكي استقلالاً وهو شاب لم ير النيابة عنه وبقي منقطعاً في بيته إلى أن ولاه العادل المدرسة المجاهدية التي في الرصيف، فبقي مواظباً على التدريس بها وإسماع الحديث بمقصورة الخضر التي يصلي بها إلى أن عزل الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب رحمه الله عن قضاء دمشق في سابع ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وستمائة قاضي القضاة زكي الدين أبا العباس الطاهر ابن قاضي القضاء محيي الدين أبي المعالي محمد بن علي القرشي، وأخذ منه مدرسة العزيزية والتقوية، وأعطى التقوية للشيخ فخر الدين بن عساكر،

وأعطى العزيزية مع القضاء لجمال الدين بن الحرستاني، واعتنى به العادل اعتناء كثيرا، وأقبل عليه وأكرمه بحيث أرسل إليه مايفرشه تحته في مجلس الحكم لكبره وضعفه ومايسند إليه، وكان يجلس للحكم بمدرسة المجاهدية، وناب بها عنه عماد الدين عبد الكريم، وكان يجلس بين يديه وإذا قام الشيخ يستند مكانه، ثم أنه منعه من أي شيء سمعه عنه، وناب عنه أيضا أكابر شيوخ القضاة يومئذ شمس الدين بن الشيرازي، وكان يجلس قبالة في الإيوان بالمجاهدية، وشمس الدين بن سني الدولة، وبنيت له دكة في الزاوية القبلىة بغرب المدرسة، وشرف الدين بن الموصلي الحنفي بمجلس المحراب بها، وبقي بالقضاء نحوًا من سنتين وسبعة أشهر، ثم توفي يوم السبت رابع ذي الحجة، وكانت له جنازة عظيمة حفلة ودفن بجبل قاسيون، حضرت الصلاة عليه بالجامع، ومقابر باب الفراديس، وكان له يوم توفي خمس وتسعون سنة، ولغرابة ولاية القضاء لمن هو في هذا السن، قال شاعر الشام في وقته شهاب الدين فتیان الشاغوري هذين البيتين:

يامن تدرع في حمل الحمول ويا
معانق الهم في سروا إعلان
لا تأسن روح من بادى لدى مائة
قاضي القضاة جمال بن الحرستاني

على أنه رحمه الله امتنع عن الولاية لما طلب لها حتى ألح عليه فيها، وكان في مدة ولايته صارما، عادلا، حاكما بالشرعة، المطهرة، جاريا على طريقة السلف في لباسه واقتصاده في أمره، وعفته، وصيائته، وعدم الالتفات إلى الأكابر في الشفاعات في الأحكام، ولقد بلغني أنه ثبت لديه حق لامرأة على بيت المال فأحضر الوكيل جمال الدين المصري، وأمره أن يسلم إليها مائتة لها، فاعتذر بضيق الوقت وكان في آخر النهار، وقال: في غد أسلم إليها، فقال: ربما أموت أنا الليلة ويعوق

حقها، فقبل إنها كانت تدعي بستانا قد وضع النواب أيديهم عليه وقد ثبت حقها لديه، فأمر الوكيل أن يسلمه إليها، ويشهد عليه بأنه ثبت حقها، ولادافع له من جهة بيت المال فاستمهلته إلى الغد لدخول المساء، وكان قد أشعلت القناديل وهم بالمدرسة، فقال القاضي: ربما أموت أنا الليلة وترجع أنت أيها الوكيل ربما تعنتهم وتطلب إعادة البينة عند الحاكم الذي يقوم بعدي فوكل به من لا يفارقه حتى يسلم إليها البستان، وشهد عليه بذلك، وقام القاضي وأخذ سجادته على كتفه ومشى ليصلي بالجامع على عادته بمقصورة الخضر، فوافق وصوله إلى الجامع أذان المغرب فصلى ومضى إلى بيته وكان أوصى إذا أشهد عليه الوكيل أن يحملوا الكتاب إليه ليقف عليه فجاءه الكتاب إلى داره فوقف عليه فلما علم أنه قد استقصى حق المرأة سلم كتابها إليها، وقيل إنه كان مالا بالمخزن فما زال به حتى أنفذ إلى أمناء الحشوية فجمعهم وفتحوا مخزنهم بقيسارية الفرش، ودفعوا إلى المرأة حقها.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: كان القاضي جمال الدين بن الحرساني، زاهداً، عفيفاً، عابداً، ورعاً، نزهاً، لاتأخذه في الله لومة لائم، واتفق أهل دمشق على أنه مافاته صلاة بجامع دمشق في جماعة مقتصداً في ثيابه وعيشه، وما كان يمكن أحداً من غلمان القضاة يمشي معه بل كأنه بعض الناس.

قال: وحكى لي ولده قال: كان أحد بني قوام يعامل الملك المعظم عيسى في السكر ويتجر له فمات ابن قوام، فطرح ديوان المعظم يده على تركة ابن قوام، وبعث المعظم إلى القاضي يقول: هذا الرجل كان يتاجر لي بهالي والتركة لي، وأريد تسليمها، فأرسل إليه القاضي يقول: لأسلم إليك تركته حتى تحلف أنك تستحقها، فقال المعظم: والله ما أحقق مالي عنده، فقال القاضي وأنا والله ما أسلم إليك حتى تحلف، فما حلف المعظم ولا أثبت القاضي له شيئاً.

وحكى لي جماعة من الدماشقة: أن الملك العادل سيف الدين كتب لبعض خواصه كتابا يوصيه به في خصومة بينه وبين رجل، فجاء إليه ودفع إليه الكتاب، فقال: إيش فيه؟ قال: وصية لي، قال: أحضر خصمك، فأحضره والكتاب بيده ولم يفتحه وادعى على الرجل فظهر الرجل على حامل الكتاب فقضى عليه، ثم فتح الكتاب وقرأه ورمى به إلى جماله وقال: كتاب الله قد حكم على هذا الكتاب، فمضى الرجل إلى العادل وبكى بين يديه وأخبره بما قال، فقال العادل: صدق، كتاب الله أولى من كتابي، وكان يقول للعادل ما أحكم إلا بالكتاب والسنة، وأنا ماسألتك القضاء فإن شئت وإلا فأبصر غيري.

قال: وحكى لي الشمس بن خلدي رحمه الله قال: أحضر ولده القاضي علاء الدين بين يديه صحن حلواء أسخنه وقال: ياسيدي كل منه، فغضب وقال: من أين هذا؟ أتريد أن تدخلني النار؟ ولم يأكل.

قلت: غلب على ظنه أنه هدية ممن له حكومة.

وبلغني أن ولده هو الذي ألح عليه في تولية القضاء على كره منه، وحكى لي ولده المذكور قال: جاء إليه الشرف بن عنين فجلس إلى جانبي قبالته وقال: السلطان يسلم عليك ويوصي بفلان فإن له محاكمة في كذا، وكذا، فغضب وقال: الشرع ما يكون فيه وصية لافرق بين السلطان وغيره في الحق، فقال: صحيح، فقال: إذا كان صحيحا فإيش حاجة إلى قولك: قال السلطان؟ قال: وكان إذا غضب من رسائل أرباب الحاجات يأخذ سجادته على كتفه وينهض من المجلس، وتولى القضاء بعده من كان القاضي قبله زكي الدين الطاهر بن محيى الدين، ثم إن ولده تولى نيابة الحكم بدمشق عن القاضي شمس الدين بن الخليل الخوئي عام حج، ثم تولاه استقلالا، ثم تولى خطابة جامع دمشق، وهو الآن خطيبه، والله الموفق.

وفيها: استشهد الأمير بدر الدين محمد بن أبي القاسم بن محمد الهكاري بالطور على ماتقدم شرحه، بعد أن أبلى في ذلك اليوم بلاء حسنا، وكان من المجاهدين له المواقف المشهورة في قتال الفرنج، وكان من أكابر أمراء المعظم يستشيريه ويصدر عن رأيه ويثق به لصلاحه ودينه، وكان سمحا دينا لطيفا ورعا بارا بأهله وبالفقراء، والمساكين، كثير الصدقات دائم الصلاة، بنى بالقدس مدرسة للشافعية وقف عليها الأوقاف، وبنى مسجدا قريبا من الخليل عليه السلام عند قبر يونس عليه السلام على قارعة الطريق، وكان يتمنى الشهادة دائما يقول: ما أحسن وقع سيوف الكفار على وجهي وأنفي، فاستجاب الله دعاءه ورزقه الشهادة، ونقل من الطور إلى القدس فدفن بتربته في ماملا وهي المقبرة التي تزار بالقدس الشريف^(٧٤).

وفيها: توفيت بدمشق العاملة المعروفة بدهن اللوز، وكانت شيخة العالمات بدمشق، في ربيع الآخرة.

وفيها: توفيت بنت بوري بدمشق وهي آخر بناته وفاة وانتقل ما خلفته من الأملاك إلى الوقف المشهور عن أختها الكبرى بنت صيفة.

وفيها: توفي الشجاع محمود المعروف بالدباغ في ذي القعدة، وكان من أصدقاء العادل في زمن الشيبية، وبقي معه في زمن السلطنة مضحكا له، وحصل له ثروة عظيمة، وداره بدمشق جعلتها زوجته مدرسة للفريقين.

ثم دخلت

سنة خمس عشرة وستمائة

ففيها: نزل الفرنج على دمياط في ربيع الأول، وكان العادل بمرج الصفر، فبعث العساكر التي كانت عنده إلى مصر إلى ابنه في مقابلة الفرنج، وأقام المعظم بالساحل بعسكر الشام في مقابلة الفرنج.

وفيهما: استدعى العادل ولده المعظم وقال له: قد بنيت هذا الطور، وهو يكون سببا لخراب الشام، وقد سلم الله من كان فيه من أبطال المسلمين والسلاح والذخائر وأرى من المصلحة خرابه ليتوفر من فيه من المسلمين والعدد على حفظ دمياط، وأنا أعوضك، فتوقف المعظم وبقي أياما لا يدخل إلى العادل، فبعث إليه فأرضاه بهال ووعدته في مصر ببلاد، فأجابه فبعث فنقل ماكان فيه من العدد والذخائر إلى القدس وعجلون، والكرك، ودمشق.

وفيهما: في يوم الجمعة ثاني عشر ربيع الآخر كسر الملك الأشرف ملك الروم كيكافوس، وسببه أن الأشرف جمع عساكر الشرق و عسكر حلب ودخل بلد الفرنج ليشغلهم عن دمياط ونزل على صافيتا، وحصن الأكراد، وكان العادل بمرج الصفر وتقدم إلى عالقين، فخرج ملك الروم، ووصل إلى رعبان يريد أن يلزم بحلب، ونزل إليه الأفضل من سمسياط وأخذوا رعبان وتل باشر، وبلغ الأشرف فعاد من صافيتا إلى حلب، وقد سبقه ملك الروم إلى منبج، وتقدم بعض عسكرهم إلى بزاعة فرحل الأشرف، فنزل باب بزاعة وقدم العرب بين يديه فكسروا الروم، ورجع صاحب الروم إلى بلاده، وأكثر مانكل فيهم العرب، ورجع الأفضل إلى سمسياط فاسترد الأشرف رعبان، وتل باشر، وأعطاهما لصاحب حلب، وبعث الأشرف سيف الدين بن كهدان، والمبارز، وابن

خطلخ نجدة إلى دمياط، وخطب صاحب آمد للصالح محمود بن أرتق الرومي وقطع خطبة العادل.

وفيها: أخذ الفرنج النازلين على دمياط برج السلسلة في آخر جمادى الأول، فأرسل الكامل إلى أبيه العادل شيخ الشيوخ صدر الدين يخبره ويستصرخ به، فلما اجتمع بالعادل فأخبره فدق بيده على صدره ومرض مرض الموت.

قلت: وأذكر وأنا بدمشق حين بلغ الناس أخذ برج السلسلة وقد شق على من يعرفه مشقة شديدة، منهم شيخنا أبو الحسن السخاوي رحمه الله ورأيته يضرب يدا على يد ويعظم أمر ذاك، وسمعت الفقيه عز الدين بن عبد السلام يسأله عنه، فقال: هو قفل الديار المصرية، وصدق رحمه الله تعالى فلاني لما رأيته في سنة ثمان وعشرين كما سيأتي ذكره بان لي صحة ما أشار الشيخ إليه، وذلك أنه برج عال مبني في وسط النيل ودمياط بعذائه على حافة النيل من غربه، وفي ناحيته سلسلتان تمتد إحدهما على النيل إلى دمياط، والأخرى على النيل إلى الجيزة فتمنع كل سلسلة عبور المراكب من ناحيتها إذا أريد ذلك حين قتال العدو، فهو قفل البلاد بالديار المصرية إذا أوثقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور إليها، ومتى لم تكن السلسلة عبرت المراكب وبلغت إلى القاهرة، ومصر، وإلى قوص، وأسوان والله المستعان.

وفيها: في جمادى الآخرة التقى المعظم بالفرنج على القيمون، ونصر عليهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر من الداوية مائة فارس، وأدخلهم القدس منكسة أعلامهم.

وفيها: وصل رسول خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش إلى العادل وهو بمرج الصفرة، فبعث بالجواب مع الخطيب جمال الدين محمد

الدولعي الشافعي خطيب جامع دمشق بعد عمه، ونجم الدين خليل ابن علي الحنفي قاضي العسكر، فوصلا إلى همدان فوجدا الخوارزمي قد اندفع بين يدي الخطا والتاتار، قد خامر عليه عسكره فسار إلى حد بخارى، فاجتمعا بولده جلال الدين فأخبرهما ب وفاة العادل، فرجعا إلى دمشق وكان الخطيب الدولعي قد استناب مكانه في الخطابة بجامع دمشق ابنه الشمس يونس، ولم يكن له أهلية فسعى القاضي زكي الدين وأكابر البلد في عزله وتولية الشيخ الموفق عمر بن يوسف خطيب بيت الأبار إلى أن يقدم الدولعي، وكان يسكن بالمدرسة العزيزية في البيت الأوسط القبلي من البيوت السفلى ويكرر الخطب في بيته ذلك وفي إيوان المدرسة، ويخرج أوقات الصلوات إلى الجامع يصلي بالناس، ثم يرجع، ويوم الجمعة يكون في بيت الخطابة يخرج منه بالأهبة السوداء إلى المنبر فيخطب ويصلي، ثم يرجع فينزع السواد ثم يمضي إلى بيته بالمدرسة إلى أن قدم الخطيب الدولعي، فرجع إلى مكانه ومنصبه.

وفيها: توفي داود ابن أبي الغنائم أبو سلمان الملهمي من بني ملهم الضري، كان يسكن رباط المأمونية ببغداد، وكان على رأي الأوائل، وإنما كان يتستر بمذهب الظاهرية، وكان موته بالمحرم ودفن بالشونيزيه وقد جاوز السبعين ومن شعره:

إلى الرحمن أشكوما ألاقى
غداة غدو على هوج النياق
نشدتكم بمن زم المطايا
أمر بكم أمر من الفراق
هل داء أضر من التنائي
وهل عيش ألد من التلاقي

وفيها: توفي القاضي شرف الدين أبو طالب عبد الله بن زين القضاة

عبد الرحمن بن سلطان بن يحيى بن علي القرشي الدمشقي، ولي القضاء بدمشق نيابة عن محيي الدين بن الزكي، ثم عن ابنه زكي الدين الطاهر، وهو ابن عمهما، يلتقي نسب الجميع إلى يحيى بن علي المذكور، وهو أول من درس بالمدرسة الرواحية ثم بالمدرسة الشامية الحسامية، وكانت وفاته في شعبان يوم الأحد ثالث عشر شعبان، وصلي عليه بجامع دمشق ودفن عند مسجد القدم، وهو الذي يوجد علامته على الكتب المسجلة، « الحمد لله وهو المستعان ».

قال أبو المظفر: وكان فقيها فاضلا نزها، لطيفا، عفيفا^(٧٥).

وفيها: توفي أبو الحسن علي بن أحمد بن روح، القاضي المعروف بابن العنبري، وكان نائبا عن القضاة ببغداد صاحب أبا النجيب السهروردي، وتفقه عليه وقرأ العربية على العصار، وكان شيخا كيسا فاضلا، متواضعا، وكانت وفاته في رمضان، ومن شعره:

وقد كنت أشكو من حوادث برهة
واستمراض الأيام وهي صحائح
إلى أن تغشطني وقيت حوادث
تحقق أن السالفات منائح

وفيها: توفي القاضي عماد الدين بن الدامغاني الحنفي، قاضي القضاة ببغداد، واسمه أبو القاسم عبد الله بن الحسين ولد في رجب سنة أربع وستين وخمسمائة، وتفقه على مذهب أبي حنيفة، وعرف الفرائض والحساب، وقسمة التركات مع السمات، والوقار، والدين، والعفة، وأول ولايته القضاء في سنة ست وثمانين وخمسمائة، وعزل في رجب سنة أربع وتسعين وخمسمائة، فأقام ثمانين سنين قاضيا، ثم أعاده ابن مهدي في سنة ثلاث وستمائة، ثم عزل في سنة إحدى عشر وستمائة، فكانت ولايته الأخيرة تسع سنين إلا شهور وتوفي في ذي القعدة وصلي عليه بالنظامية،

ودفن بالشونيزية، سمع الحديث من أبيه أبي المظفر الحسين بن أبي الحسن أحمد قاضي القضاة، ومن عمه أبي الحسن علي قاضي القضاة، ومن أبي الفرج كليب وغيرهم.

وفيها: توفي السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب، وكنيته أشهر من اسمه، سئل عن مولده فقال: فتوح، يعني لما فتح الرها وماوالاها الأتابك زنكي والد نور الدين سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، فيكون عمره ستا وسبعين سنة، قيل كانت ولادته ببعلبك لما كان والده واليها من قبل زنكي، ونشأ في خدمة نور الدين بن زنكي مع أبيه وأخوته، وحضر مع أخيه صلاح الدين في فتوحانه وغزواته، وقام أحسن قيام في الهدنة مع الانكليتيز ملك الفرنج بعد أخذهم لعنهم الله عكا، وكان صلاح الدين يعول عليه كثيرا، واستنابه بالديار المصرية مدة، ثم أعطاه حلب، ثم الكرك وأعماله، ثم حران ومايتعلق بها، ثم جرى بعد وفاة أخيه بينه وبين أولاده أمور سبق ذكرها، إلى أن استقر له الملك.

قال أبو المظفر: امتد ملكه من بلاد الكرج إلى همدان والجزيرة والشام، ومصر، والحجاز واليمن، وكان نبها خليقا بالملك، حسن التدبير حليما صفوحا عادلا، مجاهدا، عفيفا، دينا متصدقا، آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، طهر جميع ولايته من الخمر، والخواطىء، والقمار، والمخانيث، والمكوس، والمظالم، وكان الحاصل من هذه الجهات بدمشق على الخصوص مائة ألف دينار، فأبطل الجميع لله تعالى، وكان واليه المبارز المعتمد رحمه الله قد أعانه على ذلك، أقام رجالا على عقاب قاسيون، وجبل الثلج، وحوالي دمشق بالجامكية والجراية، يجرمون أحدا يدخل دمشق بمنكر، فكان أهل الفساد يتحيلون ويجعلون زقاق الخمر في الطبول ويدخلون بها إلى دمشق، فمنع من ذلك.

قال: وبلغني أن بعض المغنيات دخلت على العادل في عرس، فقال لها: أين كنت؟ قالت: ما قدرت آجىء حتى وفيت ماعلي للضامن، فقال: وأي ضامن؟ قالت: ضامن القيان، فقامت عليه القيامة وطلب المعتمد وأنكر عليه وقال: والله لئن عاد وبلغني مثل هذا لأفعلن ولأصنعن، ولقد فعل العادل في غلاء مصر عقيب موت العزيز ما لم يفعل غير، كان يخرج بالليل بنفسه معه الأموال يفرقها في أبواب البيوت والمساكين، ولولا له مات الناس كلهم، وكفن في تلك الأيام من ماله ثلاثمائة ألف من الغرباء، وكان إذا مرض أو تشوش مزاجه خلع جميع ماعليه وباعه حتى فرسه وتصدق به.

قلت: وكان لما عزل القاضي زكي الدين الطاهر عن قضاء دمشق وولاه القاضي جمال الدين بن الحرستاني، تعصب وكيل بيت المال يومئذ وأثبت على زكي الدين محضرا يتضمن عشرين ألف دينار أودعها قيمان النجمي عند والده محيي الدين برسم فكاك أسرى، وذلك بعد عزله بنحو شهر، وبلغني أن القاضي جمال الدين بن الحرستاني تأنى في إثباته، واستقصى في تزكية الشهود جهده وطاقته، ولما علم عليه بالثبوت قام الوكيل الجمال المصري فقال: القاضي إلى النار وأنا وراك، وذلك لعلمه بأن القضية بطريق التعصب والاغراض، وكان ذلك بثلاثة، وقيل بشهادة اثنين، أحدهما: ابن عوضة، والآخر: أبو محمد الخشاب الأقط وقد رأيتهما، وكان كل واحد منهما في قلبه على القاضي حقداً بسبب حكومة حكم بها عليه، أما ابن الخشاب فكان أقر ببستان له لأولاد أخيه وأظنه وقفه عليهم ثم أراد إبطال ذلك والرجوع فيه فلم يمكنه القاضي، وهذا البستان تحت نهر يزيد قبالة الجينة المختصة لي من فوقه، وأخذ خط الزكي بالبلغ في ذمته في السابع والعشرين من جمادى الأولى، وشرع القاضي في بيع ما يملكه من كتب وغيرها، واستدان من الناس ما حمله في وفاء ذلك، فذكرت بعض حظايا العادل أنها رأَت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يوصيه بالقاضي، فأسقطها عنه، ورد المال عليه

على رؤوس الأشهاد، أنزل به من القلعة جهاراً في طبق، وأنا رأيته محمولاً إلى دار القاضي صحبة القاضي الأشرف ابن الفاضل، والجمال الوكيل، وقاضي العسكر، وابن التيتي، بين الصرتين من يوم الأحد الحادي والعشرين من رجب سنة اثنتي عشرة، ثم رده إلى القضاء بعد موت ابن الحرستاني، وبلغني أن القاضي طلب جرح الشهود فلم يجسر أحد على ذلك إلا الثقة عنتر، كان يتولى عقود الأنكحة بالمدرسة التقوية، فبلغ ذلك العادل، فتبسم فقال: من عادة عنتر الجرح.

قال أبو المظفر: وسبب موته انزعاجه من الخبر الذي جاءه من دمياط أن الفرنج استولوا على برج السلسلة، فدق بيده على صدره، وأقام مريضاً إلى يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة، فتوفي بعالقين، وكان المعظم قد كسر الفرنج على القيمون خامس جمادى الآخرة، ولما توفي العادل لم يعلم بموته غير كريم الدين الخلاطي فأرسل الطير إلى المعظم بنابلس فجاء المعظم يوم السبت إلى عالقين، فاحتاط على الخزائن وصبر العادل وجعله في محفة، وعنده خادم يروح عليه وقد رفع طرف سجاجها وأظهروا أنه مريض، ودخلوا به إلى القلعة وكنتموا موته.

قال: ومن العجائب أنهم طلبوا له كفناً فلم يقدروا عليه، فأخذوا عمامة الفقيه النجيب ابن فارس وكفنوه بها، وأخرجوا قطناً من مخدة فلفوه به، ولم يقدروا على فأس فسرق كريم الدين فأساً من الخندق فحفروا له به في القلعة، وصلى عليه وزيره ابن فارس ودفنوه في القلعة.

قال: وكنت قاعداً إلى جانب المعظم عند باب الدار التي فيها الأيوان، وهو واجم ولم أعلم بحاله، فلما دفن أبوه قام قائماً وشق ثيابه ولطم على رأسه ووجهه، وكان يوماً عظيماً، وعمل له العزاء ثلاثة أيام بالأيوان الشمالي.

قال: ولما رأيت المعظم قد بلغ به الحال ما بلغ تكلمت في أول يوم، فلما انقضى العزاء عتبني المعظم و قال: ياسبحان الله أنت صاحب العزاء إيش كان حاجة إلى كلامك مع ابن الحنبلي؟ وكان الناصح قد تكلم في ذلك اليوم فقلت: لا بد من الكلام، فقال: إذا كان ولا بد فليكن في اليوم الثالث، ولا يتكلم معك أحد، فامتثلت ما أمر.

وعمل له العزاء في جميع البلاد، ونودي ببغداد من أراد الصلاة على الملك العادل الغازي المجاهد في سبيل الله فليحضر إلى جامع القصر، فحضر الناس، ولم يتخلف سوى الخليفة وصلوا عليه صلاة الغائب وترحموا عليه وتقدم إلى خطباء الجوامع بأسرهم ففعلوا ذلك بعد صلاة الجمعة، قال: وفوض إلى الملك المعظم تربة بدر الدين حسن في اليوم الثالث.

قلت: هو بدر الدين حسن أحد أولاد الداية هو وأخوته من أكابر أمراء نور الدين بن زنكي رحمه الله، وتربيته هي التي على نهر ثورا عند جسر كحيل في طريق الجبل قريب من المدرسة الشبلية، وكان أبو المظفر يسكنها ويدرس بالمدرسة الشبلية، ومنها يصعد إلى الجبل، وينزل إلى دمشق كل يوم بسبب مجلس الوعظ وما أكثر ما كنت أراه جالسا في شباك التربة أو في الصفة الخارجة في النهر ومعه كتاب يطالع فيه أو ينسخ، فما أطيب ما كانت تلك الأيام وما أرغد عيش تلك الأعوام.

قال أبو المظفر: وكان للعادل عدة أولاد منهم، شمس الدين مودود والد الجواد يونس، والكمال محمد، والأشرف موسى، والمعظم عيسى، والأوحد أيوب، والفائز إبراهيم، والمظفر شهاب الدين غازي، والعزیز عثمان، والأجد حسن وهما شقيقا المعظم، والمغيث محمود، والحافظ رسلان، والصالح اسماعيل، والقاهر اسحاق، ومجير الدين يعقوب، وقطب الدين أحمد، وخليل أصغرهم وتقي الدين عباس.

قلت: وهو آخر من بقي منهم، وهو الآن في سنة تسع وخمسين وستمائة حي بدمشق.

قال: وكان الصالح اسماعيل، وقطب الدين أحمد بدمشق لما مات العادل، فأمر المعظم الصالح فتوجه إلى بصرى، وأحمد فتوجه إلى مصر، وكان للعادل عدة بنات أفضلهن ضيفة صاحبة حلب أم الملك العزيز ابن الظاهر.

قال: ولما دخل رجب رد المعظم المكوس والخمور وما كان أبوه أبطله، فقلت له: قد أخلفت سيف الدين غازي ابن أخي نور الدين، فإنه كذا فعل لما مات نور الدين، فاعتذر بقلّة المال ودفع الفرنج.

قال: وسار المعظم إلى بانياس، وأرسل الصارم التبنيني وهو بتبين في تسليم الحصون فأجابه فأخرب بانياس، وسار إلى تبين فأخربها وهدمها، وكانت قفلا للبلاد وملجأ للعباد، وأعطى جميع بلاد شركس، لأخيه العزيز عثمان، وزوجه ابنة شركس، ونزل الصارم وولده وأصحابه من الحصون فأكرمهم وأحسن إليهم وأظهر أنه ما أخرب بانياس وتبين إلا خوفا من استيلاء الفرنج عليهما.

قال: وبعث الكامل إلى المعظم بالخلع، وقال: ادركني، وجاءت الفرنج فنزلوا على شارمساح^(٧٧) فأخلى لهم المسلمون الخيام فطمعوا، ثم رجع عليهم الكامل فكسرهم وقتل منهم خلقا كثيرا فعادوا إلى دمياط.

وفيها: توفي ملك الروم كيكافوس ولقبه عز الدين وكان جبارا، ظالما، سفاكا للدماء، ولما عاد إلى بلده من كسرة الأشرف له بحلب إتهم قوما من أمراء دولته أنهم قصروا في قتال الحلبيين، فسلق بعضهم في القدور، وجعل آخرين في بيت فأحرقهم فأخذه الله بغتة فمات فجأة سكران، وقيل ابتلي في بدنه، فتقطع، وكان أخوه علاء الدين كيقباز محبوسا في

قلعته، وقد أمر بقتله، فبادر الأمراء فأخرجوه، وأقاموه في الملك وكانت وفاة كيكافوس في شوال، وهو الذي أطمع الفرنج في دمياط.

وفيها: توفي نجم الدولة نجاج بن عبد الله، شراي الخليفة، مملوك الإمام الناصر، وكان جواداً سمحاً عاقلاً ديناً كثير الصدقات حسن المحضر، محسناً إلى الناس يحب المساكين، ويعظم أهل الدين ويأخذ للضعيف من القوي، وكان يسمى سلمان دار الخلافة، وكان ملازماً للخليفة لا يغيب عنه ساعة واحدة، وكان أسمر اللون جميل الصورة فحلاً، ولما توفي في هذه السنة أمر الخليفة أن لا يتخلف عن جنازته أحد لا وزير ولا غيره، وصلى الخليفة عليه تحت التاج، وحزن عليه حزناً كثيراً، وأخرج تابوته من البدرية، ومشى العالم بين يديه إلى جامع القصر، وكان بين يدي جنازته مائة بقرة، وألف شاة، ومائة قوصرة تمر ومائة حمال على رؤوسهم الخبز، وعشرون حمالاً على رؤوسهم ماء الورد، ومماليكه قد جزوا شعورهم ولبسوا المسوح، والضجيج والبكاء قد ملأ بغداد، ولم ير في الاسلام مثل ذلك اليوم، وعبروا به إلى الجانب الغربي إلى تربة أم الخليفة، ودفن بين يدي القبة التي فيها أم الخليفة، وتصدق عنه الخليفة من مال نجاح بعشرة آلاف دينار على المشاهد، مشهد علي، والحسين، وموسى بن جعفر رضي الله عنهم، وبعث بمثلها إلى مكة، والمدينة، واعتق الخليفة مماليكه، وكانت له خمسمائة مجلد فوقفها في تربة أم الخليفة وكتب عليها اسم الشراي.

ذكر الشيخ عز الدين بن الأثير في تاريخه الكبير في حوادث سنة سبع وستين وخمسمائة أن الأمير العباسي أحمد بن الخليفة يعني المستضىء، وأحمد هو الإمام الناصر لدين الله، قال ابن الأثير: وهو الذي صار خليفة بعده سقط من قبة عالية إلى أرض التاج ومعه غلام له اسمه نجاح فألقى نفسه بعده وسلم ابن الخليفة ونجاح، فقبل لنجاح: لم ألقيت؟ فقال: ما كنت أريد البقاء بعد مولاي فرعى له الأمير أبو العباس ذلك،

فلما صار خليفة جعله شرايبا، وصارت الدولة جميعها بحكمه، ولقبه الملك الرحيم عز الدين، وبالع في الإحسان إليه والتقديم له وخدمه جميع أمراء العراق والوزراء وغيرهم^(٧٨).

وفيه: توفي القاهر صاحب الموصل وترك ولدا صغيرا اسمه محمود، وكان طفلا فأخرج بدر الدين لؤلؤ زنكيا أخا القاهر من الموصل واستولى عليها، واسم القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، ثم ثبت ملك بلاد الموصل لبدر الدين لؤلؤ وتسمى بالملك الرحيم، ثم أولاده من بعده إلى الآن، وبلغني أن لؤلؤ سقى القاهر سها فمات، ثم أدخل ابنه محمود بعد ذلك حماما حاميا وأغلق عليه الباب فاستكربه وعطشه فاستغاث أخرجوني واسقوني ماء ثم اقتلوني، فأخرج وقد تغيرت خلقته، وكان من أحسن الناس صورة فأسقى ماء ثم خنق بوتر.

قلت: كان اسم ولده الذي ولي بعده نور الدين أرسلان شاه وكان قد سماه أبوه عليا فلما مات جده نور الدين أرسلان شاه في سنة سبع وستمئة سموه باسم جده أرسلان شاه، وأقام قليلا ومات في سنة خمس عشرة أيضا، وتولى أخوه محمود، وكان تقدير عمره يوم مات عشر سنين، واستمر محمود والأمير بدر الدين لؤلؤ أتابعه إلى أن مات جده لأمه السلطان مظفر الدين صاحب إربل في شهر رمضان سنة ثلاثين وستمئة، فانقطع خبر محمود واستبد بدر الدين بالأمر.

قال أبو المظفر: قدم صاحب صفى الدين عبد الله بن علي المعروف بابن شكر وزير العادل، كان العادل قد نقم عليه فنفاه إلى الشرق فمضى إلى آمد، فأقام بها فلما مات العادل كتب ابنه الكامل من مصر إليه يطلبه، فقدم دمشق في هذه السنة ونزل بظاهرها بيت رانس^(٧٩) في

دار المؤيد العقرباني، فخدمه المؤيد. وكان قد قل نظره فأقام أياما ثم توجه إلى مصر.

قلت: وقيل إن قدومه من المشرق كان بعد هذه السنة، وقرأ بهاء الدين بن أبي اليسر بين يديه مقامة بيت رانس، في مدحه من إنشاء الشيخ أبي الحسن البخاري رحمه الله سماها «محاورة الفقهاء ومحاضرة العلماء في أوجد الكبراء وسيد الوزراء» وهي مقامة جليلة حسنة لفظا ومعنى، وكان خليقا بالوزارة لم يأت بعده فيها مثله، وكان متواضعا يسلم على الناس الذين يمر بهم وهو راكب، ويكرم الفقهاء ويحترمهم، ويعمر أوقافهم ويثمرها، ويوسع لهم في الجامعات، وفي أيامه بنيت العمارة بفؤارة جيرون، والمسجد، والبركة والشاذروان وغير ذلك رحمه الله، وتوفي سنة ثلاثين وستمائة كذا ذكر سبط ابن الجوزي^(٨٠) وهو وهم، وإنما توفي سنة اثنتين وعشرين كما سندكره.

وذكر العز بن تاج الأمناء: أنه في سنة تسع وستمائة عزل الوزير الصفي بن شكر وزير السلطان بمصر في غضون غضب أظهره ادلالا على السلطان، وسعى العادل فيه، وتحرر أمره والزامه بيته، ثم ورد كتاب الكامل من مصر إلى أخيه المعظم بالخطوة على أملاك الوزير ابن شكر بها سابع جمادى الأولى من السنة.

قال: وفي سابع عشرين رمضان من السنة عزل ابن الوزير ابن شكر من ديوان دمشق وقد كان مستمرا به في نيابة والده، وتولاه الشمس بن النفيس مستقلا بأموره، بكتاب عادلي وصل من مصر.

قال: وفي رابع شعبان ورد الخبر من مصر بإخراج الصفي بن شكر من القاهرة موكلا به واعتقاله بظاهر بليس في دار الجاولي، ثم إرساله إلى دمشق.

قال: ووصل عاشر ربيع الآخر من سنة أربع عشرة منفيًا من الديار المصرية إلى الكسوة، فأقام بها بقدر ما قضيت له أشغاله بدمشق، وتولى المعتمد القيام بها، وكان تقدم من العادل كتاب إلى المعتمد بأن لا يمكنه من المقام بدمشق أكثر مما يقضي أشغاله، فلما تحقق ذلك لم يدخل البلد ورحل من الكسوة نهار الأحد سادس عشر الشهر فبات بيلدا من الغوطة ورحل منها إلى القصير في الغد، ومن القصير إلى جهة الفرات على طريق البرية، وخرج إليه جماعة من أعيان البلد سرا وجهرا إلى الكسوة وإلى القصير، ولما قطع الفرات لم يمكنه الأشرف من المقام ببلاده، فرجع إلى سلمية والتجأ إلى صاحب حماة فأواه وأحسن إليه فأنكر السلطان ذلك عليه، وأمره بإبعاده عنه فلم يمكنه مخالفته، وتولى قاضي العسكر خليل الرسالة في إخراجه من حماة، فأخرج موكلا به إلى أن عاد قطع الفرات قاصدا صاحب آمد، فتلقاه بنفسه وبالع في إكرامه.

ثم دخلت

سنة ست عشرة وستائة

ففي أول المحرم وقيل في سابع المحرم أخرج المعظم أبراج القدس وسوره خوفا من استيلاء الفرنج عليه، فاضطرب الناس، وخرجوا منه متفرقين في البلاد، وهان عليهم مفارقة ديارهم وضياع أموالهم، وقد كان القدس يومئذ على أتم الأحوال من العمارة، وكثرة السكان.

قال أبوالمظفر: كان المعظم قد توجه إلى أخيه الكامل إلى دمياط، وبلغه أن طائفة من الفرنج على عزم القدس فاتفق الأمراء على خرابه وقالوا: قد خلا الشام من العساكر فلو أخذته الفرنج حكموا على الشام، وكان بالقدس أخوه العزيز عثمان، وعز الدين أيك استاذ الدار، فكتب المعظم إليهما بخرابه، فتوقفا وقالوا: نحن نحفظه، فكتب إليهما المعظم لو أخذوه لقتلوا كل من فيه، وحكموا على دمشق وبلاد الشام، فألجأت الضرورة إلى إخراجه فشرعوا في السور أول يوم من المحرم، ووقع في البلد ضجة مثل يوم القيامة، وخرج النساء المخدرات، والبنات، والشيوخ، والعجائز، والشبان، والصبيان إلى الصخرة والأقصى، فقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم بحيث امتلأت الصخرة ومحراب الأقصى من الشعور، وخرجوا هارين وتركوا أموالهم وأثقالهم وماشكوا أن الفرنج تصحبهم وامتلات بهم الطرقات فبعضهم إلى مصر، وبعضهم إلى الكرك، وبعضهم إلى دمشق، وكانت البنات المخدرات يمزقن ثيابهن ويربطنها على أرجلهن من الحفا، ومات خلق كثير من الجوع والعطش، وكانت نوبة لم يكن في الاسلام مثلها، ونهبت الأموال التي كانت لهم في القدس، وبلغ قنطار الزيت عشرة دراهم، ورطل النحاس نصف درهم، وأكثر الشعراء في ذمهما ودعوا عليهما فقال بعضهم:

في رجب حلال الحميا
وأخرب القدس في المحرم

قال: وأنشدني قاضي الطور مجد الدين محمد بن عبد الله الحنفي
لنفسه:

مررت على القدس الشريف مسلما
على ما تبقى من ربوع كأنجم
ففاضت دموع العين مني صباية
على ما مضى من عصرنا المتقدم
وقد رام علاج أن يعفي رسومه
وشمر عن كفي لثيم مدمم
فقلت له شلت يمينك خلها
لمعتبر أو سائل أو مسلم
فلو كان يفدى بالنفوس فديته
بنفسي وهذا الظن في كل مسلم

وفيها: نفى الملك المعظم الأمير عماد الدين بن المشطوب من مصر إلى الشرق، وكان قد اتفق مع الملك الفائز بن العادل على أخيه الملك الكامل، واستحلف للفائز العساكر، وعرف الكامل فرحاً إلى أشمون وعزم على التوجه إلى اليمن من البلاد، وعلم أخوهما المعظم فقال للكامل: لا بأس، وركب آخر النهار وجاء إلى خيمة ابن المشطوب وقال: قولوا لعماد الدين يركب حتى نسير، فأخبروه فخرج من الخيمة بغير أخفاف صباغات، ولحق المعظم فأبعد به عن العسكر، وقال له: أخي الملك الأشرف قد طلبك وهو محتاج إليك فتسير إليه الساعة، فقال: ما في رجلي صباغات ولا معي أحد من غلماني ولا قماش، فوكل به جماعة وأعطاه خمسمائة دينار وقال: كل مالك يلحقك، والله ما يضيع لك خيط

واحد، وسار به الموكلون ورجع المعظم إلى خيمته، وجاء إليه الكامل فقبل الأرض بين يديه وخاف الفائز خوفا عظيما.

أما ابن المشطوب فاجتاز دمشق ومضى إلى حماة فأقام بها، فبعث إليه الأشرف منشورا بأرجيش من بلاد خلاط مع الخلع، فسار إلى الأشرف فأكرمه وأحسن إليه، وصار يركب بالشبابة، ويعمل له سلطنة أعظم من الأشرف، وتجر وطغى وبغا، وخامر على الأشرف وكاتب صاحب الروم، فبعث له مائة ألف وأربعة آلاف درهم، وطلع إلى ماردين، ثم قصد ناحية سنجار، ثم جرى عليه مما سذكركه إلى أن مات في حبس الأشرف بحران هو وابن خشتين الأزكجي.

وفيها: في شعبان سحر يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شعبان استولى الفرنج على دمياط، وكان المعظم قد جهز إليها ابن الجرخي الناهض في خمسمائة راجل، فهجموا على الخنادق فقتل ابن الجرخي ومن كان معه، وصفوا رؤوس القتلى على الخنادق، وكانوا قد حموا الخنادق وضعف أهل دمياط ووقع فيهم الوباء والفناء، وعجز الكامل عن نصرتهم، فراسلوا الفرنج على أن يسلموا إليهم البلد، ويخرجوا منه بأهاليهم وأموالهم، فاجتمع الأقساء وأحلفوهم على ذلك، فركبوا في المراكب وزحفوا في البر والبحر وفتح لهم أهل دمياط الأبواب فدخلوا ورفعوا أعلامهم على السور، وغدروا بأهلها ووضعوا فيهم السيف قتلا وأسرا، وباتوا تلك الليلة يفجرون بالنساء وأخذوا المنبر وكان من أنبوس، والمصاحف ورؤوس القتلى وبعثوا بها إلى الجزائر، وجعلوا الجامع كنيسة، وكان الشيخ أبو الحسن بن قفل بدمياط فسلمه الله تعالى منهم، فسألوا عنه فقيل هذا رجل صالح من مشايخ المسلمين يأوي إليه الفقراء فما تعرضوا له بعد، وقد رأيته أنا بعد ذلك بثغر دمياط في سنة ثمان وعشرين وستمائة، وهو يحكي للناس صورة ماجرى على البلد من الفرنج خذلهم الله تعالى، ووقع على المسلمين كآبة عظيمة وبكى الكامل،

والمعظم، بكاء شديداً، ثم تأخرت العساكر عن تلك المنزلة، ثم قال الكامل للمعظم لما رأى أعلام الفرنج على دمياط وقد سقط في يده، قد فات ماذبح، وجرى القدر بما هو كائن، وما في مقامك هنا فائدة والمصلحة أن تنزل إلى الشام تشغل خواطر الفرنج، وتستجلب العساكر من المشرق.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: فكتب إلي المعظم، وأنا بدمشق: قد جرى على دمياط ماجرى وأريد أن تحرض الناس على الجهاد فإني كشفت ضياع الشام، فوجدتها ألفي قرية منها ألف وستائة أملاك لأهلها، وأربع مائة سلطانية، وكم مقدار ماتقوم به هذه الأربعمائة من العساكر، وأريد أن يخرج الدماشقة ليزبوا عن أملاكهم.

فجلست بجامع دمشق، وقرأت كتابه عليهم فتقاعدوا فكان تقاعدهم^(٨٢) سبباً لأخذ الثمن والخمس من أموالهم، وكتب إلي إذا لم يخرجوا فسر أنت إلينا، فخرجت إلى الساحل وهو نازل على قيسارية فأقمنا حتى فتحها عنوة، ثم سرنا إلى الثغر ففتحته وهدمه وعاد إلى دمشق.

وفيها: في يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر ربيع الأول ألبس الملك المعظم قاضي القضاء زكي الدين أبا العباس الطاهر بن محيي الدين القباء والكلوة بمجلس الحكم من داره بباب البريد.

قال أبو المظفر: كان في قلبه منه حزازات يمنعه من إظهارها حياؤه من والده العادل، وخوفه من الشناعات وكان يشكو إلي من القاضي مراراً ويقول: إنه لا ينفذ الأحكام، ولا يقيم معالم الإسلام، واتفق موت العادل ومرض أخته ست الشام عممة المعظم وكانت قد أوصت بدارها مدرسة، وأحضرت القاضي الزكي والشهود وأشهدتهم عليها، وأوصت إلى

القاضي، وبلغ المعظم فعز عليه قال: يحضر إلى دار عمتي من غير إذني ويسمع كلامها هو والشهود، ثم اتفق أن القاضي أحضر جابي المدرسة العززية وطلب منه حسابها فأغلظ له في القول، فأمر بضربه فضرب بين يديه كما يفعل الولاة، فوجد المعظم سبيلا إلى إظهار ما كان في نفسه، وكان الجمال المصري وكيل بيت المال عدو القاضي فجاء فجلس عند القاضي في مجلس الحكم والشهود حاضرون والناس، فبعث المعظم ببقعة فيها قباء وكلوته، وأمره أن يحكم بين الناس وهما عليه، فقام من خوفه فلبسهما وحكم بين اثنين.

قلت: جابي المدرسة المضروب هو السديد خطيب عقربا واسمه: سالم ابن عبد الرزاق بن يحيى بن عمر بن كامل أخو الجمال والمؤيد العقرباني، وكانت الخلعة إشارة إلى أنك تفعل فعل والي الشرطة، فألبس لبس من يفعل ذلك.

وسمعت الذي ألبسه الخلعة وهو بعض أجناد الأمير عماد الدين بن موسك يعرف بالشمس صادف عقيب إياها في ذلك اليوم فإنه دخل الجامع وجاء يسلم على شيخنا علم الدين السخاوي رحمه الله وحدثه بالقضية، فتأوه الشيخ وضرب بإحدى يديه على الأخرى، وكان مما حكى أن قال: أمرني السلطان أن أقول له: السلطان يسلم عليك ويقول لك: الخليفة سلام الله عليه إذا أراد أن يشرف أحدا من أصحابه خلع عليه من ملابسه، ونحن نسلك طريقه وقد أرسل إليك من ملابسه وأمر أن تلبسها في مجلسك وأنت تحكم بين الناس، وكان المعظم أكثر ما يلبس قباء أبيض وكلوته صفراء.

وفتح البقعة فلما نظر إليها وجم، فأعدت الكلام بأن يلبسها وأمرته أن يترك التوقف في ذلك، وكنت قد أمرت بأن ألبسه إياها بيدي إن

امتنع أو توقف فمد يده فوضع القباء على كتفيه ونزع عمامته ووضع
الكلوة على رأسه، ثم قام ودخل بيته.

قلت: ومن لطف الله تعالى أن كان نجلس الحكم في داره وإلا والعياذ
بالله لو كان في مكان آخر لتكلف المرور في الطرقات بذلك الزي الشنيع
في حق مثله إلى بيته، اللهم عفوك وعافيتك.

ثم إن القاضي لزم بيته بعدها ولم تطل مدة حياته فمرض مرضة رمى
كبده فيها قطعاً ومات في الثالث والعشرين من صفر سنة سبع عشرة
وستمئة، ودفن بمقبرة أبيه بالجبل وتأسف الناس لما جرى عليه، وكان
رحمه الله يحب أهل الخير ويزور الصالحين في أماكنهم والمرء مع من
أحب، وقد ذكره القوسي في معجمه وقال: كان متورعاً، متبتهاً، ناظراً في
مصالح اليتامى:

وإذا رأيت أسى أمره أو صبره
يوماً فقد عاينت صورة عقله

ولم يخرج عن الرضى والتسليم في حالتي ولايته وعزله رحمه الله، وبقي
نوابه يحكمون بين الناس منهم: شمس الدين بن الشيرازي، وكان يجلس
بالجامع في حافة الرواق الملاصق لخزانة الشريف موضع المقصورة
الغربية، وتارة يجلس في شباك مشهد علي، ومنهم: شمس الدين بن
سني الدولة، وكان يجلس بشباك الكلاسة المحاذي للتربة الصلاحية،
ومنهم: شرف الدين الموصللي وكان يجلس بالشباك الكمال وهو الذي
يصلي فيه القضاة الجمع في هذه الأزمان.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: وكانت حركة شنيعة وواقعة قبيحة لم
يجر في الاسلام أقبح منها، وكانت من غلطات المعظم، ولقد قلت له: ما
فعلت إلا بصاحب الشرع، ولقد وجبت عليك دية القاضي، فقال: هو

الذي أحوجني إلى هذا، ولقد ندمت، واتفق ان المعظم بعث إلى الشرف
ابن عنين الشاعر حين تزهد خمرا ونردا وقال سبح بهذا إشارة إلى أن هذا
ليس له صحة فكتب إليه ابن عنين:

يا أيها الملك المعظم سنة
أحدثتها تبقى على الأباد
تجري الملوك على طريقك بعدها
خلع القضاة وتحفة الزهاد^(٨٣)

قال: وأخبرني الشرف بن كلاب قال: كنت حاضرا ذلك المجلس
وكان القباء والكلوة لونا واحدا أحمر ملطي، ومن أعجب الأمور أن
الذي أتاه بالخلعة طلب من غلمان القاضي ماجرت به العادة من إعطاء
من يأتي بخلعة سلطانية إلى حاكم أو غيره، فأخرجوا له من وراء القاضي
خمسین درهما، وما زال قاعدا على باب القاضي بعد دخوله بالخلعة حتى
أخرجوا له الدراهم فقبضها.

وحج بالناس في هذه السنة من العراق آقباش الناصري، ومن الشام
مملوك المعظم يقال له شقيفات، وفي هذه السنة حج والذي رحمه الله،
وأبو المظفر سبط ابن الجوزي، وعز الدين بن القيسراني، والصفى بن
مرزوق.

وفيها: توفي الشيخ أبو البركات داود بن أحمد بن محمد بن ملاعب
البغدادى الملقب بالزبيب، سمع الكثير من بغداد من أبي الوقت، وأبي
الفضل الأرموي، وأبي الكرم الشهرزوري وغيرهم، وسكن في دمشق
وأسمع بها الكثير، وتوفي بها في جهادى الآخرة، ودفن بجبل قاسيون، وكان
أحد الوكلاء بمجلس الحكم، سمعت عليه صحيح البخاري وغيره،
وكان ثقة متحرزا.

وفيها: في ذي القعدة توفيت بدمشق ست الشام بنت أيوب بن شاذي، أخت الملوك صلاح الدين والعاذل، ذكر الحافظ زكي الدين أنها توفيت في سادس عشر ذي القعدة من السنة، وزاد غيره: آخر نهار الجمعة، وهي التي تنسب إليها المدرستان بدمشق إحداهما: قبل البيارستان النوري، والأخرى: ظاهر دمشق بمحلة العوينة، وتعرف أيضا بالحسامية نسبة إلى ابنها حسام الدين بن لاجين، وكانت دفنت بها ودفنت هي بالقبر الذي هو فيه، وهو الذي يلي باب القبو من القبور الثلاثة، والقبلي هو قبر أخيها تورانشاه المذكور، والأوسط قبر ابن عمها ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شاذي، وكان تزوجها بعد لاجين.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: كانت سيدة الخواتين، عاقلة، كثيرة البر والصلات والإحسان والصدقات، وكان يعمل في دارها من الأشربة والمعاجين والعقاقير في كل سنة بألوف من الدنانير وتفرقها على الناس، وكان بابها ملجأ للقاصدين ومفزعا للمكروبين، ووقفت على المدرستين أوقافا كثيرة، وكانت لها جنازة عظيمة^(٨٤).

قلت: والملوك بنو أيوب إلى آخر من ولي منهم السلطنة في بلد من البلاد المشهورة كلهم محارمها، لأنهم إما أخوتها وإما بنو إخوتها وهم إلى الآن خمسة وثلاثون ملكا، إخوتها الأربعة المعظم، وصلاح الدين، والعاذل، وسيف الاسلام، وأولاد صلاح الدين العزيز، ثم ابنه المنصور، والأفضل، والظاهر، وابن العزيز، وابن ابنه الناصر يوسف، وأولاد العادل: الكامل، وأولاده الثلاثة: المسعود، والصالح، والعاذل، وأبناء الصالح: المعظم المقتول بمصر، والموحد صاحب حمص، وابن العادل بن الكامل المغيث صاحب الكرك الآن، والمعظم بن العادل الأكبر، وابن الناصر داود، والأشرف بن العادل، والصالح بن العادل، والأوحد، والحافظ، والعزيز، وابن السعيد، وشهاب الدين غازي، وابن الكامل محمد، وابن سيف الاسلام اسماعيل الذي ادعى الخلافة باليمن،

وفرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، وابنه الأجد صاحب بعلبك، وتقي الدين وابنه المنصور، ثم ذريته ملوك حماة إلى اليوم.

وفيها: في ربيع الآخر توفي ببغداد الشيخ أبو البقاء العكبري النحوي الحنبلي، واسمه: عبد الله بن الحسين بن عبد الله، ولد سنة ثمان وثلاثين وخمسة وقرأ القرآن على أبي الحسن البطائحي، والنحو على أبي محمد الخشاب. واللغة على ابن العصار، وسمع الحديث منهم ومن غيرهم، وقرأ الفقه والأصول وصنف عدة مصنفات منها: إعراب القرآن، واللباب في النحو، وحواشي على المقامات، وديوان المتنبي. ومفصل الزمخشري، ومقدمات في النحو، والحساب وغير ذلك، ودفن بباب حرب رحمه الله، وكان صالحا ديناً.

وفيها: توفي بحلب الشريف مختار الدين عبد المطلب بن الفضل العلوي البلخي المدرس بمدرسة الخلاوية، كان عارفا بمذهب أبي حنيفة، وشرح الجامع الكبير وغيره، وكان يروي كتاب الشئائل للترمذي وغيره، وكان سيذا، فاضلا، ورعا، ديناً.

وفيها: توفي ببغداد عماد الدين علي بن الحافظ أبي محمد القاسم بن الحافظ الكبير أبي القاسم علي بن الحسن العساكري، قدم بغداد وسمع بها، ثم توجه إلى خراسان وسمع بها، واستجاز لطائفة كثيرة من الدمشقيين وغيرهم لعموم من أدرك ذلك الوقت من جميع من اجتمع به من مشايخ تلك البلاد، شكر الله سعيه، ثم عاد إلى بغداد فوقع عليه قطاع الطريق فأخذوا ما كان معه وجرحوه فأقام ببغداد يعالج الجراحات فمات بها يوم السبت ثالث جمادى الآخرة ودفن بالشونيزية، وخلف ولدين مات بعده أحدهما المسمى باسم جده بهاء الدين القاسم، كان في صحبته فرجع إلى دمشق بعد موت أبيه، والآخر أبو حامد الحسين ولم يبق من نسله إلا ولد صغير من ابنه الأصغر أبي حامد.

وفيها: توفي ببغداد محمد بن جميل صاحب مخزن الخليفة ومولده بهيت، وكان فاضلا بارعا، وقدم علينا دمشق ابن ابنته وهو شاب فاضل يلقب فخر الدين، وله خط حسن وصورة جميلة، ونزل عندنا بالمدرسة العزيزية، ثم توجه إلى الحجاز مع جماعة فضلاء: شرف الدين المرسى، ومحب الدين بن هلال، وشرف الدين بن الزيات، وفخر الدين بن المالكي وغيرهم فجاوروا.

وفيها: توفي صاحب سنجار المنصور محمد بن عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي، وأبوه كان ختن نور الدين محمود بن زنكي على ابنته، وكان هذا المنصور ملكا عادلا، وهذا الذي حصره العادل أبو بكر بن أيوب، ثم رحل عنه بشفاعة الخليفة الإمام الناصر، وخلف المنصور عدة أولاد: سلطان شاه، وزنكي، ومظفر الدين وغيرهم، وحج بعضهم معنا في سنة إحدى وعشرين وستمائة.

ذكر الحافظ زكي الدين في الوفيات ماثاله: وفي الثامن من صفر سنة ست عشرة وستمائة توفي قطب الدين محمد بن زنكي بن مودود صاحب سنجار، وملك ولده عماد الدين شاهنشاه.

وفيها: توفي محمد بن محمد بن محمود الكشميهني، وكان صالحا صاحب رياضات ومجاهدات، وأوصى أن يكتب على كفته طلبا لاصلاح حاله:

يكون أجادونكم فإذا انتهى
إليكم يلقى شركم فيطيب

وفيها: توفي ببغداد في رمضان أبو بكر زكريا بن يحيى بن القاسم بن المفرج التكريتي، ولي القضاء بتكريت، ثم ولي تدريس النظامية ببغداد،

- ٩٢٠٨ -

ودفن بالشونيزية وكان فاضلا وأنشد أبو المظفر من شعره:
كم يأمل المرء آمالا وتخلفه
وكم يرى آمنا والموت يردفه
وطالماسلك الإنسان شاكلة
يظن فيها نجاة وهي تقتله

ثم دخلت

سنة سبع عشرة وستمائة

وفي هذه السنة كان ظهور التاتار خذلهم الله.

وفيها: يوم الأحد ثاني شعبان توفي إمام المالكية بدمشق برهان الدين علي علوش بن عبد الله المغربي، ودفن بجبل قاسيون، وكان عالما بالأصول، والفروع، والعربية، ونشأ له ابن فاضل في علم الطب يلقب بناصر الدين منصور بن علي، توفي أيضا وهو شاب رحمه الله تعالى.

وفيها: توفي في رجب تقي الدين عبد الرحمن بن أبي منصور بن نسيم ابن الحسين بن علي المقدسي، أبو الحسن، سمع الكثير من الشيخ الحافظ أبي القاسم بن عساكر، وأكثر طباق السماع عليه في الأجزاء وغيرها موجودة بخطه.

وفيها: في جمادى الآخرة توفي زين الدين أبو البركات داود بن أحمد بن محمد بن ملاعب البغدادي، المدبر لمجالس الحكام بدمشق، وكان شيخا معمرا مولده ببغداد منتصف المحرم سنة اثنين وأربعين وخمسمائة يروي عن أبي الوقت وغيره، سمعت عليه صحيح البخاري سنة أربع عشرة وستمائة، ويروي أيضا هو وأخته حفصة عن أبي الفضل محمد بن عمر ابن يوسف الأرموي رحمهما الله.

وفيها: توفي الشيخ عتيق بن سلامة الأندلسي، ومولده سنة ست عشرة وخمسمائة، عاش مائة سنة ودفن بمقابر الصوفية على حافة الطريق، وكان شيخا صالحا مشهورا، زرت في مرضه مع شيخنا أبي الحسن السخاوي رحمه الله، وطلب لي منه الدعاء فدعا لي، ووجدت بركة دعائه، وكانت له عبادة جميلة.

وفيها: يوم السبت ثالث عشر جمادى الأولى توفي الحافظ عماد الدين أبو القاسم علي بن الحافظ بهاء الدين أبي محمد القاسم بن الحافظ الكبير أبي القاسم علي بن الحسن الدمشقي، خرج عليه قوم فجرحوه بالقرب من خانقين في توجهه للسماح بتلك البلاد، ثم حمل إلى بغداد فتوفي فيها، ودفن بالجانب الغربي منها بمقبرة الشونيزية رحمه الله، ومولده في ربيع الآخر سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، قال: انشدنا الخشوعي، أنشدنا ابن الأكفاني في المروحة:

ومروحة تروح كل هم
ثلاثة أشهر لا بد منها
حزبان وتموز وآب
وفي أيلول يغني الله عنها

وفيها: نافق الأمير عماد الدين بن المشطوب على الملك الأشرف، وأغار في أرض سنجار وساعده صاحب ماردين، فسار إليه الأشرف، فدخل ابن المشطوب إلى تل أعفر، فأنزله بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بالأمان، وحمله معه إلى الموصل، ثم قيده وبعث به إلى الأشرف، فألقاه الحاجب على الجب فمات بالقمل والجوع، وكان نور الدين بن عماد الدين صاحب قرقيسيا مع الأشرف فكاتب عليه، واتفق مع ابن المشطوب فاعتقله الأشرف وبعث به مع العلم قيصر المعروف بتعاسيف إلى قرقيسيا وعانه، فعلق نور الدين رجله تحت القلعتين وعذبه فسلمت إلى تعاسيف جميع بلاده، وأراد الأشرف أن يرميه في الجب فتشفع إلى أخيه الملك المعظم، فشفع فيه فأطلقه الأشرف، وسار نور الدين إلى دمشق وأحسن المعظم إليه فاشترى بستان ابن حيوس بنواحي العقبية وبنى فيه وأقام به.

وفيها: قتل صاحب سنجار أخاه فسار الأشرف إليها فأخذها، وعوض صاحبها الرقة.

وفيها: في رجب كانت وقعة البرلس بين الكامل والفرننج، وكانت وقعة عظيمة قتل الكامل منهم عشرة آلاف، وغنم خيولهم وسلاحهم، ورجعوا إلى دمياط مهزومين.

وفيها: عزل المعظم المبارك المعتمد عن ولاية دمشق وولى الغرز خليلا.

وحج المعتمد بالناس من الشام في هذه السنة. ولم يحج أحد من العجم بسبب خروج التاتار في البلاد، وحج من بغداد أقباش الناصري وقتل بمكة، وعاد حاج العراق على طريق الشام.

واستفحل أمر التاتار في هذه السنة، ومات فيها خوارزم شاه محمد بن تكش، وقد ذكرنا صفة موته وماتم له مع التاتار في هذه السنة وقبلها في الكتاب الذي اختصرت في سيرة الدولتين العلائية والجلالية.

وذكر أبو المظفر سبط ابن الجوزي: أنه توفي في سنة خمس عشرة، ووهم في ذلك وقال: قصد العراق في أربع مائة ألف، ووصل إلى همدان يريد بغداد، وقيل كان معه ستمائة جتر تحت كل جتر ألف، وكان قد أفنى ملوك خراسان، وماوراء النهر، وقتل صاحب سمرقند، وكان حسن الصورة، وأخلى البلاد من الملوك واستقل بها، وكان ذلك سببا لهلاكه.

قال: ولما نزل همدان كان في عسكره سبعون ألفا من الخطا فكاتب العلقمي، يعني وزير بغداد عساكره ووعدهم بالبلاد، فاتفقوا مع الخطا على قتله، وبعث العلقمي إليهم بالأموال والخيول والخلع سرا فكان ذلك سببا لوهنه، ولما علم خوارزم شاه بذلك سار من همدان طالبا خراسان ونزل مرو، والتقى في طريقه الخيل والخلع والكتب المنفذة إلى الخطا، فلم يمكنه الرجوع لفساد عسكره، وكان خاله من الخطا وقد حلفوه أن لا يطلعنه على مادبروا عليه، فجاء إليه في الليل وكتب في يده

صورة الحال ووقف بإزائه فنظر إلى السطور وفهمها وهو يقول: خذ لنفسك فالساعة تقتل، فقام فخرج من تحت ذيل الخيمة ومعه ولده جلال الدين وآخر فركب وسار بهما، ولما خرج من الخيمة دخل الخطا والعساكر من بابها ظنا منهم أنه فيها فلم يجدوه فنهبوا الخزائن، والخيول، والجواري، فيقال إنه كان في خزانته عشرة آلاف ألف دينار، وألف حمل قماش أطلس وغيره وعشرون ألف فرس وبغل، وكان له عشرة آلاف مملوك مثل الملوكة، فتمزق الجميع ونهب، وأما خوارزم شاه فهرب إلى البحر، وركب في مركب صغير إلى جزيرة بها قلعة ليتحصن بها فأدركه الموت دون صعود القلعة فدفنوه على ساحل البحر، وهرب ولده جلال الدين وأخوه إلى الهند، وجاء فدلوا عليه فنبشوه، وقطعوا رأسه وأخذوه، وعادوا وتفرقت الممالك بعده وأخذت البلاد^(٨٧).

وفيها: توفي الملك الفائز سابق الدين إبراهيم بن العادل بن أبي بكر بن أيوب، وكان قد حالف ابن المشطوب والأمراء بمصر على الكامل لما ملك الفرنج دمياط، ولولا أخوهما المعظم يمسه ابن المشطوب وينفيه إلى الشرق على ماسبق ذكره لثم لهم ما أرادوا، ولما كانت وقعة البرلس.

قال الكامل للفائز: هؤلاء الفرنج قد استولوا على البلاد وقد أبطأ علينا الملك المعظم، وما الملوكة الشرق غيرك، وتوجه إلى الأشرف وعرفه مانحن فيه من الضائقة، فسار إلى الشرق، وكان الأشرف على الموصل فمرض الفائز بين سنجار والموصل، وقيل إنه سم فمات، فردوه إلى سنجار، فدفن عند تربة عماد الدين زنكي رحمه الله، قيل إنه مات في شعبان من السنة.

وفيها: توفي أبو عزيز قتادة بن إدريس أمير مكة الشريف العلوي الزيدي الحسني، كان عادلا منصفاً، نقمة على عبيد مكة والمفسدين، والحاج في أيامه مطمئنون آمنون على أنفسهم وأموالهم، وكان شيخاً مهيباً

طوالا، وما كان يلتفت إلى أحد من خلق الله، ولا وصىء بساط الخليفة ولا غيره، وكان يحمل إليه في كل سنة من بغداد الخلع والذهب وهو في داره، وكان يقول: أنا أحق بالخلافة، ولم يرتكب كبيرة على ما قيل وكان في زمانه يؤذن في الحرم «بحي على خير العمل» على مذهب الزيدية، وكتب إليه الخليفة يستدعيه ويقول: أنت ابن العم والصاحب وقد بلغني شهامتك، وحفظك للحاج، وعدلك وشرف نفسك، وعفتك، ونزاهتك، وقد أحببت أن أراك، وأشاهدك، وأحسن إليك فكتب إليه:

ولي كف ضرغام أذل ببطشهـ
فأشري بها بين السورى وأبيع
وكل ملوك الأرض تلثم ظهرها
وفي وسطها للمجدين ربيع
أجعلها تحت الرحى ثم ابتغي
خلاصا لها إنى إذ الرقيع
وما أنا إلا المسك في كل بقعة
يضوع وأما عندكم فيضيع

وفيها: توفي آقباش بن عبد الله الناصري، كان مملوكا للخليفة الناصر ابن المستضىء، اشتراه وهو ابن خمس عشرة سنة بخمسة آلاف دينار، ولم يكن بالعراق أجمل صورة منه، ثم قرب الخليفة ولم يكن يفارقه، فلما كبر ولاه إمرة الحاج، وكان عاقلا متواضعا محبوبا إلى القلوب، حج في هذه السنة ومعه خلع وتقليد من الخليفة لحسن بن قتادة، وكان قتادة قد مات كما ذكرنا، فلما وصل آقباش إلى عرفات جاءه راجع بن قتادة أخو حسن، وسأله أن يوليه إمارة مكة، وقال: أنا أكبر ولد قتادة فلم يجبه وظن حسن أن آقباش قد ولاه فأغلق أبواب مكة، وجاء آقباش فنزل بعد أيام منى بالشبيكة ووقعت الفتنة بين حسن وأخيه، ومنع حسن الناس من الدخول إلى مكة، فركب آقباش ليسكن الفتنة ويصلح بين الأخوين،

فخرج عبيد مكة وأصحاب حسن من باب المعلى يقاتلونهم فقال: ما قصدي القتال فلم يلتفتوا إليه وانهمزم أصحابه وبقي وحده، وجاء عبد فعرقب فرسه فوقع إلى الأرض فقتلوه، وحملوا رأسه إلى حسن بن قتادة على رمح فنصبه بالمسعى عند دار العباس، ثم رد إلى جسده ودفن بالمعلى، وأراد حسن نهب الحاج العراقي، فمنعه أمير حاج الشام المبارك وخوفه من الأخوين الكامل والمعظم ملكي مصر والشام، فأجابه وكف عن ذلك، ووصل الخبر إلى بغداد فحزن الخليفة حزنا عظيما، ولم يخرج الموكب للقاء الحجاج ، وأدخل الكوس والعلم في الليل، وكان سادس عشر ذي الحجة.

قلت: وكان في حج الشام في هذه السنة شيخنا فخر الدين أبو منصور بن عساكر، فأخبرني بعض الحاج في ذلك العام أن الحسن بن قتادة أمير مكة جاء إليه، وهو نازل داخل مكة، فقال له: قد أخبرت أنك خير أهل الشام فأريد أن تصير معي إلى داري، فلعل ببركتك تزول هذه الشدة عنا، فسار معه إلى داره مع جماعة من الدمشقيين، فأكلوا شيئا فما استتم خروجهم حتى قتل آقباش، وزال ذلك الاستيحاء.

وفيها: مات الوزير ناصر الدين بن مهدي الذي كان وزير الخليفة ببغداد، وقبض عليه كما ذكرنا في سنة أربع وستمئة، واعتقل بدار طاشتكين وبها مات في جمادى الأولى وفتح له جامع القصر، ومشى بين يديه أرباب الدولة ودفن بمقبرة موسى بن جعفر، وكان جبارا قاسيا، وكان يدعي أنه شريف علوي، وقد طعن في نسبه.

وفيها: توفي الملك المنصور صاحب حماة، واسمه محمد بن المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وكان شجاعا محبا للعلماء، والفضلاء، وكان عنده جماعة لهم عليه الرواتب، وصنف كتابا سماه «المضمار»^(٨٩) جمع فيه جملة من التواريخ وأسماء من ورد عليه، وأقام عنده في عشرة

مجلدات، وكان حفظ المسلمين لما هاجم الفرنج حماة في سنة إحدى وستمائة، وثبت ووقف، وكانت وفاته بحماة في شوال، ودفن عند أبيه وقام بعده ولده الأكبر الملك الناصر قليج أرسلان، ثم أخذ الكامل منه حماة وأعطاه أخيه المظفر بن المنصور، واعتقل قليج أرسلان في الحب بمصر، فمات به على أقبح حال.

وفيها: توفي صاحب آمد الملك الصالح ناصر الدين محمود بن محمد ابن قره أرسلان بن أرتق، وكان شجاعا، عاقلا، جوادا، محبا للعلماء، وكان الأشرف بن العادل يحبه، وجاء غير مرة إلى خدمة الأشرف إلى دنيسر وغيرها، ومات بآمد وفي صفر، وقام بعده ولده المسعود، وكان بخيلا فاسقا، وهو الذي أخذ منه الكامل آمد حمله إلى مصر فحبسه في الحب مدة، ثم أطلقه فمضى إلى التاتار ومعه أموال فأخذت.

قلت: ذكر الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري رحمه الله تعالى في كتاب الوفيات: أن صاحب آمد المذكور توفي سنة تسع عشرة وستمائة، وهو الصحيح، وقد تصحيف على صاحب هذا التاريخ سبع عشرة من تسع عشرة^(٩٠) والله أعلم.

ولقد رأيت بخط الشيخ زكي الدين أيضا في كتاب « الفوائد السفرية » أن الملك المسعود سلمان بن محمد، وهو أخو الصالح المذكور، كان متولي آمد وسقط من سطح فمات سنة ست وتسعين وخمسمائة، وتولى مكانه أخوه الصالح محمود إلى أن مات.

وفيها: توفي أبو عبد الله بن الخبازي، واسمه: الحسين بن أحمد بن الحسين من أهل باب البصرة، ولد سنة خمس وثلاثين وخمسمائة، وسمع الحديث، وكان حفظه للحكايات والأشعار والملح.

قال أبو المظفر: وكان يتردد إلى جدي ويعجبه كلامه، وسمعه يوما

يحكي له أن ابن عقيل سئل فقل له أن الحمار يزد له في السنة في ليلة واحدة فأيا هي هذه الليلة؟ فقال ابن عقيل: ما يعرف هذه الليلة إلا من قد كان حمارا.

قال: ودخل رجل إلى الكرخ فلقيته امرأة فقالت له: أبو بكر، كيف أنت؟ فقال: أهلا يا عيشة. قالت: فأنا اسمي عيشة؟ قال: فأقتل أنا وحدي، وكانت وفاته برمضان سمع شهدة وطبقته وكان ثقة.

وفيها: توفي شيخ الشيوخ صدر الدين أبو الحسن محمد بن شيخ الشيوخ عماد الدين محمد بن حموية، والد أولاد شيخ الشيوخ الذين اشتهروا بالأمر والوزارة بمصر في أيام العادل أبي بكر بن أيوب، وابنه الكامل محمد وذريته، وكان أبوه عمر قد ولاه نور الدين بن زنكي رحمه الله خوانك الشام، وكان يحترمه ويحبه ومات سنة سبع وسبعين وخمسمائة وصدر الدين بدمشق عند أبيه فولاه صلاح الدين المشيخة مكان أبيه، وزوجه الشيخ قطب الدين مسعود النيسابوري ابنته، فأولدها ابنه شمس الدين، توفي قديما، ثم تزوج ابنة ابن أبي عصرون، وأولدها أولاده الأربعة المشهورين: عماد الدين عمر، وفخر الدين يوسف، وكمال الدين أحمد، ومعين الدين حسن، وسيأتي ذكر كل منهم، وكان صدر الدين قد ناب عن قطب الدين النيسابوري في التدريس بالزاوية الغربية بجامع دمشق وبمدرسة جاروخ، وانتفع بصحبته، وكان قد نفعه في بلاد العجم، ثم ولاه العادل بمصر التدريس بالشافعي، ومشهد الحسين، والنظر في الخانقاه الكبرى بدار سعيد السعداء بين القصرين، ودار الوزارة، وكان فاضلا فقيها لا يتكلم فيما لا يعنيه، وكانت له الحرمة الوافرة عند العادل ابن أيوب وأولاده، ولما استولى الفرنج على دمياط بعثه الكامل، إلى الخليفة الناصر يستنجد به على الفرنج، فمرض بين حران والموصل، ووصل إلى الموصل في منتصف جمادى الآخرة، فتوفي بها بعلّة الذرب في

الرابع والعشرين منه، ودفن إلى جانب قضيب البان، وعمره ثلاث وسبعون سنة.

وفيها: في العشر الأول من ذي الحجة توفي الشيخ عبد الله اليونيني، أسد الشام، أصله من قرية من قرى بعلبك يقال لها يونين، وكان صاحب رياضات ومجاهدات، وكرامات، وإشارات وقد رأيت به جامع دمشق.

قال سبط ابن الجوزي: كان لا يقوم لأحد من الناس تعظيماً لله تعالى، ويقول: لا ينبغي القيام إلا لله تعالى، صحبته مدة، وما كان يدخر شيئاً ولا يمس بيده ديناراً ولا درهماً، كان زاهداً، ورعاً، عفيفاً ومالبس طول عمره سوى الثوب الخام، وقلنسوة من جلد الماعز تساوي نصف درهم، وفي الشتاء يبعث له بعض أصحابه فروة يلبسها، ثم يؤثر بها في البرد، وكان إذا لبس الثوب يقول هذا لفلان، وهذا لفلان، وقال لي يوماً ياسيدي: أنا أبقى أياماً في هذه الزاوية، وكنا ببعلك ما أكل شيئاً فقلت له: أنت صاحب القبول فكيف تجوع؟ فقال: لأن أهل بعلبك يتكل بعضهم على بعض فأجوع أنا.

قال: وحدثني عبد الصمد خادمه قال: كان يأخذ ورق اللوز فيفركه ويسفه، وكان الملك الأمجد صاحب بعلبك يزوره ويحبه، وكان الشيخ يهينه فما قام له يوماً قط، وكان يقول له: يا مجيد أنت تظلم وتفعل وتصنع، وهو يعتذر إليه، وكان العادل قد أظهر بدمشق ضرب قراطيس سود فقال الشيخ عبد الله: يا مسلمين انظروا إلى هذا الشيخ الفاعل الصانع يفسد على الناس معاملاتهم، وبلغ العادل فأبطلها، وكان يقول لصاحبه الفقيه محمد الحنبلي: في وفيك نزل: (إن كثيراً من الأخبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل)^(٩٢) أنا من الرهبان وأنت من الأخبار.

وكان يستوحش من الناس فتارة يكون بجبل لبنان، وتارة يكون بالغوطة، وتارة بثنية العقاب، وتارة بضمير، وكان يأتي في الشتاء إلى عيون الفاسريا، وهي ظاهر دمشق بسفح الجبل المطل على قرية دومة لأجل سخونة الماء بها، وبني له على رأس العين مسجدا صغيرا يأوي إليه، وكان الدماشقة يخرجون من دمشق إلى زيارته.

قال: فحكيت لي امرأة صالحة قالت: خرجت من دمشق بعد العصر فوصلت العيون بعد العشاء الآخرة، فتوضأت وطلعت إلى زيارة الزاوية، وكانت ليلة مقمرة، وإذا بالسبع قائما على باب الزاوية، ورأيت على عتبته فيست ولم أقدر أنتحرك، فسحبت ركبتني إلى نحو القرية، فلما كان وقت السحر هرول السبع ومضى وخرج الشيخ فرأني فقال: ويلك وإيش كان عليك منه؟.

قال: وكان شجاعا لايبالي بالرجال قتلوا أو كثروا، وكان قوسه ثمانين رطلا، ومافاته غزاة بالشام قط، وكان يتمنى الشهادة ويلقي نفسه في المهالك، حكى لي عنه خادمه عبد الصمد قال: لما دخل العادل إلى بلاد الفرنج ووصل إلى صافيتا والعريمة، كان الشيخ في الزاوية بعلبك فقال لي: يا صميد انزل إلى الفقيه عبد الله إطلب لي منه بغلة، قال: فأحضرت البغلة فركبها وخرجت معه فبتنا في تومين، وقمنا نصف الليل فجئنا إلى المحدثنة قبيل الصبح فقلت له: لا تتكلم هاهنا، فهذا مكنم الفرنج، قال: فرفع صوته وقال: الله أكبر فجأوبته الجبال، فمت أنا من الفزع، ونزلت فصلى الفجر وركب وطلعت الشمس والطير لايطير في تلك الأرض، وإذا قد لاح من ناحية حصن الأكراد طلب أبيض فظنهم الاسبتار، فقال: الله أكبر ما أبركك من يوم، اليوم أمضي إلى صاحبي وساق إليهم وقد شهر سيفه، فقلت في نفسي: شيخ وتحتة بغلة وبيده سيف يسوق إلى طلب الفرنج، فلما كان بعد ساعة وإذا بهم قد قربوا منا، وهم مائة حمير

وحش، قال: فانكسر قلبي وفترت هممتي فقلت له: إحمد ربك فإن الله قد نظر إليك أنت واحد تريد تلاقي مائة حمار وحش على بغلة.

قال: وجئنا إلى حمص فجاءنا صاحبها أسد الدين وقدم له حصانا من خيله فركبه، ودخل معهم فعمل العجائب.

قال أبو المظفر: وحدثني القاضي جمال الدين بن يعقوب قاضي كرك البقاع، قال: كنت يوما عند الجسر الأبيض في مسجد هناك وقت الحر، وإذا بالشيخ عبد الله قد جاء فتزل نهر ثورا يتوضأ، وإذا بنصراني عابر على الجسر ومعه بغل عليه حمل خمر، فعثر البغل عند الجسر ووقع حمل الخمر وليس في الطريق أحد، فصعد الشيخ من النهر وصاح لي يافقيه تعال، فجئت، فقال: عاوني فعاونته حتى رفعنا الحمل على البغل، وراح النصراني، فقلت في نفسي: مثل هذا الشيخ يفعل كذا، ثم مشيت خلف البغل إلى العقيبة، فجاء إلى دكان الخمار فحط الحمل، وفتح الزقاق وقلب ليكيله وإذا به قد صار خلا، فقال له الخمار: ويحك هذا خل، فبكى وقال: والله ما كان إلا خمر من ساعة، وإنما أنا أعرف العلة، ثم ربط البغل في الخان وعاد إلى الجبل، وكان الشيخ قد صلى الظهر في المسجد عند الجسر، وقعد يسبح، فدخل عليه النصراني وقال ياسيدي، أنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأسلم، وصار فقيرا.

قال أبو المظفر: وحكى لي جماعة من أهل بعلبك أنه كان جالسا يوما في زاويته، وإذا بامرأة طالعة وبين يديها دابة تسوقها عليها نحاس وثياب فربطتها وجاءت إليه فسلمت عليه، فقال لها: من أنت؟ قالت: نصرانية من جبة المنيطرة، قال: وما الذي جاء بك إلى عندي؟ قالت: رأيت السيدة مريم في المنام فقالت لي: اذهبي فاخدمي الشيخ عبد الله اليونيني إلى أن تموتي، قال: فقلت لها ياستي فذاك مسلم، فقالت: مالك صحيح إنه مسلم ولكن قلبه نصراني، فقال لها الشيخ: أجادت مريم، ماعرفني

غيرها. فأعطاها بيتا في الزاوية فأقامت تخدمه ثمانية أشهر، فمرضت، فقال لها الشيخ: إيش تشتهين، فقالت: أموت على دين السيدة مريم، فقال: صيحووا بالقسيس، فجاء، فقال: خذ هذه إليك، وخذ قماشها وكان يساوي خمسمائة درهم فماتت عند القسيس.

قال: وحكى بعض أهل بعلبك أنها ماماتت إلا مسلمة عند الشيخ، وتصدق الشيخ بها خلفت.

قال أبو المظفر: كنت اجتمعت به في الشام من ستمائة إلى سنة ثلاث وستمائة، وكان له تلميذ اسمه توبة، وكان من الصالحين الأجواد، وسافرت إلى العراق في سنة أربع وستمائة وحججت، فلما كان يوم عرفة صعدت جبل عرفات وإذا بالشيخ عبد الله قاعد مستقبل الكعبة وعليه الثوب الخام، وعلى رأسه القلنسوة السوداء فسلمت عليه فرحب بي وسألني عن طريقي، وقعدت عنده إلى قريب الغروب، ثم قلت له: ماتقوم نروح إلى المزدلفة، قال: اسبقني أنت فلي رفاق، ونزلت من الجبل، وأتيت المزدلفة ووقفت بها وجئت إلى منى فدخلت مسجد الخيف، وإذا بالشيخ توبة خارجا من المسجد فسلم علي فقلت: أين نزل الشيخ؟ ظنا مني أنه قد حج معه، فقال: أيما شيخ: قلت: عبد الله قال: خلفته ببعلبك ففطنت، فقلت: مبارك فلزم بيدي وبكى، وقال بالله حدثني إيش معنى هذا؟ فقلت: رأيته البارحة على عرفات وحدثته الحديث، ورجعت أنا على بغداد وجاء توبة إلى دمشق، وحدث الشيخ عبد الله الحديث، فحدثني توبة قال: قال لي الشيخ: ما هو صحيح منك فلان فتى، والفتى ما يكون غمازا، فلما عدت إلى الشام عتبني الشيخ فقلت: توبة تلميذك، فقال: لاتعد إلى مثلها كأنه كره أن يتحدث له بكرامة في حال حياته.

قال: حكى لي عبد الصمد خادمه، قال: لما كان يوم الجمعة في العشر

الأول من ذي الحجة نزل فصل الجمعة بجامع بعلبك وهو صحيح ليس به شيء، ودخل الحمام قبل الصلاة واغتسل وكان عليه ثوبان قد ساهما لامرأتين وجاءه داود المؤذن وكان يغسل الموتى فقال له ويحك يا داود انظر كيف غدا، فما فهم داود وقال: ياسيدي كلنا غدا في خفارتك، ثم صعد الشيخ إلى المغارة وكان قد أمر الفقراء أن يقطعوا صخرة عند اللوزة التي كان ينام تحتها ويقعد عندها وعندها قبره، وكان في نهار الجمعة قد نخرت الصخرة وبقي منها مقدار نصف ذراع، فقال لهم: لا تطلع الشمس إلا وقد فرغتم منها، قال: وبات طول الليل يذكر أصحابه ومعارفه ويدعو لهم، ويقول: ياسيدي فلانة اجتزت بها في الموضع الفلاني اعطتني مشربه من الماء فشربتها وقليل ماء فتوضأت به رب اغفر لها وفلان أحسن إلي فأحسن إليه، وطلع الصبح فصلى وخرج إلى صخرة كان يجلس عليها فجلس عليها وفي يده مسبحة وقام الفقراء يتممون الصخرة، وطلعت الشمس وقد فرغوا منها والشيخ قاعد نائم والمسبحة بيده، وجاء خادم من القلعة إليه في شغل فأراه نائما قاعدا بحاله، فما تجاسر أن يوقظه فقعد ساعة وطال عليه، فقال: يا عبد الصمد ما أقدر أقعد أكثر من هذا، قال: فتقدمت إليه وقلت: سيدي سيدي، فلم يتكلم فحركته فإذا به ميتا، وقد فرغوا من الصخرة وعملوا فيها ساعة وهو ميت فارتفع الصياح، وكان صاحب بعلبك في الصيد فأرسلوا وراءه، فأراه في تلك الحال لا وقع ولا وقعت السبحة من يده، وهو كأنه نائم، فقال: دعونا نبنّي عليه بنيانا وهو على حاله ليكون أعجوبة للعالمين أن الإنسان يموت وهو قاعد ولا يتغير، فقالوا: اتبع السنة أولى، وطلع داود فغسله ودفع الثوبين إلى المرأتين، ولما ألدوه قال له الحفار يا شيخ عبد الله اذكر ما عاهدتنا عليه، قال: ففتح عينيه ونظر إلى شذرا ودفن عند اللوزة يوم السبت وقد جاوز ثمانين سنة رحمه الله (٩٣).

ثم دخلت

سنة ثمانى عشرة وستمائة

ففيها: توجه المعظم عيسى إلى أخيه الأشرف موسى، واجتمعا على حران، وكتب صاحب ماردین ناصر الدين إلى الأشرف يسأله أن يصعد المعظم إليه، فسأله فسار إلى ماردین فنزل صاحب ماردین والتقاء في دنيسر وأصعده إلى القلعة وخدمه خدمة عظيمة، وقدم له التحف والجواهر وتحالفا واتفقا على ما أراد، وزوج المعظم إحدى بناته ناصر الدين صاحب ماردین، وزوج ناصر الدين ابنته الأخرى وخلع على جميع أصحابه وأعطاهم الأموال ورجع المعظم إلى حران.

وفيهما: وصلت الأخبار بوصول التاتار إلى کرمان شاه قريبا من بغداد، فانزعج الخليفة وأمر الناس بالقنوت في الصلاة، وحصن بغداد واستخدم العساكر.

وفيهما: في جمادى الآخرة استرد المسلمون دمياط من الفرنج، وكان المعظم عيسى من أحرص الناس على خلاص دمياط وعلى الغزاة، وكان مصافيا لأخيه الكامل، وكان أخوهما الأشرف مقصرا في حق الكامل، وكان مبائنا له في الباطن، فلما اجتمعت العساكر على حران قطع لهم المعظم الفرات وسار الأشرف في آثاره، وجاء المعظم فنزل حمص، ونزل الأشرف سلمية.

قال أبو المظفر: وكنت قد خرجت من دمشق إلى حمص لطلب الغزاة فإنهم كانوا على عزم الدخول إلى طرابلس، فاجتمعت بالمعظم على حمص في ربيع الآخر، فقال لي: قد سحبت الأشرف إلى هنا بأسناني وهو كاره، وكل يوم أعتبه في تأخيره وهو يكاشر، وأخاف من الفرنج أن يستولوا على مصر، وهو صديقك فاشتبهى تروح إليه فقد سألتني عنك

مرارا، ثم كتب إلى أخيه كتابا بخطه نحو ثمانين سطرا، فأخذته ومضيت إلى سلمية، وبلغ الأشرف وصولي فخرج من الخيمة والتقاني وعاتبني على انقطاعي عنه.

وجرى بيني وبينه فصول، وقلت له: المسلمون في ضائقة فإذا أخذ الفرنج الديار المصرية ملكوا إلى حضرموت، وعفوا آثار مكة، والمدينة، والشام، وأنت تلعب، قم الساعة وارحل فقال: ارموا الخيام والدهليز، فسبقتة إلى حمص والمعظم عينه إلى الطريق، فلما قيل له وصل فلان ركب والتقاني وقال: مانمت البارحة ولا أكلت اليوم شيئا، فقلت: غدا بكرة يصبح أخوك على حمص فدعاني، ولما كان من الغد أقبلت الأطلاب وجاء طلب الأشرف، والله ما رأيت أجمل ولا أحسن رجالا ولا أكمل عدة، فسر المعظم سرورا عظيما وجلسوا تلك الليلة يتشاورون، فاتفقوا على الدخول في السحر إلى طرابلس يشوشون على الفرنج وكانوا على حال فأنطق الله الأشرف من غير قصد وقال للمعظم: ياخوند: عوض ما ندخل الساحل وتضعف خيلنا وعساكرنا ونضيع الزمان مانروح إلى دمياط، ونستريح؟ فقال له المعظم: قول رماة البندق؟ قال: نعم، فقبل المعظم قدمه، وقام الأشرف فخرج المعظم من الخيمة كالأسد الضاري يصبح الرحيل الرحيل إلى دمياط، وكان يظن أن الأشرف ما يسمح بذلك، وساق المعظم إلى دمشق وتبعته العساكر، ونام الأشرف في خيمته إلى قريب الظهر، وانتبه فدخل الحمام فلم ير حول خيمته أحدا، فقال: وأين العساكر؟ فأخبروه الخبر فسكت وساق إلى دمشق، فنزل القصر يوم الثلاثاء رابع عشر جمادى الأولى فأقام إلى سلخ جمادى، وعرض العساكر تحت قلعة دمشق، وكان هو وأخوه المعظم في الطيارة في القلعة، وساروا إلى مصر غرة جمادى الآخرة.

قلت: كنت حاضرا تحت القلعة وتلك العساكر تمر أميرا بعد أمير، والناس يتضرعون ويدعون لهما بالنصر، فاشتدت قوى المسلمين وأيقنوا

بالظفر، ولأجل ما كان للملك المعظم من الآثار الجميلة في سفره إلى الشرق تجمع هذه العساكر وتيسر الوصول بها إلى مصر قال شيخنا أبو الحسن السخاوي رحمه الله من جملة قصيدة له عند فتح دمياط:

سرى الملك المولى المعظم في الدجى
فأطلع نجم النصر بعد مغيبه
ورد على الإسلام بعد كآبة
سرورا وأوى الدين بعد شحوبه
تجلى بعيسى غمها واغتنى بها
فريدا وأضحى بحرهما من نصيبه

وسمعت ممن يوثق به في مجلس شيخنا أبي الحسن السخاوي رحمه الله يقول: أنه رأى في منامه في بعض تلك الليالي كأن هاتفا يقول له:

لا تأسن لعسرة فـوراءها
يسران وعد أليس فيه خلاف
كم كربنة قلق الفتى لنزولها
لله في أعطافها الطاف (٩٤)

قلت: والبيتان لأبي الفتح البستي.

قال أبو المظفر: وأما الفرنج الذين كانوا بدمياط فإنهم خرجوا بالفارس والراجل، وكان البحر زائدا جدا فجاءوا إلى ترعة فأرسوا إليها، وفتح المسلمون عليهم الترع من كل مكان، وأحدقت بهم عساكر الكامل، فلم يبق لهم وصول إلى دمياط، وجاء أسطول المسلمين فأخذوا مراكبهم ومنعواهم أن يصل إليهم ميرة من دمياط، وكانوا خلقا عظيما، وانقطعت أخبارهم عن دمياط، وكان فيهم مائة كند، وثمانمائة من الخيالة المعروفين، وملك عكا والدوك، والدوكات، ونائب البابا، ومن الرجال

مالا يحصى، فلما عاينوا الهلاك أرسلوا إلى الكامل يطلبون الصلح
والرهائن ويسلمون دمياط، فمن حرص الكامل على خلاص دمياط
أجابهم، ولو أقاموا يومين أخذهم برقابهم، فبعث إليهم الكامل ابنه
الصالح أيوب، وابن أخيه شمس الملوك، وجاءت ملوكهم إلى الكامل
فالتقاهم وأنعم عليهم، وضرب لهم الخيام، ووصل المعظم والأشرف في
تلك الحال إلى المنصورة في ثالث رجب، فجلس الكامل مجلسا عظيما في
خيمة كبيرة عالية، ومد سباطا عظيما وأحضر ملوك الفرنج والخيالة
ووقف في خدمته أخواه المعظم والأشرف وغيرهما، وقام راجح الحلي
الشاعر فأنشده:

هنيئاً فإن السعد راخ مخلصدا
وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا إله الخلق فتحا بدالنا
ميننا وإنعاما وعزما مؤيدا
تهلل وجه الدهر بعد قطوبه
وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا
ولما طغى البحر الخضم بأهلته
طغاة وأضحى بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سل عزمه
صقيلا كما سئل الحسام مجردا
فلم تر إلا كل شلو ومجدل
ثوى منهم أو من تراه مقيدا
ونادى لسان الكون في الأرض رافعا
عقيرته في الخافقين ومنشدا
أعباد عيسى إن عيسى وحزبه
وموسى جميعا ينصران محمدا

قلت: وبلغني أنه وقت الإنشاد أشار عند قوله عيسى إلى المعظم،

وعند قوله موسى إلى الأشرف، وعند قوله محمدا إلى الكامل، وهذا من أحسن شيء اتفق .

قال أبو المظفر: ووقع الصلح بين الكامل والفرنج يوم الأربعاء تاسع عشر رجب، وسار بعض الفرنج في البر، وبعضهم في البحر إلى عكا، وتسلم الكامل دمياط ووصلت العساكر الشرقية والشامية، وقد أخذ الكامل دمياط، وعاد المعظم إلى الشام، وأقام الأشرف بمصر عند الكامل فغير الله سبحانه القلوب، فصارا متصادقين، واتفقا على المعظم^(٩٥) .

وفيها: حج بالناس من الشام أمير يقال له شقيفات، وحج أبي اسماعيل معه تلك السنة، وحج بالناس من العراق ابن أبي فراس ومعه كتاب الخليفة إلى مكة والمدينة بإعادة ولي العهد أبي نصر محمد إلى العهد، وكتب إلى الآفاق بذلك.

وفيها: ولي المعظم جمال الدين المصري الوكيل، قضاء الشام، وكان يكتب في السجلات قاضي قضاة الشام وذلك في رجب.

وفيها: توفي الشيخ الشهاب محمد بن خلف بن راجح المقدسي الحنبلي أحد الشيوخ الصالحين الساكنين بالدير بسفح جبل قاسيون، وكنت أراه يوم الجمعة قبل الزوال يجلس على درج المنبر السفلي بجامع الجبل، ويبيده كتاب من كتب الحديث، وأخبار الصالحين يقرأه على الناس إلى أن يؤذن المؤذن للجمعة.

قال أبو المظفر: وكان زاهدا عابدا، ورعا، فاضلا في فنون العلوم، وسافر إلى بغداد، وسمع الكثير من شهدة وابن البطي، ومشايخ الشام وغيرهم، وحفظ مقامات الحريري في خمسين ليلة فتشوش خاطره، وكان مما يغسل باطن عينيه قد قل نظره، وكانت وفاته يوم الأحد سلخ صفر،

ودفن بقاسيون عند أهله، وكان سليم الصدر من الأبدال ماخالف أحدا قط، رأيته يوما وقد خرج من جامع الجبل فقال له انسان: ماتروح إلى بعلبك، فقال: بلى، فمشى من ساعته إلى بعلبك بالقبقاب، قلت: وسيأتي ذكر ولديه القاضي نجم الدين أحمد، والصلاح موسى.

وفيها: توفي صاحبنا ضياء الدين علي بن عبد السيد بن ظافر القوسي ابن أخت الشهاب القوسي، وكان من أصحاب شيخنا السخاوي، وشيخنا فخر الدين بن عساكر، وله شعر حسن، ومولده بقوض سنة سبعين وخمسمائة، واجازني من الشيخ علم الدين في القرآن عندي بخطه.

وفيها: في ليلة الحادية والعشرين من رجب توفي خطيب بيت الأبار الشيخ موفق الدين أبو عبد الله عمر بن يوسف بن يحيى بن كامل المقدسي، وكان شيخا صالحا، وخطب على منبر دمشق مدة غيبة الخطيب جمال الدين الدولعي في الرسالة العادلة إلى بلاد الشرق، رحمهما الله.

وفيها: أو في السنة التي بعدها في ثالث عشر رجب توفي الحافظ المحدث تقي الدين أبو طاهر اسماعيل بن عبد الله بن عبد المحسن المصري المعروف بابن الأنماطي، كان في زمانه أحذق الناس بقراءة الحديث وكتابته، وإفادة الشيوخ، وحسن كتابة طبقات السماع، وحصل كتب كثيرة، وكتب بخطه أجزاء عديدة، وكان سريع الكتابة والقراءة جدا مع معرفة بعلم الحديث واطلاع على دقائق فيه، وكانت كتبه تكون في البيت بالكلاسة الذي كان بيد الملك المحسن أحمد بن صلاح الدين قبله، ثم انتقل منه لما أريد اسكان الشيخ عبد الصمد الدكالي الزاهد به، ثم بقي بيد أصحاب عبد الصمد إلى الآن.

وسمعت الشيخ التقي عمر بن الصلاح رحمه الله يثني عليه بعد موته في معرفة الحديث، ويتأسف لفقده على فوائد كانت تحصل من عنده.

قال أبو المظفر: سمع الكثير ولقي الشيوخ، وكانت وفاته بدمشق ودفن بمقابر الصوفية في طريق المنبيع، وصلى عليه الموفق الحنبلي بجامع دمشق، والفخر بن عساكر بباب النصر، والجمال المصري قاضي القضاة عند قبره.

وكان سمع بمصر من البوصيري، وابن المقدسي ودمشق من بركات ابن ابراهيم الخشوعي، ورحل إلى العراق فسمع أبا الفتح بن الميداني، وابن عبد السميع الهاشمي وابن طبرزد، وابن سكيئة، وابن الأخضر، وحبلا.

وقرأ على الشيخ تاج الدين الكندي بدمشق تاريخ الخطيب وطبقات ابن سعد، وشيئا كثيرا، وكان ثقة.

قلت: قرأ على القاضي أبي القاسم بن الحرستاني من كتب البيهقي كثيرا، مثل: السنن الكبرى ومعرفة السنن والآثار، والدلائل النبوية، والآداب والدعوات.

ثم دخلت

سنة تسع عشرة وستمائة

ففيها: ظهر بالشام جراد كثير لم يعهد مثله، فأكل الزرع والشجر والثمر، فأظهر المعظم أن ببلاد العجم طيرا يقال له السمرمر، يأكل الجراد فأرسل الصدر البكري محتسب دمشق ورتب معه صوفية، وقال: يمضي إلى العجم فهناك عين تجتمع فيها السمرمر فتأخذ من مائها في قوارير وتعلقه على رؤوس الرماح، فكلما رآه السمرمر تبعك، وما كان مقصوده إلا أن يبعث البكري إلى جلال الدين خوارزم شاه، واتفق معه لما بلغه اتفاق أخويه الكامل والأشرف عليه، فاجتمع البكري بالخوارزمي وقرر معه الأمور وجعله سنداً له، وكان الجراد قد قل، فلما عاد البكري كثر الجراد، فقال الناس في ذلك أشعاراً، وظهر فعل المعظم للناس، وعلم الكامل والأشرف، وشاع الحديث فقليل للمعظم لو كنت بعثت رسالة مع بعض التجار الذين يسافرون إلى خراسان كان أولى، ولما عاد البكري من الرسالة ولاه المعظم مشيخة الشيوخ مضافة إلى الحسبة.

وفيهما: حج من العراق ابن أبي فراس مستقلاً، ومن الشام كريم الدين الخلاطي ومعه الركن الفلكي، وخلق كثير، وكانت الوقفة الجمعة، وازدحم الناس في المسعى فمات جماعة.

قال أبو المظفر: وكنت على عزم الحج، فخرجت على هجين إلى مسجد القدم، فجاء حوراني عليه فروة ليصافحني فنفر منه الهجين فأرمانني، فأقمت شهرين أداوي ظهري.

وحج بالناس من اليمن أطيس بن الكامل، ولقبه الملك المسعود في عسكر عظيم، فجاء إلى الجبل، وقد لبس هو وأصحابه السلاح ومنع علم الخليفة أن يصعد به إلى الجبل، وأصعد علم أبيه الكامل وعلمه

وقال لأصحابه: إن أطلع البغادرة علم الخليفة فأكسروه وانهبوهم، ووقفوا تحت الجبل من الظهر إلى غروب الشمس يضربون الكوسات ويتعرضون للحاج العراقي وينادون ياتارات ابن المقدم، فأرسل ابن أبي فراس أباه، وكان شيخاً كبيراً إلى أطيس وأخبره بما يجب من طاعة الخليفة، وما يلزمه في ذلك من الشناعات، فيقال إنه أذن في صعود العلم قبيل المغرب، وقيل لم يأذن، قال: وبدا من أطيس في تلك السنة جبروت عظيم.

حكى لي شيخنا جمال الدين الحصري رحمه الله قال: رأيت أطيس قد صعد على قبة زمزم وهو يرمي حمام مكة بالبندق.

قال: ورأيت غلماناً في المسعى يضربون الناس بالسيوف في أرجلهم ويقولون: اسعوا قليلاً، قليلاً، فإن السلطان نائم سكران في دار السلطنة التي في المسعى، والدم يجري من ساقات الناس^(٩٧).

قلت: واستولى أطيس على مكة وأعمالها، وأذل المفسدين فيها وشتت شملهم، وهو الذي بنى القبة على مقام إبراهيم عليه السلام، وكثر الجلب إلى مكة من مصر واليمن في أيامه، فرخصت الأسعار، ولعظم هيئته قلت الأشرار، وأمنت الطرق والديار.

وفيها: نقل تابوت العادل بن أيوب من قلعة دمشق إلى تربته المقابلة لدار العقيقي، أخرجوا جنازته من القلعة والتابوت مغشى بمرقعة، وأرباب الدولة حوله، ومروا به على دار الحديث إلى باب البريد إلى الجامع ووضع في صحن الجامع قبالة حائط النسر، وصلي عليه هناك، وأمهم في الصلاة عليه خطيب الجامع جمال الدين الدولعي، ثم حملوا الجنازة وخرجوا بها من باب الناطفائيين شمالي الجامع خوفاً من زحمة الناس في الطريق، ولم يصل إلى تربته إلا بعد جهد لضيق السكك، وبقي

القراء، والفقهاء يترددون إلى التربة غدوة وعشية كل يوم يقرأون القرآن إلى أن رتب لهم الوقف عليها، وعين لها قراء مخصوصون، ولم تكن المدرسة كملت عمارتها، وألقى فيها الدرس في هذه السنة القاضي جمال الدين المصري وحضر درسه أعيان الشيوخ، والقضاة والفقهاء، وحضر السلطان الملك المعظم عيسى بن العادل وتكلم في الدرس مع الجماعة، وكان الاجتماع بآيوان المدرسة، وجلس عن يمين السلطان إلى جانبه شيخ الحنفية جمال الدين الحصري، ويليهِ شيخ الشافعية شيخنا فخر الدين ابن عساكر، ثم القاضي محيي الدين ابن الشيرازي، ثم القاضي محيي الدين بن يحيى الزكي، وجلس عن يسار السلطان إلى جانبه مدرس المدرسة قاضي القضاة جمال الدين المصري، وإلى جانبه شيخنا سيف الدين الأمدى، ثم القاضي شمس الدين بن سني الدولة، ثم القاضي نجم الدين خليل قاضي العسكر، ودارت حلقة صغيرة والناس وراءهم متصلون ملء الإيوان، وكان في دور تلك الحلقة أعيان المدرسين، والفقهاء، وقبله السلطان فيها شيخنا تقي الدين بن الصلاح وغيره، وكان مجلساً جليلاً لم يقع مثله إلا في سنة ثلاث وعشرين وستمائة، كما سيأتي ولكن كان قد فقد من الشيوخ الشافعية أجلهم وأكبرهم فخر الدين بن عساكر رحمه الله.

وفيها: توفي قطب الدين بن العادل بالفيوم ونقل إلى القاهرة، قرأت على عمود قبره في تربة شمس الدولة توران شاه بن أيوب ظاهر القاهرة خارج باب النصر: إنه الملك المفضل قطب الدين أبو العباس أحمد بن الملك العادل بن أيوب، توفي يوم الثلاثاء رابع عشر رجب من السنة المذكورة.

وفيها: توفي إمام الحنابلة بمكة نصر بن أبي الفرج، المعروف بابن الحصري، أقام بمكة مجاوراً مدة، ثم خرج إلى اليمن فمات بالمهجم ودفن به، سمع أبا الوقت وابن البطي، وابن المقرب وغيرهم.

قال أبو المظفر: سمعت منه الحديث بمكة سنة أربع وستائة، وكان متعبدا لا يفتّر من الطواف، صالحا ثقة^(٩٨).

وفيها: في ربيع الأول توفي بدمشق الشهاب عبد الكريم بن نجم الدين الحنبلي أخو البهاء والناصح، وهو أصغرهم، والبهاء هو الأكبر بين كل واحد والذي قبله في الولادة تسع سنين، وكان الشهاب أبرعهم في الفقه والمناظرة، والمحاكمات، بصيرا بما يجري عند القضاة في الدعاوى والبيّنات، لكنه كان تعصب على شيخنا أبي الحسن في إخراج مسجد الوزير المرذقاني من يده، وجرت أمور ربما نذكر بعضها في ترجمته رحم الله الجميع وإيانا، فهو ذو رحمة واسعة.

قلت: وفي يوم الثلاثاء ثامن عشر رجب من هذه السنة استقل القاضي جمال الدين أبو الفضائل يونس بن بدران بن فيروز الشافعي، المعروف بالمصري بالقضاء في دمشق، ومامعها من البلاد الشامية، وصار يدعى قاضي القضاة، وقد تقدم ذكره في سنة ست عشرة وستائة.

وفيها: توفي المحدث أبو طاهر اسماعيل بن عبد الله بن عبد المحسن الأنطاقي ليلة الاثنين ثالث عشر رجب بدمشق، ودفن من الغد بمقابر الصوفية خارج باب النصر.

ثم دخلت

سنة عشرين وستمائة

ففيها: عاد الأشرف بن العادل من مصر إلى الشام قاصداً بلادَهُ بالشرق، فتلقيه أخوه المعظم ملك الشام وعرض عليه النزول بالقلعة فامتنع ونزل بجوسق أبيه، وبدت الوحشة بين الأخوة الثلاثة: الكامل، والأشرف، والمعظم، وأصبح الأشرف في وقت السحر فساق ونزل ضمير، ولم يعلم المعظم برحيله، وصار يطوي البلاد إلى حران، وكان الأشرف قد استناب أخاه شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين على خلاط لما سافر إلى مصر، وجعله ولي عهده بعد أن عينه ومكنه في جميع بلاده، فسولت له نفسه العصيان، وأعانته عليه قوم آخرون: أخوه المعظم وابن زين الدين صاحب إربل، والمشاركة وقالوا: نحن ورائك.

ولما وصل الأشرف إلى حران سار إلى سنجار وكتب إلى أخيه شهاب الدين غازي يطلبه، فامتنع من المجيء إليه، فكتب إليه: يا أخي لا تفعل أنت ولي عهدي والبلاد والخزائن بحكمك فلا تخرب بيتك بيدك وتسمع كلام الأعداء فوالله ما ينفعونك. فأظهر العصيان.

فجمع الأشرف عساكر الشرق وحلب وتجهز للمسير إلى خلاط، وكان صاحب حمص قد مال إلى الأشرف، فسار المعظم إلى حمص، ووصل إلى حماة ونزل على جبرين قرية على بابها باتفاق كان بينه وبين صاحبها، فلم ينزل إليه ولافتح له الباب، فأقطع بلاد حماة وعاد إلى حمص، وخرج إليه العسكر فظهروا عليه ونهبوا أصحابه، فعاد إلى دمشق ولم يظفر بطائل.

وفيها: حج بالناس من العراق ابن أبي فراس، ومن الشام شرف الدين يعقوب صاحب شركس.

وفيها: توفيت والدتي رحمها الله ودفنتها بالجبل في طريق قريب الإماج والمغر إلى جانب الوادي، وأرجو أن أدفن عندها، وكانت وفاتها يوم السبت سادس رجب، وكانت دينة صالحة رضي الله عنها.

وفيها: توفي الأمير مبارز الدين سنقر الحلبي الصلاحى، والد الظهير ابن سنقر.

قال أبو المظفر: كان مقبياً بحلب، ثم اتصل إلى ماردين فخاف الأشرف منه فبعث إلى أخيه المعظم وقال: مادام المبارز في الشرق ما آمن على نفسي، فأرسل المعظم ابنه الظهير غازي بن سنقر إلى أبيه وقال: أنا أعطيه نابلس وأي شيء أراد، فجاء الظهير إلى ماردين وعرف المبارز رغبة المعظم، وأنه يقطعه من الشام أي شيء أراد فقال له صاحب ماردين: لاتفعل فهذه خديعة، فأبى وسار إلى الشام في سنة ثمانى عشرة، ووصل إلى دمشق، وخرج المعظم للقائه ولم ينصفه، وجاء فنزل في دار شبل الدولة الحسامي التي انتقلت إلى الصوفية عند مدرسته بجسر كحيل، فأقام بها والمعظم يعرض عنه ويأطله باليوم وغد حتى تفرقت عنه أصحابه، وكان معه جملة من المال، والخيل العربية المنسوبة، والجمال، والبغال، والسلاح والمماليك شيء كثير ففرق الجميع في الأمراء الأكابر.

قال: وكان جاري لأنى كنت مقبياً بترية بدر الدين حسن على ثورا، وكان يزورني وأزوره، ويشكو إلي اعراض المعظم عنه، وما فعل به ولده الظهير وكيف خدعه وأنا أسليه وأهون عليه، ووقع إلي كتاب فيه حديث ملوك اليمن فبينما أنا قاعد أقرأه دخل فقال: إيش تقرأ؟ قلت: أخبار ملوك اليمن، فقال: إقرأ علي، فقرأت فلان الملك عاش ألف سنة ومات بالغم، وفلان عاش سبعمائة سنة ومات بالغم، وذكرت من هذا الجنس، فقال: وأنا أموت بالغم وكان طول النهار يجلس مغموماً مهموماً ونما فيه العذل حتى انقطع أكله فأقام عشرين يوماً لا يدخل في فيه إلا الماء،

ومات كمدا في شعبان في دار شبل الدولة كافور، فقام كافور بأمره أحسن قيام، وجهزه أحسن جهاز، وكان صديقه من أيام شمس الدولة أخي ست الشام لأبيها، ويقال إن المبارز كان مملوك شمس الدولة، واشترى له كافور تربة على رأس زقاق شبل الدولة عند المصنع بألف درهم، وحضر جنازته خلق كثير عظيم لأنه كان محسنا إلى الناس، ولم يكن في زمانه من الصلاحية وغيرهم: أكرم منه ولا أشجع، وكان له مواقف مشهورة مع صلاح الدين وغيره، ولما مات وجدوا في صندوقه دستورا فيه ما أنفق في نعال الخيل، وذلك ثمانية عشر ألف درهم، فسألت كاتبه عن ذلك فقال: ما يتعلق هذا بنعال دوابه، وإنما كان يستعرض الفرس السمين بخمسمائة دينار وأكثر فينعله أولا قبل أن يركبه، ثم يركبه فإن صلح أعطى صاحبه ثمنه وخلع عليه، وإن لم يصلح أعطى صاحبه مائتي درهم واعتذر إليه.

قال أبو المظفر: وجرت عقيب ذلك واقعة اعترض بعض الأمراء فرسا وانعله ثم ركه فلم يصلح، وجاء صاحبه يطلبه، فقال الأمير لخلامه: إقلع نعاله وأعطه صاحبه.

قال: وما كانت الدنيا تساوي عند المبارز قليلا ولا كثيرا، ولقد حكى لي ابنه الظهير قال: وصل مع أبي إلى الشام ذهب، وجمال، وخيل، وغيرها ما قيمته مائة ألف دينار، ومات وليس له كفن، وما كفنه إلا شبل الدولة.

وفيها: توفي عز الدين المظفر بن أسعد بن حمزة التميمي، المعروف بابن القلانسي، من رؤساء الشام، وجدده أبو يعلى حمزة، هو صاحب ذيل التاريخ لملوك الشام إلى آخر زمنه، سمع عز الدين الحافظ أبا القاسم بن عساكر وغيره، وكان يصحب الشيخ تاج الدين الكندي، ملازما له وانتفع به، وكان كيسا متواضعا وتوفي شهر رمضان ودفن بجبل قاسيون.

وفيها: توفي محمد بن سليمان بن قنلمش بن تركمانشاه أبو منصور
السمرقندي، ولد سنة ثلاث وأربعين وخمسة، وبرع في علم الأدب
وولي حجة الباب للخليفة ومن شعره:

سئمت تكاليف هذه الحياة
وكر الصباح بها والمساء
وقد صرت كالطفل في عقله
قليل الصواب كثير الهراء
أنام إذا كنت في مجلس
وأسهر عند دخول الفناء
وقصر خطوي قيد المشيب
وطالما عنائي عناء
وغودرت كالطفل في عيشه
وخلفت حلمي ورائي وراء
وما جر ذلك غير البقاء
فكيف ترى فعل سوء البقاء

وكانت وفاته في ربيع الآخر ودفن بالشونيزية.

وفيها: توفي الضياء بن الزراد الدمشقي، كان قارئاً طيب النعمة صيتاً
عالماً بالقراءات، وكان فقيراً سافر من دمشق إلى ميفارقين، واتصل
بصاحبها شهاب الدين بن العادل وأقام عنده، ثم اتصل بالأشرف بن
العادل.

قال أبو المظفر: واجتمعنا بخلاط سنة ثلاث عشرة وستائة، وكان
يتردد إلينا ويقرأ طبيباً صحيحاً، ثم خلط ودخل معهم في ما هم فيه،
وجاءني يوماً وهو نادم حزين يبكي فسألته عن حاله فقال: البارحة
حضرت عند الأشرف وناولني قدحاً من الخمر فامتنعت من شربه،

والأشرف ساكت ينظر إلي، ومازالوا بي حتى شربته فلما حصل في جوفي
عضر الأشرف على يده بحيث كاد يقطع أصابعه وقال: والك فعلتها
حطيت الخمر على مائة وأربع عشرة سورة، والله لو خيرت أن أحفظ
القرآن كما تحفظ، وأدع ملكي لاخترت حفظ القرآن، ثم نزلت حرمة بعد
ذلك، فكان يدور البلاد على أصحاب القلاع بعد ذلك لرسوم كانت له
عليهم، فخرج من حران في هذه السنة قاصدا السويداء ومعه غلمان
مردان ثلاثة، فنام في واد وقت الظهيرة فقتلوه وأخذوا خيله وقماشه وماله
فبلغ الحاجب عليا فأرسل خلفهم فجاء بهم فقتلهم^(١٠٠).

وفيها: توفي الشرف محمد بن عروة الموصلية المنسوب إليه المشهد بغربي
الجامع بدمشق، وإنما نسب إليه لأنه كان مخزنا فيه آلات تتعلق بالجامع
فعرله وبيضه، وجدد في قبلته المحراب والخزانتين عن يمينه وشماله
ووقف فيهما كتباً وجعله دار حديث، ووقف على الشيخ المسمع به وعلى
السامعين وقفاً، وذلك قبل سنة عشرين وستمائة، ثم بعد ذلك أمر
المعظم بجمع الخزائن المفرقة في الجامع، فنقل ما فيها من الكتب الموقوفة
إلى المشهد المذكور، وبنى لها خزائن في شرقه وغربه، وجدد ابن عروة
المذكور في المشهد المذكور بركة علي يمين الداخل إليه.

قال أبو المظفر: كان ابن عروة مقيماً في القدس، ويدخل المعظم
وأصحابه ويعاملهم ويؤذي الفقراء والمشايخ وخصوصاً الشيخ عبد الله
الأرميني فإنه انتقل عن القدس بسببه، ولما خرب القدس نزل ابن عروة
إلى دمشق فأقام بها يسيراً، ومات ودفن عند قباب الأتابك طغتكين^(١٠١).

وفيها: توفي في المحرم الشيخ عبد الرحمن اليميني الذي كان مقيماً
بالمنازة الشرقية بجامع دمشق، وكان أحد المشايخ القوالين للحق عند
الملوك وغيرهم، على وجهه أنوار الخير، ولقد بلغني أنه سنة خرجت

الفرنج على بلاد المسلمين حضر عند السلطان العادل بن أيوب جماعة للإنكار عليه في عدم حفظ ثغور المسلمين، وكان هذا اليمني أبلغ الجماعة كلاما في ذلك.

قال أبو المظفر: كان زاهدا، ورعا، فاضلا منقطعا عن الناس، وكان العادل يبعث إليه بالمال فلا يقبله، ودفن بمقابر الصوفية.

وفيها: في ربيع الآخر توفي الشيخ أبو الحسن الروزبهاري المدفون خارج باب الفراذيس الأول، في البرج المستجد رحمه الله.

وفيها: فجع الناس بوفاة إمامين كبيرين شيخي مذهبي الشافعية والحنابلة علما وعملا، أما شيخ الشافعية فهو فخر الدين أبو منصور عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين الدمشقي المعروف بابن عساكر، وليس في أجداده من اسمه عساكر، وإنما هي تسمية اشتهرت عليهم في بيتهم ولعله من قبل أمهات بعضهم، وهذا البيت جليل كبير من الدمشقيين كثير الفضلاء والحفاظ والأمناء، جمع هذا البيت رئاسة الدين والدنيا، وأجلهم في زماننا دينا وعلما هذا فخر الدين بن عساكر، وفي القرن الذي قبله عماء الصائين هبة الله، والحافظ أبو القاسم، ثم ابن عمه الحافظ أبو محمد بن أبي القاسم، وابنه العماد بن القاسم، وأخوه الفخر تاج الأمناء أحمد، وزين الأمناء حسن، وأم الفخر أسماء بنت محمد بن الحسن بن طاهر القرشية المعروف والدها بأبي البركات بن الراني، وهو الذي جدد عمارة مسجد القدم في سنة سبع عشرة وخمسةائة وبه قبر، وقبر الواعظ أبي الحسن أحمد بن عبد الله بن أحمد بن الراني وبهذا السبب كان الشيخ الفخر كثيرا ما يكون زائرا لمسجد القدم لأن به قبر جده لأمه ومن سلف من بيته ودفن به أيضا أخوه تاج الأمناء، وأسماء المذكورة هي أخت آمنة أم القاضي محيي الدين محمد بن علي ابن الزكي، فهو ابن خالتهم، اهتم الشيخ فخر الدين رحمه

الله من صغره بالعلم فاشتغل بالفقه على شيخه قطب الدين مسعود النيسابوري، حتى برع في ذلك وانفرد بعلم الفتوى حتى كانت الفتاوى ترسل إليه من الأقطار، وكان عند شيخه كالولد وزوجه ابنته فأولدها ابناً سماه باسم جده قطب الدين مسعود، ولو عاش خلف جده ووالده لأنه كان مهتماً بالعلم وتحصيله وبرز فيه لكنه توفي قبل والده بزمان، ودرس فخر الدين مكان قطب الدين بالمدرسة الجاروخية، وهي قاعتان أحدهما التي كان هو ساكنها وبها توفي، وهي التي لها باب في الحائط الغربي من إيوان المدرسة، والأخرى لزيقها بابها من الزقاق لزيق باب المدرسة، كان يسكنها ولده المتوفى ووقفها بعد موته على المدرسة، ثم تولى التدريس بمدرسة القدس الناصرية، وكان يقيم بدمشق أشهراً وبالقدس أشهراً، ويطوف تلك الزيارات بالأرض المقدسة إلى عسقلان ونحوها.

ثم ولاه العادل بن أيوب التدريس بالمدرسة الثقوية، وكان عنده بها فضلاء الوقت من الفقهاء لجلالته حتى كانت تسمى نظامية الشام؛ وكان إذا فرغ من التدريس يظل بجامع دمشق في البيت الصغير بمقصورة الصحابة يخلو فيه للعبادة ومطالعة الكتب والفتاوى، ومتى احتاج إلى طهارة خرج منه إلى المئذنة الشرقية فقضى حاجته بمكان الطهارة المجدد فيها خارج حائطها الكبير، وبها الماء الجاري، ثم يرجع إلى مكانه والناس معتكفون عليه منتفعون به، ولا يملون من النظر إليه لحسن سيرته واقتصاده في لباسه و لطفه و نور وجهه وكان لا يخلو لسانه من ذكر الله تعالى في قيامه وقعوده ومشيه وكان يحضر تحت قبة النسر بالجامع بعد العصر في كل يوم اثنين ويوم خميس لسماع الحديث، وهو المكان الذي كان يجلس فيه عمه الحافظ أبو القاسم إلى أن توفي، ثم أبيه الحافظ أبو محمد إلى أن توفي، ثم ابنه العماد علي إلى أن سافر إلى العراق و خراسان فكان الشيخ الفخر يجلس فيه بعده، ثم سمعت عليه معظم كتاب « دلائل النبوة » للحافظ أبي بكر البهقي وغيره، وكان

رحمه الله رقيق القلب سريع الدمعة فكنت أشاهده في أثناء قراءة تلك الأحاديث عليه يبكي عند سماع ما يبكي منها، ويردد مواضع المواظ منها نحو الشعر المنسوب إلى قس بن ساعدة :

في الـداهين الأولـ
ين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مـوارد
للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي بعدها
تمضي الأصاغر والأكابـر
أيقنت أني لا محـا
لة حيث صار القوم صائر

فكان رحمه الله يرددها ويبكي، سألته مسائل من الفقه وكتبت إليه أبياتا أطلب فيها اجازة برواية ما يجوز له عنه روايته وذلك في سنة ست عشرة وستمئة، فأجابني نظما بثلاثة أبيات وجدت بركة دعائه لي فيها، وما أعلمه فعل ذلك مع غيري، وكتبها بخطه وهي:

أجزت له قولي وفق الله قصده
وأسعدته بالعلم يوم معاده
رواية ما أرويه عن كل عالم
بصير بما فيه طريق سداده
فهناه ربي بالعلوم وجمعها
وبلغه فيها استنى مراده

وكان أيضا يسمع الحديث بدار الحديث النورية، وبمشهد ابن عروة أول ما فتح ، وكان السلطان العادل أبو بكر بن أيوب لما عزل القاضي زكي الدين الطاهر بن محيي الدين عن قضاء الشام، أرسل إليه أن يتولاه فأبى ، فطلب عنده ليلا، فجاء فالتقاه وأقعه إلى جانبه ، فجلس محتبيا مستوفزا (١٠٢) فأحضر الطعام فلم يمد يده إليه ، ولم يأكل منه

شيئا، فسأله أن يتولى القضاء ، و كثر عليه القول في ذلك . فقال : حتى استخير الله تعالى ، فأخبرني من كان معه ملازما له . قال: فلما رجع إلى بيته جدد الوضوء ، ووقف يصلي ويتضرع و يبكي الى الفجر فلما أصبح خرج إلى الجامع فصلى الصبح بالكلاسة ثم مضى إلى مقصورة الصحابة فصلى بها على عادته ، ثم دخل بيته الصغير الذي في الحائط ، و هو الباب الذي كان يخرج منه خلفاء بني أمية وامراؤها إلى الصلاة من لدن معاوية بن أبي سفيان إلى زمن الوليد بن عبد الملك بن مروان، فلما أخذ الوليد من النصارى جهتهم الغربية و بنى القبة و النسر جعل المحراب في وسط ذلك ، فهو الذي مقصورة الخطابة اليوم ، و الباب الأصغر فيها الذي بين المحراب و خزانة مصحف عثمان رضي الله عنه هو الباب الذي كان يخرج منه الوليد و من بعده من الخلفاء و الأمراء إلى الصلاة بالناس ، و أما الباب الكبير الخارج من المقصورة الذي يخرج منه الخطباء فهو كان لعموم الداخلين إلى دار الخلافة يؤذن لهم في ذلك من جهة الجامع ، و قد بينا ذلك أيضا في مختصرنا لتاريخ دمشق ، فلما استقر الشيخ بذلك البيت جلس يذكر الله تعالى فلما طلعت الشمس إذا رسل السلطان قد جاءوا في كشف ما فارقهم الشيخ عليه : الجبال المصري، والنجم خليل وغيرهما ، فردهم وأصر على الامتناع و أشار بتولية الشيخ جمال الدين بن الحرستاني، فولي وكان قد خاف أن يتأذى من جهة السلطنة ، فجهز أهله للسفر ، و خرجت المحائر إلى ناحية حلب فردها العادل و عز عليه ما جرى ، فقليل له: احمد الله تعالى أن في بلادك و في زمانك من امتنع من ولاية القضاء و اختار الخروج من بلده على التولية دينا و زهدا ، و كان رحمه الله كثيرا إذا قام من الليل يؤذن للفجر بنفسه كان في مدرسته أو خارج البلد من بستان و غيره .

و بلغني أنه كان لا يأكل وحده و إذا قدم له غذاؤه استدعى من أهل مدرسته ممن حضر من يأكل معه، و كان يتورع عن المرور في رواق الجامع الذي فيه حلقة الحنابلة ، خوفا من أن يائثموا بالوقعة فيه، وذلك

أن الجهال منهم و العوام كانوا يبغضون شيوخ بني عساكر ، لأنهم كانوا أعيان الشافعية الأشعرية ، و كان إذا جاء إلى الجامع من ناحية باب البريد يمر في صحن الجامع أو في الرواق الأوسط إلى المقصورة ، و إذا قام من اسماع الحديث تحت قبة النسر ينعطف و يخرج من باب البرادة، ويقول لمن يسأله عن ذلك يا ولدي: أخاف أن يأثموا بشيء ، و بلغني عنه أنه كان يقول: من طلب من غيره مالا يعطيه من نفسه فهو داخل في (المطففين الذين إذا اكتاؤوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) (١٠٣) و هذا كلام في غاية الجودة ، وكان العادل لما أمر ببناء مدرسته المشهورة قد عزم على أنها تكون للشيخ الفخر، و اتفق أن العادل توفي قبل كمال عمارتها ، و كان ابنه المعظم حنفي المذهب، كان في نفسه من الشيخ الفخر لما انكر عليه اظهار الخمر و تضمينها فتركه حتى حج في ولايته ، فأخذ منه المدرسة التقوية، و أخذت منه قبيل ذلك الناصرية التي بالقدس ، و لم يبق بيده إلا المدرسة الجاروخية على قلة جاريها مع كثرة مصروفها ، ثم لما تكاملت المدرسة العادلية فوضها إلى قاضيه الجمال المصري، و تركه فسبحان من جعل فيه اسوة وعمدة لمن ظلم من المشايخ و الفقهاء بعده.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: ولد فخر الدين في سنة خمس وخمسمائة ، وكان زاهدا، عابدا ، ورعاً منقطعاً إلى العلم والعبادة ، شيخاً حسن الأخلاق قليل الرغبة في الدنيا ، وكانت وفاته يوم الأربعاء عاشر رجب ودفن على الشرف القبلي عند مقابر الصوفية (١٠٤) وكان له جنازة عظيمة ، وقبره ظاهر يزار ، وصلى عليه الملك العزيز بن العادل، ولم يتخلف عن جنازته إلا القليل ، سمع عميه أبا القاسم الحافظ، و الصائن هبة الله، و القطب النيسابوري (١٠٥) و غيرهم.

قلت : أخبرني من حضر وفاته، قال: صلى الظهر يوم توفي ثم جعل يسأل عن العصر فقليل له لم يقرب وقتها ، فدعا بماء ثم تشهد و هو

جالس ، وقال: رضيت بالله ربا . و بالاسلام ديننا و بمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا، لقنني الله حجتي ، وأقال عثرتي ، ورحم غريتي ، وأنس وحدتي ، ثم قال : وعليكم السلام ، فعلمنا أنه حضرته الملائكة حيثئذ و سلموا عليه ، ثم انقلب على قفاه عقيب قوله و عليكم السلام ميتا رحمه الله تعالى ، وغسله فخر الدين بن المالكي ومعه ابن أخيه عبد الوهاب بن زين الأمان وغيره ، و كان قد اجتهد في مرضه في تملك المكان الذي دفن فيه من مستحقه ، حفر له القبر و هو حي وكان مرضه بالاسهال ، و كانت وفاته آخر يوم الأربعاء عاشر شهر رجب و احتشد الناس من الغد لجنائزته و خرجوا به من المدرسة الجاروخية على باب البريد إلى الجامع فإذا الناس في الجامع كهيئتهم يوم الجمعة ، فوضعت الجنازة ملاصقة الحائط القبلي قريب اللازوردة ، و تقدم للصلاة عليه أخوه لأبويه أبو البركات الحسن بن محمد بن هبة الله المعروف بزين الأمان ، ثم خرجوا بالجنازة إلى ناحية الميدان الأخضر بالشرف القبلي، وقد امتلأت الطرق بالناس و من الذي قدر على الوصول إلى حمل سريره، ولولا كان الأمير عز الدين أيبك صاحب صرخد استاذ دار المعظم مع أصحابه، و أجناد الملك العزيز ابن العادل دائرين حول سريرته بالدبابيس و العصي يمنعون الناس من قربته لتعذر وصوله إلى حفرته في يومه ، و قبره على يسار المار مغربا في طريق الشرف القبلي مقابل لرأس الميدان الأخضر قبل الوصول إلى قبر شيخه قطب الدين مسعود النيسابوري بقليل ، و جعل على قبره بلاطة فيها اسمه و تاريخ وفاته يقرأها من كان خارج الشباك رحمه الله تعالى.

وأما شيخ الحنابلة فهو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الملقب بموفق الدين أخو الشيخ أبي عمر. كان إماما من أئمة المسلمين ، و علما من أعلام الدين في العلم و العمل ، صنف كتب كثيرة حسانا في الفقه وغيره ، و لكن كلامه فيما يتعلق بالعقائد في مسائل الصفات و الكلام هو على الطريقة المشهورة عن أهل مذهبه ، فسبحان

من لم يوضح الأمر له فيها على جلالته في العلم و معرفته بمعاني الأخبار و الآثار ، وسمعت عليه مسند الإمام الشافعي رحمه الله ، و فاتني منه نحو ورقتين ، عند باب استقبال القبلة بسماعه من أبي زرعة، و سمعت عليه كتاب النصيحة لابن شاهين و غير ذلك ، و مولده في شعبان سنة احدى وأربعين و خمسمائة بأرض نابلس ، و هو ابن الديلمي في ذكر مولده ، وقال : سمع ببغداد سعد بن نصر بن الدجاجي ، و الفضل أحمد بن صالح بن شافع ، و أبا الحسن علي بن عبد الرحمن بن تاج القراء ، و الكاتبة شهدة و غيرهم . و حصل طرفا صالحا من الفقه والأصول ، و عاد الى دمشق و توفر على الاشتغال بالفقه و تدريسه، و حدث بشيء من مسموعاته.

قال أبو المظفر : ولد في شعبان سنة احدى وأربعين و خمسمائة و سافر الى بغداد مرتين : احدهما مع الحافظ عبد الغني سنة احدى وستين، والأخرى سنة سبع وستين ، و حج سنة ثلاث وسبعين ، و سمع خلقا كثيرا ، و تفقه على مذهب الامام أحمد ، و عاد الى دمشق و كان إماما في فنون ، و لم يكن في زمانه بعد أخيه أبي عمر و العماد أزهد ولا أورع منه ، و كان كثير الحياء عزوفا عن الدنيا وأهلها ، لينا متواضعا ، محبا للمساكين، حسن الأخلاق جوادا سخيا ، من رآه كأنه رأى بعض الصحابة ، و كان النور يخرج من وجهه، كثير العبادة يقرأ كل يوم وليلة سبعا من القرآن ، و لا يصلي ركعتي السنة في الغالب إلا في بيته اتباعا للسنة ، و كان يحضر مجالسي دائما في جامع دمشق وقاسيون، و حكى أبو عبد الله بن فضل الأنطاكي قال: قلت في نفسي لو كان لي قدرة لبنيت للموفق مدرسة ، و أعطيته كل يوم ألف درهم ، قال: ثم جئت بعد أيام فسلمت عليه فنظر إلي و تبسم و قال: إذا نوى الشخص نية كتب له أجرها.

و حكى أبو الحسن علي بن حمدان الجراحي قال : كنت أبغض

الحنابلة لما شاع عنهم من سوء الاعتقاد ، فمرضت مرضاً شديداً شج أعضاءي وأقيمت سبعة عشر يوماً لا أتحرك وتمنيت الموت، فلما كان وقت العشاء جاءني الموفق وقرأ علي آيات و رقاني و قال: (و ننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) (١٠٦) و مسح علي ظهري فأحسست بالعافية و قام ، فقلت يا جارية افتحي له الباب ، فقال : أنا أروح من حيث جئت و غاب عن عيني فقامت من ساعتني إلى بيت الوضوء، فلما أصبحت دخلت الجامع فصليت الفجر خلف الموفق و صافحته فعصر يدي وقال: احذر أن تقول شيئاً ، فقلت : أقول ، و أقول.

و قال قوام جامع دمشق :كان ليلة يبيت بالجامع تفتح له الأبواب فيخرج ويعود فتغلق علي حاتها (١٠٧) .

قلت كان الموفق بعد موت أخيه أبي عمر هو الذي يؤم بالجامع المظفري (١٠٨) و يخطب يوم الجمعة اذا حضر فإن لم يحضر فابنه عبد الله بن أبي عمر هو الخطيب و الامام ، و إمام محراب الحنابلة بجامع دمشق فيصلي فيه الموفق إذا كان في البلد ، و إذا مضى إلى الجبل صلى العماد أخو عبد الغني ، و بعد موت العماد كان يصلي فيه أبو سليمان عبد الرحمن بن الحافظ عبد الغني مالم يحضر الموفق، و كان بين العشائين يتنفل حذاء المحراب ، و جاءه مرة الملك العزيز بن العادل يزوره فصادفه يصلي فجلس بالقرب منه إلى أن فرغ من صلاته، ثم اجتمع به و لم يتجاوز في صلاته ، و كان إذا فرغ من صلاة العشاء الآخرة يمضي إلى منزله بدرب الدولعي بالرصيف، و يمضي معه من فقراء الحلقة من قدره الله تعالى فيقدم لهم ما تيسر ليأكلوه معه، و من أظرف ما حكى لي عنه أنه كان يجعل في عمامته ورقة مصور فيها رمل يرمل به ما يكتبه للناس من الفتاوى والاجازات و غيرها، فاتفق ليلاً أن خطفت عمامته فقال لحاطفها : يا أخي خذ من العمامة الورقة المصورة بها فيها، ورد العمامة أعطي بها رأسي، و أنت في أوسع الحل مما في

الورقة، فظن الخاطف أنها فضة ، ورآها ثقيلة فأخذها ورد العمامة ، و كانت صغيرة عتيقة فرأى أخذ الورقة خيرا منها بدرجات ، فخلص الشيخ عمامته بهذا الوجه اللطيف ، و كانت وفاته يوم السبت يوم عيد الفطر أول شوال ، ودفن بجبل قاسيون خلف الجامع المظفري في مقبرتهم المشهورة ؛ و كانت أيضا جنازة عظيمة ذات جمع وافر ؛ امتد الناس في طرف الجبل فملئوها .

قال أبو المظفر : حكى اسماعيل بن حماد الكاتب البغدادي قال: رأيت ليلة عيد الفطر كأن مصحف عثمان قد رفع من جامع دمشق إلى السماء ، فلحقني غم شديد ، فتوفي الموفق يوم العيد .

قال: و رأى أحمد بن سعد أخو محمد بن سعد الكاتب المقدسي - قال: و كان أحمد من الصالحين - قال: رأيت ليلة العيد ملائكة ينزلون من السماء جملة و قائل يقول : انزلوا بالنوبة، فقلت: ما هذا؟ قال: ينقلون روح الموفق الطيبة في الجسد الطيب

قال: وقال عبد الرحمن بن محمد العلوي : رأيت كأن النبي صلى الله عليه وسلم مات وقبر بقاسيون يوم عيد الفطر.

قال: وكنا بجبل بني هلال فرأينا على قاسيون ليلة العيد ضوءا عظيما، فظننا أن دمشق قد احترقت، و خرج أهل القرية ينظرون إليه، فوصل الخبر بوفاة الموفق يوم العيد، و دفن بقاسيون.

وقال : و كانت وفاته بدمشق و حمل إلى قاسيون، و كان له جمع عظيم، سمع الشيخ عبد القادر ، و أبا الفتح محمد بن عبد الباقي بن أحمد بن سلمان، و أبا زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسي ، و أبا بكر عبد الله بن محمد بن أحمد بن النقور ، و أبا محمد بن الحشاش، و جدي يعني أبا الفرج بن الجوزي و غيرهم ببغداد ، و سمع بمكة أبا محمد

المبارك بن الطباخ، و بالموصل أبا الفضل عبد الله بن أحمد الطوسي
الخطيب، وبدمشق والده أحمد ، و أبا المكارم عبد الواحد بن مسلم بن
هلال، و أبا المعالي عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن صابر السلمي،
و خلقاً كثيراً.

قال: وأنشدني لنفسه:
أبعد بياض الشعر أعمار مسكننا
سوى القبر إني إن فعلت لأحق
يخبرني شيبتي بأنني ميت
وشيكا وينعاني إلي فيصدق
تخرق عمري كل يوم و ليلة
فهل مستطيع رتوم ما يخرق
كأنني بجسمي فوق نعش ممدد.
فمن ساكت أو معول يتحرق
وإذا سألو أعني أجابوا وأعولوا
وأدمعهم تنهل هذا الموفق
وغيت في صدع من الأرض ضيق
وأودعت لحدافوقه الصخر مطبق
ويحسو علي التراب أوثق صاحب
ويسلمني للقبر من هو مشفق
فيارب كن لي مؤنسا يوم وحشتي
فلاني بما أنزلته مصدق
وما ضرتني أني إلى الله صائر
ومن هو من أهلي أبر وأوثق

قال : و كان له أولاد: أبو الفضل محمد، و أبو العزيمى، و أبو المجد
عيسى، ماتوا كلهم في حياته و لم أدرك منهم غير عيسى، و كان من
الصالحين، و أم الجميع مريم بنت أبي بكر بن عبد الله بن سعد
المقدسي؛ و كان له منها بنات صفية ، و فاطمة و لم يعقب من ولد

- ٩٢٤٨ -

الموفق سوى عيسى، خلف ولدين صالحين و ماتا وانقطع عقبه (١٠٩)
ونقلت من خطه:

لا تجلسن بباب من
يا أبى عليك دخول داره

وتقول. حاجاتي إليه
يعرفه وإن لم أداره
وأتركه وأقص درهما
يقضي ورب الـ دار كاره

ثم دخلت

سنة احدى و عشرين و ستمائة

ففيها : استرد الملك الأشرف خلاط من أخيه شهاب الدين غازي، وسلمها إلى مملوكه أيبك و إلى الحاجب علي، و نزل غازي إلى ميا فارقين.

و فيها: ظهر جلال الدين خوارزم شاه في أذربيجان ، و استولى عليها ، فبعث إليه الملك المعظم عيسى رجلا صوفيا من خانقاه السمساطي يقال له الملق في رسالة و اتفق المعظم و مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل مع الخوارزمي على الأشرف ؛ وبعث المعظم ولده الناصر داوود إلى زين الدين رهينة، و عبر الفرات عند الحديثة و مضى إلى إربل.

و فيا استولى بدر الدين لؤلؤ على الموصل و أظهر أن محمود بن القاهرة قد مات ، و قد أمر بخنقه كما سبق ذكره.

و فيها : بنى الملك الكامل دار الحديث التي بين القصرين بالقاهرة ، و جعلها بيد الشيخ الحافظ أبي الخطاب بن دحية ، و قد اجتمعت به فيها في سنة ثمان و عشرين كما سنذكره.

و فيها : قدم الملك المسعود أطيس من اليمن على أبيه الكامل بالقاهرة طامعا في أخذ الشام من عمه المعظم ، و كان معه من الهدايا شيء عظيم، من جملة ذلك ثلاثة من الفيلة أحدهما كبير و يدعى بالملك وعليه محفة بدرابزين يقعد فيها عشرة أنفس ، و قبالة راكب على رقبتة و بيده كلاب حديد يضربه به كيفما أراد، و خرج الكامل للقاء ولده فلما قربت الفيلة من الكامل أمرها سواها فوضعت رؤوسها بين

يأتي الكامل خدمة له ، و كان في الهدية مائتا خادم و أحمال عود وند
ومسك و عنبر وتحف اليمن.

وفيها: جرت بالعراق واقعة عجيبة : ببغداد قرية يقال لها بعقوبا فيها
نخل كثير ، و لها ناظر متشيع ، و كان بها رجل من أهلها له نخل
فصادره الناظر و أخذ منه ألفي نخلة فجعل يسب الناظر و يدعو عليه؛
و بلغ الناظر فأحضره و أمر بضربه فقال له : بالله عليك انصفني.
فقال: قل . قال: أنتم تسبون أبا بكر و تقولون أخذ فذك من فاطمة
وانما في فذك نخيلات يسيرة، تأخذ أنت مني ألفي نخلة و أسكت؟
فضحك الناظر و رد عليه نخله.

وفيها : حج بالناس من بغداد ابن أبي فراس، و من الشام شجاع
الدين علي بن السلار.

وفيها: حججت من الشام مع والدي رحمه الله على طريق تبوك
والعلاء ، و هي أول السنين الأربع المتصلة التي وجد الحج فيها هنيئا
مريئا من رخص الأسعار والأمن في الطريق الشامية و بالحرمين، أما في
المدينة فبسبب أن أميرها كان من أتباع صاحب الشام الملك المعظم
عيسى ، فكان يدير الحرس على الحاج الشامي ليلا ، و أما مكة فبسبب
أنها صارت في المملكة الكاملة المسعودية ، فانقمع بها المفسدون وسهل
على الحاج أمر دخول الكعبة، فلم يزل بابها مفتوحا ليلا و نهارا مدة
مقام الحاج فيها ، و كان الكامل قد أرضى بني شيبه سدنة الكعبة بهال
أطلقه لهم عوضا عما كانوا يأخذونه باغلاق الباب، و فتحه لمن أرادوا
وكان الناس ينالون من ذلك شدة، و يزدحمون عند فتح الباب و يتسلق
بعضهم على رقاب بعض و ينكسر بعض و يشج بعض ، فزال ذلك
عن الناس بتلك السنة و ما بعدها مدة بقاء مكة في المملكة الكاملة،
وكان قد بلغني صعوبة ذلك و كنت حاملا هم، فلما دخلت من باب

بني شيبة ، ووقع نظري على البيت شرفه الله تعالى إذ الباب مفتوح
والسلم منصوب و الناس طالعون إليه ونازلون من غير إزدحام فمن
فرحي بذلك و خوفي من أنه لا يدوم عجلت في طواف القدوم ؛ و
دخلت البيت عظمه الله تعالى ؛ و قضيت منه وطري اللائق بذلك
الوقت ، و عندي من الشوق المبرح ما كفى ، ثم كررت الدخول إليه
ليلا و نهارا فكننت أصادف فيه نحو العشرة و ما دونها . و من أعجب
ما سمعت من بعض الحجاج أنه قال : دخلته ليلة فوجدت فيه إمرأتين
قاعدتين تتحدثان كأنهما في بيت لهما قد أمنا ممن يزعجهما عن ذلك لا
من سادن و لا من زحمة .

و اجتمعت في هذه السنة بالشيخ الحجة أبي طالب بن عبد المحسن
ابن أبي العميد خالد بن عبد الغفار الحنفي ، الأبهري ، و سمعت عليه و
على غيره بالمسجد الحرام ، و كان يقدم كل عام من بغداد على بعض
سبلانات الخليفة ، ثم بلغني أنه تولى إمامة المقام بمكة و توفي بها رحمه
الله ، و اجتمعت بها أيضا بالشيخ المقرئ ، عثمان بن أحمد بن يذال
الإربلي الحنبلي و أنشدني بالمسجد الحرام :

أيانأثما في ظلام الدجى

تقظ فصبح الدجى قد أضأ

أثاك المشيب ولوعاته

وولى شبابك ثم انقضى

فلو كنت تذكر ما قد جئت

لضاق عليك اتساع الفضأ

و نظمت في طريقي في تلك السفرة قصيدة ميمية ذكرت فيها المنازل
من دمشق إلى عرفات ، ووصفت بها ما أمكن من أماكن الزيارات أولها :
مازلت أشتاق حج البيت والحرم
وأن أزرر رسول الله ذا الكرم

وهي طويلة أقول فيها تعبيراً عن فتح باب الكعبة للحجيج مطاعاً
وشرعوا نحو ذلك البيت حاسرة
رؤوسهم بين مطواف ومستلم
والباب أطلقوه للحجيج فلم
يروا به مانعاً طول مقامهم

وفيها: توفي ببغداد أحمد بن محمد بن علي القادسي الضرير الحنبلي
والد صاحب الذيل على تاريخ أبي الفرج بن الجوزي .

قال أبو المظفر : كان حنبلياً خشنا طلب الخليفة المستضيء من يصلي
به التراويح في رمضان فأحضروا القادسي وقالوا: إيش مذهبك ؟
قال: حنبلي، قالوا: ما يمكن أن يصلي بدار الخلافة حنبلي، فقال
القادسي: أنا حنبلي و ما أريد أن أصلي بكم . و سمعه الخليفة فصاح
صلي على مذهبك. قال: و كان ملازماً لمجالس جدي و تراه هزه كثيراً،
ويستحسن الكلام، و كلما ذكر جدي شيئاً يصيح: والله إن ذا مليح،
فبعث إليه جدي يستقرض منه عشرة دنائير فاعتذر، و قال ما هي
عندي، و صار يحضر المجالس و لا يرى هزه فسمعت جدي يقول في
داره: هذا القادسي ما يقرضنا شيئاً و لا يقول والله إن ذا مليح ،
وكانت وفاته في شوال و دفن بباب حرب. (١١٠)

وفيها : توفي بدمشق الشيخ عبد الرحمن اليماني في المحرم، و دفن
بمقابر الصوفية و قد سبق ذكرنا له في سنة عشرين متابعة لأبي المظفر
سبط ابن الجوزي ، و انها كانت وفاته سنة احدى وعشرين

ثم دخلت

سنة اثنتين و عشرين و ستمائة

ففيها: في ربيع الأول وصل خوارزم شاه جلال الدين إلى دقو قا ففتحها عنوة وأوقع السيف في أهلها، ونهب أموالهم ، و سبى حريمهم وهتك نساءهم و أحرق البلد و هدم سورته و كانوا قد عصوا عليه وسبوه من الأسوار ، و بالغوا في شتمه ، و عزم على قصد بغداد فانزعج الخليفة وأخرج المال وفرق في العساكر ألف ألف دينار ، و نصب المجانيق على الأسوار ، و فرق السلاح، و فتح الاهراء

قال أبو المظفر : حكى لي المعظم عيسى رحمه الله قال: كتب إليّ يقول: تحضر أنت و من عاهدني و اتفق معي حتى نقصد الخليفة ، فإنه كان السبب في هلاك أبي و مجيء الكفار إلى البلاد، وجدنا كتبه إلى الخطأ و تواقيعه لهم بالبلاد و الخيل و الخلع، قال المعظم : فكتبت إليه أنا معك على كل أحد إلا الخليفة فإنه إمام المسلمين ،

قال: و بينا هو على قصد بغداد ، و كان قد جهز جيشا إلى الكرج إلى تفليس ، فكتبوا إليه أدركنا فما لنا بالكرج طاقة ، و بغداد ما تفوت فصار إلى تفليس فخرج إليه الكرج فضرب معهم مصاف فقتل منهم سبعين ألفا و فتح تفليس عنوة، و قتل منهم سبعين ألفا فصار مائة ألف، وذلك في سلخ ذي الحجة.

وفيها: صلب المعظم في سوق الغنم العتيق في طريق الميدان الأخضر شمس الدين بن الكعكي، رأس حزب ، و خلفه جماعة و رفيقا له منكسين على رؤوسهما ، و كانوا ينزلون على الناس في البساتين و يقتلون وينهبون و المعظم في الكرك ، و بلغه أن ابن الكعكي قال لأخي المعظم الصالح اسماعيل و كان صاحب بصرى : أنا آخذ لك دمشق ، فكتب

إلى والي دمشق بأن يصلب ابن الكعكي و رفيقه منكسين فصلبهما في العشر الأواخر من رمضان ، فأقاما أياما في حر الشمس يسفي الريح والتراب على وجوههما ورؤوسهما و لا يقدران على طعام ولا شراب إلى أن ماتا ، مات ابن الكعكي أولا و كان يستغيث كثيرا و يقلق ، و كان رفيقه أجلد منه و أصبر ، و كان رجلا خياطا ادم اللون، و قيل أنه كان بريئا مما رمي به فمات بعد ابن الكعكي بيوم أو نحوه ، و كان ابن الكعكي من المترفين ذوي الثروة له أملاك كثيرة ظاهر باب الجابية وغير ذلك .

قال أبو المظفر : و قدم المعظم دمشق بعد ما ماتا فمرض مرضا عظيما اشفى منه، ثم أبل و لم يزل ينتقض عليه حتى مات

و فيها حج بالناس من العراق ابن أبي فراس و من الشام الشجاع علي بن السلار (١١١)

و فيها: حججت أيضا راكبا في المحمل السلطاني المعظمي ، و كنت أيضا حجا مباركا كثير الخير و الأمن في الطريق و الحرمين و باب الكعبة مفتوح للحاج مدة مقامهم ليلا و نهارا، و خرجت يوم التروية و بت أنا ورفيقي الشهاب غازي الناسخ الفقيه رحمه الله ليلة يوم عرفة بمسجد الخيف بمنى؛ ثم أصبحنا وتوجهنا حين طلعت الشمس إلى نحو عرفات فمررنا على تلك الآبار بمنى و المزدلفة ، و حدود الحرم و حدود عرفة والمسجد الذي بعضه من أرض عرفة وبعضه ليس من أرض عرفة، ثم توجهنا إلى الموقف شرفه الله تعالى فنحن بعرفات و قد جاءنا الخبر مع حاج العراق ، بوفاة الخليفة الناصر أحمد بن المستضى ، في أواخر شهر رمضان ، و أقام في الخلافة ما لم يقم أحد من أهل بيته سبعا وأربعين سنة إلا قليلا ، و تولى بعده ولده ولي عهده أبو نصر محمد و لقب بالظاهر بأمر الله ، فأظهر العدل، وأحسن السيرة، ثم لم تطل مدته

فمات بعد تسعة أشهر كما سيأتي ذكره ، و لما دخلنا مكة لطواف الافاضة و قد ألبست الكعبة الكسوة السوداء التي يرسلها الخليفة الذي نسجت في أيامه فتأملت الطراز ، فوجدت فيه اسم الناصر في جانبين من جوانب الكعبة الأربعة ، و في الجانبين الآخرين اسم الظاهر فعلمت أنهم كانوا قد فرغوا من نسج الجانبين عند وفاة الناصر ، ثم استأنفوا ما بقي باسم الظاهر و نظمت في هذه السنة أيضا قصيدة على قافية الهمزة وصفت فيها أمير الحج و منازل الطريق التبوكية أيضا أولها :

يا حبذا وطن الحبيب النائي

قال أبو المظفر : مولد الناصر عاشر رجب سنة ثلاث و خمسين وخمسة ، و بويع بالخلافة غرة ذي القعدة سنة خمس وسبعين و خمسمائة ، وكان له خادم اسمه رشيق قد استولى على الخلافة و أقام مدة يوقع عن الخليفة ، و كان قد قل بصره و قيل ذهب جملة ، و كانت به أمراض مختلفة منها عسر البول . و الحصاة و لقي منه شدة ، و شق ذكره مرارا ، و ما زال يعتريه حتى قتله . و غسله خالي أبو محمد يوسف و كان قد عمل له ضريحاً عند موسى بن جعفر ، فأمر الظاهر بحمله إلى الرصافة فحمل في تابوت و دفن عند أهله ، و كان قد خطب للظاهر بولاية العهد في سنة خمس و ثمانين و خمسمائة ، و عمره إذ ذاك أربع عشرة سنة لأن مولده في المحرم سنة سبعين و خمسمائة ، ثم عزل عن العهد في سنة إحدى و ستمائة ، ثم أعيد إلى العهد في سنة ثمانين و ستمائة ، و لما مات أبوه استدعى الأعيان إلى البدرية ، فشاهدوا الناصر ميتاً مسجى فبايعوا أبا نصر و لقبوه بالظاهر ، و كان جميل الصورة أبيض مشرباً بحمرة ، حلوا الشائل شديد القوة ، أفضت الخلافة إليه وله اثنتان وخمسون سنة إلا شهورا ، فقليل له ألا تستفتح ؟ فقال : قد فات الزرع ، فقليل له يبارك الله في عمرك . فقال : من فتح دكانا بعد العصر ايش يكسب ، و لما بويع أحسن إلى الناس و لم يؤاخذ أحدا بمن سعى في

خلعه، فقابل الاساءة بالاحسان و صلى على أبيه بالتاج و فرق الأموال وأبطل المكوس و أزال المظالم (١١٢).

وفيها: توفي الملك الأفضل علي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي كان ولي عهد أبيه و مملكته دمشق و أعمالها ، و الأرض المقدسة وأعمالها . و مولده بمصر سنة خمس وستين و خمسمائة . و كان فاضلا شاعرا حسن الخط تقلبت به الأحوال إلى أن ألقاه الدهر في سمسيات، وبها توفي في ربيع الأول ، و نقل إلى حلب فدفن بظاهرها.

و فيها : توفي بحلب في أواخر جمادى الأولى الأمير سيف الدين علي ابن علم الدين سليمان بن جندر، و كان من أكابر أمراء حلب ؛ كثير الخير و الصدقات الدارة، و البر الوافر ، و بنى بحلب مدرستين احدهما: لأصحاب أبي حنيفة بظاهر حلب . و الأخرى للشافعية داخل حلب. ووقف عليها الأوقاف ، و بنى الخانات في الطرقات ، وله الغزوات المشهورة ، و المواقف المذكورة، رحمه الله

و فيها توفي علي الكردي الموله، الذي كان مقبيا ظاهرا باب الجابية بدمشق ، و اختلفوا فيه فبعض الدماشقة يزعم أنه كان صاحب كرامات، وانكر ذلك آخرون وقالوا : ما رآه أحد يصلي، ولا يصوم، ولا يلبس مداسا ، بل كان يدوس النجاسات ، و يدخل المسجد على حاله ، وقال آخرون : كان له تابع من الجن يتحدث على لسانه

قال أبو المظفر : و حكى لي امرأة صادقة قالت: ماتت أمي باللاذقية، و لم أصدق و جاء قوم فقالوا : ماتت، و جاء آخرون فقالوا : ما ماتت، قالت : فخرجت إلى باب الجابية و هو قاعد عند المقابر فوقفت عنده فرفع رأسه و قال : ماتت، ماتت : إيش تعملين، و كان كما قال.

و حكى لي عبد الله صاحبي قال: جعت يوما و ما كان معي شيئا فاجتمعت به فدفع لي نصف درهم و قال: يكفي هذا للسعتر بس

قال: و دخل يوما على جمال الدين الدولعي خطيب دمشق المقصورة، و كان يغشاه، فقال له: يا شيخ علي قد أكلت اليوم كسيرات يابسة و شربت عليها الماء فكفتني . فقال له و ما تطلب نفسك شيئا آخر ؟ قال: لا ، قال: يا مسكين من يقنع بكسرة يابسة يحبس نفسه في هذه المقصورة و لا يقضي ما فرضه الله عليه من الحج. (١١٣)

وفيهما توفي خطيب حران الفخر بن تيمية و هو أبو عبد الله محمد بن القاسم بن محمد الحراني فقيه حران بها ولد ، و قدم بغداد و تفقه بها على أبي الفتح بن المنى . و وعظ في رباط محمود النعال، و سمع الحديث الكثير ببغداد على شيوخ ذلك العصر ، و صنف الخطب والتفسير و غير ذلك ، و كان فاضلا فصيحاً سمع شهدة ، و ابن المقرب، وابن البطي وغيرهم.

قال أبو المظفر: و كان خطيباً بحران حتى إذا نبغ فيها أحد لا يزال وراءه حتى يخرج منه و يبعده عنها ، و مات في خامس صفر ، و سمعته ينشد في جامع حران يوم الجمعة بعد الصلاة على المنبر:

أحبنا قد نذرت مقلتي
ما نلتقي باليوم أو نلتقي
رفقاً بقلب مغرم واعطفوا
على سقام الجسد المعرق
كم تطلونى بليالي اللقا
قد ذهب العمر و ما نلتقي (١١٤)

وفيهما : توفي عبد المنعم بن علي بن عبد الغني القرشي الصقلي، كان رجلاً صالحاً خيراً، و كان مقرئاً حسناً قد قرأ على تاج الدين الكندي ،

وعلم الدين السخاوي وغيرهما ، و كان الشيخ فخر الدين بن عساكر كثيرا ما يطلبه ليصلي به من عقيدته في صلاحه، و كان قد حج معي في سنة إحدى و عشرين، فلما رجع إلى دمشق توفي عقيب قدومه من الحج ، و دفن بجبل قاسيون، وهو : أخو الزين الضرير، كان أخوه على غير طريقته مشتغلا بعلوم الأوائل

و فيها : في شعبان توفي بمصر الوزير صفى الدين عبد الله بن عبد الخالق بن شكر، أبو محمد ، و مولده بالدميرة بين مصر والاسكندرية في سنة أربعين و خمسمائة ، و دفن بتربته التي أنشأها جوار مدرسته بالقاهرة، حكى عنه القوصي في معجمه ، و قد سبق من أخباره في حوادث سنة خمس عشرة و ستمائة ، و هي سنة نكبته بعد وزارته ، و له بدمشق آثار حسنة منها : بناء مصلى العيدين ، و تبليط الجامع، و عمارة مسجد الفوارة. و تجديد مسجد حرستا، و جامع المزة و غير ذلك، وبلغني أنه قال : أنشدنا الحافظ السلفي لنفسه:
مهملهاود في أمري امرؤ وغدا
مصارم لا أرى إلا مبجله
وإن أساء مسيء فوق طاقته

أحسننت مجتهدا حتى أخجله

و قال: أنشدنا الحافظ السلفي لابن رشيق و قد قيل له: لم لا تركب البحر للحج؟ فقال معتذرا:

البحر صعب المرام هولا
لا جعلت حاجتي اليه
أليس ماء ونحن طين
فهل ترى صبرنا عليه

و لعبد الجبار الكاتب :
لا أركب البحر خوفا
عليه من المعاطب
طين أنساو هو ماء
والطين في الماء ذائب

و لأبي الفتح البستي :
ان ابر من آدم طين
والبحر ماء يذيه
لولا الذي فيه يتلى
ماجاز عندي ركوبه

وله أيضا :
وأخضر لولا آية ماركبته
ولله تصريح القضاء بما شاء
أقول حذار من ركوب عبابه
أيارب إن الطين قد ركب الماء (١١٥)

ثم دخلت

سنة ثلاث و عشرين و ستمائة

ففيها : قدم من بغداد محيي الدين يوسف بن الجوزي رسولا إلى المعظم ، و معه الخلع لأولاد العادل من عند الخليفة الظاهر، ومضمون رسالته طلب رجوع المعظم عن موالة الخوارزمي.

قال أبو المظفر: وحكى لي المعظم صورة الرسالة، قال: قال لي خالك: المصلحة رجوعك عن هذا الخارجي إلى أخوتك ، و نصلح بينك وبين أخوتك - و المعظم قد بعث مملوكه الركين إلى الخوارزمي فرحله من تفلّيس فأنزله على خلاط و الأشرف بخران- قال: فقلت لخالك : إذا رجعت عن الخوارزمي و قصدني أخوتي تنجدوني؟ قال : نعم، قلت : ما لكم عادة تنجدون أحدا، هذه كتب الخليفة الناصر عندنا، و نحن على دمياط ، و نحن نكتب نستصرخ به و نقول : أنجدنا ، فيجيء الجواب بأن قد كتبنا إلى ملوك الجزيرة ولم يفعلوا ، و قد اتفق أخوتي علي و قد أنزلت الخوارزمي على خلاط إن قصدني الأشرف منعه الخوارزمي ، و إن قصدني الكامل كان في له (١١٦) .

و فيها: قدم الأشرف دمشق و أطاع المعظم ، و سأله أن يسأل الخوارزمي أن يرحل عن خلاط ، وقال: نحن ممالكك و ما أنبت الشعر على رؤوسنا إلا أنت ، فبعث المعظم فرحل الخوارزمي عن خلاط، وكان قد أقام عليها أربعين يوما ، و نزل الثلج و أقام الأشرف عند المعظم بدمشق. و كان المعظم يلبس خلعة الخوارزمي و يركب فرسه وإذا جلسوا على تلك الحال يحلف المعظم برأس خوارزم شاه، و عند الأشرف من هذا المقعد المقيم و هو ساكت .

قال : و توجه خالي إلى مصر إلى الكامل، و هذه أول سفرة سافرها
خالي إلى الشام و مصر

قال: و فيها: حج بالناس من العراق ابن أبي فراس ، و من الشام
علي بن السلا.

وفيهما: فوض المعظم تدريس مدرسة شبل الدولة بقاسيون إليّ، وقلت .
و في يوم جلوسي للتدريس بها توفي شمس الدين محمد ابن شيخنا
علم الدين السخاوي رحمه الله بدمشق و دفن بالجبل.

و فيها: في آخر ربيع الأول توفي قاضي قضاتها جمال الدين يونس بن
بدران بن فيروز المصري ، و دفن بداره بدرب الريحان، و كان فقيها
كثير الاشتغال، و اختصر كتاب « الأم » للشافعي رحمه الله ، و صنف
فرائض كثيرة تحتوي على مسائل كثيرة و كان قد اعتنى به الوزير صفي
الدين بن شكر فجعله وكيل بيت المال ، و فوض إليه التدريس بالمدرسة
الأمينية بعد تقي الدين الضرير ، ثم صار يترسل عن العادل إلى الخليفة
و إلى الملوك بالروم ، و بلاد الشرق و حلب و غيرها ، ثم ولاه المعظم
بعد الزكي الطاهر قضاء قضاة الشام ، و فوض إليه التدريس بالمدرسة
العادلية، فهو أول من ذكر قبل الدرس ، و كان يذكرها، قبل درس
الفقه درسا من تفسير القرآن طويلا و يجري فيه مباحث حسنة، فإنه
كان يحضره معنا جماعة من الفضلاء ، فاتفق أن فرغ من ذكر التفسير
من أول القرآن إلى آخره ، فلما تم له ذلك توفي بعد ذلك بقليل رحمه
الله ، و كان في ولايته عفيفا في نفسه نزها ملازما لمجالس الحكم بالشباك
الكمالي بالجامع و غيره ، و كان إذا جلس فيه بعد العصر لا يزال إلى أن
يصلي المغرب ، و في بعض الليالي يصلي العشاء الآخرة فكان إذا فرغ من
الحكم بين الخصوم تجري بحضرته المذاكرة في العلم إلى حين انفصاله،
ويجلس بكرة كل يوم جمعة و يوم ثلاثاء بإيوان المدرسة العادلية لاثبات

الكتب. و يصطف شهود البلد في جوانب الإيوان. وكان مجلسا عليه جلاله ، و لم يكن يضيع فيه الزمان في غير ما هو بصدد بل هو ملازم لما ذكرنا من الأيام كلها السبت و غيره، و لم ينقم عليه شيء في ولايته سوى أنه إذا ثبت عنده وراثه شخص لما وضع نواب بيت المال أيديهم عليه يأمره بمصالحة بيت المال فيقتطع منه قطعة لبيت المال، وأما لنفسه فلم يشتهر عنه شيء من ذلك ، و نقم عليه أيضا استنابته لولده التاج محمد، و لم تكن طريقته مستقيمة ، وكان يذكر أنه قرشي فتكلم الناس في ذلك، و تولى القضاء بعده شمس الدين أحمد بن الخليل الخوئي والمدرسة العادلية و الله أعلم.

قلت: و شمس الدين الخوئي هو أبو العباس أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر بن عيسى ، بأشر الحكم بدمشق يوم الأحد سادس شهر ربيع الأول سنة ثلاث و عشرين و ستائة

نقلت من خط بعض من له عناية بجمع التاريخ أن جمال الدين المصري المذكور بأشر الحكم مع بقية النواب لما انفصل الزكي المذكور، ثم استقل بالحكم في يوم الثلاثاء ثامن عشرين رجب سنة تسع عشرة وستمائة.

و فيها : في شهر رجب أو شعبان توفي الشيخ تقي الدين خزعل ابن عسكر بن خليل الشائي المصري النحوي، و دفن بباب الصغير وكان رحمه الله شيخا حسنا فاضلا مفتيا متواضعا، قاضي الحاجة لكل من يقصده ، أقام بالقدس الشريف زمانا، يقرئ الناس به حتى كان يعرف بنحوي القدس ، ثم قدم دمشق سنة خرب القدس المعظم و هي سنة خمس عشرة فأعطي إمامة مشهد علي بن الحسين رضي الله عنهما بالجامع، و أنزل في المدرسة العزيزية ، فكان يقرئ بها و يتولى عقود الأنكحة ، و كنت إذ ذاك ساكنا بالمدرسة، و أتدد إليه فقرأت عليه

عروض الناصح بن الدهان الموصلية ، أخبرني عن مصنفه ، و قرأت أيضا عليه جدل الكمال الأنباري . و أخبرني به أيضا عن مصنفه . و أنشدني لنفسه ميمية في حصر أقسام الواو و غير ذلك ، و كان يحثني على حفظ الحديث و التفقه فيه خصوصا صحيح مسلم ، و يقول: إنه أسهل من حفظ كتب الفقه و أنفع وأصدق، رحمه الله ، و حث على مسح جميع الرأس في الوضوء احتياطا ، و بحث في دليله فأعجبني ، و استقر في نفسي فما أعلم أي تركته من ذلك الزمان إلى الآن و الله المستعان فيما بقي لنا من الزمان ، و كنت أرى منه مروءة تامة في توليه عقود الأنكحة و في فسخها و في فعله فيما يحصل منها، فكان إذا غلب على ظنه فقر أهل الواقعة لا يأخذ منهم شيئا ، و أما عند الطلاق و الفراق فلا يأخذ شيئا أصلا سواء كانوا فقراء أو أغنياء، و كان مما يتحصل له من ذلك يتصدق بجملة منه فلا يرد سائلا ، و ربما جاءه من يطلب منه شيئا فيقول اقعد فما يأتي فهو لك ، فأول شغل يأتيه يعطي ذلك القاصد ما يحصل منه كائنا ما كان، ومن مروءته أنه فوض إليه المسجد الذي قبلي قيسارية الفرش و كان لصاحبنا شمس الدين محمد بن عبد الجليل واتفق انه فارقه و سافر عنه متزهدا إلى العراق، ثم اتفق رجوعه ، فنزل له عن المسجد ورده إليه فاستحسن ذلك منه

و فيها: توفي في رجب زكي الدين أبو القاسم هبة الله ، المعروف بابن رواحة من أكابر العدول و التجار أولي الثروة ، و بنى بحلب مدرسة للشافعية ، و بدمشق مثلها داخل باب الفراديس، وقف عليهما أوقافا حسنة و قنع بعد ذلك باليسير ، و كان يدرس في بيت المدرسة الدمشقية و هو الذي في ايوانها من الشرق ، و يقابله من الغرب خزانة الكتب التي وقفها ، و هي كتب جليلة ، و كان رحمه الله تام الخلقة طويلا وعريضا، إلا أنه كان لا لحية له أصلا، و كان مبجلا عند القضاة ، و كان قد أسند النظر الذي في مدرسته التي بدمشق إلى الشيخ تقي الدين بن الصلاح، ثم أنه بعد موته شهد عليه بال عزل له الشيخان تقي الدين

خزعل المقدم ذكره ومحبي الدين محمد العربي ، و كانا ساكنين قريبا من المدرسة ، فزعموا أنه استدعى بهما ليلا و أشهدهما عليه بعزل ابن الصلاح عن نظر المدرسة ، و جرت في ذلك فصول لا حاجة إلى ذكرها، و كأنه كان قد ألهمه الله تعالى المصلحة في ذلك فان ابن الصلاح أسند النظر إلى شخص أسنده ذلك الشخص إلى ولد له ، فغلب على وقف المدرسة و تدريسها بغير أهلية و لا استحقاق، و لا أمانة، و لا عدل، و لا إشفاق، و الأمر على ذلك إلى الآن والله المستعان، و دفن الزكي بن رواحة بمقابر الصوفية.

و فيها توفي في رجب أيضا الخليفة الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر أحمد ، ولي تسعة أشهر و أيام ، قام فيها بالعدل حسب طاقته، وغسله محمد الخياط الشاعر

قال أبو المظفر: و حكى لي أنه دخل يوما إلى الخزائن فقال له خادم: في أيامك تمتلئ ، فقال له : ما جعلت الخزائن لتمتلئ بل لتفرغ و تنفق في سبيل الله فإن الجمع شغل التجار ، وولى بعده ابنه أبو جعفر منصور بن محمد و لقبه المستنصر بالله فبنى المدرسة المستنصرية ببغداد للمذاهب الأربعة ، و توفي سنة أربعين، و سيأتي ذكره (١١٧) .

و فيها : في رجب أيضا توفي شيل الدولة كافور الحسامي ، نسب إلى حسام الدين محمد بن لاجين ، ولد ست الشام بنت أيوب ، كان خادما، عاقلا ، ديناً ، صالحاً، مهيباً له حرمة وافر في الدولة و منزلة عالية عند الملوك ، اعتمدت عليه سيدته ست الشام في بناء تربتها، ومدرستها الشافعية بمنحلة العوينة، و كان حنفي المذهب فبنى مدرسة لأصحاب أبي حنيفة عند جسر كحيل في طريق الجبل ، ولصقها تربته والخانقاة ، ووقف عليها أوقافا جليلة ، و بنى المصنع قبالة ذلك والقناة و السباط المظلل للطريق ، و المصنع الآخر الذي برأس الزقاق الطويل

و فتح للناس طريقا للجبل من عند المقبرة التي غرب المدرسة الشامية
تفضى إلى عين الكرش، و لم يكن إليها طريق قبل ذلك إلا من جهة
مسجد الصفي المجاور لمقبرة باب الفراديس، و له صدقات دارة،
وإحسان كثير، و دفن بتريته إلى جانب مدرسته المذكورة. و كان قد
سمع الحديث على الشيخ تاج الدين الكندي و غيره رحمه الله.

و فيها: توفي المبارك ابراهيم بن موسى المعروف بالمعتمد و إلى دمشق،
ولد بالموصل، و قدم الشام فخدم فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب
وتقلبت به الأحوال و استنابه أخو فرخشاه لأمه بدر الدين مودود
الشحنة بدمشق، ثم ولاه العادل الشحنة استقلالا فأحسن السياسة،
و لطف بالرعية، و كان بين يديه نقيب له يعرف بسويد من أحذق
الناس وأعرفهم بتدبير وقائع الولاية، و كان المعتمد ديناً، ورعاً، عفيفاً،
نزهاً، اصطنع عالماً عظيماً من النساء و الرجال، و ستر عليهم كبائر
الأحوال؛ و كانت دمشق و أعمالها في أيام ولايته لها حرمة ظاهرة وهي
حسنة.

قال أبو المظفر: و مما جرى له أنه كان في دمشق رجل فاتك و إلى
جانب بيته قوم لهم ولد صغير في آذانه حلق من ذهب، فاغتاله الرجل
يوماً فخنقه و أخذ الحلق من أذنه، و أخرجه في قفة و دفنه في باب
الصغير. و فقدته أمه فاتهمت الرجل به فعذبه المبارز عذاباً أليماً فلم
يقر و أطلق، و في قلب المرأة النار من ولدها، فطلقت زوجها وتزوجت
الرجل القاتل و أقامت معه مدة، فقالت له يوماً و هي تداعبه: قد
مضى الابن و أبوه و كان منهما ما كان، - و كان الزوج قد مات - أنت
قتلت الصغير؟ فقال: نعم و أخذته و دفنته في الباب الصغير، فقالت:
قم فأرني قبره، فأخذها و خرج بها إلى المقابر و حفر القبر فرأت ولدها
فلم تتمالك و ضربت القاتل بسكين أعدتها له فشقت بطنه و دفعته
فألقت في القبر و جاءت إلى المبارز فحككت له الحكاية، فقام و خرج

معها إلى القبر فكشفته له . فقال: أحسنت والله ينبغي لنا كلنا أن نشرب لك فتوة .

قال: وحكى لما حرم العادل الخمر ركبت يوما وخرجت من باب الفرج ، و إذا برجل في رقبته طبل و هو يتمايل تحته، فقلت امسكوه وشقوا الطبل فشقوه، و إذا فيه ركوة خمر فبددتها و ضربته الحد، قال: فقلت له من أين علمت ؟ قال: رأيت رجله و هي تلعب ، فعلمت أنه قد حمل شيئاً ثقيلاً .

قال: و كان لداره بابان : الباب الكبير عليه الغلمان و البواب ؛ و باب السر في زقاق آخر ، فكان النواب إذا مسكوا في الليل امرأة من بيت معروف و حملوها إليه على حالها يقول لهم: انزلوا حتى أقررها ، ثم يقول لها: يا بنتي انت من بيت كبير و أهلك رجال معروفون فما الذي حملك على هذا ؟ فتقول : يا سيدي قضاء الله فيقول لها : ستر الله عليك . و يبعث معها الخادم من باب السر إلى بيتها ، فأقام على هذا نحواً من أربعين سنة.

قال: وكان في قلب المعظم له شحنة لأنه كان يشفق عليه و يحفظه في أماكن يدخل إليها بدمشق في الليل و هو شاب فيأمر غلمانه أن يتبعوه من بعيد ، و كان العادل من مصر يكتب إليه بذلك ، فلما مات العادل أظهر ما كان في قلبه منه ، فاعتقله مدة في القلعة ، فلم يظهر عليه و على أحد من أولاده و حاشيته أنه أخذ من الرعية ما مقداره مثقال حبة من خردل ، و لا غير ما كان عليه من العفة ، و الأمانة، و الصلاح ، و الديانة. ثم أنزله من القلعة إلى داره و حجر عليه فيها، و بالغ في التشديد عليه ، وكانت وفاته يوم السبت الحادي و العشرين من ذي القعدة ، و عمره نحو ثمانين سنة ، و دفن بجبل قاسيون في التربة التي أنشأها في الجبل.

قال: و حكى لي أنه ولي دمشق نيابة عن بدر الدين الشحنة أول ولاية صلاح الدين، ثم اشتغل بالولاية إلى أن عزل في سنة سبع عشرة وستائة ، و كانت ولايته نيابة و استقلالاً قريباً من خمسين سنة.

قالوا: و لم يؤخذ على البارز شيء إلا أنه كان يحبس و ينسى، فعوقب بمثل ذلك ، و أقام محبوساً خمس سنين إلا أياماً.

قال: و جرت لي معه واقعة عجيبة كنت في كل ليلة جمعة أزوره و انقطعت عنه مدة بسبب إغلاق باب داره في بعض الأوقات، فرأيت في المنام كأن قبره في روضة خضراء و القبر معمول بالفص الأخضر، وليس هو من جنس فصوص الدنيا فطربت لحسنه ورونق المكان ، فهتف بي هاتف: لو رأيت ما في باطن القبر، قلت: و ما في باطنه؟ قال: الدر، والياقوت، والمرجان، و ما يستغنى عن قراءة كتاب الله .

فانتبهت وفهمت الإشارة ، فأنا في كل ليلة أقرأ ما تيسر من القرآن وأهديه إليه و إلى أهلي و أصحابي و معارفي رحمهم الله (١١٨) .

و فيها: توفي البدر الجعبري، و إلى قلعة دمشق و أقام و إليها مدة في أيام المعظم ، و خدم الظاهر بحلب و غيره، و حمل إلى نابلس فدفن عند أهله

ثم دخلت

سنة أربع و عشرين و ستمائة

ففيها : قدم رسول الانبروز ملك الفرنج البحرية على المعظم بعد اجتماعه بالكامل ، يطلب منه البلاد التي كان فتحها عمه صلاح الدين رحمه الله ، فأغلظ له و قال : قل لصاحبك ما أنا مثل العزيز ما له عندي إلا السيف

و فيها : في آخر شعبان سافرت أنا إلى بيت المقدس صحبة الفقيه عز الدين بن عبد السلام و غيره على سبيل الزيارة للأقصى و الخليل و ما بتلك الديار من الآثار ، و رجعنا إلى دمشق بعد أربعة عشر يوما .

و فيها : حج بالناس من الشام الشجاع بن السلار و هي آخر إمرته على الحاج ، و آخر السنين التي كان الحج فيها رضيا طيبا ، و انقطع ركب الحج بعدها مدة بسبب ما وقع بالشام من الاختلاف و الفتن .

و فيها : حج من ميفارقين سلطانها شهاب الدين غازي بن العادل .

قال أبو المظفر : و كان ثقله على ستمائة جمل ، و معه خمسون هجينا على كل هجين مملوك ، و جهزه الأشرف جهازا عظيما ، و سار غربي الفرات ، على قرقيسيا ، و الرحبة ، و عانة ، و الكبيسات ، و المعمر ، والعين ، و شفاتا ، و كلها قرى فيها عيون جارية و نخل كثير ، و منها يجلب التمر إلى الشام ، و عبر كربلاء فزار المشهد ، ثم الكوفة و زار مشهد أمير المؤمنين . و حج بالناس من العراق شمس قيران مملوك الخليفة وبعث الخليفة لشهاب الدين فرسين و بغلة و ألفى دينار ، وقال : هذه من ملكي أنفقها في طريق الحج ، و أوصى أمير الحاج بخدمته ، و تصدق في مكة و المدينة ، و عاد إلى العراق ، و لم يصل الكوفة بل

سار غربي الطريق التي سلكها ، و كاد يهلك هو و من معه عطشا حتى وصل إلى حران.(١١٩).

و فيها: توفي بدمشق سلطانها الملك المعظم عيسى بن أبي بكر بن أيوب ، ملك الشام بعد أبيه من العريش إلى حمص ، و ما بين الأرض المقدسة و مدينة النبي صلى الله عليه و سلم من الكرك ، و الشوبك ، والعلا ، و كان قد سير في سنة اثنتين و عشرين و ستمائة ، و هي السنة التي حججت فيها ثانيا من مسح الأرض من باب الجابية إلى جبل عرفات ، و كتبها له منزلة منزلة ، و سهل في طريق الحاج مواضع كانت وعرة كثيبة الصوان ، و كثر المير لهم في أراضي الكرك ، و الشوبك و تبوك ، و العلا ، و المدينة على ساكنها السلام ، و كان الحجاج يجدون بذلك رفقا عظيما ، و بالجملة تفرد من بين الملوك بالجمع بين مواظبة الغزو والاشتغال بأنواع العلوم ، و الحج إلى الحرمين بنفسه ، و إعانة غيره عليه و كان عديم الالتفات إلى ما يرغب فيه الملوك من الأهبة والتعظيم والمدح و غير ذلك ، فكان ينهى نوابه على إمرة الحاج الشامي من مزاحمة الملوك في إطلاع الأعلام إلى رأس جبل عرفات ، فكنت ترى علمه مركوزا إلى جانب محمله تحت الجبل ، و كان يركب وحده مرارا كثيرة ، ثم يتبعه من شاء من غلمانه طاردين خلفه ، و كان إذا كان بدمشق يأتي كل جمعة في الساعة الرابعة أو نحوها إلى تربة والده قبالة دار العقيلي يجلس فيها هو و من معه من إمرائه و خواصه إلى أن يؤذن المؤذن لصلاة الجمعة فيخرج حيثئذ ماشيا إلى تربة عمه صلاح الدين رحمه الله المجارة للكلاسة فيصلي الجمعة بها مع الناس ، أقام على ذلك زمانا ، و كان جميل الصحبة مكرما لأصحابه ، منصفاً لهم ، كأنه واحد منهم ، أنشدني المحب بن أبي السعود البغدادي الحجازي ، و كان من الملازمين خدمته قال: نظمت فيه لما توفي رحمه الله تعالى:

لئن غودرت تلك المحاسن في الثرى

بـوال فما وجدني عليك بـال

- ٩٢٧٠ -

ومدغبت عني ماظفرت بصاحب
أخي ثقة إلا خطرت بيالي

ثم دخلت

سنة خمس و عشرين و ستمائة

في دولة المستنصر بالله

ففي ثامن عشر صفر جاء منشور الولاية لداود من عمه الكامل محمد ابن أبي بكر ، و كانت الفرنج لعنهم الله و خذلهم قد تحركوا و انبثوا ببلاد الساحل ، لأن الهدنة كانت قد تمت، و بقي المسلمون منهم في خوف ، فرأيت في المنام ليلة الثلاثاء تاسع صفر كأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد جاء للنصرة و عليه برد يمان وفرجية مفتوحة، و قال: سنأمر من ينادي بالرحيل إلى الساحل، و وعد بأن يستخلف على الشام إذا عاد رجلاً شريفاً شجاعاً، فاستبشر الناس لهذه الرؤيا ، فلما كان أواخر ربيع، و ذلك في أيام عيدهم الذي بعد صيامهم أغار المسلمون على بلاد صور، فغنموا غنيمة كبيرة من إبل، و بقر، و غنم مقدار ستة آلاف رأس و غير ذلك ، و خرج إليهم من الفرنج نحو مائتين ، فكانوا بين قتيل و أسير و غريق في البحر، و ما نجا إلا القليل، و من جملة الأسرى ابن والي صور، و قيل الوالي، و قيل خلصه المركب ، و خبرت أن بعد الواقعة خرج جماعة من الكفار لأخذ قتلاهم فأخذوا .

و في هذه السنة نزل العزيز عثمان بن أبي بكر بن أيوب على بعلبك ليأخذها ، و فيها ابن عمه الأجد بهرامشاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، فأعان الناصر داوود الأجد على العزيز ، و أمره بالرحيل عنها ، فرحل واشتد حنقه على الناصر .

قالوا: و كاتب العزيز الكامل و حثه على الإتيان إلى بلد دمشق

ليتسلمه ، و أوهمه أنه في يده ، فجاء الكامل و انضاف إليه العزيز، وجاءهم صاحب حمص المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شادي ، و قد كانت له بمحاصرة والده ضغينة على عيسى ابن أبي بكر ، لأنه كان نازل ببلده حمص و خرب ما حولها و نهبه، فأراد استيفاء ما جرى على ببلده بمحاصرة ولده ، فحسن ذلك في رأي الكامل، واستنجد الناصر بعمه الأشرف أبي الفتح موسى بن أبي بكر ، فجاءه و أكرمه غاية الأكرام ، و ذلك في أواخر رمضان ، ثم دخل الأشرف إلى الكامل و اجتمع به بالقدس فاتفقا على أخذ البلاد من داود بن عيسى، و أن دمشق تكون للأشرف وانضاف إليهما من عسكر الناصر عمه الصالح اسماعيل بن أبي بكر ، و ابن عمه شهاب الدين محمود بن المغيث عمر بن أبي بكر بن أيوب، و جماعة من الأمراء مثل عز الدين أيدير ، و الكريم الخلاطي و غيرهما ، و جاء أخو الأشرف إلى المظفر شهاب الدين غازي بن أبي بكر و اجتمع الجميع بأرض فلسطين ، و قد كان الناصر خرج لأجل عمه الكامل و خدمته، و ظن أن الأشرف عنده قد أصلح أمره، فوصل إلى الغور ، و سمع باجتماع أعمامه عليه وأنهم عازمون على القبض عليه، فرجع إلى دمشق وأخذ في الاستعداد خوف الحصار، و سذكروا ما جرى من ذلك في سنة ست وعشرين.

و في هذه السنة في المحرم توفي جمال الدين عبد الرحيم بن علي بن شيث بن اسحق الكاتب بدمشق ، ولد بأسنا من أعمال قوص سنة سبع وخمسين و خمسمائة ، و نشأ بقوص ، و تأدب فيها بفنون العلوم ، كان دينا حسن النثر و النظم، وتولى الديوان ببلاد قوص ، ثم بالاسكندرية، ثم ببيت المقدس ، ثم بكتابة الانشاء للملك المعظم عيسى ، حكى عنه القوصي في معجمه.

و في هذه السنة توفي الشيخ الصوفي هندولا في السابع و العشرين

من أحد شهري ربيع ، و دفن بمقابر الصوفية ، و في أواخر جمادى الأولى توفي الشمس أحمد بن القواص ، و الشريف البهاء كاتب الحكم ودفنا بالجبل ، و في أوائل رجب توفي الشيخ الفقيه الصالح أبو الحسن علي المراكشي المقيم بمدرسة المالكية ، و دفن بالمقبرة التي وقفها الرئيس خليل بن زوزان قبلي مقابر الصوفية ، و كان أول من دفن بها ، و في سادس عشر رجب توفي المحب اللبلي المعروف بالمغربي ، و دفن بمقبرة ابن زوزان أيضا ، و في سادس عشر رمضان توفي الفقيه ضياء الدين ابن عبد الكافي ، و دفن بالجبل ، و في يوم عيد الفطر توفي التقي أبو عبد الله المغربي الجابري و دفن في مقبرة ابن زوزان ، و قد كان معنا في المدرسة . و في مستهل ذي القعدة توفي القاسي عبد الرحيم ، الذي كان يحفظ الوجيز و دفن بالجبل . و في سادس عشر ذي الحجة توفي الجمال ابن القفصي المعروف ، و دفن بالجبل .

و في هذه السنة توفي الفقيه عبد المحسن الحنبلي ، و موسى الموصلبي بمصر ، و معرفتنا شهوان السواق في الدقيق بدمشق ، وخلق كثير غيرهم رحمهم الله .

و فيها: في صفر عزل الصدر بن البكري عن مشيخة الشيوخ بدمشق ، ووليها العماد بن صدر الدين شيخ الشيوخ ، و في سادس رمضان عزل ابن البكري عن الحسبة أيضا ، ووليها الرشيد بن عبد الهادي ،

و فيها: في شعبان توفي الأمين نفيس الدين أبو محمد الحسن بن علي ابن الحسن بن الحسن بن محمد الأسدي المعروف بابن اللين ، حكى عن جده الحسن و غيره .

و لم يدخل ركب الحجاز في هذه السنة من طريق الشام .

- ٩٢٧٤ -

و فيها : قدم قاضي البلقاء عبد الحق المالكي في أول رمضان
 واجتمعت به .

ثم دخلت

سنة ست و عشرين و ستائة

في دولة المستنصر بن الظاهر بن الناصر ، و سلطان دمشق داوود بن عيسى .

ففي أواخر المحرم منها مات الشيخ شمس الدين الحسين بن هبة الله ابن محفوظ بن الحسن بن محمد بن صبرى التغلبي ، و كان له روايات كثيرة و عمر وأجاز لي جميع ما يرويه و لم أسمع منه شيئاً .

و فيها: في أواخر صفر عزل القاضي نجم الدين أحمد بن محمد بن خلف المقدسي ، و كان نائباً و تولى استقلالاً مشاركا لشمس الدين الخوئي ، و تولى القاضي محيي الدين أبو الفضائل يحيى بن محمد بن يحيى القرشي، و جلس بالكلاسة في الشباك الذي يلي المحراب الشرقي منها اماماً .

قلت: كان ذلك يوم الثلاثاء الخامس و العشرين من صفر المذكور، ثم جلس في داره و كل من ذكرت من آبائه تولوا قضاء القضاة بدمشق، و كذا من قبله أخوه زكي الدين الطاهر بن محمد بن علي.

وفيهما: في أول ربيع الآخر جاء الخبر بأن الكامل أخلى البيت المقدس من المسلمين و سلمه إلى الفرنج و صالحهم على ذلك ، و على تسليم جملة من القرى فتسلموه ودخلوه مع ملكهم الأنبروز ، و كانت هذه من الوصيات التي دخلت على المسلمين ، و كانت سبباً في أن توغرت قلوب أهل دمشق على الكامل ومن معه. ووجد بها الناصر طريقاً في الشناعة عليهم .

وفي هذا الشهر تقدمت جيوش الكامل مع اخوته: الاشرف والمظفر والعزیز ، و الصالح ، و ابني أخيه : الجواد بن محمد . و داوود بن المغيث ، و معهم صاحب حمص و عسكر حلب و حماة فنزلوا عند الجسور و راء مسجد القدم ، و قطعوا عن دمشق أنهارها : بانياس والقنوات ، ثم يزيد، و ثورا، و نهبت البساتين، و أحرقت الجواسق، و خربت رباع وبادت الأشجار بانقطاع الماء ، و جرت وقعات ، فقتل قوم و جرح آخرون ، و هدم كثير من الرباع و الخانات حول البلد من خارج لا سيما على كل باب.

و لما كان يوم السبت الرابع و العشرون من جمادى الأولى وقعت بينهم وقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير ، و جرح جم غفير ، و نهب قصر حجاج و الشاغور ، و أطلق فيهما النيران ، و وصلت خيل المحاصرين إلى دور البلد من جوانبه ، و دخلوا الميدان الأخضر ، ثم رجعوا آخر النهار إلى خيامهم و قد كثرت القتل و الجرحى في الفريقين، و كثر الحريق و النهب ، ثم تسلموا حصن عزتا (١٢٠) بها فيه من سلاح و غيره صلحا مع متوليه ، و في يوم الأحد تاسع جمادى الآخرة وصل الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب إلى دمشق ، و نزل بالقرب من مسجد القدم ، و أمر بإجراء نهري يزيد، و ثورا لأجل سقي الأراضي ، و خرج إليه الفاضل أحمد بن عبد الرحيم بأمان منهما ، و أنفذ الناصر من جهته في أواخر النهار جماعة من كبار البلد من العلماء و خطيب الجامع جمال الدين الدولعي، و قاضي القضاة شمس الدين الخوثي ، و القاضي شمس الدين الجويني ابن الشيرازي، و جمال الدين الحصري شيخ الحنفية، إلى الكامل نيابة عنه في الخدمة و السلام ، ثم عادوا من الغد ، و خرج يوم الثلاثاء حادي عشر الشهر عز الدين أيبك استاذ الدار إلى الكامل بإستدعائه ، و جرى الحديث في الصلح ، و عاد ليلا، و مضى و عاد مرات ، و كان يأتي إليه عماد الدين شيخ الشيوخ فلم ينظم صلح في الظاهر.

و لما كان خامس عشر جمادى يوم السبت ، وقعت بينهم وقعة قبالة باب الحديد و في الميدان و ما بين ذلك ، و كان النصر فيه لأهل البلد و في الغد يوم الأحد وقع الحريق و النهب من ناحية باب توما ، و أحرقت الطاحونة الأحد عشرية و الخرشنية ، و التي في مرج الشيخ ، و طاحونة الأشنان أحرقت بعضها ثم أطفئ ، و نهبت الدور حول ذلك ، و وقع الجرح و القتل ، و في يوم الجمعة الحادي و العشرين من الشهر خربوا قريات من قرى الغوطة ، و أخرجوا أهلها منها : جوبر ، و جديا ، و زملكا ، ثم خربت سقبا و غيرها ، و الأسعار كلما مرت تغلو ، و الخوف حول البلد ، و قد انقطع عنه الجلب ، و بلغت أوقية الأشنان تسعة أفلس .

و حكى لي والدي أن شخصا اشترى أوقية بأربعة عشر فلسا ، و بلغت أوقية الخبز نصف درهم ، و رطل اللحم ستة دراهم . و أما الخبز فكان بحمد الله موجودا كثيرا ، و كان أطيب شيء فيه ، و هو المثلث يباع رطله بثلاثة عشر قرطاسا ، و سمعت والدي و جماعة من المشايخ الذين شاهدوا الحصارات المتقدمة في دولة أولاد صلاح الدين يحكون أنهم ما رأوا أشد من هذا الحصار .

ووصل الخبر بأن نائب الناصر بحصن الكرك ، و هو الأمير سعد الدين بن صارم الدين أخرج الأجناد الذين معه مع من إنضاف إليهم من العرب ، و كبس العسكر الذي نازلهم من جهة الكامل ، فأخذوهم برقابهم ، و فازوا بأسلابهم ، ثم أنهم زحفوا من ناحية الميادين مرارا و الكرة عليهم ، و اتخذوا مسجد خاتون و مسجد الشيخ اسماعيل و خانقاه الطاحون ، و الجوسق ، الذي في الميدان الأخضر حصونا و ظهورا لهم ، و أحرقت الناصر لأجل ذلك مدرسة أسد الدين و خانقاه خاتون و ما يليها من الخانات و الدور ، و بستان ابن يمن و الحمام ، و خربت خانقاه الطواويس ، و ذلك في أوائل رجب و زحفوا يوم الأحد تاسع

رجب آخر النهار إلى أن وصلوا محاذة الباب الحديد. و رأى شيخنا أبو الحسن على بن محمد السخاوي ليلة السبت خامس عشر رجب كأن قائلًا يقول له : بعد شهر تكون دمشق كأنها الخلد جنة ، و كان تمام الشهر ليلة نصف شعبان ، و كان الناس فيها في أطيب عيش لأن الصلح انتظم أول شعبان و ما زال البلد و الناس في ترف من زوال الشعث ، و كثرت الخيرات ، و لهم في ليلة النصف من شعبان موسم معلوم يحتفلون فيه ويكثرون الوقيد في المساجد ، لكن عادتهم كل سنة تكثر الزحمة والضراب و النهب و العياط، و لم يكن في هذا النصف مثل ما كنا نعرف في غيره، بل كان الناس في سكون مع قلة زحمة ، و هم في سرور و الصلح و الرخص ، فقلت : هذه الجنة التي أشار إليها المنام.

و كان سبب الصلح أن الناصر خرج ليلة الأربعاء رابع عشر رجب إلى الكامل و اجتمع به ، ثم اجتمعا مرات حتى تقرر الصلح بينهما على أن يبقى له مما كان في يده بلاد الكرك ، و بلد نابلس، و قرايا من الغور والبلقاء ، و دخل عسكر الكامل دمشق يوم الاثنين مستهل شهر شعبان، و رحل الناصر يوم الجمعة ثاني عشر شعبان من دمشق إلى بلاده التي بقيت عليه، و دخل الكامل و أخويه يوم الثلاثاء سادس عشر الشهر فزار قبر والده ، ثم خرج إلى مقامه بجوسق العادل ، ثم دخل هو و الأشرف القلعة يوم الخميس ثامن عشر شعبان ، ثم توجهت عساكر الكامل صوب حماه، فنزلوا عليها يحاصرونها ، و معهم صاحب حمص شيركوه والمظفر بن المنصور بن تقي الدين وهو أخو سلطانها حينئذ ، و تسلم الأشرف دمشق في أواخر شعبان ، و أعطى الكامل عوضها جملة من بلاد الشرق منها : حران ، و الرها ، و رأس عين ، و الرقة، و الموزر

ثم رحل الكامل في تاسع رمضان صوب الشرق فنزل إلى خدمته صاحب حماة المحاصر بها حينئذ و هو الناصر صلاح الدين قليج

أرسلان بن المنصور محمد بن المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، وتسلم نواب الكامل حماة في آخر رمضان ، و سار الكامل إلى بلاده التي جعلت له في الشرق ، و انتقل عسكره فنزل على بعلبك و رحل الأشرف من دمشق إليها و حاصروها .

و فيها : قدم الأجد بن فرخشاه ، و هو ابن عم الكامل ، فتسلموا البلد، بقي الحصار على القلعة ، ثم رجع الأشرف إلى دمشق . و في هذه السنة أهين جماعة من المتجبرين ، ففي يوم الاثنين ثالث جمادى الآخرة علق هبة الله النصراني الذي كان متولي خزانة السلطان ، علق بيده اليمنى على باب كنيسة مريم و في رجله لبنة من حديد ، و كان قد عزل عن الخزانة و حبس، ثم أركب على بغل و أتي به من الحبس مهانا و الحديد في رجله و الناس حوله ليشهدوا عذابه ، فعلق على باب الكنيسة و طلب منه أموال عظيمة ، و هرب أهله و قد كان الملعون تمكن من المسلمين و آذاهم و رفع منار النصارى ، و تسلطوا بجاهه على المسلمين ، و جدد لهم بناء كنيسة مريم ، و شيد بنيانها . و رفع بابها ، و حسن عمارتها ثم هدم ما زاده و أعيدت الكنيسة إلى ما كانت عليه في شعبان بأمر السلطان الكامل ، و حضر ذلك جماعة من العلماء ، والعدول، و الشيوخ و خلق كثير من العامة ، و تولى النصارى هدم ذلك بأنفسهم و كتب لهم بذلك مكتوب و قد كان اشتهر بالاشتغال بعلوم الأوائل بدمشق في أواخر دولة المعظم بن أبي بكر ، و في دولة ابنه داوود و كثر ذلك حتى أخذه الله بالدولة الأشرفية .

وفيهما: يوم الثلاثاء تاسع شعبان قدم علينا دمشق الشيخ الامام الزاهد الورع رشيد الدين عبد العزيز بن محمد بن الطاهر ، المعروف بابن عوف من ذرية عبد الرحمن بن عوف ، صاحب رسول الله صلى الله عليه و سلم ، من فقهاء الاسكندرية و مفتيها في مذهب مالك بن أنس رحمه الله ، لشغل عرض له ، و اجتمعت به الغد من مجيئه

بالمدرسة العادلية مع شيخنا أبي عمر ، و حكى لنا أن عمره إذ ذاك ستون سنة ؛ وكان يصوم يوما و يفطر يوما كصيام داوود عليه السلام، وأتى معه بدقيق من الاسكندرية فلم يزل يأكل منه حتى رجع و لا يناول من غيره.

و فيها: مات جماعة من أصحابنا و معارفنا و غيرهم فمنهم : سبعة كانوا من سكان مدرستنا ، و جماعة من الفقهاء المالكية ، و من جملة من توفي من أصحابنا إثنان كانا من أعزهم علي، و أكثرهم لي اجتماعا أحدهما : زين الدين بن أحمد بن يوسف الفرغاني ، أصابته نشابة في كتفه يوم الجمعة الثالث و العشرين من جمادى الأولى، و مات يوم الاثنين السادس و العشرين منه، و دفن في مقابر الصوفية المشرفة على نهر بانياس. و كان رحمه الله فاضلا دينيا خيرا حسن الأخلاق من أحسن ما رأينا من الأصحاب، وكان قد زار كثيرا من البلاد و هو في زي الفقراء لا يرجع إلى معلوم مع عرضه عليه، و قدم علينا دمشق في سنة خمس وعشرين، و كان قد حج من العراق ، فلما قضى حجه أتى مصر، ثم جاء إلى الشام، و كان رحمه الله قد عزم معي على المجاورة بالحجاز ، وكنا على هذا العزم في هذه السنة ، فاخترمته المنية ، و كان مولعا بإنشاد الأشعار الرقيقة ، أنشدني في عشية يوم أصابه السهم، قال سمعت الشيخ شهاب الدين السهروردي ينشده :

شربت الهوى والخمر صرفا كليهما

فكان الهوى عندي أشدهما سكرًا

أما والهوى لو ذقت طعاما من الهوى

لما كنت بعد الهوى تشرب الخمرًا

و الثاني: ظهير الدين عبد الغني بن حسان بن عطية بن يخلف الكناني المصري النحوي ، توفي عاشر شوال و دفن الغد في مقابر ابن زويزان، وكان من خيار من صحبت من الأصحاب ، له أخلاق حسنة،

وتعصب و قيام في حق من يعرفه ولديه فضل ، وعبادة ، وأما كرمه
وسخاؤه و جوده و أفضاله فشائع عنه مشتهر عرفه الخاص و العام رحمه
الله و رضي عنه ، أردت في طريق الحجاز في رجوعي منه سنة اثنتين
وعشرين و ستمائة أن أسير إليه كتاباً في أوله:

أنت الظهير على المكأرم كلها

من رد ذلك فهو عين معاند

عبد الغني و لست عبدا للغني

بحر الفرائد حبر كل فوائد

و لم يكن لي صاحب أخص منه، كنت آنس به و بحديثه، و في أضيق
ما أكون من الهم أجمع به فيزول عني برحة الله ، و كان اشتغل
بالعربية على شيخنا أبي عمرو، صحبه في الديار المصرية و في سفره إلى
الشام و لم يزل يعلق عنه و يشتغل عليه بالعربية و الأصول إلى أن توفي،
وكان كثير الأعتناء بكلامه علق عنه أشياء كثيرة لم يعلقها أحد ، و قد
حصلت و الحمد لله بخطه في ملكي

و من جملة من توفي من أصحابنا مؤذن مدرستنا الشيخ البصالح أبو
الحسن على المغربي المالقي، و كان لديه علم و عمل رحمه الله، توفي في
الثالث و العشرين من شهر رمضان، و دفن بمقبرة ابن زويزان، و كان
عازماً على الرجوع إلى المغرب إلى أهله، ثم على الإقامة بمدينة رسول الله
صلى الله عليه و سلم و الأذان في منارته .

و في التاسع و العشرين من شعبان توفي فخر الدين علي بن بكمش
التركي النحوي، تلميذ الشيخ العلامة تاج الدين أبي اليمان الكندي،
وقال غيره توفي الشيخ فخر الدين أبو الحسن علي بن بكمش بن عبد
الله التركي النحوي البغدادي يوم الاثنين سلخ شعبان من السنة
بدمشق والله أعلم ، و في رابع عشر رمضان مات أبو الحسن علي بن
أبي بكر الشاطبي التجيبي المقرئ ، و دفن بباب الفرديس، و كان كثير

التعب، وكان قد اشتغل بالقراءات و النحو بالمغرب ، ثم صحب بمصر الشيخ الامام الحافظ أبا القاسم بن فيرة الشاطبي ، صاحب القصيدة ، و كان يكرمه لأجل أنه من بلده . و في يوم الأربعاء السادس و العشرين من جمادى الآخرة مات الرجل الصالح محمد السبتي النجار، و دفن بالجبل ، و كان الجمع في تشييعه متوفرا ، و كان رحمه الله كثير الاحسان لا سيما في حق الغرباء و الواردين ساعيا في مصالحهم ، و كان محبا لأهل الخير ، متقربا إليهم ، و جدد المسجد في أول الشارع الذي هو غربي دار الركوة على يسار الداخر إلى الشارع من ماله ، و أخبرني صاحبنا أبو حفص عمر بن أبي محمد الموصلي . قال حدثني الشيخ أبو الحسن علي المصمودي الضرير ، أنه سمع الشيخ عبد الصمد الدكالي، كان مجاورا بالكلاسة ، و كان معدودا من الصالحين ، يقول كلاما ما معناه: ها هنا رجلا من الأبدال . يعني محمد السبتي ، و لم يبينه المصمودي لعمر الموصلي إلا بعد موت السبتي، قال: و كان الشيخ عبد الصمد أوصاه أن لا يعلم به أحدا.

و في هذه السنة جاءنا الخبر بوفاة المسعود أطيس بن الكامل صاحب مكة و اليمن ، و دفن بالمعل، و كان عسوبا ، لكنه قمع الخوارج ، و نفى الزيدية من مكة و أمن الحاج بها ، و كان الناس بمكة في أيام دولتهم في أمن وخصب ، و كان ملكها سنة تسع عشرة وستائة ، و بنى القبة التي على المقام

و جاءنا الخبر من المدينة شرفها الله في آخر رمضان بموت الشيخ الصالح أبي عبد الله محمد الغماري ، و كان مجاورا بالحرمين من صغره ؛ و كان كثير الاحسان إلى الفقراء .

و جاءنا الخبر من مصر بوفاة أبي الحسن علي بن صالح القليني ، من قرية بمصر يقال لها قلين ، و كان من أصحاب الشيخ الشاطبي ، و حج

- ٩٢٨٣ -

مع شيخنا أبي الحسن السخاوي ، و هو الذي أنشد النبي صلى الله عليه
و سلم قصيدة شيخنا الميمية، و إياه عنى شيخنا بقوله:

و اغفر لمنشدنا على ذنبه

و انقطع الحاج هذه السنة أيضا من الشام و مصر

و فيها: توفي البهاء بن الحنبلي أخو الناصح، و الشهاب و هو الأكبر،
والناصر بعده بتسع سنين، و الشهاب بعد الناصح بتسع سنين، و مات
الشهاب سنة تسع عشرة و ستائة في شهر ربيع الأول.

ثم دخلت

سنة سبع و عشرين و ستمائة

في خلافة المستنصر بالله أبي جعفر المنصور بن الظاهر بن الناصر ،
وسلطان دمشق الأشرف أبو الفتح موسى بن العادل بن أيوب .

ففي ليلة الجمعة سادس عشر صفر توفي الشيخ أبو البركات الحسن
ابن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسن الشافعي
المعروف بزين الأمان بن عساكر ، رحمه الله . و كان شيخا صالحا كثير
الصلاة و الذكر، و عمره نحو ثلاث و ثمانين سنة إلا شهرا، و أربعة
عشر يوما ، لأني رأيت بخطه أن مولده سلخ ربيع الأول سنة أربع و
أربعين وخمسمائة و كانت له روايات كثيرة لكتب الحديث، و غيرها عن
غير الحافظ أبي القاسم علي، و الصائغ أبي الحسن هبة الله بن الحسن و
أمه أسماء بنت أبي البركات محمد بن الحسن بن الدان خالة محيي الدين
القاضي ، و لم يزل الناس يتتبعون عليه بالساعات حتى توفي ، و كان
قد أقعد في آخر عمره و كان يحمل في محفة إلى الجامع، و إلى دار
الحديث التي أنشأها نور الدين بن زنكي رحمه الله لسمع عليه.

أجاز لي جميع ما يرويه ، و سمعت عليه طائفة من كتب الحديث،
ودفن رحمه الله عند قبر أخيه الفقيه المفتي أبي منصور عبد الرحمن بن
محمد ، المعروف بالفخر بن عساكر بالأشرف القبلي ظاهر دمشق ،
واجتمع في جنازته خلق كثير ، حضرت دفنه، و الصلاة عليه رحمه الله

و فيها: في ربيع الآخرة تسلم الأشرف بن العادل بن أيوب قلعة
بعلبك من ابن عمه بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، و قد
كان حصارها قد طال، ثم رحل الأشرف إلى بلاد الشرق و استخلف
على دمشق أخاه الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب.

و فيها : في حادي عشر شهر جمادى الأولى توفي الشيخ بيرم المارديني صليت عليه بجامع دمشق و خرجت في جنازته إلى الجبل، فدفن في شرقي مقبرة ابن شيث على تل هناك ، و كان شيخا صالحا، محبا للعزلة والانفراد، صابرا على الفقر و الجوع ، كثير الصوم و المجاهدة ، و كان مقيما بالزاوية الغربية بجامع دمشق المعروفة بزاوية الدولعي ؛ و تعرف قبله بزاوية القطب النيسابوري ، و قبله بزاوية نصر المقدسي، و اسمه: بيرم - أوله باء معجمة بواحدة من تحتها، و هي مفتوحة، و بعدها ياء ساكنة معجمة باثنتين من تحتها ، و بعدها راء مفتوحة- و في جمادى الآخرة جاء الخبر بأن خوارزم شاه ملك بلاد خلاط و استولى عليها، وقتل كثيرا من أهلها .

و جاء الخبر بأن الفرنج خذلهم الله استولوا على جزيرة ميورقة و قتلوا خلقا كثيرا ، و أسروا كذلك ، و قدموا ببعض الأسرى إلى ساحل الشام، فاستفك منهم طائفة فقدموا علينا دمشق و أخبروا بما جرى عليهم .

و في آخر شعبان المعظم حوط أحمد بن عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن أحمد البيساني ، المعروف بابن القاضي الفاضل درابزينا شمالي بركة الكلاسة شمالي جامع دمشق ، و جعل داخله مكانا يقرأ فيه القرآن والسنة ، ووقف خزانة كتب في المقصورة التي تليها التي أنشأها والده، ثم خرب ذلك جميعه و أضيف إلى المسجد لما بنيت التربة الأشرفية، و بقي ذلك يقرأ فيه الحديث ، و فيه خزائن الكتب .

و في سابع عشر شهر شوال المكرم جاء كتاب الأشرف بن العادل بن أيوب ، بأنه التقى الخوارزمي و كسره ، و ذلك في أواخر رمضان ، وقد كان الخوارزمي قد استولى على بلاط خلاط فسار الأشرف من دمشق، واتفق هو و ملك الروم على لقائه ، فجمعوا العساكر و التقوا معه و التقى الجمعان للقتال يوم السبت ثامن عشر رمضان.

و ذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه : أن ذلك كان في الشامن والعشرين ، و انكسرت الخوارزمية ووقع منهم في واد خلق كثير فهلكوا، هبت عليهم رياح، و نهبوا و أخذوا و تتبعوا إلى يوم عيد الفطر، وانبثت البشائر في البلاد، لأن هذا الخوارزمي كان لا يأخذ بلد إلا قتل أهله و سبى و سلب الأموال ، و فسقوا بنسائهم و أولادهم، و قد كان الأشرف قد رأى قبل الكسرة النبي صلى الله عليه و سلم في المنام فوعده بالنصر عليهم ، فقال : يا موسى أنت منصور عليهم ، و مظفر بهم. او كما قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ، ثم سار الأشرف ، فاسترد بلاد خلاط و أوغل في طلب الخوارزمي في بلاده ثم رجع (١١٢).

و انقطع الحاج هذه السنة أيضا من الشام فصارت ثلاث سنين متوالية ، لانقطاع الحاج من الشام .

ثم دخلت

سنة ثمان و عشرين و ستمائة

في خلافة المستنصر بالله أبي جعفر بن الظاهر ، و سلطان دمشق
الأشرف بن العادل بن أيوب، و نائبه فيها أخوه الصالح بن العادل
ففي أولها: أحدثت الإمامة للصلوات الخمس بمشهد أبي بكر شرقي
جامع دمشق ، جعل له إمام راتب.

و فيها : ظهر الغلاء بالديار المصرية، فإن نيلها نقص في شوال سنة
سبع و عشرين ، و هو الموافق لشهر مسرى من شهور القبط.

و فيها : في صفر توفي الحكيم مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن
حامد المعروف بالدخوار ، شيخ الأطباء بدمشق في زمانه ، و هو الذي
وقف داره مدرسة للأطباء ، و هي بنواحي الصاغة العتيقة ، ومولده
بدمشق سنة خمس و ستين وخمسمائة . قال القوصي أنشدني الحكيم
الفاضل أبو الحسن بن التلميذ في الاسرائيلي صاحب المعبر:
لنا صديق يهودي حماقتة
إذا تكلم تبذو فيه من فيه
يتيه والكلب خير منه منزلة
كأنه بعد لم يخرج من التيه

و في صفر هذه السنة توفي أيضا مجد الدين البهنسي ، و اسمه :
الحارث بن مهلب بن حسن المهلبى حكى عن والده مقطعات من شعره
و غير ذلك ، و كان والده نحويًا أديبا فقيها ، و كان قد وزر للأشرف
بالشرق ، ثم نكب بحران و اعتقل مدة ، و كشف عليه في حلب

نعمته، ثم أفرج عنه ، و أقام بدمشق إلى أن توفي بها و دفن في التربة التي وقفها عليه أخوه بجبل قاسيون.

و فيها : في آخر ربيع الآخر سافرت إلى الديار المصرية ، فدخلت دمياط في جمادى الأولى ، و القاهرة و مصر في جمادى الآخرة، والاسكندرية في ذي الحجة

وفيهما: ولد أخي أبو محمد بن اسماعيل ، و فيها : في مستهل ذي الحجة توفي الزين النحوي يحيى بن معطي الزواوي رحمه الله بالقاهرة وأنا بها ، و صلي عليه بجنب القلعة عند سوق الدواب ، و حضر الصلاة عليه السلطان الكامل بن العادل ، و دفن بالقرافة في طريق قبة الشافعي رحمه الله ، على يسار المار إليها على حافة الطريق محاذيا لقبر أبي إبراهيم المزني رحمه الله ، حضرت دفنه ، و الصلاة عليه ، وكان آية في حفظ كلام النحويين .

و فيها توفي الزين الكردي أبو عبد الله محمد المقرئ ، و كان من أصحاب الشيخ أبي القاسم الشاطبي رحمه الله ، توفي بدمشق ، و أخذ مكانه في الجامع شيخنا أبو عمرو بن الحاجب ، و حج بالناس في هذه السنة من الشام ، و مصر، و فيها حج شيخنا ابن الصلاح ثم انقطع الحاج بعد السنة وفيها توفي الملك القاهر تاج الملوك اسحق بن العادل ، والله أعلم .

ثم دخلت

سنة تسع و عشرين و ستمائة

و أنا بالاسكندرية في خلافة المستنصر بن الظاهر بن الناصر، و سلطان دمشق الأشرف بن العادل ، و في الديار المصرية أخوه الكامل بن العادل .

ففيها: رجعت إلى دمشق في سابع ربيع الآخر ، فوجدت العماد المحلي مريضا ، و مات في تلك الأيام ليلة الأربعاء عاشر شهر ربيع الآخر ، و اسمه: حسام بن غزي بن يونس ، و كان ظريفا شاعرا حسن المحاضرة ، و دفن في مقابر الصوفية ، حضرت دفنه ، و له ترجمة حسنة في معجم القوصي .

و في مستهل جمادى الأولى مات صاحبنا أبو القاسم بن ابراهيم ، المعروف بالعلم ابن النحاس، و دفن بالجبل حضرت الصلاة عليه ، و كان شابا حسنا دينا حسن الخلق ، و السمت رحمه الله .

و فيها: في تاسع جمادى الأولى توفي القاضي شرف الدين اسماعيل بن ابراهيم بن أحمد الشيباني الحنفي ، المعروف بابن الموصلي ، و دفن بالجبل حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق ، و مولده في رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة أربع و خمسمائة ، و أجاز لي جميع ما يرويه ، و كان شيخا دينا لطيفا .

و فيها : في إحدى الجمادين عزل القاضي الشمسان الخوئي و ابن سني الدولة، و ولي مكانها قاضي القضاة العماد عبد الكريم بن الحرستاني، و عزل في سنة إحدى و ثلاثين و ستمائة، و تولى ابن السني .

و فيها : وصل إلينا الخبر بوفاة الشيخ ابن عيسى بالاسكندرية،
وكانت له مسموعات كثيرة على الحافظ السلفي ، وغيره و أجاز لي
جميع ما يرويه .

و فيها : توفي الجمال بن الحافظ عبد الغني الحنبلي ، و دفن بالجليل،
و فيها : توفي ضياء الدين عيسى بن الفقيه أبي الحسن بن سيدهم المصري
و يعرف أبوه بصمد يعقوب ، بدمشق عند يوسف بن أبي الحسن ، و
كان كما أخبرني أديبا فاضلا و من شعره:
أرسلت من كبد لما رميت به
ماسار من كبد إلا إلى كبد

و أجازني المستنصر بن الظاهر بن الناصر و أنا بدمشق . ففيها
أنشئت دار تعرف أولا بدار قايماز النجمي وولي الاشتغال فيها مستهل
رمضان قدومه من الحج ، و لبث إذ ذاك بمصر ، و كان قد أنشدني
لأخيه :

القوس ابنه افغدت تن
والأم قد تخنوع على الولد

من الأبيات الفائقة .

ثم دخلت

سنة ثلاثين و ستائة

في خلافة المستنصر

و فيها : تم بناء دار الحديث الجديدة التي أنشأها الأشرف موسى بن أبي بكر بن أيوب.

و في هذه السنة توفي جماعة من السلاطين منهم : المغيث بن المغيث ابن العادل ، و العزيز عثمان بن العادل ، و ابنه . توفي العزيز عثمان ليلة الحادي عشر من رمضان ، و توفي المغيث في حصار حصن كيفا في المحرم ، و مظفر الدين صاحب إربل و غيرهم ، مولد العزيز عثمان في ربيع الآخر سنة ست و تسعين و خمسمائة ، و مات بالنعيمة . (١٢٢)

ثم دخلت

سنة إحدى و ثلاثين و ستمائة

ففيها : تو في بهاء الدين بن أبي اليسر في خامس عشر المحرم، ومولده
سنة خمس و ستين و خمسمائة

و فيها مات الشيخ أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم
التغلبى المعروف بالسيف الأمدى، و دفن بجبل قاسيون رابع صفر
وكان حسن الأخلاق ، كبير القدر في معرفة الأصولين ، و الجدل،
والخلاف، و المنطق، و علوم الأوائل ، و صنف فيها كتباً كثيرة .

و فيها : في شعبان توفي القاضي عبد الرحيم بن محمد بن عساكر ،
روى عن محمد و غيره، و مولده سنة تسع و خمسين و خمسمائة بدمشق
في رمضان المبارك .

و فيها : في شعبان أيضاً توفي بالموصل العز علي بن محمد بن عبد
الرحيم الجزري المعروف بابن الأثير المؤرخ ، صاحب المصنفات ولد سنة
خمسین و خمسمائة . و فيها : ولدت أم الحسن فاطمة بنت عبد الرحمن
ابن اسماعيل في الثالث و العشرين من شوال جعلها الله ذرية مباركة .

و فيها : جاءنا الخبر إلى دمشق بوفاة الشيخ العالم الزاهد أبي عبد الله
محمد بن عمر بن يوسف القرطبي بمدينة رسول الله صلى الله عليه
وسلم في شهر صفر من هذه السنة ، و صلى عليه الشرف محمد بن أبي
الفضل المرسى، و أخبرني بدمشق أن وفاته كانت مستهل شهر صفر سنة
إحدى و ثلاثين و ستمائة ، و دفن بالبقيع قريباً من قبر عثمان رضي الله
عنه ، و كنت اجتمعت به بالمدينة و بمصر ، و أجاز لي رواية ما يصح
عنه روايته ، و كان إماماً قدوة له قبول عند أهل الآخرة ، و أهل الدنيا .

و فيها : تو في عندنا بدمشق النجم التفليسي ، و اسمه ثابت بن ناوان ، و كان كبير المحل ، حسن الأخلاق مشغلا بعلم الشريعة والطريقة ، ودفن في مقابر الصوفية ، و فيها: توفي الزين بن قفرجل ، والشمس ابن قوام * و كانا من خيار عدول البلد ، و في ليلة الجمعة خامس شوال توفي البرهان أبو الحسن اسماعيل بن أبي جعفر بن علي القرطبي إمام الكلاسة ، و دفن من الغد بجبل قاسيون عند قبر والده ، وكانت له جنازة عظيمة . سمع على الحافظ أبي القاسم بن علي و علي غيره ، و حضرت دفنه والصلاة عليه ، و كان في حياته منقطعا بالمنارة الشرقية مشغلا بالطهارة و الصلاة . ثم مات الشيخ عبد الله الأرمني ، و كان شيخا صالحا منقطعا بالجبل بعد البرهان بخمس عشرة ليلة او نحوها ، و كانت له جنازة حفلة رحمه الله . ثم جاءنا الخبر في هذه السنة من حلب بوفاة الفقيه العالم نجم الدين بن الخباز ، و كان مشهورا بالعلم ، و اللطف ، والتواضع رحمه الله .

و في هذه السنة أحدثت القيسارية التي وراء سوق النحاسين ، بفتح بابها إلى الزيادة ، و نقل إليها سوق الصاغة ، و كذلك ما أحدث من الدكاكين في وسط الزيادة ، كان في هذه السنة .

و فيها : وقعت وقعة بين سلطان الروم و بين ابن أيوب .

و لم يحج في هذه السنة إلا من اليمن أو من ركب البحر من مصر .

ثم دخلت

سنة اثنتين و ثلاثين و ستمائة

ففيها : توفي الشهاب ابن عصرون في ليلة الثامن و العشرين من المحرم و هو : أبو العباس عبد الله بن المطهر بن شرف الدين أبي سعد ، و في المحرم توفي البدر الوكيل بمجلس الحكم ، و اسمه : عبد المولى بن عبد السيد بن ابراهيم ، و دفن بالجليل ، روى عنه القوسي في معجمه.

و فيها : توفي القاضي بهاء الدين بن شداد بحلب ، و اسمه يوسف ابن رافع بن تميم ، و كان من رؤسائها و كان للناس به نفع ، و كنت قد اجتمعت بآبن شداد بدمشق و أجاز لي جميع ما يرويه ، ثم سمعت عليه بمصر ، و عند قبة الشافعي رحمه الله تعالى سنة ثمان و عشرين و ستمائة ، و في هذه السنة جاءنا الخبر بموت صاحبنا صفي الدين حسن ابن أبي طالب البغدادي المقيم بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و كان شابا فاضلا ، أدبيا . كتب لصاحب المدينة ثم و زر له . و اشتد على قمع المفسدين بها فوثب عليه ليلة العشر من ذي الحجة سنة إحدى و ثلاثين جماعة من سفهاء على باب مسجد المدينة ، على ساكنها السلام ، قبيل العشاء الآخرة فضربوه بأسيا فهم حتى قتلوه ، و هو داخل من باب المسجد ، أخبرني بذلك الشيخ أبو الفضل المرسى ، قدم علينا في هذه السنة ، و كنت قد اجتمعت بهذا الشهيد رحمه الله بدمشق مرارا ، و بالمدينة في حجتي سنة إحدى و عشرين و اثنتين و عشرين و ستمائة .

و في مستهل سنة اثنتين و ثلاثين توفي الشهاب السهروردي ببغداد ، و كان كبير القدر و الشأن ، و له تصانيف في علم التصوف ، و قدم دمشق مرارا و أنا بها صغير ، و عقد بها مجلس الوعظ و لم أره رحمه الله ،

ومولده سنة تسع و ثلاثين و خمسمائة ، و اسمه : عمر بن محمد بن عبد الله البكري .

و فيها : في ثالث جمادى الأولى ولد أخي عبد الحليم بن اسماعيل جعله الله مباركا.

و فيها : في سادس عشر شهر رجب المرجب، توفي الشيخ العدل أبو علي الحسن بن يحيى بن صباح المصري و دفن بالجبل ، حضرت الصلاة عليه بظاهر دمشق خارج باب الفراديس ، سمعت عليه أكثر الخلعيات ، و لي منه إجازة ، و مولده بمصر في جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، وكانت له ديانة ؛ وأصالة ، وأمانة ، وعدالة رحمه الله.

و في هذا الشهر خرب خان بالعقيبة ، كان كثير الفسق و الفساد ليجعل مسجدا تصلى فيه الجمعة ، فتم جامعا كبيرا حسنا سمي بجامع التوبة ، و ذلك في أيام الأشرف أبي الفتح موسى بن أبي بكر بن أيوب . و هو المجدد أيضا لمسجد جراح خارج باب الصغير .

و في ليلة الأحد تاسع شعبان توفي التقي بن ماسوية ، و اسمه : أبو الحسن علي بن أبي الفتح المبارك بن الحسن بن أحمد بن ماسوية ، بدمشق ، و دفن بباب الصغير ، و كنت مريضا تلك الأيام فلم يقدر لي شهود جنازته ، و كان شيخا خيرا حسن الأخلاق متواضعا لطيفا مشهورا بالقراءات ، سمع من الحازمي و غيره و أجاز لي رواية جميع ما يرويه ، و ذكر لي أنه ولد سنة ست و خمسين و خمسمائة رحمه الله .

ثم دخلت

سنة ثلاث و ثلاثين و ستائة

ففيها: توفي أبو الخطاب عمر بن دحية المحدث في ليلة الثلاثاء رابع ربيع الأول بالديار المصرية ، و لي منه إجازة

و فيها : توفي البهاء الأراني ، و اسمه عبد الخالق بن الشافعي ، وكان شيخا متدينا عالما مشهورا ببلاده ، ثم انتقل إلى دمشق في آخر عمره ، و مات بها في خامس عشر شوال من هذه السنة و دفن بالجبل ، حضرت الصلاة عليه وشيعته إلى المصلى بباب الفراديس.

و فيها : في ذي القعدة وصل إلينا خبر موت خطيب جامع مصر الشيخ الفقيه الدين ، أبو الطاهر محمد بن عبد الرحمن الجابري ، من ولد جابر بن عبد الله الأنصاري ، رضي الله عنه، و اشتهرت نسبته بالمحلي،

و كان من أصحاب الشيخين الشاطبي ، و القرشي، و كنت اجتمعت به في مصر غير مرة رحمة الله عليه، ولد سنة أربع و خمسين و خمسمائة .

و فيها : مات أبو علي الحسن بن اسماعيل المعروف بالقيلوي البغدادي ، ذكره القوصي في معجمه.

ثم دخلت

سنة أربع و ثلاثين و ستمائة

ففي ثالث منها توفي الناصح بن الحنبلي الواعظ ، واسمه: عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب من ولد سعد بن عبادة الأنصاري، وكان واعظا متفننا، وله مصنفات . وله بنيت المدرسة التي بالجبل ، للحناابلة رحمه الله و مولده سنة أربع و خمسين و خمسمائة ، و مات أخوه شهاب الدين عبد الكريم بن نجم ثامن ربيع الأول سنة تسع و عشرين و ستمائة ، و مولده سنة سبع و خمسين و خمسمائة .

و فيها: جاءنا الخبر بموت أبي عمرو عثمان بن دحية بالقاهرة ، وهو أخو أبي الخطاب المقدم ذكره، رحمه الله.

و فيها : قدم دمشق الشيخ الفاضل الأصيل القاضي أبو مروان محمد ابن أحمد بن عبد الله بن عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن سريعة بن رفاعة بن صخر بن سماعة اللخمي الأندلسي الإشبيلي ، من بيت كبير من الأندلس ، يعرف بيت الباجي مشهور به، كثير العلماء و الفضلاء . أصلهم من ناحية القيروان ، و ليس منهم أبو الوليد الباجي الفقيه ، ذاك بيت آخر من ناحية الأندلس ، قدم أبو مروان حاجا من بلاده في البحر إلى عكا من ساحل دمشق ، ثم دخل دمشق سادس شهر رمضان من هذه السنة ونزل عندنا بالمدرسة العادلية ، و جده الأعلى أحمد بن عبد الله بن محمد ابن علي قدم الديار المصرية و حج منها و معه ولده محمد بن أحمد، ويعرف بصاحب الوثائق ، و سمعوا بها جماعة من العلماء ، و ذكر أبو عبد الله الحميدي أحمد بن عبد الله هذا في تاريخه « جذوة المقتبس » وكناه أبو عمر ، و ذكر أنه سكن اشبيلية و أثنى عليه كثيرا و قال: مات

في حدود الأربعمئة ، روى عنه أبو عمر بن عبد البر وغيره ، و أبوه عبد الله بن محمد بن علي يعرف بالراوية ، و ذكره الحميدي أيضا ، و ذكر ابن بشكوال في كتاب الصلة : عبد الملك بن عبد العزيز جد هذا الشيخ القادم ، و أثنى عليه ، و قال : توفي في سنة اثنتين و ثلاثين وخمسمئة ، (١٢٣) و كان هذا أبو مروان سلمه الله حسن الأخلاق ، فاضلا ، متواضعا ، محسنا ، و سمعته يقول و قد سئل في إعارة شيء فبادر إليه بنفسه ، ثم قال : أنا عندي في قوله تعالى : (و يمنعون الماعون) (١٢٤) هو كل شيء و استفدنا من هذا الباجي فائدة جليلة ، و هو معاينة قدر مد النبي صلى الله عليه وسلم فإنه عندهم متوارث ، و قد أخبر عن ذلك أبو محمد بن حزم في كتابه « المحلى » و عايرته الحمد لله أنا بدمشق حينئذ و هو الكيل الكبير فوجدت مدنا يسع صاعين إلايسيرا ، و وجدته ممسوحا يسع صاعا و نصفا أو شيئا فيكون مدان ممسوحان ثلاثة أصع زائدة ، عندي طاسة بيضاء صغيرة عايرتها به فوجدتها تسع مدين و هما نصف صاع . قرأت في كتاب « المحلى » لابن حزم : و خرط لي مد على تحقيق المد المتوارث عند آل عبد الله بن علي الباجي ، و هو عند أكبرهم لا يفارق داره ، أخرجني إلي - يعني - الذي كلفته ذلك عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن علي المذكور ، و ذكر أنه مد أبيه ؛ و أن جده أخذه و خرطه على مد أحمد بن خالد ، و أخبر أحمد بن خالد أنه خرطه على مد يحيى الذي أعطاه إياه ابنه عبيد الله بن يحيى ، و خرطه يحيى على مد مالك ، قال أبو محمد : و لا شك أن أحمد بن خالد صححه أيضا على محمد بن وضاح ، الذي صححه ابن وضاح بالمدينة . قال أبو محمد : ثم كلته بالقمح الطيب ثم وزنته فوجدته رطلا واحدا و نصف رطل بالفلقي ، لا يزيد حبة ، و كلته بالشعير إلا أنه لم يكن بالطيب ، فوجدته رطلا واحدا و نصف أوقية ، و سألت عن الرطل الفلقي فقل لي هو ست عشرة أوقية ، كل أوقية عشرة دراهم ، و في تقدير ابن حزم نظروا ، والله أعلم .

توفي هذا الشيخ رحمه الله بمدينة القاهرة سنة خمس و ثلاثين بعد رجوعه من الحج ، أتانا خبره بدمشق. و في هذه السنة جاءنا الخبر بأن الكفار من الترك ، و هم التاتار خذلهم الله ملكوا مدينة إربل و فعلوا فيها ما هي عادتهم في البلاد التي أخذوها قبل ، و كان دخولهم أيضا في التاسع و العشرين من شوال سنة أربع و ثلاثين ، ثم هزمهم الله و شردهم على يدي عسكر الخليفة المستنصر بالله أبي جعفر المنصور بن الظاهر بن الناصر .

و فيها : في الساعة الأولى من يوم الاثنين الخامس و العشرين من ذي القعدة سنة أربع و ثلاثين و ستمائة ولد لي مولود سميته محمد، وكنيته أبا الحزم، جعله الله مباركاً ذرية طيبة ، ثم مات في أواخر جمادى الأولى سنة ثلاث و أربعين و ستمائة ، و له ثماني سنين و نصف رحمه الله .

و في هذه السنة : توفي جماعة من الملوك منهم: ملك حلب وأعمالها الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، و منهم صاحب بلاد الروم علاء الدين في خامس شوال.

وانقطع الحاج هذه السنة من ناحية العراق ، و خرج الحاج من الشام، و جرت عليه نكبة شديدة من جهة العطش بأرض بسيط قبل وصولهم سجر (١٢٥) بنحو ثلاث مراحل

ثم دخلت

سنة خمس و ثلاثين و ستمائة

ففي رابع المحرم منها توفي بقلعة دمشق السلطان الملك الأشرف أبو الفتح موسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، و دفن بالقلعة إلى أن بنيت تربته جوار كلاسة الجامع فنقل إليها ، و تولى دمشق بعده بعهد منه أخوه الملك الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب .

و فيها: توفي الشمس محمد بن عبد الكريم بن رزمين البعلبكي النحوي فجأة ، رحمه الله و رضي عنه.

و في أواخر ربيع الأول حوصرت دمشق، و فيها الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب ، حاصره الكامل أخوه و ابن أخيه الناصر داوود بن عيسى بن أبي بكر ، فجرى نحو الحصار المتقدم سنة ست و عشرين ، إلا أن هذا الحصار كان أكثر خرابا في ظاهر البلد و حريقا و مصادرة ، و أقل غلاء ، و لم تطل مدته فإن الصلح جرى في أوائل جمادى الأولى من السنة يوم الأربعاء، ووافق اليوم الذي كسرت فيه الفرنج على دمياط ، واليوم الذي فتحت فيه آمد . كل ذلك يوم الأربعاء

و في يوم الأحد الآتي بعد يوم الصلح توفي خطيب دمشق جمال الدين محمد بن أبي الفضل بن ياسين الدولعي ، قلت: و توفي الدولعي يوم الأحد رابع عشر جمادى الأولى من السنة ، و دفن بجيرون في مدرسته التي أنشأها ، و تولى مكانه في التدريس بالزاوية الغربية الشيخ الفقيه عبد العزيز بن عبد السلام ، وولي الخطابة بعده الكمال بن طلحة في أواخر شعبان.

و فيها : في ليلة الخميس ثاني عشر جمادى الآخرة توفي القاضي

شمس الدين محمد بن هبة الله بن الشيرازي ، و دفن من الغد في الجبل ، و قد بلغ من العمر ستا و ثمانين سنة أو نحوها ، و كان آخر المشهورين بالرواية عن الحافظ أبي القاسم بن عساكر، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق ، و شيعته إلى مصلى باب الفراديس عند مسجد فيروز رحمه الله و رضي عنه ، و لقد كان حسن الأخلاق ، طلق المحيا ، عالما بمذهب الشافعي مفتيا فيه ، تولى القضاء ببيت المقدس ، ثم بدمشق مرارا .

و في ليلة الاثنين سادس جمادى الآخرة أمر السلطان الملك الكامل أن لا تصلى في المسجد الجامع صلاة المغرب إلا خلف إمام واحد ، و هو خطيب الجامع ، و أبطل ما عداه من أئمة الحنفية ، و الحنابلة و المشهدين و ذلك لما كان في إمامتهم من التشويش على المصلين في صلاة المغرب ، لأنهم يسرعون في الصلاة جملة بخلاف غيرها من الصلوات ، لأنهم يكونون فيها متروين .

وفيها : جاءنا الخبر بوفاة العز بن الماسح توفي ليلة التاسع من جمادى الأولى وهو : أبو الحسن علي بن نصر الله بن علي بن الحسن بن الحسن ابن أحمد الكلالي الدمشقي بمصر ، و كان فقيها ، فاضلا من أهل بيت علم دمشقي الأصل ، و كان قد ولي التدريس بجامع السراجين بالقاهرة .

و فيها : يوم الجمعة سادس رجب توفي أمين الدين بن قوام ، و كان من خيار عدول البلد ، و أصله من الرصافة ، و فيها: ليلة الخميس الثاني و العشرين من رجب توفي بقلعة دمشق السلطان الملك الكامل بن العادل محمد بن أبي بكر بن أيوب ، و كانت مدة ملكه بدمشق شهرين ونصف تقريبا ، و كان بينه و بين موت أخيه الملك الأشرف ستة أشهر وسبعة عشر يوما ، فسبحان من لا يزول ملكه ، و دفن بقلعة دمشق إلى

أن بنيت تربته جوار الجامع شماليه بين دويرتي السمساطي (١٢٦) ،
ونقل إليها ليلة الجمعة الحادي و العشرين من شهر ربيع الأول سنة
سبع و ثلاثين و ستمائة ، و تولى دمشق و الديار المصرية بعده ولده
العادل . وكان نائبه بدمشق الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود
ابن العادل بن أبي بكر بن أيوب ، و تولى بلاد الجزيرة ، و ديار بكر ،
وربيعة ولد الكامل الملك الصالح نجم الدين أيوب بن محمد .

وفيها : في سادس شعبان توفي القاضي زين الدين عبد الله بن عبد
الرحمن بن عبد الله بن علوان الأسدي ، عرف بابن الأستاذ بحلب ، وهو
قاضيها يومئذ بعد القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم المعروف
بابن شداد الموصلية رحمه الله ، و كان فاضلا ، علما ، رئيسا حسن
السمت و الخلق عفيفا قدم دمشق مرات و كان أبوه من الصالحين .

و فيها : في خامس ذي القعدة توفي القاضي شمس الدين يحيى بن
هبة الله المعروف بابن سني الدولة ، قاضي قضاة دمشق يومئذ ، و دفن
بالجبل ، و كان كبير السن و له جنازة حفلة ، حضرت الصلاة عليه
بالجامع و شيعته إلى باب مصلى باب الفراديس رحمه الله ، و كان تولى
القضاء بالقدس الشريف قديما ، ثم تولى نيابة القضاء بدمشق مرات
من قبل الزكي الطاهر بن علي ، و من قبل الجمال عبد الصمد بن
الحرستاني ، ثم وليه شركة مع الشمس الخوئي مدة ، ثم عزلا وولي
العماد عبد الكريم بن عبد الصمد بن الحرستاني ، ثم عزل ابن الحرستاني
وولى ابن سني الدولة استقلالا ، فلم يزل قاضيا حتى توفي في التاريخ
المذكور ، و تولى بعده استقلالا شمس الدين أحمد بن الخليل الخوئي ،
فعدل جماعة من أهل البلد منهم كاتب هذه الأحرف أي منشيء ،
الكتاب ، تولى الخوئي يوم الاثنين سابع ذي القعدة المذكورة . و فيها :
توفي الشيخ أبو العباس بن القسطلاني بمكة شرفها الله تعالى و دفن
بالمعلاة رحمه الله .

و فيها : تولى كمال الدين بن طلحة الخطابة بجامع دمشق و خطب
يوم الجمعة الحادي و العشرين من شعبان. و في آخر سنة خمس قبض
على الصفي ابراهيم بن مرزوق ، و استصفي جميع ماله ، و أودع
السجن، ثم نقل إلى سجن حمص ، و انقطع خبره إلى جمادى الأولى
سنة تسع و ثلاثين و ستائة ، ثم إنه أخرج من سجن حمص و قدم إلى
دمشق .

وفيهما: قدم دمشق أبو الفضل جعفر الهمداني ، من أهل الاسكندرية
من أصحاب السلفي و سمع عليه بها.

ثم دخلت

سنة ست و ثلاثين و ستمائة

وسلطان دمشق الجواد يونس بن مودود بن أبي بكر بن أيوب ،
وبالأراضي المقدسة و أعمالها الناصر داوود بن عيسى بن أبي بكر بن
أيوب ، و بالديار المصرية العادل أبو بكر بن محمد بن أبي بكر بن
أيوب.

و فيها : توفي شيخ أصحاب أبي حنيفة بدمشق جمال الدين محمود
ابن أحمد بن عبد السيد البخاري ، المعروف بالحصيري، و كان رحمه الله
مسنا فقيها دينا متواضعا، مولده ببخارى في جمادى سنة ست و أربعين
وخمسمائة ، و قدم دمشق فتولى تدريس النورية في سنة إحدى عشرة،
وكان بها الشريف داوود بعد برهان الدين مسعود ، و توفي ثامن صفر
من هذه السنة و دفن بمقابر الصوفية على حافة الطريق ، و بني قبره
بحجارة، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق تحت النسر بصحن الجامع
المعمور، و كانت له جنازة حفلة رحمه الله .

و فيها : في السادس و العشرين من صفر توفي بدمشق الشيخ أبو
الفضل جعفر بن علي بن أبي البركات بن جعفر بن يحيى الهمداني
المقرئ المحدث من أصحاب الشيخ الحافظ أبي الطاهر السلفي ، و كان
قدم دمشق في صحبة الناصر داوود بن المعظم عيسى بن العادل أبي بكر
ابن أيوب ، و بلغ رحمه الله من السن نحو تسعين سنة، و دفن بمقابر
الصوفية قريبا من قبر النجم ثابت بن تاوان التفليسي رحمه الله،
حضرت الصلاة عليه خارج باب النصر ، و شيعته إلى المقبرة المذكورة
المطللة على وادي بردى ، و كنت قد رأيته بجامع الاسكندرية عمرها الله
سنة كنت بها، و هى سنة ثمان و عشرين و ستمائة في آخرها ، ثم رأيته
بدمشق و أجاز لي و لولدي محمد و فاطمة رواية جميع مروياته.

وفيها: في السادس والعشرين من جمادى الأولى توفي الشيخ عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ صدر الدين علي بن حموية ، قفز عليه ثلاثة نفر داخل قلعة دمشق، فقتله أحدهم ، و دفن في الغد بجبل قاسيون، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق وشيعته إلى مسرح سوق الخيل والغنم، وكانت له جنازة حفلة ، و كان من بيت علم و تصوف و إمرة رحمه الله ، و كان من أعيان المتعصبين لمذهب الأشعري ، ومولده يوم الاثنين سادس عشر شعبان سنة إحدى و ثمانين و خمسمائة بدمشق .

وفيها : في مستهل جمادى الآخرة قدم دمشق مالكا لها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب، و استوزر الصاحب جمال الدين علي بن حريز ، و حاصر حمص و قصد الديار المصرية.

و فيها : توفي السيد أبو الفتيان بن عبد الرزاق الموصي إليّ في حق ولده عبد الله، يوم الأربعاء ثامن عشر جمادى الآخرة ، و دفن على أبيه بباب الصغير، و كان حج سنة عشر و ستمائة صحبة والدي رحمه الله. وهي حجة والدي الأولى من أربع حججات، و مولده على ما رأيته بخط عمي أبي القاسم رحمه الله، قال: ولد أبو الفتيان بن الشيخ الأمين السيد أبي القاسم بن عبد الرزاق في العشر الأول من رجب سنة ثلاث و تسعين وخمسمائة . وفي الليلة المذكورة حج والده إلى مكة حرسها الله.

وفيها : يوم الجمعة سابع و عشرين جمادى الآخرة توفي الصاحب جمال الدين علي بن سلامة بن البطين بن جرير الرقي ، و كان وزيرا للأشرف ، ثم وزر للصالح بن الكامل ، و دفن بمقابر الصوفية .

و فيها ظهر بدمشق غلاء شديد لم يعهد بمثله قبلها على ما ذكره

المشايع ، بلغت غرارة الخنطة خمسة و عشرين دينارا بالمصرية ، و ذلك مائتا درهم و خمسة و عشرون درهما ، و زاد رطل الخبز الخرجي على درهم ، و جميع أنواع المطعومات غلت ، ثم إن الأسعار أخذت في الارتقاء في أواخر هذه السنة و الحمد لله تعالى.

وفيهما توفي الحافظ زكي الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد البرزالي الاشبيلي بحمة رابع عشر رمضان ، جاءنا خبره إلى دمشق، وكان رحمه الله معتنيا بعلم الحديث ، مفيدا لأصحابه ، متواضعا أقام بدمشق سنين كثيرة بمسجد فلوس و غيره ، و كان شيخ الزاوية بمشهد ابن عروة في الحديث ، ثم سافر في هذه السنة إلى حلب ، فلما رجع إلى حماة توفي رحمه الله.

ثم دخلت

سنة سبع و ثلاثين و ستائة

وسلطان دمشق الملك الصالح أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب،
وبمصر أخوه لأبيه العادل أبو بكر سيف الدين.

ففيها : في أولها مات الشيخ شمس الدين أبو طالب محمد بن عبد
الله بن صابر السلمي . عرف بابن سيده، من أهل بيت كبير من دمشق
من أهل العلم و الحديث و التصوف ، و صحب الشيخ عتيقا و غيره
رحمه الله ، كان يخضب ، و ليلة عاشوراء مات التقي محمد بن طرخان
ابن أبي الحسن الصالح الحنبلي، و كان من المشهورين برواية الحديث

وفيهما: توفي الضياء بن الأثير بالمورقة من بغداد و هو مرسل إليها،
وهو صاحب «المثل السائر» و «الوشي المرقوم»، و كان قد وزر للأفضل.

وفيهما : نقل الملك الكامل من مدفنه بقلعة دمشق إلى تربته شمالي
الجامع ، في ليلة الجمعة الحادي و العشرين من ربيع الأول .

وفيهما: يوم الثلاثاء التاسع و العشرين من صفر قدم دمشق صاحب
بعلبك و حمص الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي،
والمجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذي ، فدخلا بعسكر و
جند عنوة من غير حصار ، و في الغد ملكا القلعة ، و خربت بذلك دار
الحديث الأشرفية وغيرها من الدور و الخوانيت تحت القلعة، و كان
بقلعة دمشق المغيث بن الصالح بن الكامل بن العادل بن أيوب، وكان
أبوه الصالح ببلاد فلسطين نازلا بنابلس في عسكر له، تقدم أوله إلى غزة
على عزم أخذ الديار المصرية من أخيه العادل بن الكامل ، فانفض عنه
جمعه لما بلغهم أخذ دمشق من ولده، و رجعوا إلى دمشق و بقي في جمع

قليل ، فأخذه ابن عمه الناصر بن داوود بن عيسى بن أبي بكر فسجنه بقلعة الكرك إلى أواخر رمضان من هذه السنة ، فأخرجه الناصر واتفقا وقصدا الديار المصرية فأخذها و قبضا على العادل بن الكامل ، وكان دخولهما مصر في ذي القعدة من هذه السنة ، ثم رجعا إلى دمشق في ذي القعدة سنة اثنتين و أربعين و ستمائة .

وفيها : توفي في المدرسة العادلية الفصيح محمد بن أبي النجم بن البطريق الشاعر الجزري الأديب ، و له شعر حسن فائق رحمه الله .

و فيها : في شهر رجب المرجب توفي صاحب حمص الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادي بحمص ، و جاء الخبر إلى دمشق ، و عمل له العزاء بها بجامع دمشق في الحادي والعشرين من رجب رحمه الله

وفيها : توفي بعد صلاة الظهر من يوم السبت سابع شعبان قاضي القضاة بالشام يومئذ شمس الدين أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر الخوئي الشافعي بالمدرسة العادلية، و دفن من الغد بجبل قاسيون، حضرت دفنه و الصلاة عليه ، و كان مولده سنة اثنتين و ثمانين وخمسمائة فيما قرأته بخط ولده محمد ، و كان رحمه الله حسن الأخلاق لطيفا ، كثير الانصاف ، عالما فاضلا في علوم متعددة جمة ، محققا عفيفا متواضعا كثير المداراة محببا إلى الناس ، و كانت له جنازة حفلة، وصنف تصانيف من جملتها عروض هو عندي بخطه فقلت فيه:

أحمد بن الخليل أرشده الله

لما أرشد الخليل بن أحمد

ذاك مستخرج العروض وهذا

مظهر السر منه والعود أحمد

و من لطفه ما قاله بالملئذنة الشرقية من اجتماع الفقر و القناعة أنه

قال : ما أقدر على إمساك المناصب ، و تولى القضاء بعده بدمشق والتدريس بالمدرسة العادلية رفيع الدين عبد العزيز بن عبد الواحد بن اسماعيل بن عبد الهادي بن عبد الله الجيلي الشافعي ، و كان قاضي بعلبك قبل ذلك لكن ظهر منه سوء سيرة و عسف وفسق وجور ومصادرة في الأموال لا سماحه الله .

و فيها : في العشر الآخر من ربيع الآخرة تولى الخطابة بدمشق أحق الناس بالأمانة يومئذ الشيخ الفقيه عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم السلمي ، مفتي الشام يومئذ ، ناصر السنة ، قامع البدعة . قلت ذكر العز بن عساكر في المياومات أنه تولى ابن خلكان خطابة دمشق في يوم الأربعاء ثالث شهر ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين وستمائة والله اعلم. وفي ربيع الآخر يوم الأحد رابع عشره كانت وقعة الهيجاوي مع الفرنج على غزة و قتل ابن علكان .

و فيها : توفي العلم العطار الإشبيلي المحدث ، و كان فاضلا دينيا في شوال من هذه السنة ، و الصفي بن المركب في يوم واحد ، و دفنا بمقبرة الصوفية ، حضرت دفنهما و الصلاة عليهما .

و في سادس عشر ذي القعدة في شهر حزيران في أيام المشمش ، جاء مطر عظيم نهارا جرت منه سيول عظيمة هدمت كثيرا من الحيطان والبيوت ، و كنت يومئذ بأرض المزة.

و فيها : توفي بمكة الفقيه علي الطبري خطيب مكة ، و إمام المقام رحمه الله تعالى .

- ٩٣١٠ -

ثم دخلت

سنة ثمان و ثلاثين وستائة

في خلافة المستنصر بالله ، و سلطان دمشق الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب ، و بمصر ابن أخيه الصالح أيوب بن محمد بن أبي بكر ابن أيوب .

ففيها : سلم حصن شقيف أرنون إلى الفرنج خذلهم الله تعالى سلطان دمشق ، و أنكر ذلك عليه شيخا الشافعية و المالكية بدمشق ابن عبد السلام ، و أبو عمرو ، فعزل ابن عبد السلام عن خطابة دمشق بذلك السبب ، و سجننا بقلعة دمشق ، و تولى الخطابة بجامع دمشق ، و التدريس بالزاوية الغربية خطيب بيت الأبار عماد الدين داوود ابن يوسف المقدسي الشافعي .

و فيها في ثاني عشر ربيع الأول توفي الملك المظفر أبو الخطاب تقي الدين عمر بن الملك الأجد صاحب بعلبك بأرض نوى ، و حمل إلى دمشق ، و دفن بتربة والده و جده بالشرف الشمالي ، و كان له نظم حسن كأبيه ، ذكره القوصي في معجمه .

وفيهما : في ثالث عشر ربيع الأول توفي والذي رحمه الله و دفن على أبيه بباب الفراديس ، و فيها : في الثاني و العشرين من ربيع الآخر توفي بدمشق المحيي بن العربي و اسمه : محمد بن علي بن محمد بن العربي ، أبو عبد الله الطائي الحاتمي ، قرأته من خطه و ذكره الزيني في تاريخه ، و دفن بمقبرة القاضي محيي الدين بجبل قاسيون ، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق يوم الجمعة ، و شيعته إلى الميدان بسوق الغنم ، و كانت له جنازة حسنة ، و له تصانيف كثيرة ، و كانت عليه سهلة ، و له شعر

حسن ، و كلام طويل على طريق التصوف و غيره ، و هو من بلاد
الأندلس ، طاف البلاد شرقا و غربا ، و أقام بمكة مدة

و في ثالث شعبان كسرت الخوارزمية بنواحي حلب .

و فيها : أسمعت ولدي محمدا الحديث في مستهل ذي الحجة من هذه
السنة .

وفيهما : توفي القاضي نجم الدين أبو العباس أحمد بن خلف بن راجح
المقدسي الشافعي ، المعروف بابن الحنبلي بدمشق في يوم الجمعة سادس
شوال سنة ثمان و ثلاثين و ستمائة ، و دفن بجبل قاسيون ، حضرت
ال صلاة عليه بجامع دمشق ، و كان شيخا فاضلا ، دينا عارفا في علم
الخلاف وفقه الطريقة ، حافظا للجميع بين الصحيحين للحميدي ،
و كانت له رحلة طويلة في طلب العلم إلى بلاد خراسان و العراق ، و كان
متواضعا حسن الخلق رحمه الله ، و كانت ولايته لقضاء دمشق نيابة عن
يونس بن بدران المصري ، و أحمد بن الخليل الخوئي ، و عبد الكريم بن
أبي الفضل الحرستاني ، و يحيى بن هبة الله بن سني الدولة ، و عبد
العزیز الجيلي إلى أن مات ، و درس بالمدرسة العذراوية ، و الصارمية
و الحسامية ، و الصالحية .

و فيها : توفي الشيخ سالم المغربي الهكوري الهيلاني ، هيلان نجد من
قبيلة هكورة ، المقيم ببيت الأبار ، و دفن بها في الرابع و العشرين من
ذي الحجة ، و كان من الصالحين .

و في آخر هذه السنة و أول التي بعدها ظهر نقصان المياه من السماء
و الأرض ، نقصت الأنهار ، و نقصت الآبار و هلك الزرع و الثمار .

ثم دخلت

سنة تسع و ثلاثين و ستمائة

في دولة المستنصر بالله ، و سلطان دمشق الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب ، و بمصر الصالح أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب ، و على الأرض المقدسة الناصر داوود بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب

ففيها : توفي العفيف بن يسار بن خلف بن سراج الشاغوري ، و كان شيخا مسنا ، عدلا ، مرضيا ، فقيها رحمه الله ، و ذلك في عاشر شهر صفر المظفر . و في ذلك اليوم أيضا توفي العفيف عرب بن عمر بن علي الشافعي ، و دفنا في مقبرة باب الصغير بعد صلاة الظهر ، حضرت دفنهما والصلاة عليهما .

و فيها : في نصف ربيع الآخر توفي المعلم الذي كان بمكتب جاروخ جوار المدرسة العادلية ، و كان يروي الثمانين للأجري عن الحافظ أبي الطاهر السلفي سماعا ، و قرأها لابني فسمعها عليه بقراءتي ، و كان شيخا ، أدبيا ، شاعرا ، له شعر لا بأس به ، رحمه الله .

و فيها : في الثالث و العشرين من شهر جمادى الأولى توفي المجد سليمان بن سالم بن مفلح العدل الفقيه الشافعي ، و دفن بمقبرة الصوفية رحمه الله تعالى .

و فيها : وصل إلى الديار المصرية شيخنا عز الدين بن عبد السلام ، وحصل له من سلطانها الصالح بن الكامل قبول عظيم على ما بلغنا ، وتولى الخطابة و القضاء بمصر .

و فيها : توفي الشيخ أبو طاهر إسماعيل بن ظفر بن أحمد النابلسي

بجبل قاسيون في رابع شوال ، و كان رحمه الله عنده سند عن اللبان عن أبي علي الحداد ؛ و عنده عن أبي سعيد الصفار ، عن الفراوي ، أنه سمعت ولدي عليه من الطريقتين من ثاني شوال، ثم توفي بعد الغد منه رحمه الله.

و فيها : توفي بالموصل الشمس بن الخباز النحوي الضرير في سابع رجب المرجب ، و الكمال بن يونس الفقيه في النصف من شعبان رحمه الله ، و كانا فاضلي بلدهما في فنهما.

و فيها: توفي بدمشق عبد الواحد الصوفي الذي كان قسا راهبا بكنيسة مريم نحو سبعين سنة ، أسلم قبل موته بأيام ، ثم توفي شيخا كبيرا بعد أن أقام بخانقاة السمساطي أياما ، و دفن بمقابر الصوفية، وكانت له جنازة حفلة حضرت دفنه و الصلاة عليه رحمه الله.

و فيها : في يوم عرفة تولى قاضي القضاة بمصر الشيخ عز الدين بن عبد السلام ؛ و جمع له بين الخطابة و القضاء ، و ذلك بعد وفاة القاضي شرف الدين الموقع ، ثم عزل نفسه مرتين و انقطع في بيته .

ثم دخلت

سنة أربعين و ستمائة

في خلافة المستنصر أبي جعفر المنصور بن الظاهر بن الناصر.

و سلطان دمشق الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب ، و بمصر أخيه الناصر داوود بن عيسى بن أبي بكر .

ففيها : في سابع عشر ربيع الأول توفيت الأتابكية زوجة الأشرف ، واسمها : بركات خاتون ابنة عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي ، و في ليلة وفاتها كان وقف تربتها و المدرسة بالجليل .

وفيهما : توفي الشيخ الصالح عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن الحسن ، يعرف بابن الدجاجة ، و يعرف جده بابن أبيه ، توفي ليلة الأحد الخامس و العشرين من المحرم ، أحد الرواة عن الحافظ أبي القاسم ابن عساكر محدث الشام ، سمع منه و هو ابن خمس و نحوها ، سمعت منه أنا و ولدي محمد أشياء من تصانيف الحافظ أبي القاسم و مروياته بسماعه لها منه و لله الحمد . و في ثالث عشر صفر توفي كمال الدين بن أحمد بن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية بأرض غزة ، و كان مقدم العساكر الصالحية يومئذ ، جاءنا خبره إلى دمشق

و في يوم الجمعة سادس عشر رجب سنة أربعين و ستمائة خطب بدمشق للإمام المستعصم بالله أحمد بن المستنصر بالله أبي جعفر المنصور ، لوفاة أبيه ، و عقد له مجلس العزاء يومئذ رحمه الله .

و فيها توفي زين الدين أبو زكريا المالقي بمدينة غزة رحمه الله ، و كان أديبا فاضلا ، و أسمعته عليه ولدي محمد صحيح مسلم .

و فيها : توفي يوم الجمعة سبلخ رجب الشيخ الزكي أبو اسحاق إبراهيم بن الشيخ المسند أبي طاهر بركات بن ابراهيم الخشوعي القرشي، و دفن بعد صلاة الجمعة بمقبرة باب الفراديس على أبيه و جده، حضرت الصلاة عليه و شيعته إلى قبره رحمه الله ، و كان شيخا، مسندا صالحا ، و لم يخلف بعده من يروي عن الصائين بن أبي الحسن هبة الله ابن الحسن بإجازة، ولا من يروي عن أخيه الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن مثله في الكثرة . سمعت عليه أنا وولدي أبو الحزم محمد ، و أم الحسن فاطمة أشياء من آمالي الحافظ و غيرها ، و لله الحمد .

ثم دخلت

سنة إحدى و أربعين و ستمائة

في خلافة المستعصم بالله

ففيها استولت التاتار لعنهم الله على بلاد الروم ، سهل الله عودها إلى المسلمين .

و فيها خطب بدمشق يوم الجمعة الرابع و العشرين من ربيع الأول للسلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب ، ثم قطع ذلك من السنة المذكورة .

وفيهما : في سابع عشر ربيع الآخر توفي الشمس بن المنجي و اسمه: أبو الفتوح عمر بن أسعد بن المنجي الحنبلي قاضي حران قديما ، و كان فقيها يدرس بالمدرسة السمسارية ، و تولى خدما ديوانية في الأيام المعظمية ، و كان يروي عن أبي المعالي بن صابر . و القاضي الشهرزوري، وابن أبي عصرون ، اسمعت عليه ولدي محمدا عنهم .

و فيها : في ثامن عشر ربيع الآخر توفي الشيخ أبو البركات ميمون الزموري المغربي الضرير ، و كان من عباد الله الصالحين ؛ فاضلا عالما بعلم الطريقة ، حسن المحاضرة ، و صلي عليه بجامع دمشق و دفن بجبل قاسيون شمالي مقبرة الشيخ عبد الصمد الدكالي في مغارة الدم، وتعرف تلك المقبرة بفقراء المغاربة ، حضرت الصلاة عليه رحمه الله .

وفيهما: توفي العز بن المنجي أخو الشمس في ذي القعدة من السنة، ودفن بمدرسته بالجبل ، ففيها : في خامس عشر جمادى الأولى توفي الشيخ الحافظ تقي الدين أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن الأزهر

الصريفي بني رحمه الله و دفن بجبل قاسيون ، حضرت الصلاة عليه
بجامع دمشق و شيعته إلى باب الفراديس ، و كان عالما بالحديث دينا ،
متواضعا رحمه الله ، سمع عليه ابني محمد .

و فيها : توفيت الشیخة أم الفضل كريمة بنت عبد الوهاب في
خامس عشر جمادى الآخرة . سمع عليها ابني محمد صحيح البخاري
وغيره ، بقراءتي و قراءة غيري .

و فيها : في الحادي و العشرين من رجب توفي المخلص عبد الواحد
ابن عبد الرحمن بن عبد الواحد بن هلال العدل الدمشقي بها ، و كان
أحد أصحاب الحافظ أبي القاسم ، و توفي بجبل قاسيون سمع عليه
ابني محمد أجزاء بقراءتي عليه و قراءة غيري .

و فيها : يوم الجمعة بعد الصلاة صبيحة عيد الأضحى قبض على
أعوان القاضي الرفيع الجليي الظلمة الأرجاس ، و كبيرهم الموفق حسين
ابن عمرو بن عبد الجبار الواسطي ، المعروف بابن الرواس لا رحمهم
الله و سجنوا ثم عذبوا بالضرب ، و العصر ، و المصادرات ، و لم يزل
ابن الرواس في الحبس و العذاب إلى أن فقد في أواخر جمادى الأولى من
سنة إثنين و أربعين و ستمائة ، و بلغني أنه أخرج ليلا و خنق عند تل
اليهود و النصارى و رمي ثم ، وفي يوم الجمعة ثامن عشر ذي الحجة
تحقق صرف هذا القاضي الظالم و عزله ، ثم أخرج من داره و سجن
بالمدرسة المقدمة بباب الفراديس ، ثم أخرج ليلا و ذهب به فسجن في
مغارة افقه من نواحي البقاع ثم انقطع خبره ، و ذكروا أنه توفي لا رحمه
الله ، فمنهم من قال : ألقى من شاهق ، و منهم من قال : خنق ، و في
يوم الجمعة الآتي الخامس و العشرين من ذي القعدة قرىء منشور
ولاية القضاء لمحيي الدين محمد بن علي بن يحيى القرشي بالجامع في
الشباك الكمالی .

ثم دخلت

سنة اثنتين و أربعين و ستمائة

في خلافة المستعصم بالله

ففيها : توفي شيخ الشيوخ أبو محمد عبد الله بن حمويه رحمه الله في سادس صفر ، و دفن على أبيه في مقبرة الصوفية ، حضرت دفته و الصلاة عليه بجامع دمشق و كانت له جنازة حافلة ، و كان رحمه الله سخيا ، متواضعا ، عالما ، فاضلا ، دينا صحيح الاعتقاد . سمع الحافظ أبا القاسم بن عساكر ، و الفقيه مسعود النيسابوري و أبا الفرج الثقفى ، و أبا طاهر الخشوعي و غيرهم ، سمعت عليه أنا و ابني محمد كثيرا و أجاز لنا جميع ما يرويه رحمه الله .

و فيها تحقق موت القاضي الظالم الوضيع الملقب بالرفيع ، و أعوانه على ما سبق ذكره .

و فيها : مات جماعة من أصحابنا و معارفنا منهم : الكمال مسعود بن أحمد الحوراني الفقيه الشافعي ، توفي في خامس جمادى الأولى ، و دفن في مقبرة الصوفية ، و بعده بيومين توفي الشمس محمد بن الجابي ، و دفن بمقبرة الصوفية أيضا ، حضرت دفنها و الصلاة عليهما رحمه الله تعالى .

و في هذا الشهر من السنة المذكورة كسرت الأفرنج لعنهم الله و من انضم اليهم من منافقي المسلمين كسرة عظيمة من عسقلان و غزة ، و و غنم منهم أموالا عظيمة ، و أسر من الفرنج خلق من ملوكهم و كبرائهم ، و قتل منهم مقتلة عظيمة ، و ذهب برؤوس المقتلين و المأسورين إلى مصر ، و وقع الرعب في صاحب دمشق فتهيأ للحصار و خرب رباعا كثيرة حول البلد ، و غرقت المساكن التي على حافة بردى

بين جسري بابي توما و السلامة بسبب خراب جسر باب توما و سده
فرجع الماء وارتفع وصار بهجرا، فوقع ماكان، صلى حافته، والله
المستعان .

قلت : كانت هذه الواقعة بين عسكر مصر و مقدمه ركن الدين
بيبرس الصالحي ، و بين عسكر الشام و مقدمه المنصور صاحب حمص
و معهم افرنج الساحل يوم الاثنين ثاني عشر جمادى الأولى .

وفيهما : في نحو النصف من شعبان توفي الجمال سليمان بن عبد
الكريم ابن اخت عبد العزيز الشيباني ، و الشمس أحمد بن محمد بن
عمارة البرجي ، رحمهما الله .

و فيها : في خامس شهر رمضان توفي تاج الدين أبو العباس أحمد بن
شيخنا القاضي شمس الدين أبي نصر محمد بن هبة الله بن الشيرازي
رحمه الله ، و دفن بالجبل ، و كان خيرا متواضعا ، فاضلا ، أمينا ثقة ،
سمع جده هبة الله بن محمد بن جميل ، و أبا عبد الله محمد بن علي بن
الحسن بن صدقة الحراني و غيرهما ، و أجاز له الحافظ أبو طاهر السلفي ،
قرأت لولدي محمد عليه أشياء من ذلك ، فسمعها عليه ، و حضرت
الصلاة عليه بجامع دمشق ، صلى الإمام عليه ؛ و على المؤذن المعروف
بديك العرش ، مؤذن بيت المقدس في ساعة واحدة . و كان هذا المؤذن
مسنا ، و ابتلي بمرض طويل رحمه الله ، و قبره بمقابر الصوفية . و ما
سمعه ابني محمد على الشيرازي المذكور صحيح مسلم ، بسماعه من
الحراني ، عن أبي عبد الله الفراوي ، عن الفارسي ، عن الجلودي ، عن
ابراهيم ، عن مسلم .

ثم دخلت

سنة ثلاث و أربعين و ستمائة

في خلافة المستعصم بن المستنصر بن الظاهر بن الناصر ، و مدينة دمشق يومئذ محاصرة ، ففي الثامن من المحرم ضويقت مضايقة شديدة ، وقد اجتمع و استولى عليها عساكر عظيمة من المصريين والخوازمية وغيرهم ، ففي تلك الليلة أحرق قصر حجاج ، و الشاغور ، واستولى الحريق على مساجد و خانات ، و دور عظيمة و من ذلك مسجد جراح خارج باب الصغير ، و كان جامعا تقام فيه الجمععات ، ثم نصبت على دمشق المجانيق و رميت به بين باب الجابية و الصغير ، ونصبت أيضا مجانيق داخل البلد ، و ترامى الفريقان ، و أمر بتخريب حارة العقبية خارج باب الفراديس ، و باب السلامة ، و باب الفرج ، و أحرق حكر السباق خارج باب النصر ، واشتد الغلاء ، و عظم البلاء و زادت أوقية الخبز على نصف درهم ، و بلغ التبن أن ينوع كل أوقية بقرطاس ، ثم أحرقت العقبية في أول ربيع الأول .

وفيها : في يوم الجمعة الرابع و العشرين من صفر توفي صاحبنا المحدث شرف الدين أحمد بن الجوهري رحمه الله ؛ و كان فاضلا ، خيرا ، متواضعا مفضلا ، مفيدا ، حريصا على تحصيل المسموعات ، رحل في طلب الحديث ، و سمع و حصل الأصول ، ثم توفي رحمه الله ، و دفن بالجبل صليبا عليه بجامع دمشق و شيعناه إلى داخل باب الفرج ، ولم يمكن الخروج لوجود الحصار المذكور ، ثم توفي بعده في سادس شهر ربيع الأول القوام الأصبهاني ، و كان كاتبا ، فاضلا ، شاعرا ، والمعين الأرموي ، و كان شيخا ظريفا ، معمرًا في ثامن ربيع الأول ، ثم توفي في ثالث عشر ربيع الأول المنتجب الهمداني المقرئ بالمدرسة الزنجيلية رحمه الله و كان مقرئا مجودا ، قرأ على الشيخ أبو الجود بمصر ، و انتفع بشيخنا أبي

الحسن في معرفة قصيدة الشاطبي ، ثم تعاطى شرح القصيدة فخاض بحرا عجز عن سباحته ، و جحد حق تعليم شيخنا له وإفادته، فالله يعفو عنا و عنه ، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق و شيعته إلى داخل باب الفرج، ولم يمكن الخروج معه لأجل حصار البلد ، ثم توفي في الثالث و العشرين منه التاج الأبهري الصوفي ، وكان من أهل الحديث ذو سماعات كثيرة و بخطه طباقات جمّة ، و نسخ كثيرة من كتب الحديث والفقه أسمعت عليه ابني محمدا وله إجازة .

وفي ذلك اليوم مات الصفي القاريء إمام الجنائز ، و قبلهما بيوم توفي الناصح سالم قيم دار الحديث النورية رحمهم الله ، ثم توفي الشيخ حسن الصقلي القزاز ، و كان من المشهورين بالصلاح كل ذلك في ربيع الأول،

و توفي في ربيع الآخر سابع عشره الشيخ الفقيه كمال الدين أبو العباس أحمد بن كاتب الزماري رحمه الله ، و كان شيخا ، صالحا، فقيها، مشهورا ، من أصحابنا الشافعيين ، متضلعا في نقل وجوه المذهب و فهم معانيه . وهو أحد من قرأت المذهب عليه في صباي، وكان كثير الحج و الخير ، وقف جميع كتبه و فيها مصنفات جليلة تقبل الله منه ، و هو الذي ذكره شيخنا أبو الحسن في خطبة تفسيره و أثنى عليه و كان ملازم حلقة شيخنا وقت سماع التفسير ، و في أيام ختمات الطلبة رحمه الله .

و في يوم الاربعاء السادس والعشرين من ربيع الآخر توفي الشيخ الفقيه الامام مفتي الشام تقي الدين أبو عمرو عثمان بن الصلاح رحمه الله بدار الحديث الأشرفية ، و حمل على الأصابع إلى الجامع فصلي عليه بعد صلاة الظهر ، و كانت على جنازته هيئة ووقار ، و جمع متوفر، رقة شديدة و إخبات و خشوع ، ثم خرج به إلى باب الفرج ، و رجع الناس بسبب الحصار ، و خرج معه نفر دون العشرة إلى مقابر الصوفية فدفن

بها رحمه الله ، و انضاف إليهم بعد ذلك جماعة حضرت الصلاة عليه بالجامع و شيعته إلى باب الفرج . و منه استفدت علمي الحديث والفقه صغيرا و كبيرا ، و سمع عليه ابني محمد جملة من تصانيفه ومعظم السنن الكبير للبيهقي ، و غير ذلك .

و بعده بيومين توفي التقي أحمد بن العز محمد بن الحافظ عبد الغني المقدسي الحنبلي ، بجبل قاسيون . و توفي قبله بنحو من شهرين ابن عمه أبو سليمان عبد الرحمن بن عبد الغني ، و كانا من أئمة الحنابلة بدمشق وبالجبل ، و كان أبو سليمان من الصالحين ، و في جمادى الأولى توفي شرف الدين بن قريش بدمشق ، و القاضي الأشرف بن الفاضل بمصر بينهما سبعة أيام ، و في ثالث جمادى الأولى لما فتحت دمشق توفي العز محمد بن تاج بن الخيشي شاب من المشتغلين بالعلم المحصلين له المجتهدين فيه من أصحاب شيخنا أبي الحسن وأعزهم عليه رحمه الله ، شهدت الصلاة عليهما و شيعتهما إلى داخل باب الفرج ، و ذهب به إلى الجبل ، و بابن عساكر إلى مقبرة جده بباب الصغير .

و في خامسه يوم الجمعة توفي الشيخ المسند تاج الدين أبو الحسن محمد بن أبي جعفر إمام الكلاسة ، كان مسند وقته ذو سماعات جمة صحيحة ، و أصول جلييلة . و كان متواضعا خيرا دينا رحمه الله .

سمعت عليه أنا وابني محمد كثيرا ، سمع من عبد المنعم الفراوي ، وأبي البركات الخشوعي ، و أبي الفرج الثقفي . و الحافظ أبي محمد ، وعبد الوهاب بن سكيئة ، و ابن طبرزد ، و حنبل ، و القاضي أبي القاسم . وأبي اليمن الكندي و غيرهم ، حضرت الصلاة عليه بالجامع بعد صلاة الجمعة ، و شيعته إلى باب الفرج ، و كانت له جنازة حفلة ، وحمل على الأيدي ، و دفن بجبل قاسيون عند أبيه و أخيه . وفي ثامنة تحقق الصلح و زال الحصر عن البلد ورحل ليلتئذ عن دمشق سلطانها

الصالح إسماعيل بن العادل بن أبي بكر بن أيوب، وصاحبه المنصور إبراهيم بن أسد الدين إلى بعلبك و حمص ، و دخل البلد من الغد في تاسع الشهر نائب صاحب مصر و هو الصاحب معين الدين حسين بن شيخ الشيوخ صدر الدين ، و نزل في دار سامية و هي الدار المعظمية الناصرية . و زال الخوف و الظلم عن البلد و المصادرات و الوجل، جعله الله فتحا مباركا برحمته .

و في يوم الجمعة آخر جمعة في الشهر توفي ولدي أبو الحزم محمد جمعني الله و إياه في الجنة ، و دفنته عند امه بمقبرة ابن زوزان المجاورة لمقبرة الصوفية على حافة الطريق إليها رحمهما الله و إيانا ، وأنا كنت قابله وغاسله وبلغ من العمر ثمانين و نصفاً ، و سمع من كتب الحديث وأجزائه و من سائر العلوم شيئاً كثيراً على جملة من المشايخ نحو مائة وأربعين شيخاً ، ثم توفيت أخته زينب بعده بأربعة أيام، وفي ثالث جمادى الآخرة توفي الشهاب محمد بن علي بن منصور اليميني المعروف بابن الحجازي رحمه الله ، و كان من فضلاء الشبان . هو وأبوه من أصحاب شيخنا أبي الحسن المختصين به ، و دفن بجبل قاسيون، ولم أشهده لأنني كنت مريضاً

و فيها : ليلة الأحد ثاني عشر جمادى الآخرة توفي شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السخاوي رحمه الله علامة زمانه ، و شيخ عصره و أوانه بمنزله بالتربة الصالحية، و صلي عليه بعد الظهر بجامع دمشق ، ثم خرج بجنازته بجمع متوفر إلى جبل قاسيون ، فدفن بتربيته التي هي في ناحية تربة بني صبرى خلف دار ابن الهادي ، حضرت الصلاة عليه مرتين بالجامع ، و خارج باب الفرج ، و شيعته إلى سوق الغنم ، ثم رجعت لضعف كان من أثر مرض قريب العهد ، و كان يوماً مطيراً، وفي الأرض وحل كثير ، و كان على جنازته هيبة ، و جلاله ، و رقة ، وإخبات ، و ختم بموته موت مشايخ الشام يومئذ ، و فقد الناس بموته

علما كثيرا، و منه استفدت علوما جمة ، كالقراءات و التفسير ، وعلوم فنون العربية ، و صحبته من شعبان سنة أربع عشرة ، و مات وهو عني راض، و الحمد لله على ذلك رحمه الله و جمع بيننا و بينه في جنته أمين .

و في يوم الأربعاء خامس جمادى الآخرة توفي الفقيه زين الدين يوسف بن ابراهيم بن يوسف الكردي ، و الشيخ أيوب المعروف بالمرأوي، والعماد علي بن الحجة الحنفي ، و الصدر ابراهيم بن الليث وغيرهم، و صلينا على الجميع جملة بعد الظهر بالجامع، و شيعت جنازة الزين الكردي إلى نحو باب الصغير رحمهم الله، ثم توفي خطيب الجبل شرف الدين عبد الله بن الشيخ أبي عمر محمد بن أحمد بن قدامة، و الضياء محمد بن عبد الواحد ، و الضياء محاسن ، و السيف أحمد بن عيسى بن شيخنا الموفق عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، وغيرهم من مشايخ الجبل . توفي الضياء محمد يوم الاثنين سابع عشر جمادى الآخرة من السنة ، و هو : محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي، و في ليلة ثامن عشر شعبان توفي الفخر محمد بن عمرو بن عبد الكريم الحميري ، عرف بابن المالكي الساكن بالمنارة الشرقية في بيت أبي جعفر ، و دفن من الغد في مقبرة الصوفية رحمه الله .

و فيها: توفي النجم بن سلام ، و كان متولى ديوان دمشق بالقلعة بعد الشمس بن النفيس في سنة اثنتي عشرة و ستائة ، و دام عليه و له احسان و خير ، و صدقة و تعصب ، و ضيافة ، و في شهر شعبان أيضا من سنة ثلاث و أربعين و ستائة توفيت صاحبة ربيعة خاتون ابنة نجم الدين أيوب ، أخت صلاح الدين و العادل و غيرهما من الملوك، و عمه الكامل ، و الأشرف ؛ و المعظم و غيرهم من الملوك . زوج مظفر الدين صاحب إربل رحمهم الله ، و دفنت بتربتها بالجبل . و توفي فيه أيضا الأمير سيف الدين قليج و دفن بمدرسته التي وقفها بمسكنه بدار الفلوس.

و في السابع و العشرين من شهر شعبان توفي الفقيه الشيخ الصالح علاء الدين بن الكردي عمر بن أبي بكر بن جعفر ، و كان جاري بالمدرسة العادلية ، و دفن بمقابر ابن زويزان حضرت دفته و الصلاة عليه رحمه الله ، و في ليلة الأحد الثاني و العشرين من شهر رمضان توفي بدمشق صاحب معين الدين ابن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه ، و كان نائب السلطنة بها ، و هو الذي فتحها للمك الصالح أيوب بن الملك الكامل ، و أخذها من عمه اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب صاحب بعلبك ، و صلى عليه بجامع دمشق جمال الدين بن محيي الدين ابن الجوزي ، و دفن بالجبل عند أخيه عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ ، رحمه الله ، و مولد معين الدين في سنة ثمان و ثمانين وخمسمائة ، وفي يوم الجمعة العشرين من رمضان توفي شرف الدين محمد بن القاضي شرف الدين أبي طالب عبد الله بن زين القضاة ، ودفن بالجبل ، وفي ثاني شهر شوال توفي الأمير نجم الدين القيمري عمر بن ناصر الدين ، ودفن بالجبل .

و فيها : اشتد الغلاء بسبب قطع الخوارزمية الطرقات ، ففي ثامن عشر شوال بلغت غرارة القمح ستمائة درهم ناصرية نصفها بثلاثمائة درهم ، و بيع الخبز كل رطل بثلاثة دراهم أو بأربعة دراهم على تفاوت الأخبار ، والله يكشف هذا الضر برحمته ، و كان ذلك في تاسع شهر آذار و بقيت الصعاليك مرميين في الطرقات ، و كانوا يطلبون لقمة ، ثم صاروا يطلبون فلسا يشترون به نخالة يبلونها و يأكلونها كما تطعم الدجاج ؛ و شاهدت ذلك بعيني ، ثم اشتد الغلاء زيادة على ذلك فبلغ في آخر شهر شوال المذكور كل غرارة حنطة بمائة دينار سورية ، ثم ناصرية ، ثم سمعت أنه بيع عشرة غرائر بعشرة آلاف درهم وكتب بها وثيقة على المشتري إلى أجل شهرين ، و اشترت أنا الخبز كل رطل بأربعة دراهم غير مرة ، ثم تفاقم الأمر في حادي عشر ذي القعدة فبيع الخبز الأسود كل أوقيتين بدرهم ، و خبز الشعير كل أوقيتين و نصف

بدرهم، و بلغت الغرارة في ثاني عشر ذي القعدة ألفا و مائتي درهم وخمسين درهما فضة ناصرية ، و بيع الدقيق كل أوقية بدرهم، كل رطل بنحو عشرة دراهم، وبيع الشعير كل كيل خمسين درهما الغرارة بستمائة درهم ، و الزبيب كل أوقيتين بدرهم ، ثم بيع أوقية و نصف بدرهم، وكذا الدبس بلغت الحلاوة الجوزية من الدبس كل أوقية بدرهم، وسمعت من ينادي عليها و قد نزل السعر بباب الجامع الغربي من باب البريد يقول أرخص الله أسعار المسلمين كل أوقية ستة عشر قرطاسا، فقال بعض السامعين : كنا نأخذها بعشرة فلوس الوقية ، و اليوم نفرح كيف وصلت إلى ستة عشر قرطاسا، وبيع الباقي الأخضر كل رطل بدرهم و ربع ، و الرز باللبن ثلاث أواق و نصف درهم ، و الأرز اليابس كل أوقيتين ، و الفحم الردي كل رطل بستة دراهم ، ولم تنزل الأسعار في اشتداد و ارتفاع إلى أن بيع مد الحنطة بعشرين درهما ونحوها، و بلغت الغرارة ألفا و خمسمائة درهم، و بيع الخبز كل أوقيتين إلا ربع بدرهم، والرطل بسبعة دراهم يوم عيد النحر و قبله ؛ ثم إن الله تعالى نفس عن الناس بنزول السعر من بعد عيد الأضحى، و لم يزل يأخذ في النزول إلى أن بيع الخبز آخر السنة كل رطل بدرهمين ، واللحم كذلك، وفي سلخ المحرم بيع كل رطل و ثلث بدرهم ، و في جمادى الآخرة رطل ونصف بدرهم.

ثم دخلت

سنة أربع و أربعين و ستمائة

أولها يوم الجمعة كسرت الخوارزمية أشد كسرة و قتلت ملوكهم ، وسييت نساؤهم ، وغنمت أموالهم بين أرض بعلبك و حمص ، و كسرهم الملك المنصور ابراهيم بن المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص ، و معه جيوش حلب و حماة و غيرها من البلاد ، و جاءنا الخبر بذلك يوم السبت ثاني الشهر إلى دمشق ، فبيع الخبز كل رطل بدرهم و نصف ، والحمد لله على هذه النعمة ، و نسأله المزيد بفضله ، ثم تسلمت قلعة بعلبك من نواب الصالح اسماعيل ، ثم تسلمت قلعة بصرى منهم . و ممن قتل في تلك المعركة بركة خان مقدم الخوارزمية ، وسلطانهم و حمل رأسه إلى حلب .

و في حادي عشر صفر توفي الملك المنصور ابراهيم بن المجاهد صاحب حمص بالبستان الأشرفي بالنيرب ظاهر دمشق و نقل إلى حمص . و قبله بأيام توفي الضياء محمد بن حسان بن رافع العامري بقصر حجاج ، وكانت له سماعات كثيرة بالحديث ، سمع الخشوعي ، والحافظ أبا محمد ، و أبا اليمن الكندي ، و القاضي أبا القاسم ، و أبا حفص بن طبرزد ، و حنبلا و غيرهم ، و سمع شيء من حديثه رحمه الله تعالى ثم توفي الركن بن سلطان الحنفي ، والقاضي شرف الدين الحنفي الحوراني ، و الكمال ابراهيم بن البانياسي ، وغيرهم في العشر الأسط من صفر

و في ثامن عشر ربيع الأول توفي العز الإربلي عبد العزيز بن عثمان بن أبي طاهر إمام دار الحديث النورية بدمشق بقرية جوبر ، و حمل إلى مقابر الصوفية ، و كان شيخا حسنا مسنا مكثرا عن أبي طاهر الخشوعي ، و أبي محمد ، و أبي اليمن الكندي ، و أبي حفص بن طبرزد ،

و أبي القاسم القاضي، و فاطمة بنت سعد الخير و غيرهم، اسمعت عليه ابني محمداً كثيراً من الكتب و الأجزاء .

و في ربيع الآخر توفي الفقيه الحنفي المعروف بالعز عرفة، مدرس الصادرية ، و المجد بن البعلبكي ، و الجمال بن البلان، و في أول جمادى الآخرة توفي الحكيم سعد الدين الطبيب ، و بعده بثلاثة أيام توفي البدر العلائي الأشرفي الخادم ، و في الخامس و العشرين من جمادى الآخرة توفي الفقيه الإمام تقى الدين محمد بن محمود بن عبد المنعم المراتبي الحنبلي رحمه الله و دفن بالجبل ، حضرت الصلاة عليه ، و شيعته إلى خارج باب الفرج ؛ و كان عالماً ؛ فاضلاً ، ذا فنون و لي به صحبة قديمة ، و بعده لم يبق في مذهب أحمد مثله بدمشق .

و في رجب ولد بمنزلي عبد العزيز بن أحمد بن عبد الجبار الزيني أخو ابنتي من أمها جعله الله موفقاً سعيداً ، و في أول شعبان توفي الضياء عبد الرحمن المالكي العمادي الذي جلس مكان الشيخ أبي عمر ، و في حلقة بالجامع ، و في زاوية المالكية و مدرستهم رحمه الله ، و كان كريماً شاعراً ، و قبله الأمير عماد الدين داوود بن موسك بن جكر ، و جاءنا الخبر بوفاة الفقيه تاج الدين اسماعيل بن جهل رحمه الله بحلب ، و كان فقيهاً ديناً كريماً سليم الصدر ، و توفي في ثامن عشر شعبان الشيخ اسماعيل الكوراني المقيم بمقصورة ابن سنان الحنفية ، و جمال الدين محمد القلعي ، و المخلص أبو بكر بن حماد الحنبلي ، و في ذي القعدة توفي الناسخ أحمد الصيداوي المشتغل بعلم الفقه و الحديث و الرقائق .

و في تاسع عشر ذي القعدة يوم الخميس سابع ساعة فيه دخل دمشق صاحبها الصالح نجم الدين أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب، و كان يوماً عظيماً بكثرة الخلق و الزينة ، و نزل عندنا بالمدرسة العادلة الشيخ الفاضل الأمير ضياء الدين أبو الحسين محمد بن اسماعيل

ابن عبد الجبار ، يعرف بابن أبي الحجاج المقدسي ؛ و صهره الأمير العالم
الفاضل شمس الدين بن الجناح فأقام بها خمسة عشر يوما ، ثم رحل
إلى بعلبك فكشفها ، ثم رجع و مضى نحو صرخد و تسلمها من
صاحبها عز الدين أيك المعظمي ، و رحل إلى بلاد بانياس و تسلم
حصن الصبيبة من الملك السعيد بن العزيز بن العادل و هو ابن عم
السلطان و في خدمته ، ثم تسلم حصن الصلت من ابن عمه داوود بن
عيسى بن أبي بكر بن أيوب ، و فرق بدمشق نحو تسعين ألف درهم
على الفقراء ، فخان فيها المفرقون ، فنظمت فيهم قصيدة نحو اربعمائة
بيت في شرح حالهم فيها .

- ٩٣٣٠ -

ثم دخلت

سنة خمس و أربعين و ستمائة

أولها يوم الاربعاء ، فرجع السلطان الصالح أيوب إلى مصر ، و أبقى العسكر بالساحل محاصرين لبلاد الفرنج خذلهم الله تعالى بعسقلان وطبرية ، فجاء الخبر بفتح طبرية في عاشر صفر من هذه السنة ، و جاء الخبر بفتح عسقلان في أواخر جمادى الآخرة .

وفيها : توفي النظام عبد الله بن زين الأمانة بن عساكر ، و في العام قبله توفي أخوه الركن عبد اللطيف و كان متزهدا ذا وسواس .

و فيها : عزل الخطيب عماد الدين داود بن خطيب بيت الأبار من خطابة جامع دمشق و إمامته و من التدريس بزاويته الغربية، وولي ذلك القاضي عماد الدين عبد الكريم بن الحرساني ، و ذلك في أواخر رجب، وفي سلخه توفي المجدد بن نظيف ، و في شعبان توفي الشمس ابن هلال، وفي رمضان توفي الكمال علي بن يعقوب الدولبي القاضي الشافعي، وكان فقيها أديبا ، تولى القضاء ببعلبك ، ثم بصرخد ثم برزة و بها توفي . قلت : وجدت بخط الدولبي المذكور أنه علي بن يعقوب بن اسحاق ابن عبد الله بن أبي الحسن - هو كردي - الجوزقاني، رحمه الله تعالى ، وكان شيخا في الفقه .

و في رمضان توفي الشيخ علي المعروف بالحريري ، المقيم بقرية بصر في زاويته ، و كان يتردد إلى دمشق ، و تبعه طائفة من الفقهاء و هم المعروفون بالحريرية ، أصحاب الزي المنافي للشريعة ، و باطنهم شر من ظاهرهم إلا من رجع إلى الله منهم، و كان عند هذا الحريري من الاستهزاء بأمور الشريعة و التهاون بها من إظهار شعار أهل الفسق والعصيان شيء كثير ، و انفسد بسببه جماعة كثيرة من أولاد كبراء

- ٩٣٣١ -

دمشق، و صاروا على زي أصحابه ، و تبعوه بسبب أنه كان خليع العذار ويجمع مجلسه الغناء الدائم ، و الرقص و المردان، وترك الاحتجار على أحد فيما يفعله ، وترك الصلوات ، وكثرة النفقات فأضل خلقا كثيرا. وأفسد جمعا غفيرا ، وقد أفتى في قتله جماعة من علماء المسلمين ، ثم أراح الله منه.

ثم دخلت

سنة ست و أربعين و ستائة

ففيها : استولى صاحب حلب على حمص .

و في يوم الجمعة سادس عشر ربيع الآخر صلب مملوك تركي صبي بالغ ، كان لبعض الأمراء الصالحة النجمية يدعي السقسيني زعموا أنه قتل سيده لأمر ما ، فصلب على حافة نهر بردى تحت القلعة في آخر سوق الدواب ، و جعل وجهه مقابل الشرق ، و سمرت يداه ، وعضداه ، ورجلاه ، و بقي من ظهر يوم الجمعة إلى ظهر يوم الأحد ، ثم مات ، وكان يوصف بشجاعة ، و شهامة ، و دين و أنه غزا بعسقلان و قتل جماعة من الفرنج ، و قتل أسدا على صغر سنه و كان منه في صلبه عجائب ، فمن ذلك أنه جاد بنفسه للصلب غير ممتنع ولا جازع ، بل مد يديه فسمرتا ؛ ثم سمرت رجلاه و هو ينظر لم يتأوه و لم يتغير وجهه ، ولا حرك شيئا من أعضائه ، أخبرني من شاهد ذلك منه جماعة ، و بقي إلى أن مات صابرا ساكنا لم يئن ؛ و لم يزد على نظره إلى رجليه و جانبيه ، تارة يمينا و تارة شمالا ، و تارة ينظر إلى الناس . قيل أنه استسقى ماء فلم يسقى ؛ وتأملت قلوب من عندهم رحمة و شفقة على خلق الله تعالى من أنه صبي صغير ، و قد ابتلي بمثل هذا البلاء ، و المياه تتدفق بجوانبيه ، و هو ينظر إليها ، و يتحسر على قطرة منها ، و هو صابر على ذلك فسبحان من له الأمر والحكم ، و أخبرت أنه رؤيت له منامات صالحة و نور غشاه قبل موته ، و أن شكواه للعطش كان في أول يوم ثم سكن ذلك ، فقواه الله تعالى وثبته و صبره ، و أخبرني من سمعه يقول في اليوم الثاني : سقيت البارحة ما أذهب عني العطش ، ثم لم يطلب الماء حتى مات ، و صار يبصق بصقة رجل ريان الكبد ، حذف بها بعيدا ، و بقي بعد موته معلقا تمام يوم الأحد و أنزل ضحوة يوم

الاثنين من الغد ، رأيت اتفاقا و أنا مار إلى المدرسة الحسامية حالة انزاله ، فشاهدته و قد اسودت أعضاؤه ، وغيرت محاسنه و كثر الترحم والدعاء له . و لعله كان شهيدا رحمه الله ، فإني أخبرت أنه دافع عن نفسه أمرا لم يرض وقوعه به و الله يغفر لنا أجمعين ، و منها : أنه أسرع إليه الموت تخفيفا من الله تعالى عليه ، فانه بقي يومين و ليلتين . وأخبرت أن جماعة من الرجال جرى لهم مثل هذا الصلب والتسمير وأن المنية تأخرت عنهم أياما زيادة في عذابهم ، و كان قد أصابه في اليوم الثاني اختلال فلم يبق يحس بالألم و العطش ، و لم ينتظم كلامه بل صدرت منه ألفاظ دالة على اختلاله ، خفف الله تعالى بذلك عنه ، قد كان يغفى أحيانا ، ثم ينتبه مرعوبا لشدة الألم فتقطع لذلك قلوب الناظرين إليه ، غير أنه يذكر الله تعالى .

و أخبرت أن بعض الموكلين به سأله عن حاله في غداة يوم الأحد أو السبت ، و كان جوابه أن قال : طيب مع الله ، و بلغني لما سمر لم يسمع منه سوى كلمة واحدة ، و ذلك أن الذي سمره لما وضع المسمار في العضد صادف العظم ، فقال له : يا فتى تجنب العظم ، وبلغني ان الذي سمره توفي في ذلك اليوم أو الذي بعده ، و هذا من عجائب ما اتفق ، فأخبر الصبي بذلك إرادة اعلامه ان الله تعالى جازاه بفعله . فقال الصبي و هو في تلك الشدة : هو في حل لا ذنب له ، لكن الذنب لمن أمره بذلك ، و كان رحمة الله من أجمل الصبيان و أحسنهم وجها وأطولهم شعرا ، قد كان ثمنه ألوف من الدراهم ، و كان في قتله مكشوف الرأس و الذؤابة من شعره مسترسلة خلفه ، و لعبت به الرياح فأدارتها إلى صدره فبقي يتناولها يولع بها و يتشاغل بالعبث بها ، و بلغني أنه قال: لي يومان ما صليت كالتأسف على ما فاته من الصلاة ، و بعضهم قال يوم علقوه كان صائها ، و أخبرني من أثق به أنه سمعه يلتمس من الناظرين إليه أن يبعدوا عنه ليريق الماء ففعلوا فأراقه ، و كانت له نفس

أبية ، و قوة شديدة، أخبرني جماعة أنه كان يحرك رجله و هما مسمرتان، فلم يزل يولع بتحريكهما إلى ان اتسع نخش المسارين عليهما و صار يديرهما بمساميرهما لولا شدة تعلق المسامير بالخشب لقلعهما البتة و بما قيل فيه :

ومتفرد من فوق أعواد حنفيه
يجود بنفس صائها خوف ربه
تسمرت الأعضاء منه فلم يطق
سجودا فأومأ للسجود بقلبه
تمكنست الآلام منه مسمرا
كثيرا و كان الموت أيسر خطبه
يرى واحدا و الناس من حوله جذعة
وعطشان و الأمواه تجري بفتحته
فيما حصرة منسه على شرب قطرا
لقد طار ذيك الشراب بلبه
وعريان إلا في غلالة حسنه
ومكشوف رأس سائبات برجه
تجول رياح الجوفيه وتعصف السد
وافي عليه كل تهرب بقربه
وتشرق شمس الصيف من حروجه
لقد زال ذاك الحسن مذكرا
مغيرة تلك المحاسن اذ غدا
أحق بها منها فنادت بحربه
فيالك ممنوعا من الماء ضلة
تفتت الأجداد من عظم كربه
ويا لك مصلوبا بظلم وقسوة
تقطعت الأحشاء من سوء صلبه
ويبرد في الليل البهيم فيشتكي
نهارا فلا يسلى المقر بذنبيه

- ٩٣٣٥ -

فيا عجباً ممن أشار بصلبه
ألا اعجب وأخبر عن قساوة قلبه

صبي صغير فائق الحسن ناسك
شجاع له الاقدام في يوم حربه
صبور على هذي الشدائد كلها
إلى أن أتاه الموت قاض لنحبه

و في سنة ست و أربعين و ستمائة سقطت قنطرة عظيمة رومية،
كانت على علو سوق الرقيق بالسوق الكبير، فانهدم بسببها حوانيت
ودور كثيرة كانت عليها و متصلة بها وقعت نهاراً، و في ليلة الأحد
الخامس والعشرين من رجب وقع الحريق في المئذنة الشرقية بجامع
دمشق فأحرق أعلاها و جميع ما فيها من البيوت و المطلاع جميعه ، فإنه
كان سقالات من خشب، و سلم الجامع بفضل الله تعالى و رحمته،
وبعده بأيام يسيرة قدم السلطان الصالح أيوب بن الكامل مدينة دمشق
فأقام بها و جهز العساكر إلى حمص .

و في شعبان توفي القاضي عز الدين محمد بن أبي الكرم الحنفي
السخاوي ، و كان نائبا في الحكم زمن الجمال المصري قاضي القضاة إلى
أن مات . و في الخامس من شهر رمضان توفي بمصر الأفضل الخوارجي
قاضي قضاة مصر ، و كان حكيما منطقياً ، و كان الحديث عنه في مدة
ولايته القضاء حسناً ، سمعت الشيخ ابن أبي الفضل و غيره يثني عليه
في ذلك ، رحمه الله . و جاءنا الخبر في ذي القعدة أن الشيخ أبا عمرو
عثمان بن الحاجب رحمه الله توفي بالاسكندرية في شعبان ، فساء ذلك
من سمعه من البرية فإنه رحمه الله كان ركناً من أركان الدين في العلم
والعمل ، بارعاً في العلوم الأصولية و تحقيق علم العربية ، متقناً للمذهب
مالك بن أنس رحمه الله ، و كان من أذكى الأمة قريحة ، و كان ثقة
حجة متواضعاً ، عفيفاً ، كثير الحياء منصفاً ، محباً للعلم و أهله ناشراً

له، محتملا للأذى ، صبورا على البلوى . قدم دمشق مرارا آخرها سنة سبع عشرة ، فأقام بها مدرسا للمالكية ، و شيخا للمستفيدين عليه في علمي القراءات والعربية ، ثم خرج هو و الشيخ ابن عبد السلام بسبب تغير الوقت عليهما فسكنا مصر ، و كان خروجهما من دمشق سنة ثمان و عشرين و ستمائة ، و أخبرني صهره الكمال أحمد بن سليمان أنه دفن خارج الاسكندرية في المقبرة التي بين المنارة ، قرب قبر الشيخ ابن أبي شامة رحمه الله .

ثم دخلت

سنة سبع و أربعين و ستمائة

في خلافة المستعصم ، و سلطان دمشق الصالح أيوب بن الكامل
مقيم بها ، قدم إليها في أول شعبان من سنة ست فأقام بها خمسة أشهر
ورحل منها يوم الاثنين رابع المحرم طالبا الديار المصرية، و أمر ببناء
المنارة الشرقية بالجامع ، و هي التي احترقت فعمرت على ما هي عليه
الآن، وفي ذلك العام وصلت الفرنج خذلهم الله تعالى إليها في البحر
ونزلوا على ساحلها من جهة بر دمياط ، و استشهد من المسلمين جماعة
منهم النجم ابن شيخ الاسلام ، و دخل الأمير جمال الدين موسى بن
يغمور دمشق نائبا للسلطنة في عاشر ربيع الأول منها، و نزل بدرب
الشعارين ووصل الخبر بإخلاء دمياط من المسلمين و دخول الفرنج
خذلهم الله إليها في البحر واستيلائهم على ما كان فيها من المؤونة
والاقامة . و جرت وقعة عظيمة هلك فيها داوية الفرنج ؛ ثم ورد كتاب
من مصر إلى بعض أصحابنا تاريخه حادي عشر ربيع الأول قرأت فيه :
وصل الفرنج في العشرين من صفر، نزلوا في الحادي و العشرين إلى البر،
وفي الثاني و العشرين أخليت دمياط، و دخلها الفرنج و هم فيها إلى
الآن.

و في ربيع الآخر توفي العدل صفى الدين عمر بن محمد بن عبد
الوهاب يعرف بابن البرادعي ، و كان أحد من يروي عن الحافظ أبي
القاسم بن عساكر رحمه الله ، و توفي فيه أيضا الشيخ اسماعيل مقدم
الخدام النبوية ، و جاءنا الخبر بوفاة ابن أمية العبدري بالقاهرة رحمه الله،
وفي خامس جمادى الأولى توفي بدمشق الشريف عبد الصمد الحجازي
الزاهد المقيم بالمسجد الذي بين القصاعين و الفسقار (١٢٧) رحمه الله
وشهد جنازته خلق كثير ، و حمل على أيدي الرجال و أصابعهم، وكان

على طوية حسنة . حضرت الصلاة عليه بعد الظهر بالجامع و شيعته إلى المقبرة بين باب الجابية و باب الصغير رحمه الله، وعبر بسببه الأمير جمال الدين بباب البريد ، و شاهد ما أحدث من الخوانيت بطريق المسلمين في رحبة الجامع ، فأمر بإزالته و الاقتصار على الصفين المجاورين للحائطين من الجانبين ، و كان قد أزيل ذلك مرة أخرى في زمن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، ثم رد بعد ، ثم أزيل هذا الوقت المذكور و الله تعالى يجري الخير على يد من يشاء من عباده .

و فيها : شرع في بناء المسجد خارج دمشق على نهر يزيد عند جسر ابن البعلبكي المسامت للجسر الأبيض ، و في ليلة النصف من شعبان من هذه السنة توفي بمصر السلطان الملك الصالح أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب و أخفي بها ، و أرسل إلى ولده المقيم بحصن كيفا و هو الملك المعظم توران شاه بن أيوب فتنكر وقدم مع النجابين على زعيم وعبر على البلاد ، و لم يزل ملوك الأطراف حوله حتى وصل عانة وعدا الفرات ، و دخل البرية ، و دخل دمشق يوم الثلاثاء التاسع و العشرين من رمضان ، فنزل بالقلعة و أقام بها و أحسن إلى أهلها، ثم سافر إلى مصر يوم الاثنين في السادس و العشرين من شوال فوصل المنصورة ثامن عشر ذي القعدة ، و بها عساكر المسلمين سحرا في قبالة الفرنج الذين استولوا على دمياط ، و قبل وصول السلطان بأيام ركب الفرنج وحملوا على المسلمين سحرا على غرة فدهمهم في بيوتهم و خيامهم وتفرقوا في أزقة المنصورة و بين بيوتها ، و أيقظ الله تعالى المسلمين فاجتمعوا عليهم فقتل منهم مقتلة عظيمة منها ألف و خمسمائة فارس، ولم يفقد من المسلمين المعروفين سوى ثلاثين نفسا.

و فيها : قتل فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ و هو آخر أخوته موتاً، و قتل أيضا صاحبنا الشيخ الفاضل ضياء الدين محمد بن أبي الحجاج صاحب ديوان الجيش رحمه الله ختم الله له بالحسنى، وهي

الشهادة على ما كان فيه من فضل و تواضع، و لم ألق أحدا يعرف علم التاريخ مثله، و حصل كتباً عظيمة و كانت له همة عظيمة في تحصيل الكتب، و الفوائد و الفضائل إلى آخر عمره رحمه الله، و قدم دمشق مرات في زمان شببته و حياة والده، و في زمان شيخوخته، و كان قدم بغداد و سمع العلامة تاج الدين الكندي، و أبا حفص عمر بن طبرزد، والقاضي أبا القاسم الحرساني و غيرهم و أنشدني لنفسه و لغيره .

ثم دخلت

سنة ثمان و أربعين و ستمائة

ففي ثاني المحرم، و هو يوم الأربعاء كسر السلطان المعظم توران شاه ابن الصالح بن الكامل الفرنج الذين كانوا استولوا على دمياط ، و حاصروه بالمنصورة كسرة عظيمة قتل فيها و أسر قريب من ثلاثين ألفا و أسر ملك الفرنسيين ، و أخوه و جماعة من خواصه كانوا اختفوا في منية عبد الله من ناحية شار مساح فأخذوا برقابهم ، و في سادس عشر المحرم وصل إلى دمشق غفارة الملك فرنسيس المأسور أرسلها السلطان المعظم إلى نائبه بدمشق الأمير جمال الدين موسى بن يغمور ، فلبسها و رأيته عليه و هي أشكر لاط أحمر ، تحته فرو سنجاب ، و فيها بكلة ذهب ، فنظم صاحبنا الفاضل الزاهد نجم الدين محمد بن اسرائيل مقطعات ثلاثا ارتجالا ، كل مقطعة بيتين في مدح السلطان و الأمير أحدهما :

إن غفارة الفرنسي التبي
جاءت حباء لسيّد الأمراء
بياض القرطاس في اللون لكن
صبغتها سيوفنا بدماء

و الثانية مخاطبة للأمير :
يا واحد العصر الذي لم يزل
يحوز في نيل المعالي المدى
لا زالت في عزو في رفعة
تلبس أسلاب ملوك العدى

و الثالثة كتبها الأمير مقدمة كتاب إلى السلطان :
أسيد أملاك الزمان بأسرهم
تنجرت من نصر الإله و عوده

فلأزال مولانا ييحيى العدى
ويلبس أسلاب الملوك عبيده

و في العشرين من المحرم دخل الناس كنيسة مريم بفرحة و سرور،
ومعهم مغاني و مطربون فرحا بما جرى و هموا بهدم الكنيسة ، و بلغني
أن النصارى بيلعبك سودوا و سخموا وجوه الصور في كنيستهم حزنا
على ما جرى على الفرنج ، فعلم الوالي فجناهم جناية شديدة، وأمر
اليهود بصفعهم و ضربهم و إهانتهم .

وفي صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة وصل الخبر بقتل المعظم توران
شاه بن الصالح أيوب بن الكامل بن العادل في دهليز الخيمة، بعد مده
السماط ضرب بسيف فانهمز ودخل برج الخشب فأحرق، فرمى نفسه الى
ناحية النيل فأدرك وقطع ثم بقرية فارسكور، وكان ذلك من غلمان ابيه
البحرية واستبدوا بالأمر بعده، وأمروا عليهم أم ولد لأبيه الصالح،
وأخبرني من شاهد قتله انه ضرب أولاً فتلقى الضربة بالسيف فجرحت
يده، واختبئ الناس، وذلك بعد فراغهم من الاكل على السباط، فأظهر
ان ذلك من بعض الحشيشية فأشار بعضهم على الباقيين باتمام الامر فيه،
وقالوا: بعد جرح الحية لا ينبغي إلا قتلها . فركبوا ولبسوا السلاح واحاطوا
بخيمته وبرجه الخشب لانه كان في الصحراء بإزاء الفرنج، خذلهم الله،
فدخل البرج خوفاً منهم، فأمرؤا زرقاً باحراق البرج، فامتنع فضربت
عنقه، ثم امرؤا زرقاً اخر فرمى البرج بنفط فأحرقه، فخرج من بابه
وناشدهم الله في الكف عنه والاقلاع عما نقموا عليه، وطلب تخلية
سبيله، فلم يجب الى شيء من ذلك، فدخل في البحر الى ان وصل الماء
الى حلقه فرجع فضربه البندقاري بالسيف فوقع في الماء ثم ضربه
بالسيف ضربة اخرى على عاتقه فنزل السيف من تحت ابط اليد الاخرى
فوقع قطعتين، وكان قتله في أواخر المحرم يوم الاثنين، فبقي مكانه ذلك

اليوم والغد الى ليلة الاربعاء ونقل الى الجانب الاخر من النيل مجروراً بطرف ثوبه في الماء، فحفر له في الرمل ودفن وتغيب قبره، فانظر الى هاتين الوقعتين العظيمتين الغريبتين، كيف اتفقتا في شهر واحد احدهما في اوله: وهي الكسرة العظمى الذي استأصلتهم * والثانية: قتل السلطان على هذا الوجه الشنيع *

واخبرنا السيف بن الشهاب جلدك والي القاهرة، كان أبوه: أنه لما قتل رمي في جرف على حافة البحر، وادم عليه التراب، فبقي هناك ثلاثة أيام، ثم كشفه الماء، فنقل الى الجانب الاخر من البحر، فدفن هناك *

وحكى قصة قتله عجباً وهو: انه جر في الماء بصنارة، والجار له راكب في مركب، والصنارة بيده تجره في الماء كأنه حوت الى ان عدا به الى الجانب الآخر فدفنه هناك، فكان قتله والناس في غفلة وبهتة من أمرهم، وعوجل فلم يجد ناصراً، ولقد حكى لي المذكور انه بقي يستغيث من أعلى البرج برسول الخليفة يا أبا عز الدين ادركني، وتكرر ذلك فركب في أمره و كلمهم فيه ، فتركوه وخوفوه من القتل وخرق حرمة الخلافة فرجع، فلما فرغ من قتله نادوا: لا بأس، الناس على ما هم عليه انها كانت حاجة فقضيناها، واستبدوا بالامر، وامروا عليهم عز الدين أيبك التركماني الملقب بالملك المعز صاحب الديار المصرية وهو واحد منهم * ورجعوا الى القاهرة وكاتب امراء الشام باتباعهم فجرت في ذلك فصول استقرت آخرأ على ان قدمت العساكر الحلبية بمن معهم من الملوك من بني أيوب مع سلطانهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، رحمه الله، لأخذ البلاد، والانتقام ممن افسد هذا الامر، وقتل السلطان، فنزلوا على المغوطة والبلد في أوائل ربيع الآخر، وفي يوم الأحد سابع ربيع الآخر دخل العسكر الحلبي مدينة دمشق ضحوة النهار، وفي يوم الاربعاء عاشر الشهر، دخل السلطان، وأمن الناس، وأزال عنهم البأس، وهو الملك الناصر صلاح

الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن السلطان الكبير
المجاهد صلاح الدين يوسف بن أيوب فاتح بيت المقدس، ثم ارسل الى
القلع المجاورة لها فسلمت كبلبك، وبصري، وصرخد، واعمالها، ثم
سلمت عجلون والسلط، وتقدمت العساكر الى صوب غزة، وامتنع
حصن الكرك والشوبك بالمغيث بن العادل بن الكامل، وكان قبل ذلك
في حبس الصالح أيوب بن الكامل بحصن الشوبك وأطلق في أيام هذه
الفتنة وتسلم الحصنين، وبلغني انه طلب فأبى وخاف مما جرى على ابن
عمه المعظم بن الصالح، ثم سار الملك الناصر يوسف لأخذ الديار
المصرية، ووصل سلخ شوال الى العريش، وخرج اليه عسكر الترك
الذين بمصر، ف وقعت بينهم وقعة بسموط بين الخشبي والعباسة فانهمز
منها العسكر المصري ونهب، ثم انقطعت منهم طائفة، وانهمز الشامي
وذلك في ذي القعدة وسلم السلطان، وفقد جماعة كثيرة من اقاربه
وأمرائه بين قتل وأسر وهرب، ووصلوا إلينا في أواخر الشهر، وممن قتل
ضياء الدين القيمري، وشمس الدين لؤلؤ، وحسام الدين القيمري،
وتاج الملوك، وأسر المعظم، والنصرة ابنا صلاح الدين، والصالح بن
العادل، والأشرف بن المنصور بن أسد الدين، ثم خلص المأسورون وفقد
الصالح اسماعيل ليلة الاحد عشرين ذي القعدة سنة ثمان واربعين
وستمائة، ومولده سنة ثمان وتسعين وخمسمائة •

وفي تاسع عشر من ذي القعدة توفي المجد الاسفرائيني قارئ دار
الحديث الأشرفية من أول ما فتحت والى الآن، وهو: أبو عبد الله محمد
ابن محمد بن عمر بن الصفار من أهل بيت كبير باسفرائين، وكان
المجد رحمه الله من اهل العلم والدين مقيماً بخانقاه السيمساطي، سمع
المؤيد الطوسي وغيره، حضرت جنازته والصلاة عليه ظاهر باب النصر،
ومضوا به الى مقابر الصوفية رحمه الله، ورجعت لأنني كنت ناقهاً من
مرض، والحمد لله على العافية، وعلى كل حال •

وفي الثالث والعشرين من ذي القعدة توفي عندنا بالمدرسة العادلية بدمشق الشيخ الصالح العالم أبو الحسن علي بن عبد الله بن الهادي الضرير الاندلسي الاشبيلي رحمه الله، وكان ساكناً بالبيت الملاصق لباب السقاية وكان رجلاً صالحاً تقياً، ففاضلاً في علوم شتى، مقبلاً على شأنه مشغلاً بأوراده رحمه الله ودفن بمقبرة الصوفية، حضرت دفنه والصلاة عليه، وكان ذلك بعد العصر من يوم الخميس، ورد من الاندلس في سنة إحدى وعشرين وستائة في البحر، فأسرته الفرنج، ثم نجاه الله منهم، ووصل الى الديار المصرية وحج وجاور وسافر الى بلاد اليمن، ثم ورد مكة، ومنها الى الشام، وسكن دمشق وقرأ بها القرآن، وحفظ التنبيه في مذهب الشافعي، وفهمه وعمل بعلمه رحمه الله.

ثم دخلت سنة تسع و أربعين و ستمائة

في خلافة المستعصم ، و سلطان دمشق الملك الناصر يوسف بن محمد
ابن غازي بن يوسف بن أيوب

ففيها : توفي سعيد بن عبد الله بن جهير القرشي ، صاحبنا في ربيع
الأول ، و نجم الدين عثمان بن عمر المراغي ، الشيخ الصالح ، في ربيع
الآخر و دفنا بمقابر الصوفية رحمهما الله .

و فيها مات الموفق الخوئي في خامس شعبان و دفن بالجبل ، و فيها :
في الثاني و العشرين من ذي القعدة توفي الحسام أبو بكر الحموي
الواعظ ، بلغ الحسام نيفا و تسعين سنة ، و في ذي الحجة مات الشيخ
شمس الدين محمد بن عبد الكافي الربيعي ، و كان قد درس بالكلاسة و
الأمينية ، و ناب في القضاء مدة بدمشق و حمص ، و دفن بالجبل .

و فيها : ولدت ابنتي رقية في جمادى الأول بالنصف منه ، و فيها :
فرغ اسماعي التاريخ و الروضتين .

و فيها : مات بالديار المصرية خطيب القاهرة الشيخ بهاء الدين علي
ابن هبة الله ، و كان أولا معيدا لشهاب الدين الطوسي بمنازل ، و درس
بزاوية الإمام الشافعي بجامع مصر ، و هو ابن بنت الفقيه أبي الفوارس
ابن الجميزي رحمه الله ، و كان سمع من الحافظين ابن عساكر والسلفي
بالشام و مصر . و من شهدة ببغداد .

و فيها مات صاحبنا العفيف يعقوب المهيوني بمنية ابن خصيب ،
وكان قاضيهها و مدرسهها ، و فيها : مات الرشيد عبد الظاهر المقيم
بمسجد باب الزهومة رحمه الله .

ثم دخلت

سنة خمسين و ستائة

ففيها: توفي الرشيد بن مسلمة في ثامن عشر ذي القعدة و دفن بالجبل.

و فيها : توفي بمصر ابن مطروح ، و في الثالث و العشرين من ذي القعدة توفي الشريف عدنان ، و الفقيه كمال الدين اسحاق بن أحمد المقرئ المقيم ، كان بالمدرسة الرواحية ، و كان رحمه الله جامعا بين العلم و العمل ، زاهدا ، مؤثرا ، متواضعا حسن الأخلاق ، و دفن عند قبر شيخه تقي الدين بن الصلاح رحمه الله بالصوفية بالشرف القبلي بدمشق.

ثم دخلت

سنة احدى و خمسين و ستائة

ففي سادس المحرم توفي الفقيه كمال الدين أبو المكارم عبد الواحد خطيب زمكا رحمه الله ، و كان فاضلا، عالما، خيرا، متميزا في علوم متعددة ، و تولى قضاء صرخد ، و درس ببعلبك ثم توفي بدمشق ، ودفن بمقابر الصوفية رحمه الله.

و فيها : في شوال توفيت ابنتي رقية رحمه الله و عمرها ستان وخمسة أشهر و دفنت بمقابر الصوفية عند قبر أبي الزهر خال أمها ، و كان أبوه الخطيب يعني أبوه كمال الدين يسمى عبد الكريم ، هو ابن خلف بن نبهان بن سلطان بن أحمد بن خليل بن حسن بن سعيد الأنصاري السماكي ، توفي الخطيب المذكور في ذي الحجة سنة ثلاث و ثلاثين وستائة ، و هكذا وجدت في تاريخ وفاته ، وقيل في سنة خمس وثلاثين وستائة.

ثم دخلت

سنة اثنتين و خمسين و ستائة

ففيها : توفي السديد بن علان ، و هو آخر من روى عن الحافظ أبي القاسم سماعا بدمشق.

و فيها : توفي بحلب النصر بن صلاح الدين ، و الشيخ كمال الدين ابن طلحة و كان فاضلا ، عالما ، تولى القضاء ببلاد بصرى ، و الخطابة بدمشق ، ثم طلب لمنصب الوزارة فأيقظه الله تعالى ، و زهد في رئاسات الدنيا ، و تزهد و انقطع و حج في هذه السنة ، و لما رجع من الحج أقام بدمشق قليلا ، و سمع عليه فيها رسالة القشيري ، ثم سافر إلى حلب فتوفي بها في السابع و العشرين من رجب من السنة المذكورة رحمه الله ، و فيها : توفي فارس الدين يوسف بن السلار بدمشق.

و قتل بمصر فارس الدين أقطاي الذي تغلب على البلاد و قهر أهلها، و تقدم على البحرية الذين أهلكوا الناس ، و استقر ملك الديار المصرية لأبيك التركماني ، و يلقب بالملك المعز .

و فيها : توفي العفيف أحمد الصيداوي ، و كان شيخا مشغلا بالبحث في أخبار النبي صلى الله عليه و سلم ، و الفقه ، و كتب الرقائق إلى أن مات رحمه الله في شعبان . و فيها : توفي الكمال بن تميم ، و فيها : في رابع شوال توفي الناصح فرج بن عبد الله الحسيني المعروف بفتى الشيخ أبي جعفر ، رحمه الله ، و كان يسند ، كثير السماع ، خيرا ، صالحا ، مواظبا على سماع الحديث و إسماعه إلى أن مات بدار الحديث النورية .

- ٩٣٤٩ -

و فيها : في الخامس و العشرين من شوال توفي بدمشق الشيخ شمس الدين عبد الحميد بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب، و كان شيخا نبيهيا، فاضلا، متواضعا حسن الظاهر .

ثم دخلت

سنة ثلاث و خمسون و ستائة

ففيها : ليلة الاثنين ثامن عشر صفر توفي بحلب الشهاب الفقيه ضياء الدين سنقر بن يحيى رحمه الله، و كان فاضلا، دينا ، ورعا و من شعره
من ادعى أن له حاجة
تخرجه عن منهج الشرع
فلاتكون له صاحبا
فلإنه ضرب بالانفع

و له معجم حكي فيه عن شيوخه و عمل فيه بعض الفضلاء :
كم معجم طالعه مقلتي فبدا
للحظ لها منه فضل غير منقوص
فلا سمعت ولا عاينت في زمني
أتم في فضله من معجم القوصي

قلت : طالعه فرأيت فيه أغاليظ كثيرة، وتصحيف أساء وتبديلها،
وأول ذلك في نسب نفسه بأنه انتسب الى سعد بن عبادة الانصاري،
وظن أن عبادة هذا هو عبادة بن الصامت، وإنما هو عبادة بن دليم،
وعبادة بن الصامت صاحب كبير غير هذا، وصحف في سند خرقة
التصوف حبيبا أبا محمد حسينا كل ذلك بخطه .

وفيهما: يوم الاثنين سابع عشر ربيع الأول توفي الشهاب القوصي
بدمشق أبو العرب اسماعيل بن حامد بن عبد الرحمن الأنصاري، ودفن
بداره بالقرب من الرحبة، وكان قد وقفها دار حديث رحمه الله. وكان
ظريفاً حسن المحاضرة.

- ٩٣٥١ -

وفيها : في الثالث والعشرين من شوال توفي الشمس محمد بن عبد العزيز بن خلدون الشاعر الكاتب ، ولجده ذكر في تاريخ دمشق رحمه الله.

وفيها: بعد صلاة الصبح من يوم السبت الخامس والعشرين من شوال ولد لي ولد ذكر وأمه قريشية من بني عبد الدار بن قصي فأسميته أحمد، وكنيته أبا الهدى جعله الله بفضله هادياً مهدياً، وجاءني بعد خمس مرضات فدعوت الله أن يرزقني ولداً ذكراً.

وجاءنا الخبر من حلب بوفاة الشريف المرتضى نقيب الأشراف بها رحمه الله، ومن مصر بموت العباس بن ثابت المقرئ.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وستمائة

ففيها: توفي الشيخ عماد الدين عبد الله بن الحسن بن الحسين المعروف بابن النحاس بمسكنه بالجبل رحمه الله، وكان زاهداً، خيراً من كبار الناس ونبلائهم، وكان في أذنيه صمم فانتفع بذلك وخلص من استماع أحاديث الناس، فانتفع بالعبادة معتكفاً بمسجده، تالياً في مصحفه، وكانت وفاته يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من صفر رحمه الله تعالى.

وفيهما: في ربيع الآخر توفي الزكي بن الفويرة أحد المعدلين بدمشق يوم الجمعة، وفي غد يوم السبت توفي الشمس عبد الرحمن بن نوح بن محمد ابن ابراهيم المقدسي الشافعي مدرس الرواحية بعد شيخه التقي بن الصلاح، ودفن في أول مقابر الصوفية في ثامن الشهر المذكور، وبلغني أنه كان له جنازة حفلة وكنت غائباً عنها رحمه الله. وكثر موت الفجأة في تلك الأيام فمات بها جماعة منهم: مؤذن مدرستنا العادلية الشمس الخوارزمي وغيره.

وفيهما: توفي صاحبنا الأمير مظفر الدين ابراهيم بن الأمير عز الدين أيك المعظمي، أستاذ الدار لصاحب صرخد رحمه الله، وتوفي أبوه قبله بالديار المصرية، ثم نقل الى تربته في القبة التي بناها بمدرسته التي على طريق الميدان الأخضر الكبير الشمالي، وله مدرسة أخرى داخل دمشق بالكشك تعرف قديماً بدار ابن منقذ.

وفيهما: ليلة السادس عشر من جمادى الآخرة خسف القمر أول الليل، وكان شديد الحمرة، ثم انجلى، وكسفت الشمس في غده احمرت وقت

طلوعها وقريب غروبها وبقيت كذلك أياماً متغيرة اللون ضعيفة النور والله تعالى على كل شيء قدير، واتضح بذلك ماصوره الشافعي رحمه الله من اجتماع الكسوف والعيد واستبعده أهل النجامة.

وجاء الى دمشق كتب من المدينة على ساكنها السلام بخروج نار عندهم في خامس جمادى الآخرة، وكتبت الكتب في خامس رجب والنار بحالها، ووصلت الكتب إلينا في عاشر شعبان.

وفي أول يوم رمضان شنت العز الخلطي نفسه . في بيته بالمدرسة العادلية، أعادنا الله تعالى من البلاء.

بسم الله الرحمن الرحيم

ورد الى مدينة دمشق حرسها الله تعالى في أوائل شعبان من سنة أربع وخمسين وستائة كتب من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها شرح عظيم حدث بها، فيه تصديق لما في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لاتقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الابل ببصرى»، فأخبرني بعض من أثق به ممن شاهدها بالمدينة بلغه أنه كتب بتيماء على ضوئها الكتب، قال وكنا في بيوتنا تلك الليالي، وكان في دار كل واحد منا سراجا ولم يكن لها ضوء بقدر عظمها، وإنما كانت آية من آيات الله تعالى، وهذه صورة ماوقفت عليه من الكتب الواردة فيها: لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستائة ظهر بالمدينة دوى عظيم، ثم زلزلة عظيمة رجفت منها المدينة، والحيطان، والسقوف، والأخشاب، والأبواب ساعة بعد ساعة الى يوم الجمعة الخامس من الشهر المذكور، ثم ظهرت نار عظيمة في الحرة قريباً من قريظة نبصرها من دورنا بداخل المدينة كأنها عندنا، وهي نار عظيمة اشعلها أكثر من ثلاث منائر،

وقد سالت أودية منها بالنار الى وادي شظاة سيل (١٢٨) الماء. وقد سدت سبيل شظاة وما عاد بسبيل، والله لقد طلعتنا جماعة نبصرها فإذا الجبال تسير نيرانا، وقد سدت الحرة طريق الحاج العراقي فسارت الى أن وصلت الحرة فوقفت بعد أن أشفقنا أن تجيء إلينا ورجعت تسير في الشرق ويخرج من وسطها سهول وجبال نيران تأكل الحجارة، فيها أنموذج عما أخبر الله تعالى في كتابه العزيز فقال عز من قائل: (انها ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالات صفر) (١٢٩).

وقد أكلت الأرض، وقد كتبت هذا الكتاب يوم خامس رجب سنة أربع وخمسين وستمائة، والنار في زيادة ماتغيت، وقد عادت الى الحارار في قريظة طريق غير الحاج العراقي الى الحرة كلها نيران تشتعل نبصرها في الليل من المدينة كأنها مشاعيل الحاج، وأما أم النار الكبيرة فهي جبال نيران حمر، والأم الكبيرة التي سالت النيران منها من قريظة، وقد زادت، وما عاد الناس يرون أي شيء بعد ذلك والله يجعل العاقبة الى خير، وما أقدر أن أصف هذه النار.

وفي كتاب آخر: ظهر في أول جمعة من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة في شرقي المدينة نار عظيمة، بينها وبين المدينة نصف يوم انفجرت من الأرض، وسال منها واد من نار حتى حاذى جبل أحد، ثم وقفت وعادت وإلى الساعة لاندري ماذا نفعل، ووقت ما ظهرت دخل أهل المدينة الى نبيهم عليه الصلاة والسلام مستغفرين تائبين الى ربهم، وهذه دلائل القيامة.

وفي كتاب آخر: لما كان يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة وقع صوت يشبه الرعد البعيد تارة وتارة، أقام على هذه الحال يومين، فلما كان ليلة الأربعاء ثالث الشهر المذكور تعقب الصوت الذي كنا نسمعه زلازل فتقيم على هذه الحالة ثلاثة أيام يقع في اليوم

والليلة أربع عشرة زلزلة، فلما كان في يوم الجمعة خامس الشهر المذكور انبجست الحرة بنار عظيمة يكون قدرها مثل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي برأي العين من المدينة نشاهدها، وهي (ترمي بشر كالقصر) كما قال الله تعالى، وهي بموضع يقال له أحيلين (١٣٠)، وقد سال من هذه النار واد يكون مقداره أربع فراسخ، وعرضه أربعة أميال، وعمقه قامة ونصف، وهي تجري على وجه الأرض، ويخرج منها أمهاد وجبال صغار يسير على الأرض وهو صخر يذوب حتى يبقى مثل الآنك (١٣١)، فاذا خمد صار أسود، وقبل الخمود لونه أحمر، وقد حصل بطريق هذه النار اقلع عن المعاصي والتقرب الى الله تعالى بالطاعات، وخرج أمير المدينة عن مظالم كثيرة الى أهلها.

ومن كتاب شمس الدين سنان بن عبد الوهاب بن تميلة الحسيني قاضي المدينة الى بعض أصحابه: لما كان ليلة الأربعاء ثالث شهر جمادى الآخرة، حدث بالمدينة في الثلث الأخير من الليل زلزلة عظيمة أشفقنا منها وباتت باقي تلك الليلة تزلزل كل يوم وليلة قدر عشر نوبات، والله لقد زلزلت مرة ونحن حول حجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم اضطرب لها المنبر الى أن أوجسنا منه صوتاً للحديد الذي فيه واضطربت قناديل الحرم الشريف النبوي، ودامت الزلزلة الى يوم الجمعة ضحى، ولها دوي مثل دوي الرعد القاصف، ثم طلع يوم الجمعة في طريق الحرة في رأس أحيلين نار مثل المدينة العظيمة، وما بان لنا إلا ليلة السبت وأشفقنا منها وخفنا خوفاً عظيماً، وطلعت الى الأمير وكلمته، وقلت له: قد أحاط بنا العذاب أرجع إلى الله فاعتق كل مما ليكه، ورد على جماعة أموالهم، فلما فعل هذا قلت له: أهبط الساعة معنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فهبط وبتنا ليلة السبت والناس جميعهم، والنسوان وأولادهم ولا بقي أحد لافي النخيل ولا في المدينة إلا عند النبي صلى الله عليه وسلم، وأشفقنا منها وظهر ضوءها إلى أن أبصرت من مكة ومن الفلاة جميعها، ثم سال منها نهر من نار وأخذ في وادي أحيلين وسد

الأربعاء الثالث من جمادى الآخرة، ومن قبلها بيومين عاد الناس يسمعون صوتاً مثل الرعد ساعة بعد ساعة، وما في السماء غيم حتى نقول إنه منه، يومين إلى ليلة الأربعاء، ثم ظهر الصوت حتى سمعه الناس، وتزلزلت الأرض ورجفت بنا رجفة لها صوت كدوي الرعد فانزعج لها الناس كلهم، وانتبهوا من مراقدهم، وضج الناس بالاستغفار إلى الله تعالى وفزعوا إلى المسجد وصلوا فيه ودامت ترجف بالناس ساعة بعد ساعة إلى الصبح، وذلك اليوم كله يوم الأربعاء وليلة الخميس كلها، ويوم الخميس وليلة الجمعة، وصبح يوم الجمعة الخامس من الشهر ارتجت الأرض رجّة قوية إلى أن اضطرب منار المسجد بعضه ببعض، وسمع لسقف المسجد صرير عظيم، وأشفق الناس من ذنوبهم، وسكنت الزلزلة بعد صبح يوم الجمعة إلى قبل الظهر، ثم ظهرت عندنا بالحرّة وراء قريظة على طريق السوارقية بالمقاعد مسيرة من الصبح إلى الظهر نار عظيمة تنفجر من الأرض، فارتاع الناس لها روعة عظيمة. ثم ظهر لها دخان عظيم في السماء ينعقد حتى يبقى كالسحاب الأبيض إلى قبل مغيب الشمس من يوم الجمعة، ثم ظهرت لها ألسن تصعد في الهواء إلى السماء حمراء كأنها العلقمة، وعظمت وفزع الناس إلى المسجد النبوي، وأقروا بذنوبهم، وابتهلوا إلى الله سبحانه، واستجاروا بنبيه عليه السلام، وأتى الناس إلى المسجد من كل فج ومن النخل، وخرج النساء من البيوت، والصبيان، واجتمعوا كلهم فأخلصوا لله وغطى حمرة النار السماء كلها حتى بقي الناس في مثل ضوء القمر، وبقيت السماء كالعلقمة، وأيقن الناس بالهلاك منها أو العذاب، وبات الناس تلك الليلة بين مصل، وتال للقرآن، وراكع، وساجد، وداع إلى الله، ومتنصل من ذنبه، ومستغفر وتائب، ولزمت النار مكانها، وتناقص تضاعفها ذلك ولهيها، وصعد الفقيه والقاضي إلى الأمير يعظونه، فطرح المكس، وأعتق مماليكه كلهم وعبيده، ورد علينا كل مالنا تحت يده وعلى غيرنا، وبقيت تلك النار على حالتها تلهب التهاباً، وهي كالجبل العظيم، وكالمدينة العظيمة ارتفاعاً

الطريق ثم طلع الى بحرة الحجاج وهو بحر نار بحري وفوقه جمر يسير إلى أن قطعت النار الوادي وادي الشظاة، وماعاد يجيء في الوادي سيل قط لأنها حرة تجيء قامتين وثلاث علوها، وبالله يا أخي إن عيشتنا اليوم مكدره، والمدينة قد تاب جميع أهلها ولا بقي تسمع فيها رباب، ولادف، ولا شرب، وتمت النار تسير إلى أن سدت بعض طريق الحجاج وبعض بحرة الحجاج، وجاء في الوادي منها الينا كثير، وخفنا أنها تبيثنا، واجتمع الناس ودخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم وباتوا عنده جميعهم ليلة الجمعة، وأما قتيها الذي مما يلينا فقد طفئ بقدره الله سبحانه وتعالى، وإنها إلى الساعة مانقصت إلا ترمى مثل الجمال حجارة من نار، ولها دوي ما يدعنا نرقد، ولانأكل، ولان شرب، وما أقدر أصف لك عظمها، ولانافيها من الأهوال، وأبصرها أهل ينبع وندبوا قاضيهم ابن أسعد وجاء وعدا إليها وما أصبح يقدر أن يصفها من عظمها، وكتب الكتاب يوم الخميس من رجب وهي على حالها، والناس منها خائفون، والشمس والقمر من يوم طلعت ماتطلعان إلا كاسفين فنسأل الله العافية.

قلت: بان عندنا بدمشق أثر الكسوف من ضعف نورها على الحيطان، وكنا حيارى من ذلك إلى أن جاءنا الخبر عن هذه النار.

ومن كتاب آخر من بعض بني القاشاني بالمدينة يقول فيه: وصل الينا في جهادى الآخرة نجابة من العراق وأخبروا عن بغداد أنه أصابها غرق عظيم حتى دخل الماء من أسوار بغداد إلى البلد، وغرق كثير من البلد، ودخل الماء دار الخليفة وسط البلد، وانهدمت دار الوزير وثلاثمائة وثمانون داراً، وانهدم مخزن الخليفة، وهلك من خزانة السلاح شيء كثير، بل تلف كله، وأشرف الناس على الهلاك، وعادت السفن تدخل إلى وسط البلد وتُحترق أزقة بغداد.

قال: وأما نحن فإنه جرى عندنا أمر عظيم لما كان بتاريخ ليلة

وعرضاً، تخرج منها حصى يصعد في السماء ويهوي فيها، ويخرج منها
كالجبل العظيم نار ترمي كالرعد وبقيت كذلك أياماً، ثم سالت سيلاناً
في وادي أحيلين تنحدر مع الوادي إلى الشظاة حتى كادت تقارب حرة
العريض، ثم سكنت ووقفت أياماً، ثم عادت النار تخرج وترمي بحجارة
خلفها وأمامها حتى بنت لها جبلين خلفها وأمامها، وما بقي يخرج منها
من بين الجبلين لسان لها أياماً، ثم أنها عظمت الآن وسناها إلى الآن
وهي تنقد كأعظم ما يكون، ولها كل يوم صوت عظيم من آخر الليل إلى
ضحوة، ولها عجائب ما أقدر أن أشرحها لك على الكمال، وإنما هذا
طرف منها كبير يكفي، والشمس والقمر كأنهما منكسفان إلى الآن،
وكتبت هذا الكتاب ولها شهر وهي في مكانها ما تتقدم ولا تتأخر حتى
قال فيها بعضهم أبياتاً:

يا كاشف الضر صفحاً عن جرائمنا
لقد أحاطت بنا يارب بأساء
نشكو إليك خطوباً لأنطبق لها
حملاً ونحن بها حقاً أحقاء
زلازلاً تخشع الصمم الصلاب لها
وكيف يقوى على الزلزال شماء
أقام سبعاً تخرج الأرض فأنصدعت
عن منظر منه عين الشمس عشواء
بحر من النار تجري فوقه سفن
من الهضاب لها في الأرض ارساء
يرى لها شرر كالقصر طائشة
كأنها ديمة تنصب هطلاء
تنشق منها قلوب الصخر إن زفرت
رعباً وترعد مثل السيف أضواء
منها تكاثف في الجوالد خان إلى
أن عادت الشمس منه وهي دهماء

قد أثرت سفعة في النار لفحتها
قليلة التتم بعد النور ليلاء
تحدث النيرات السبع السنه
بما يلاقى بها تحت الثرى الماء
وقد أحاط لظاهابا بالبروج إلى
أن كساد يلحقها بالأرض إهواء
فيها آية من معجزات رسول الله
— به يعقلها القوم الألباء
فباسمك الأعظم المكنون إن عظمت
منا الذنوب وساء القلب أسواء
فاسمح وهب وتفضل وأمح وأعف
وجد واصفح فكل لفرط الجهل خطاء
فقوم يونس لما آمنوا كشف الله
— عذاب عنهم وعم القوم نعماء
ونحن أمة هذا المصطفى ولنا
منه إلى عفوك المرجو دعاء
هذا الرسول الذي لولاه ما سلكت
محجة في سبيل الله بيضاء
فارحم وصل على المختار ما خطبت
على منبر الأوراق ورقاء.

ونظم بعضهم في هذه النار وغرق بغداد بيتين:
سبحان من أصبحت مشيئته
جارية في الوادي بمقدار
أغرق بغداد بالمياه كما
أحرق أرض الحجاز بالنار

قلت : كأن ينبغي أن
ينبه على أن الأمرين في سنة واحدة، وإلا فالأغراق والأحراق يقعان

كثيراً، فالصواب أن يقال:
في سنة أغرق العراق وقد
أحرق أرض الحجاز بالنار

وفيها: في ليلة الجمعة أول ليلة من شهر رمضان هذه السنة، وهي
سنة أربع وخمسين وستمائة احترق مسجد المدينة على ساكنها السلام،
ابتدأ الحريق من زاويته الغربية من الشمال، وكان دخل أحد القومة إلى
خزانة ثم ومعه نار فعلقت في الآت ثم واتصلت بالسقف بسرعة، ثم
دبت في السقوف آخذة قبلة فأعجلت الناس عن قطعها، فما كان إلا
ساعة حتى احترقت سقوف المسجد جميعها، ووقعت أساطينه وذاب
رصاصها وكل ذلك قبل أن ينام الناس، واحترق سقف الحجرة النبوية
على ساكنها السلام، ووقع ماوقع منه في الحجرة، وبقي على حاله لما شرع
في عمارة سقفه وسقف المسجد، وكان ذلك ليلة الجمعة وأصبح الناس
ف عزلوا مواضع للصلاة وعدوا ماوقع من تلك النار الخارجة وحريق
المسجد من جملة الآيات وكأنها منذرة بما يعقبها في السنة الآتية من
الكائنات على ما سنذكره إنشاء الله تعالى، ونظمت في حريق مسجد
رسول الله صلى الله عليه وسلم:

لم يحترق حرم النبي للحادث
يخشى عليه ولادهاه العار
لكنكم أيدي الروافض لامت
ذاك الجنب فطهرته النار

وقلت أيضاً لسبب السنة:
بعد ست من المئين وخمسين
لدى أربع جرى في العالم
نار أرض الحجاز مع حرق
المسجد مع غريق دار السلام

ثم أخذ التاتار بغداد في
أول عام من بعد ذلك العام
لم يف من أهلها وللكفر أعوان
عليهم ياضية الاسلام
وانقضت دولة الخلافة منها
صار مستعصم بغير اعتصام
رب سلم وصن وعاف بقايا
المدن يـ اذا الجلال والاكرام
فحننا على الحجاز ومصر
وسلام على بلاد الشام

وفي ذي القعدة توفي مجير الدين يعقوب بن الملك العادل أبي بكر بن
أيوب في يوم الأربعاء سادس عشر الشهر المذكور، ودفن بمقبرة والده
بالمدرسة العادلية.

وفي الخامس والعشرين من ذي القعدة توفي معين الدين محمد بن
عبد الله بن عصرون، وكان أيضاً شاباً حسناً فاضلاً متميزاً، أحد من
اشتغل عليّ رحمه الله، ومات قبله بأيام ابن عمه مجير الدين بن محيي
الدين ابن عصرون. وكان أيضاً شاباً حسناً من أولاد الأكابر بدمشق.

وفي يوم الجمعة ثالث ذي الحجة توفي العز بن أبي طالب بن عبد
الغفار التغلبي، يعرف بابن الخثوي وجده لأمه هو القاضي جمال الدين
أبو القاسم الحرساني الأنصاري، رحمه الله تعالى.

وفي يوم الخميس تاسع ذي الحجة وهو يوم عرفة توفي شمس الدين
محمد بن المبارك السنجاري، وكان سخيّاً فاضلاً، سمع معي كثيراً من
كتب الحديث وغيرها، لما أسمعت ولدي محمداً رحمه الله. واسمه معه في

طباق كثيرة، ثم سافر إلى مصر، وحج وجاور سنين كثيرة بالحرمين، ثم قدم دمشق، فأقام بها نحو عامين، وتوفي رحمه الله تعالى.

وفيها: ليلة الثلاثاء الحادي والعشرين من ذي الحجة توفي الشيخ شمس الدين يوسف سبط الإمام أبي الفرج بن الجوزي الواعظ رحمه الله، بمنزله بالجبل، ودفن هناك وحضر جنازته خلق عظيم، سلطان البلد فمن دونه، وكنت مريضاً حينئذ فلم يقدر لي حضورها، ورأيت موته مناماً تلك الليلة قبل أن أسمع به يقظة إلا أنني رأيته في حالة منكورة، ورأى غيري كذلك نسأل الله العافية. ودرس بالمدرسة الشبلية مدة كان سكنه يومئذ بالتربة البدرية الحسينية قبالتها على ثورا، وكان فاضلاً، عالماً، ظريفاً منكرأ على أرباب الدولة ماهم عليه من المنكرات لزم آخر عمره سنين كثيرة ركوب الخمار طالعاً عليه إلى منزله بالجبل ونازلاً عليه إلى مدرسة العزبة بالشرف الشمالي وإلى غير ذلك، مقتصدأ في لباسه، مواظبأ على المطالعة والاشتغال والجمع والتصنيف، منصفأ لأهل العلم والفضل مباينأ لأولى الجبرية والجهل، يأتي الملوك وأرباب الدول إليه زائرين وقاصدين، وربي طول زمانه في جاه عريض عند الملوك، والعوالم نحو خمسين سنة، وكان مجلس وعظه مطرباً، وصوته فيما يورده فيه حسناً طيباً، رحمه الله ورضي عنه.

وفيها: يوم الأربعاء الثاني والعشرين من ذي الحجة توفي الشيخ بدر الدين المراغي شيخ خانقاه الطاحون، وقع به سلم من أعلاه إلى الوادي، وكان شخصاً حسناً صالحاً فقيهاً، تولى العقود مدة، والقضاء بوادي بردى، ثم انقطع في هذه الخانقاه في آخر عمره إلى أن توفي بها رحمه الله ورضي عنه.

ثم دخلت

سنة خمس وخمسين وستمائة

ففي أول ربيع الأول توفي الأمير بدر الدين بن الحسن المغربي الميروي، وكانت له بنت عندنا بالمدرسة العادلية، ودفن بالجبل بمقبرة ابن يغمور رحمه الله وهو من أقارب الميروي الملك المشهور ببلاد الغرب.

وفيها: في ثامن ربيع الأول توفي الشيخ تقي الدين عبد الرحمن بن أبي الفهم اليلداني، بقرية يلدا (١٣٢) ودفن بها، وكان شيخاً صالحاً مشغلاً بالحديث سماعاً إلى أن توفي، وله نحو من مائة سنة، أخبرني أنه كان مرافقاً في سنة سبع وستين رحمه الله حين طهر نور الدين بن زنكي ولده، وأنه حضر الطهور، ولعب الأمراء بالميدان في فرشة مع الصبيان، وأخبرني أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: يا رسول الله بالله ما أنا رجل جيد؟ فقال: بلى أنت رجل جيد، أسمعت عليه ولدي أبا الحزم محمداً رحمه الله كثيراً بقراءتي عليه وقراءة غيري، وأجاز لابني أبي الهدى أحمد أنشأه الله صالحاً رواية جميع ما يجوز له عنه روايته رحمه الله.

وفيها: في منتصف ربيع الأول توفي الشيخ شرف الدين محمد بن أبي الفضل المرسي رحمه الله، في طريقه من مصر إلى الشام، ودفن بمنزله بين العريش والداروم، وكان شيخاً فاضلاً متقياً كثير الحج محقق البحث مقتصداً في أموره، كثير الكتب معتنياً بالنفيس منها محصلاً لها، وقد كان أعطي قبولاً بالبلاد الإسلامية، لايجل في بلد إلا ويكرمه رؤساؤها وأهلها، وأكثر مقامه بالحجاز ومصر والشام، وفي أوائل شهر ربيع الآخر جاءنا الخبر من ديار مصر بموت ملكها حيثئذ عز الدين أيبك التركماني أحد ممالك نجم الدين أيوب بن الكامل بن العادل بن أيوب، وهو الذي غلب عليها بعد قتل ابنه المعظم بن الصالح بن الكامل، وتلقب بالملك

المعز، وكثر الظلم والقتل بتلك الديار من الممالك المعروفة بالبحرية في أموال المسلمين ونسائهم، وأولادهم إلى أن قتل رفيقه فارس الدين أقطاي، ثم مات هذا التركماني بداره بغتة ولا يعلم سبب موته، وتعصب أصحابه لإقامة ابنه مقامه، ولقبوه بالملك المنصور نور الدين علي، وضرب الدراهم باسمه واتهموا زوجة التركماني أنها قتلتها، فأعدموها وكانت جارية لسيدهم الملك الصالح أيوب بن الكامل، تكنى أم خليل بابن له منها درج، وتلقب شجر الدر، الله يصلح أمور المسلمين، وكانت أيضاً قد خنقت وزيرها القاضي الأسعد شرف الدين الفائزي

وفي هذه السنة نظمت قصيدتين في أم ولدي أحمد ست العرب ابنة شرف الدين محمد بن علي بن دنو القرشي العبدري الأندلسي المرسي، وكان من أهل الفضل والرئاسة في الدنيا ومن وجوه بلده:

تزوجت من أولاد دنو عقيلة

بها من خصال الخير ما حير العقلا

مكملة الأوصاف خلقاً وخلقه

فأهلاً بها أهلاً وسهلاً بها سهلاً

ولود وودود حرة قرشية

مخدرة مع حسناتها تكرم البعلا

وباذلة نظيفة ولطيفة

من أظرف أنسان وأحسنهم شكلاً

صبور شكور حلوة وفصيحة

ومتقنة أي تتقن القول والفعل

تغار من أسباب النقائص كلها

وتحفظ مال الزوج والنفس والأهلاً

حصان رزان ليس فيها تكبر

قنوع فلا شرب يندوم ولا أكلاً

مطاوعة للبعل يقظى أدبية

موافقة قولاً وفعلًا أعلاً

صغيرة ســــن في الكــــلام كبيرة
نهاها يري بالهاا الحلم والجهلا
يشرن عليها بالتفرج مرة
فتأبى وقعر البيت في عينها أحلى
مدارية للأهل إن عتبت وإن
أجبت فلا عقد لديها ولا غلا
رقية قلب مع سلامة دينها
فلست ترى شهاأ لها في النساء أصلا
خدوم بقلب في جميع أمورها
مباشرة للكل مادق أو جلا
ملازمة للشغل في البيت دائما
على صغر من سنها لا تنى فعلا
مطرزة خياطة ذهبيّة
مفصلة خطاطة تحكم الغزلا
تنقل في الأشغال من ذا وذا وذا
وتفعل حتى الكنس والطبخ والغسلا
وما ذاك من عدم فلم يخل بيتها
من امرأة تكفي إذا شاءت الفعلا
ولكنها اعتادت نظافة شغلها
فعافت فعال الكل واحتملت فعلا
خفيفة روح مع وقار ذكيّة
فتفهم ما يلقي لديها وما يتلى
وان نظرت ما لم تعرفه صممت
عليه إلى أن تحتويه وما اختلا
لها مهة عليا تطول روحها
على صعب الأشغال تتركه سهلا
مربية حنانة ذات رحمة
فكل يقيم واحد عندها فضلا

نفور إذا ارتابت ألوف أهلها
فمهلاً إذا قيس النساء بها مهلاً
كذلك كان الحظ لما تعرضت
له حاصلاً فيها صحيحاً وما اعتلا
سريعة دمع العين من رقعة بها
فيما بعد أن تلقى لها في النساء مثلاً
عديمة لفظ والتفات إذا مشت
صموت فلا قطعاً ترد ولا وصلاً
ولم ينكشف منها بنان يحار من
مشى معها في حفظها أيدها قبلاً
يعز على من يطرق الباب لفظها
جواباً فلا عقد تراها ولا حلاً
يطيل وقوفاً لا يجاب محرم
عليها كلام الأجنبي وإن قلاً
تميز حتى في الكلام فلا ترى
لها لفظ إلا وقد وقعت فصلاً
ولست ترى من لثغة في كلامها
فالفاظها دأري نضد أو أغلى
إذا أبصرت ما فيه عيب لها أبست
وتفعل ما تهوى طريقته المثل
وحافظة للغيب صالحة أتت
لحق إذا كانت مناقبها تتلى
وقائنة صوامية ومدلة
بعقل وتدبير تراها العدا بخلاً
يقر لها بالفضل في العقل كل من
يراه من النسوان ما تعرف الهزلاً
من المحصنات الغافلات فمن رمى
حصانتها يلعن وذالك به أولى

تجمع فيها عفة ونزاهة
وعزة نفس فهي تكلا ولا تقلا
وأحسن من ذا كله ان هذه
الخصائل طبع لم تكلف لها حملا
تقل نظير في نساء زماننا
فلا تعدلوني في محبتها عدلا
بنيت بها بنتا لأربع عشرة
وهذه الخصال الغر في ذاتها تحلا
وأوصافها في كل عام تزايدت
ولم تتغير قسط سيرتها الأولى
وحسبك عشر من سنين لها انقضت
معني لم أقل أفالديها ولا كلا
ولقد جملت لا غير الله ما بها
عشيرتها والأمر من بعد ذا أعلى
فلله حمد دائم ونسائله
مزيد الذي أسدى وتتميم ما أولى
ولكن فيها انفورة وتغيضا
وسرعة غيظ عند لفظ لها يعلا
فوالله ما أدري أذلك مسقط
مناقبها عند الجحود لها أم لا

و خامس عشر جمادى الآخرة توفي بدمشق الشيخ أبو العباس أحمد
ابن يوسف التلمساني المقيم بالمنارة الشرقية بالجامع من سنين كثيرة،
وكان شيخاً معمرأً منقطعاً عن الناس محباً للعزلة، ودفن بالجبل، وكان
يروى كتاب الأحكام الصغرى لعبد الحق الاشبيلي عن البرهان بن
غلوش، مدرس المالكية بدمشق عن المصنف رحمه الله.

وفي يوم الأربعاء ثامن عشر ذي الحجة عمل صلاة الغائب عن
الشيخ نجم الدين البادراني هو:

أبو محمد عبد الله بن أبي الوفاء محمد بن الحسن بن عبد الله بن عثمان ابن أبي الحسن حسون، مولده يوم الجمعة بعد العصر سلخ المحرم سنة أربع وتسعين وخمسائة، وتوفي يوم السبت مستهل ذي الحجة سنة خمس وخمسين وستائة ببغداد، ودفن قريباً من الجنيد رضي الله عنه، درس بالنظامية وبمدرسته التي أنشأها بدمشق في موضع دار سامية، وكان شيخاً فاضلاً صالحاً، فقيهاً، كريماً، متواضعاً وكان يقدم الشام والديار المصرية رسولا من قبل آخر خلفاء بغداد وهو: المستعصم بن الظاهر بن الناصر بن المستضيء، وبنى بدمشق المدرسة المذكورة وهي مدرسة حسنة للفقهاء الشافعية، ووقف عليها وقوفاً حسنة، وجعل بها خزانة كتب جيدة، ثم رجع إلى بغداد في هذه السنة فولي قضاء القضاء بها على كره منه لذلك، وأخبرني من حضر موته ببغداد أن وفاته كانت أول يوم من ذي الحجة، ودفن بمقبرة الشونيزي وبقي في القضاء سبعة عشر يوماً، وبعد موت البادراني بأيام قلائل نزلت التاتار خذلهم الله على بغداد، والخليفة بها يومئذ هو المستعصم بن المستنصر بن الظاهر بن المستضيء ابن المستنجد، واستولوا عليها في السنة الآتية كما سيأتي ذكره.

وفي ذي الحجة من هذه السنة توفي الشيخ يوسف الواسطي الأعرج المقرئ، كان بجامع دمشق تحت قبة النسر، وكان أحد القراء بالتربة الأشرفية، وكان أحد الشيوخ الصالحاء الصابرين على البلاء، كان مصاباً بيديه ورجله، ومع ذلك هو مرابط على الطهارة، والصلاة، وقراءة القرآن وإيثار الفقراء، وهو من أصحاب الطائفة الرفاعية الواسطية، ومن مشايخهم بدمشق، وكانت وفاته بالمدرسة الصادرية بحضرة باب الجامع من جهة باب البريد رحمه الله، ومات سيف الدين المشد علي بن عمر بن قزل الشاعر صاحب الديوان في تاسع المحرم.

ثم دخلت

سنة ست وخمسين وستائة

ففي أولها في المحرم استولى التاتار خذلهم الله على بغداد، فقتلوا ونهبوا
وفعلوا ما جرت عادتهم عند استيلائهم على بلاد العجم، على ما ذكرناه
في كتاب السيرة العلانية والجلالية والأخبار في تفصيل ذلك كثيرة،
استولى على الخليفة وأهله بمكيمة دبرت مع وزير بغداد فمن أحسن
ما أنشد في ذلك بيت لابن التعاويذي:
بادت وأهلها معاً فبيوتهم
ببقاء مولانا الوزير خراب (١٣٣)

وجاء كتاب من بعض من سلم منهم ببغداد يقول: والأمر أعظم مما
بلغكم من الأخبار، اللهم عافنا وبلادنا من كل سوء.

وفي صفر توفي صاحبنا الشيخ شمس الدين محمود النابلسي، وكان
شيخاً صالحاً مرتاضاً حسن الصحبة والأخلاق، فقيراً فاضلاً ناب عني
في الصلاة بالمدرسة العادلية مدة في مرضي، وفي غيبتني زمن الخروج إلى
البساتين، ثم قرأ القرآن بجامع التوبة بالعقبة إلى أن توفي، ودفن بمقبرة
ابن زويزان حضرت دفنه والصلاة عليه رحمه الله.

وفي صفر أيضاً توفي الشيخ الصالح خليل، يعرف بالشيخ يوسف
الكردي، كان مقامه بمسجد الربوة ويدخل إلى الجامع بدمشق ويخرج
إلى الربوة عشية منفرداً، دائم الذكر والصلاة والانقطاع عن الناس، وكان
الله قد ألبسه الهيبة والوقار وذلك من علامات الأبرار رحمه الله ورضي عنا
به وبأمثاله.

وفي أوائل ربيع الأول توفي علاء الدين حمزة بن الحجاج، أحد الشهود

المعدلين بدمشق من أهل البيوتات، وكان فقيهاً ديناً بقي عندنا بالمدرسة العادلية مدة بعد مقامه بحلب، ثم صار من الشهود المرتبين بباب الجامع رحمه الله، وفي هذا الشهر توفي الموفق محمد ابن بنت البكري شاب شريف حسني صالح فقيه بار بوالديه رحمه الله.

وفيهما: توفي عون الدين بن العجمي ناظر ديوان الجيش، والنور الأسعدي الشاعر، والمجير الكتبي وعبد الله البعلبكي، أحد رجال الحكم، وكان يبذل نفسه لقضاء حاجة من يندبه بالمدرسة رحمه الله، وفي أول ربيع الأول توفي الشمس علي بن النشبي نائب الحسبة، كان في زمن ولاية الصدر البكري لها، وكان من أهل سماع الحديث واسماعه، وقرأ منه كثيراً على شيوخ ابن عساكر العماد بن الحافظ، وشيخنا الآخران:

الفخر، وزين الأمناء وغيرهم، ومات أيضاً القاضي أحمد من باب شرقي، والبرهان السويدي، بمدرسة العادلية ووقف كتبه بمدرسة ابن رواحة، ومات النجم أخو البدر؛ وكان يسمع برواية ابن الفاضل بالكلاسة باجازته من السلفي، وفي يوم الجمعة ثاني عشر ربيع الآخر توفي الخطيب بدر الدين يحيى بن الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام خطيب جامع التوبة بالعقبة، ودفن بباب الصغير على قبر جده وكان الجمع في جنازته كثيراً، وفي ذلك اليوم مات الفخر بن عوضه.

وجاءنا الخبر من حلب بموت الشيخ أبي عبد الله الفاسي، وكان صالحاً، عالماً، فاضلاً، وشرح قصيدة الشيخ الشاطبي شرحاً حسناً، وفي شهر جمادى الأول توفي الشمس أبو القاسم بن اللهيب متولي الحشيرة بدمشق ودفن بجبل قاسيون حادي عشره، وقال فيه صاحبنا الكمال علي ابن الظهير لما كان ينال منه:

اليوم زار ابن اللهيب أباه

ورأى الذي قد قدمته يده

لم ينتفع بالظلم لكن ضره
إذ كان حسب الظالمين الله

وفي ثاني عشره توفي الكمال بن الأريسي، أحد متولي الدواوين السلطانية بقلعة دمشق، كان مشكوراً فيها، وفي ثالث عشر توفي الفخر الياس عتيق الشيخ تاج الدين الكندي، وكان مشرفاً بالجامع على فرشه وزيته، وكان لنا رفيقاً عام حجنا سنة اثنتين وعشرين وستمائة رحمه الله، ووقع وباء كثير في زمن الربيع وهو من أعجب مايؤرخ، فعم الناس المرض وكثر الموت. فممن مات فيه الفقيه البغدادي المعروف بالكرة الشافعي، والزين بن عبد الملك المقدسي الحنبلي وكيل المجير بن صارم الدين، والمنتجب عباس الحنفي الساكن بالمدرسة الصادرية، ومكي خطيب زملكا، وسيف الدين بن صبرة والي شرطة دمشق، وذكروا أن حية عظيمة خرجت عليه عند موته فضربت به بين أفخذه، وقيل غير ذلك. وقيل انها اندرجت معه في أكفانه. وسألت عنه فقيل لي كان نصيرياً، رافضياً، خبيثاً، مدمن خمر نسأل الله تعالى العافية.

ومات أيضاً أبو كامل محمد الخوراني جارنا بحارة الخاطب، ومحمد بن الزين خالد، والشيخ ابراهيم الأسود خادم قبر الشيخ رسلان

والملك الصالح ابن أخي صاحب الجزيرة المعظم سنجر شاه، وكان أبوه يلقب الناصر سنجر شاه بن مودود بن زنكي. والملك الناصر داود ابن المعظم عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب، وكان سلطان دمشق بعد أبيه نحواً من سنة ثم اقتصر له على الكرك وأعماله، ثم سلب ذلك كله، وصار منتقلاً في البلاد موكلاً عليه، وتارة في البراري إلى أن مات موكلاً عليه بالبويضا قرية قبلي دمشق، كانت تكون لعمه مجير الدين بن العادل، وحمل منها فصلي عليه عند باب النصر، ودفن بجبل قاسيون عند أبيه بالمقبرة المعظمية بدير مران، وخلف أولاداً كثيرة وأتباعاً من أهله.

ومات أيضاً النجم بن أخي نقيب الأشراف يومئذ، بهاء الدين علي
وكان متجاهراً بالرفض.

وفي مستهل جمادى الآخرة توفي محتسب دمشق فتح الدين بن العدل
بمنزله بالجبل، وكان خيراً وقوراً متواضعاً رحمه الله، وتولى مكانه الحسبة
أخوه ناصر الدين، وفي ذلك اليوم أيضاً توفي سعد الدين محمد بن
الشيخ محيي الدين محمد بن العربي رحمه الله، وكان من الفضلاء العقلاء،
كتب إليّ من نظمه يستعير مني الروضتين الذي صنفته:

بك ملة الاسلام عا د شباها
يامن بفتياها استبان صوابها
هذي ثمار الروضتين زكاتها
وجبت عليك غداة تم نصاها
فامنن علي بها علي اجتلي
ثمرات علم راحتك سحاها
وأنا الكفيل بحفظها وبحفظها
ويكون أسرع من ندادك إياها
وأجل قـدرك أن أرى متحيراً
طلباً لها وتكون أنت شهـاها

وفي ثالث جمادى الآخرة توفي نظام الدين المولى الحلبي، وكان كاتب
الانشاء لدمشق وحلب للناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر
غازي بن السلطان الكبير صلاح الدين يوسف بن أيوب، كان كاتبه
وصاحب سره، وكان عاقلاً، ثابتاً متواضعاً مشكوراً فيما كان فيه ودفن
بالجبل.

ومات في الشهر الماضي جمادى الأول شخص زنديق يعرف بالشهاب
النقاش، وكان يتعانى الكلام على طريقة الحكماء، وإنكار النبوات
والأزراء بما أهل الاسلام عليه، وكان يسكن بالمدرسة النورية، ويجلس

كثيراً على باب مشهد علي في قبة يزيد بالجامع ويجمع اليه عدد من جنسه الزنادقة لارحمه الله.

وفي سادس جمادى الآخرة توفي النجيب بن الشقيشقة، أبو الفتح نصر الله بن أبي العز بن أبي طالب الشيباني المعروف بابن الصفار أيضاً، كان قد سمع كثيراً، لكنه لم يكن بحال أن يؤخذ عنه. كان مشهوراً بالكذب ورقة الدين وغير ذلك، نعوذ بالله من شرور أنفسنا، وهو أحد الشهود المقدوح فيهم؛ فممن استشهده أحمد بن يحيى بن هبة الله الملقب بالصدر بن سني الدولة في حال ولايته قضاء القضاة بدمشق، وكان مراعيّاً لأرباب الجاهات كثيراً، فإنها استشهده لأجل جاه كان النجيب متصلاً به، وميزه بأن جعله عاقداً للأنكحة بباب جامع دمشق، فعجب الناس منه وأنكروا ما فعله وأنشدني البهاء الحافظ لنفسه في ذلك أبياتاً منها:

جلس الشقيشقة الشقي ليشهدا
بأبيكما ماذا عدم أبدا
هل زلزل الزلزال أم قد أخرج الـ
دجال أم عدم الرجال ذوو الهدى
عجباً المحلول العقيدة جاهل
بالشرع قد أذنوا له أن يعقدا

وفي سادس عشر جمادى الآخرة توفي النجم محمد بن خضر المعروف بابن طاووس، كان نقيب القاضي صدر الدين بن سني الدولة فأثرى بعد فقر كحال مخدومه. ومات الشيخ يوسف النوزري الذي كان مقيماً بشرقي الكلاسة، ويقرأ عليه القرآن، وكان منسوباً إلى الصلاح رحمه الله.

وفي أواخر شهر رمضان توفي جمال الدين إبراهيم المعروف بصهر المكرم، وكان يومئذ خطيب دومة توفي بها وحمل إلى جامع التوبة فصلي عليه به، وذهب به إلى الجبل، وكان شيخاً بهياً متودداً رحمه الله، وفي آخر

رمضان توفي العزيز القيسراني متولي ديوان المظالم بالقلعة بدمشق، ومات أيضاً الرشيد النهاوندي الصوفي الذي كان مقيماً بالكلاسة قديماً زماناً طويلاً. وفي ثالث ذي القعدة توفي الشرف الإربلي واسمه الحسين ابن ابراهيم، وكان شيخاً مسنداً له سماعات كثيرة عن الخشوعي، والحريستاني، والكندي والحافظ البهاء وغيرهم، وفي رابع ذي القعدة توفي الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري بالقاهرة رحمه الله ورضي عنه. وفي العشرين منه توفي الأمير سيف الدين استاذ الدار الناصري. والتاج الساوي بعده بيومين. وجاءنا الخبر من مصر بموت صدر الدين الحسيني ابن محمد البكري توفي في حادي عشر ذي الحجة. وبهاء الدين زهير الكاتب. والمعين بن وردان.

وكثرت الرجفات بقصد التاتار بلاد الشام، ونزلهم على الفرات إلى بلاد آمد وغيرها. وفتك فيهم صاحب ميافارقين الكامل بن شهاب الدين غازي بن العادل أيده الله بنصره لما حاصروها، وصبر على مجاهدتهم أكثر من سنة ونصف، ورحلوا عنها بالخفية والعجز.

ثم دخلت

سنة سبع وخمسين وستمائة

ففي رابع المحرم توفي البهاء بن الحافظ المعروف بابن الدجاجة، وكان شيخاً فاضلاً؛ شاعراً رحمه الله، وفي سابع صفر توفي المعين المؤذن العادلي، وكان معمرًا ممن أدرك دولة نور الدين زنكي رحمه الله، وخدم صلاح الدين فمن بعده من الملوك إلى أن قعد في بيته زمناً قبل موته بسنين، ثم توفي وقد جاوز المائة.

وفي خامس عشر صفر توفي المجد الإربلي النحوي المعروف بالمحلي، وكان يشهد بباب الجامع ويقرىء في حلقة ابن طاووس جوار البرادة بالجامع، وهو الموضع الذي كان يقرىء فيه قبله الفخر بن المالكي وقبله الجمال الشاطبي، وقبله الوجيه بن البوني رحمه الله وكان موته فجأة، اللهم عافنا من ثلاثك. وفي سابع عشر صفر توفي الشمس أبو الفتح الذي كان يقرأ بالتربة الصالحية، هو: الشمس أبو الفتح محمد بن علي بن موسى بن معمر الأنصاري الدمشقي، مولده سنة خمس عشرة وستمائة تقريباً، ودفن من الغد رحمه الله، وفي العشرين من صفر توفي العماد يحيى ابن عمر الحموي إمام مسجد حارة الخاطب، وكان قرأ معي القرآن العظيم علي الشرف أبي منصور الضريير في سنة ثلاث عشرة وستمائة ونحوها رحمهما الله، وتولى اشراف السبع مرة.

وتوفي أيضاً شخص زنديق يتعاطى الفلسفة والنظر في علوم الأوائل، ويسكن مدارس فقهاء المسلمين، وقد أفسد عقائد جماعة من الشباب المشتغلين فيها بلغني، وكان يتجاهر باستنقاص الأنبياء عليهم السلام لارحمه الله ولارضي عنه ولاعن أمثاله، وهو يعرف بالفخر بن البديع البندهي، كان أبوه يزعم انه من تلامذة الفخر الرازي ابن خطيب الري، صاحب المصنفات، وفي حياة والده مات.

وفي عاشر جمادى الأولى توفي الزين بن مزهر الساكن بجبل قاسيون
قبالة المدرسة البهنسية رحمه الله، وكان قبل ذلك هو وأخوه المجد
تاجرين معروفين، وكان له لسان وبيان وقوة جنان وحسن توصل إلى
أغراضه، وفي خامس عشره توفي التقى يونس الأسود إمام مسجد درب
الخبالين، وكان فقيهاً بالشامية ويتولى القرايا الموقوفة على المدينة النبوية،
واشتغل بعلم الفقه والنحو، ودفن بباب الصغير رحمه الله، وفي جمادى
الآخرة مات النجم بن القيلوي. وجدت بخط الحافظ اليعموري: سألت
النجم أبا القاسم علي بن القيلوي عن مولده فقال: يوم السبت ثاني
المحرم سنة تسع وتسعين وخمسمائة بالمأمونية من أعمال بغداد والمجد
الواسطي، والنجم الكنجي المولد، وكلاهما من سكان المدرسة العادلية؛
والمخلص الصوفي بخانقاه السميساطي مات فجأة، ونظمت في آخر
جمادى الآخرة:

الثوب واللقمة والعافية
لقنانع من عيشة راضية
وما يزدف النفس ليست به
وإن تكن مملكة راضية

وفي شهر رجب تولى القاضي محيي الدين بغزة تدريس المدرسة
الناصرية بالقدس الشريف (١٣٤)، وتولى شهاب الدين محمد بن
القاضي شمس الدين أحمد بن الخليل الخوئي قضاء القدس الشريف،
وسافرا من دمشق إلى ولايتهما.

وفي سادس عشر شعبان توفي بدمشق شخص يعرف بيوسف
القمني، كان يأوي دائماً إلى القمامين والمزابل، وغالب مأواه قمين حمام
نور الدين الذي بسوق القمح العتيق بدمشق ويلبس ثياباً طوالاً تكنس
الأرض وهو حاف حاسر طويل الصمت قليل استعمال الماء، وللناس
فيه اعتقاد صلاح ويحكون عنه عجائب، لم يظهر لي أنا منه شيء غير

ملازمته لهذه الطريقة الشاقة على النفس مدة سنين كثيرة، وعقله ثابت، وعوام الناس يتقربون إليه بالمأكل والمشروب فيتناول بعد جهد مقدار حاجته ويترنح في مشيته مسبلاً أكمامه مع طولها، وفي الجملة كان أمره عجيباً، اللهم انفعنا بعبادك الصالحين، وتوفنا مسلمين، ودفن رحمه الله بالجبل بمقبرة الموليين.

وفي أول شهر رمضان جاء الخبر بموت صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ مملوك بيت أتابك زنكي، وفي تاسع عشر رمضان توفي سيف الدين ابن الغرس خليل، وكان أحد حجاب السلطان، مشكوراً في ذلك، وكان أبوه والي شرطة دمشق في زمن المعظم عيسى بن أبي بكر بن أيوب، وفي ذلك اليوم أيضاً توفي صدر الدين أسعد بن المنجا الحنبلي أحد عدول دمشق الممولين بها، وبنى مدرسة للحنابلة بدمشق مقابلة لرتبة سيف الدين قليج مجاورة لرتبة القاضي جمال الدين المصري، وفي عاشر شوال توفي الجمال عثمان بن يوسف، والقاضي عز الدين محمد ابن القاضي الأشرف أحمد ابن القاضي عبد الرحيم اليبساني رحمهما الله، وفي رابع عشره توفي الفخر بن هلال رحمه الله تعالى، وفي رابع ذي الحجة توفي الرضا بن النجار أحد أعوان القضاة المذكور في قصيدة الصدقات منهم ابن النجار الأعرج سمسار القضايا في دار قاضي القضاة، وفي سابع عشر ذي الحجة توفي الشيخ صالح الأمشاطي أبو سعيد صهر الشيخ عثمان الرومي، الساكن بالجبل رحمه الله، وفي سلخ ذي الحجة توفي نجم الدين المظفر بن محمد بن الياس الشيرجي أحد العدول الكبار من الدمشقيين، وتولى الحسبة بها، ونظر الجامع رحمه الله.

وفيها: ورد الخبر من مصر بالقبض على ملكها الصبي نور الدين علي الملقب بالمعز بن التركماني، واستيلاء مملوك أبيه قطز على الملك، وفي هذه السنة كثرت الأراجيف بدمشق بسبب التاتار أهلكتهم الله، وردت الأخبار بأنهم قطعوا الفرات، وأغاروا على بلاد حلب، فهرب كثير من

- ٩٣٧٨ -

الدمشقيين، وباعوا حواصلهم وخرجوا على وجوههم متفرقين في البراري
والجبال والحصون، وصادف ذلك أيام الشتاء وقوة البرد، فمات كثير
منهم، ونهب آخرون، وثبت في البلد من قوى الله قلبه وإيمانه، وبالله
التوفيق.

ثم دخلت

سنة ثمان وخمسين وستمائة

يوم الخميس. ففي يوم الأحد بعد العصر ثامن عشر المحرم ولد لي مولود ذكر سميته باسم والدي اسماعيل، وكنيته أبا العرب، جعله الله مباركاً، ووافق يوم مولده كانون الثاني في قوة البرد، وكانت تلك الأيام كثيرة الأراجيف والتخويف من جهة التاتار خذلهم الله.

وفي منتصف صفر ورد الخبر إلى دمشق باستيلاء التاتار على حلب بالسيف، وهرب صاحبها من دمشق بأمرائه الموافقين له على سوء تدبيره، وزال ملكه عن تلك البلاد، وكان نزول التاتار على حلب في ثاني صفر واستولوا عليها بعد سبعة أيام في تاسع صفر وأمنوهم، ثم غدروا بهم، فقتلوهم وكان رسل التاتار عندنا بقرية حرستا، فأدخلوا دمشق ليلة الاثنين سابع عشر صفر وقرىء في غدها يوم الاثنين بعد صلاة الظهر بالجامع فرمان جاء من عند ملكهم معهم، فيه أمان أهل دمشق وماحولها، وشرع أكابر أهل دمشق في تدبير أمرهم معهم، وفي يوم قرىء فرمان صلي بالجامع على جنازة الشريف ابن عصرون، وفي سابع عشر ربيع الأول وصل إلى دمشق نواب التاتار، ولقيهم كبراء البلد بأحسن ملقى، وقرىء مامعهم من فرمان المتضمن للأمان بالميدان الأخضر، ووصلت عساكرهم من جهة الغوطة مارين من وراء الغوطة إلى جهة الكسوة وأهلكوا في مرهم جماعة كانوا تجمعوا وتحزبوا، وأعدم بسبب ذلك غيرهم، منهم: جماعة من أهل قرية حزرما (١٣٥)، وشجاع أبو هرماس المؤذن، وصالح، وقاسم وغيرهم.

وفي السادس والعشرين جاء منشور من هولاكو ملك التاتار للقاضي

كمال الدين عمر بن بندار التفليسي بتفويض قضاء القضاة إليه بمدائن الشام، والموصل، وماردين، وميافارقين، والأكراد وغيره، كتب له بحلب في خامس عشر الشهر، وقرأ المنشور المذكور بالميدان الأخضر، وفيه تفويض جميع الوقف إلى نظره، وخاصة وقف الجامع المعمور بدمشق المحروسة، وكان قاضي قضاة دمشق وأعمالها قبله أحمد بن السني وليه من جمادى سنة ثلاث وأربعين إلى الآن، وذلك خمس عشرة سنة إلا شهرين أو نحوها.

وكان كمال الدين هذا نائبه، ويفعل الله في خلقه ما يشاء.

وفي الثالث والعشرين من ربيع الأول توفي بالجليل الشيخ عماد الدين عبد المجيد بن عبد الهادي بن يوسف بن محمد بن قدامه المقدسي، رحمه الله، وكان شيخاً حسناً لطيفاً، علم جماعة كثيرة كتاب الله العزيز، وابتلي بمرض مزمن في آخر عمره، وكان له رواية للحديث عن الثقيفي وغيره، وقد أجاز أولادي رواية ما يجوز له عنه روايته، وهم محمد رحمه الله، وأحمد، وإسماعيل، وفاطمة جبرهم الله.

وفي الخامس والعشرين توفي الجمال بن الحظيري الذي كان مصاهراً المحيي القاضي، وجاءنا الخبر بوفاة جمال الدين بن قوام، قتلته التاتار بأرض الغور رحمه الله، وفي أوائل ربيع الآخر في العشرين من آذار توفي الأوحى الدوئي بحلب الذي كان قبل مدرساً بمنبج، وقاضياً، وكان مشهوراً.

وفي ربيع الآخر رجعت عساكر التاتار التي كانت عبرت على دمشق بعدما عاثت في بلاد حوران، وأرض نابلس وماحولها وقيل بلغت غاراتهم أرض غزة وبيت جبريل، والخليل، والصلت، وبركة زيزياء، وموجب الكرك ونحو ذلك فقتلوا على عاداتهم الرجال، وسبوا الصبيان

والنساء، واستاقوا من الأسارى والغنائم من البقر والغنم والأسلاب شيئاً كثيراً، ووصلوا بذلك إلى دمشق، فاشتري من الأسرى شيء كثيراً، وهرب بعضهم واستحيوا خلقاً كثيراً، والله تعالى يديم علينا ستره وعافيته بمحمد وآله، الحمد لله الذي عافانا مما ابتلي به غيرنا.

وممن قتل في هذه الكرة بنابلس الأمير مجير الدين بن سيف الدين بن أبي زكري، وكان شجاعاً بلغني أنه قتل من التاتار قبل أن يقتل جماعة بسيفه ومازال يضرب به حتى خطف النصل من يده فصار يقاتلهم بنفسه يضرب بالدبوس، ويتقي به الضرب ويرفس برجله من يصل إليه من الفرسان حتى قتل سبعة عشر أو تسعة عشر، ثم قتل رحمه الله، وكان التاتار يتعجبون منه وأتوا بنصل سيفه إلى دمشق، ووقف عليه أمراؤهم، وقد كانت قلعة دمشق امتنع بها الوالي والنقيب في جمع كثير بها، فاحتجج إلى حصارها، فجاءها من التاتار خلق كثير، وصلوا يوم الأحد ثاني عشر جمادى الأولى، فباتوا تلك الليلة حتى قطعوا من الأخشاب ما احتاجوا إليه وكانوا استصحبوا معهم المجانيق تجرها الخيل وهم ركاب عليها، وقدموا قبل ذلك أسلحة تجرها البقر على العجل، وأصبحوا يوم الاثنين يجمعون الحجارة لرمي المجانيق، فأخربوا حيطاناً كثيرة، وأخذوا الحجارة من أساسها، وأخربوا طرقات من القنوات بسبب الحجارة وهياؤها للرمي، ونصبت المجانيق في ليلة الثلاثاء، وكانت أكثر من عشرين منجنيقاً، وأصبحوا يرمون بها رمياً متتابعاً كالمنطار، فأخرب كثيراً من القلعة من غربها فما أمسوا حتى طلبوا الأمان فأومنوا وخرجوا من الغد، ونهب ما في القلعة، وأحرق فيها مواضع كثيرة وهدم من أبراجها أعاليها، ثم ساروا إلى بعلبك فتسلموها وحاصروا القلعة وأخذوها، وساروا إلى نابلس وغيرها، ووكلوا بخراب كل مدينة بين برجين من قلعة دمشق ففعل ذلك. الحكم لله العلي الكبير.

وأما السلطان الملك الناصر يوسف كان بعساكره بغزة، فلما بلغه خبر

نابلس توجه إلى مصر فنزل العريش ثم قطيا، ثم تفرق عسكره، فتوجه
الترك إلى مصر مع الأتقال، وتوجه هو مع خواصه إلى وادي موسى، ثم
نزل بركة زيزياء وكبسه نائب التاتار كتبغا بها، فهرب ثم استأمن له
بعض أصحابه هو حسين الطبردار، وصار إليهم، وكان معهم في ذل
وهوان، ثم قتلوه ببلادهم.

وجاءنا الخبر عن الهاريين من دمشق إلى مصر بموت الجمال يوسف
الدبابيسي، أحد المعدلين؛ وشرف الدين بن العز المؤذن، وقبض على
خواص السلطان، وفي يوم الاثنين السابع والعشرين من جمادى الأولى
طيف بدمشق برأس مقطوع مرفوع على رمح قصير معلق بشعره فوق
قطعة شبكة زعموا أنه رأس الكامل محمد بن شهاب الدين غازي بن
العاذل صاحب ميفارقين، الذي دام التاتار على حصاره أكثر من سنة
ونصف، ولم يزل ظاهراً عليهم إلى أن فني أهل البلد لفناء زادهم،
وبلغني أنه دخل عليه البلد فوجد مع من بقي من أصحابه موتى أو
مرضى، فقطع رأسه وحمل إلى البلاد، فطيف به بدمشق، ثم علق على
باب الفراديس الخارج رحمه الله، وقلت في ذلك:

ابن غاز غزا وجاهدا في

لله قوماً أخذوا في المشرقين

والعراقين ظاهراً غالباً وبها ما

ت شهيداً بعد صبر عليهم عامين

لم يشنه أن طيف بالأس منه

فله أسوة برأس الحسين

وافق السبط في الشهادة والحمى

للقدر حاز أجره مرتين

جمع الله حسن دين الشـ

هيدين على قبـح ذينك الفعلين

ثم واروا في مشهد الرأس ذاك الـ

رأس فاستعجبوا من الحالين

رضي الله عنه، ثم وقع من الاتفاق العجب أن دفن في مسجد الرأس داخل باب الفرديس شرقي المحراب في أصل الجدار، وغربي المحراب طاقة يقال إن رأس الحسين رحمه الله دفن بها، وفي غده يوم الأربعاء قرى فرمان القاضي محيي الدين بالجامع تحت قبة النسر، وفيه توليته القضاء من قنشرين إلى العريش، ونائبه أخوه لأمه شهاب الدين اسماعيل بن أسعد بن حبش، وحضر قراءة فرمان نائب ملك التاتار من المغل «ايل سبان» وزوجته قعدت معه على طراحة نصبت لها بين زوجها والقاضي إلى جانب العامود الشرقي الكبير الأوسط من أبواب النسر بالجامع، وشرع القاضي في جر الأشياء إلى نفسه وأولاده ومن يتعلق به عدم الأهلية، وأضاف إلى نفسه، وأولاده وأخيه ونحوهم عدة من المدارس، كالعدراوية، والسلطانية، والفلكية، والركنية، والقيمرية، والكلاسة انتزعها من الشمس الكردي، وانتزع منه أيضاً الصالحية، وسلمها إلى العماد بن العربي، ونزع الأمنية من العلم القاسم وسلمها إلى ولده عيسى، ونزع الشومانية من الفخر النجواني، وسلمها إلى الكمال ابن النجار، ونزع الربوة من الجمال محمد اليمني وسلمها إلى الشهاب محمود بن القاضي شرف الدين عبد الله بن زين القضاة عبد الرحمن بن سلطان، وهو ابن عمه كل هذا مع ما عرف منه من التقصير في حق الفقهاء في المدرستين اللتين كانتا بيده من قديم الزمان: العزيزية والتقوية، وعدم انصافه فيهما، وولى ابنه عيسى مشيخة الشيوخ بخوانق الصوفية، واستتاب أخاه لأمه في القضاء، ومعه من المدارس: الرواحية، والشامية البرانية، مع أن شرط واقفها أن لا يجمع المدرس بينها وبين غيرها، وبقي كذلك إلى أن ملك المسلمون في أواخر رمضان، فبذل أموالاً كثيرة على أن يقر القضاء والمدارس المذكورة في يده ويد أخيه وولديه، ففعل ذلك فبقي نحو شهر، ثم سافر مع السلطان إلى مصر، وتولى القضاء نجم

الدين أبو بكر بن صدر الدين رحمه الله ابن سني الدولة، وقرىء منشوره بشاك الحكم بالجامع يوم الجمعة الحادي و العشرين من ذي القعدة، سنة ثمان وخمسين وستمائة.

وفي عاشر جمادى الآخرة توفي الفقيه شرف الدين عبد الواحد بن الحسام الواعظ المعروف بابن الحموي، ودفن من الغد بالجبل رحمه الله، وفي يوم الاثنين صبيحة الأحد جاءنا الخبر من بعلبك بوفاة القاضي صدر الدين أحمد بن يحيى بن هبة الله المعروف بابن سني الدولة، وكان قد سافر مع القاضي محيي الدين المذكور إلى ملك التاتار، ثم رجعا على طريق بعلبك، فمرض صدر الدين فأقام بها وتوفي بعد صلاة الجمعة ثامن جمادى الآخرة رحمتنا الله وإياه، وأخبرني العلاء علي بن الشيرازي أنه رآه في المنام، فسأله عن حاله فقال: لما وصلت قيل هاتوا الدرة، اللهم عفوك، وعمل عزائه بالجامع يوم الثالث عشر من جمادى الآخرة، ووصل الخبر باستيلاء التاتار على قلاع الصلت، وعجلون، وصرخد، وبصرى والصبيبة، وهدم الجميع، ووقعوا على العرب عند زيزياء وحسبان، فهزموهم وغنموا أولادهم، ونساءهم، وأنعامهم شيئاً كثيراً، واستاقوا الجميع وهرب سلطان البلاد الناصر يوسف بن محمد إلى البراري، فساقوا خلفه فأخذوه وقد بلغ شربة الماء نحو مائة دينار، وأتوا به إلى نائب التاتار كتبغا فوقفه وأهانته وقرعه، ثم أتوا به دمشق مع من قدم من الكرك من الدمشقيين الذين كانوا هربوا إليها، قدم بهم القاضي كمال الدين التفليسي بعد مشقة شديدة وجدوها في الطريق من ترددهم مع التاتار كيفما داروا، فبقوا في الطريق من الكرك إلى دمشق نحواً من خمسة وثلاثين يوماً، ثم وصلوا في سادس رجب، وسار جماعة من التاتار بالملك الناصر صاحب الشام إلى هولاكو، وذلك في رابع عشر رجب، ومعه ابنه العزيز، فأقام عندهم إلى أن قتلوه في سنة تسع وخمسين الآتي ذكرها، لما بلغ هولاكو كسرة التاتار الذين كانوا بالشام مع ملكهم

كتبغنا، فضربوا رقبتهم، ورقبة أخيه، والصالح بن شيركوه وغيرهم على مابلغنا.

وفي أواخر جمادى الآخرة توفي النجيب بن النجاس نائب القاضي نجم الدين بن الصدر سني الدولة، ثم توفي سيف الدين غلام النظام ابن المولى.

وفي نصف شعبان أغارت العرب على خيل الجشار التي للتاتار، ومن يتعلق بهم فاستاقوها وكانت ترعى بالمرج بتل راهط وماحوله، وخرج التاتار من دمشق وماحولها خلفها، وكان قد وصل دمشق الأشرف بن المنصور بن المجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شادي، صاحب حمص، كان نزل في داره وقرىء فرمانه بتسليم نظره في البلاد، فخرج مع التاتار خلف خيل الجشار، ثم رجعوا ولم يقعوا عليها.

وفي شعبان ضربت رقبة والي قلعة دمشق بدر الدين بن قراجا، ورقبة النقيب جمال الدين بن الصير في الحلبي بالمعسكر وغيرهما.

وجاءنا الخبر من مصر في شهر رمضان بوفاة الحكيم جمال الدين بن الرحبي الطبيب ابن الطبيب، وكان ديناً خيراً فاضلاً في المعالجة الطبية مصلياً جيد العقيدة رحمه الله.

وفي خامس رمضان توفي الشيخ محمد المعروف بالأكال، قلت: هو محمد بن خليل بن عبد الوهاب بن بدر البيطار من جبل بني هلال، مولده بقصر حجاج، خارج دمشق سنة ست مائة كما ذكر، وهو الذي كان يأكل من أطعمة الناس بالأجرة، وكان يتم له في ذلك نوادر وعجائب، قد ذكرت طرفاً منها في موضع غير هذا، وكان حسن الأخلاق محسناً إلى الفقراء صالحاً رحمه الله. وتوفي أيضاً النجم بن الوجيه بن البوني، وكان رجلاً حسناً، صالحاً، وأبوه شيخ مشهور بالقراءات، قرأت عليه في

صغري الجزء الأول من سورة البقرة، وكان إمام مقصورة الحنفية التي خلف مقصورة الخضر رحمهما الله، ومات أيضاً في رابع رمضان الشيخ سليمان المعري المقيم بالكلاسة في زاوية الشيخ عبد الصمد الدكالي، شيخ المغاربة، وكاننا من أهل الخير رحمهما الله.

ووصل الخبر في ثامن رمضان باستيلاء التاتار على صيدا من بلاد الفرنج ونهبها وثلاثمائة أسير منها، وفي أواخر شهر رمضان مات الرشيد من بني الحنبلي، وجاءنا الخبر من بعلبك بوفاة الشيخ محمد اليونيني شيخ الحنابلة ببعلبك، وكان شيخاً ضخماً، واسع الوجه، كبير اللحية، يلبس على رأسه قبع فرو أسود صوفه إلى الخارج بلا عمامة، ونفق على جماعة من الملوك والأمراء وحصل منهم دنيا واسعة، ورفاهية عيش، وهو الذي صنف أوراقاً فيما يتعلق بأسراء النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج، وأخطأ فيه أنواع من الخطأ الفاحش، فصنفت أنا في الرد عليه كتاباً سميته «الواضح الجلي في الرد على الحنبلي» وكان موته على ما أخبرني به ولده يوم السبت تاسع عشر رمضان رحمه الله، والله تعالى يرحمنا وإياه وسائر المسلمين.

تمام ماجرى في سنة ثمان وخمسين وستمائة

من ذلك كسرة التاتار، خرج عساكر أهل مصر مع من انضوى إليهم من العرب وغيرهم لقصد التاتار الذين بالشام، وملكهم يومئذ المظفر قطز بن عبد الله التركي مملوك التركماني الذي كان قبله ملك مصر، فاجتمع معه خلق عظيم، ولما كان ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان جاءنا بدمشق الخبر بأن عسكر المسلمين وقع على عسكر التاتار يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان عند عين جالوت ومقاربها من البلاد، فهزموهم وقتلوهم وأخذوهم ومعهم ملكهم كتبغا فقتل، وأخذ رأسه وأسر ابنه فانهزم تلك الليلة من كان بدمشق من التاتار ايل سببان نائب الملك، وأتباعه، وتبعهم الناس وأهل الضياع ينهبونهم ويقتلون من ظفروا به منهم والله الحمد والشكر.

ومن قتل بعد المعركة الملك السعيد بن العزيز بن العادل صاحب الصببية وبانياس بقي محبوساً بقلاع الشام بعد موت الصالح أيوب وابنه تورانشاه، وكسر الفرنج بالديار المصرية سنين كثيرة، وآخرها بقلعة البيرة على الفرات، فلما وصلت التاتار إليها أخرجوه وصار معهم ثم قدم مع مقدمهم كتبغا دمشق، وحضر فتح قلعتها، وتسلم بلاده، فلما قدم العسكر المصري في هذه الكرة قاتل مع التاتار، فلما وقعت الكسرة عليهم جاء إلى الملك المظفر قطز، وفي ظهر تاريخ الأحد سابع عشرين رمضان ورد كتاب، وهو أول كتاب ورد منه، إلى أهل دمشق يخبرهم بهذه الكسرة الميمونة، وبمواصلة الزحف إليهم بعدها.

وفي التاسع والعشرين من رمضان قتل بالجامع الفخر محمد بن يوسف الكنجي، وكان من أهل العلم بالفقه والحديث، لكنه كان فيه كثرة كلام وميل إلى مذهب الرافضة، جمع لهم كتباً توافق أغراضهم، وتقرب بها إلى الرؤساء منهم في الدولتين الإسلامية والتاتارية، ثم وافق

الشمس القمي فيما فوضه اليه من تخليص أموال الغائبين وغيرهم،
فانتدب له من تأذى منه وألب عليه بعد صلاة الصبح فقتل وبقر بطنه،
كما قتل أشباهه من أعوان الظلمة مثل: الشمس بن الماكسيني وابن
البغيل الذي كان يسخر الدواب، ومن العجائب أن التاتار كسروا
وأهلكوا بأبناء جنسهم من الترك وقلت في ذلك:
غلب التاتار على البلاد فجاءهم
من مصر تركي يجود بنفسه
بالشام أهلكهم ويدد شملهم
ولكل شيء آفة من جنسه

وجاءنا الخبر بوفاة الأمير حسام الدين بن أبي علي بالديار المصرية في
أواخر شعبان من هذه السنة، وقد كان النصارى بدمشق قد شمعخوا
بسبب دولة التاتار، وتردد ايل سبان وغيره من كبارهم إلى كنائسهم،
وذهب بعضهم إلى الملك هولاكو، وجاء من عنده بفرمان لهم اعتناء بهم
وتوصية في حقهم، ودخلوا به البلد من باب توما وصلبانهم مرتفعة وهم
ينادون حولها بارتفاع دينهم واتضاع دين الإسلام، ويرشون الخمر على
الناس وبأبواب المساجد، فركب المسلمين من ذلك هم عظيم، فلما هرب
التاتار من دمشق ليلة الأحد السابع والعشرين من رمضان أصبح الناس
إلى دور النصارى ينهبونها ويخربون ما استطاعوا منها، وكانت النصارى
قد عبروا من باب توما قاصدين درب الحجر، ووقفوا عند رباط الشيخ
أبي البنان ونادوا بشعارهم ورشوا الخمر بباب الرباط، وفعلوا مثل ذلك
على باب مسجد الحجر الصغير والمسجد الكبير، وألزموا الناس من
دكاكينهم بالقيام للصليب، ومن لم يفعل ذلك أخرجوا به وأقاموه غصباً،
وشقوا به السوق إلى عند القنطرة آخر سويقة كنيسة مريم، فقام بعضهم
على الدكان الوسطى من الصف الغربي بين القناطر وخطب وبجل دين
النصارى ووضع من دين الإسلام، ثم عطفوا من خلف السوق إلى
الكنيسة التي آخر بها الله بعد ذلك، وكان ذلك في ثاني عشري رمضان،

وفي الغد صعد المسلمون مع قضاتهم وشهودهم إلى ايل سبان بالقلعة فأهانوهم ورفعوا قسيس النصارى عليهم وأخرجوهم من القلعة بالضرب والإهانة، وفي غد حضر ايل سبان في الكنيسة، وفي الغد كانت الكسرة وأخرب المسلمون من كنيسة اليعاقبة وأحرقوا كنيسة مريم حتى بقت كوماً والحيطان حولها تعمل النار في أخشابها، وقتل منهم جماعة، واختفى الباقون، وجرى عليهم أمر عظيم اشتفى به بعض الأشتفاء صدور المسلمين، وهموا بنهب اليهود فنهب قليل منهم، ثم كفوا عنهم لأنهم لم يصدر منهم ماصدر من النصارى.

وفي يوم الجمعة ثاني شوال خطب بجامع دمشق الأصيل المسعودي، الذي كان خطيباً به أول دولة نجم الدين أيوب، ثم عزل بالشيخ عز الدين بن عبد السلام، ثم خطب عماد الدين بن خطيب بيت الأبار، ثم خطب القاضي عماد الدين بن الحرستاني نحو ثلاث عشرة سنة، ثم عزل بهذا الأصيل، وكان له صوت حسن في الخطابة والقراءة فبقي متولياً للخطابة والإمامة بجامع دمشق إلى سلخ شوال مدة شهر واحد، ثم سافر مع السلطان الملك المظفر إلى مصر، وأعيد منصب الخطابة والإمامة إلى القاضي عماد الدين بن الحرستاني الذي كان به من قبل، وجاءنا الخبر بأن المنهزمين من رجال التاتار ونسائهم لحقهم الطلب من المسلمين بأرض حمص ونحوها، فسيبوا ماكان معهم من أسرى المسلمين وتبعجت خيولهم فتخففوا مما معهم حتى أنهم رموا أولادهم وضربوا رقاب من عجزوا عن حمله من نسائهم، وعرجوا نحو طريق الساحل وخطف منهم خلق وقتل ناس، وأسر جمع، والطلب خلفهم ليستأصلوا إن شاء الله (١٣٦).

وجاءنا الخبر في سادس شوال بموت العماد أبي حامد الحسن بن عماد الدين علي بن الحافظ بهاء الدين القاسم بن الحافظ الكبير أبي القاسم علي بن الحسن المعروف بالحافظ بن عساكر، وكان قد خرج من دمشق

إلى مصر أيام الجفلة من التاتار، ولما بلغه استقامة الشام وأمنه خرج مع غيره من مصر على طريق الشوبك والكرك، فمرض وتوصل إلى نحو زرع (١٣٧) فمات رحمه الله.

وفي رابع عشر رمضان جرت علي حكاية من نائب التاتار المذكور واسمه ايل سبان لعنه الله واياهم، اهانة وتهديداً بضرب الرقبة على أن وضعت خطي لهم بمبلغ كبير من المال ظلماً وقهراً، فلم تمض بعد ذلك اليوم إلا عشرة أيام حتى كسر التاتار بأرض كنعان بعين جالوت وماوالاها كسرة عظيمة مشهورة، كسرهم الملك المظفر المذكور، كما تقدم وهرب ايل سبان، ومن كان بدمشق معهم ليلة جاءهم الخبر، وعجب الناس من سرعة هذا الفرج وقيل في ذلك:

تفرق جمع الكفر لما تعرضوا

أبشامة ظلماً وكدر ورده
أرادوا به كيداً وما هيب علمه
فغار له الرحمن إذ هو عبده
فما كان بين الجور منهم وكسرهم
لدى رمضان غير عشر نعهده
فحاشى لمفتي الشام يهمل أمره
ويخفض ذو علم ويرفع ضده
له أسوة بالأنبياء وصالحى الـ
سيرة فيه ليس يخلف وعده
يعز علينا ما جرى غير أننا
نسر به حيناً فلا كان فقده

والحمد لله على النصرة عليهم والله المستعان.

وفي شهر رمضان توفي الحاج سليم الفقيه، كان بالمدرسة الشامية رحمه الله، واسمه: سليم - بفتح السين وكسر اللام - . وفي ثاني ذي القعدة توفي

إمام المدرسة الحسامية جمال الدين النابلسي أخو الزين خالد المحدث، ودفن بالجبل رحمه الله، وفي ثاني عشر ذي القعدة توفي علي ابن حديد ابن عبيد السبني المصري الفقيه المقرئ، وكان من سكان المدرسة الأمينية، وهو من أصحاب الشيخ أبي عمرو بن الحاجب رحمه الله، ومن خدمه كثيراً من حين جاء معه من مصر سنة سبع عشرة وستمائة إلى أن توفي، وكان رجلاً حسناً مشغلاً بنفسه صالحاً ديناً، ودفن بمقابر باب الصغير رحمه الله.

وفي الحادي والعشرين منه قرىء منشور نجم الدين بن سني الدولة بولاية القضاء بدمشق، وفي الثامن والعشرين من ذي القعدة توفي الجهم أبو الحرم مكّي بن محمد بن المسلم بن أبي الخوف رحمه الله، وقبله توفي من أهل حارة الخاطب أيضاً القطب ابن الليواني، وكان من مشايخ الفقهاء، منقطعاً بمسجد الحارة، ظريفاً لطيفاً كريماً رحمه الله، وجاءنا الخبر بوفاة الزكي اللبني بعلبك، وكان قاضياً بها، وكان قبلها تولى القضاء ببانياس، ثم ببصرى رحمه الله.

ووصل الخبر بأن الملك المظفر قطز الذي ملك مصر والشام وكسر التاتار قتل في رجوعه من الشام إلى مصر قبل دخوله مصر بين الغرابي والصالحية وكانت مدة ملكه منذ قبض على ابن استاذة التركماني إلى أن قتل نحو من سنة واحدة، والله تعالى يولى على المسلمين من يهتم بنصرة الإسلام وإقامة شريعة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان قطز هذا موصوفاً بمواظبة الصلاة والشجاعة، وتجنب شرب الخمر رحمه الله، واتفق بين كسره لجيش التاتار، وبين قتله قريب مما كان بين قتل المعظم بن الصالح بن الكامل وكسره الفرنج الذين كانوا بدمياط على ماسبق ذكره في أخبار سنة ثمان وأربعين، هاتين الأعجوبتين المتشابهتين نحو من عشر سنين، إلا أن السابقة كانت في أوائل سنة ثمان وأربعين، وهذه المتأخرة كانت في أواخر سنة ثمان وخمسين، والله تعالى يحسن العاقبة.

وتولى السلطنة بدمشق عقيب ذلك الأمير علم الدين سنجر المعروف بالحلبي التركي، وكان قطز قد استنابه فيها، فلما بلغه قتل قطز استحلف الناس وتسلطن وسكن القلعة.

وفي رابع ذي الحجة توفي الشيخ إبراهيم الفارقي أبو صالح، وكان شيخاً كبيراً صالحاً ملازماً أكثر أوقاته المجاورة بالزاوية التي فيها الشباك الكمالي بجامع دمشق، وهو الشباك الذي اعتاد القضاة الصلاة فيه يوم الجمعة، وأصله كان من أسعد، وكان يرعى جانبه من جهة السلطان الأشرف بن العادل وأخوته وبيتهم، ودفن بالجبل رحمه الله.

وفي سادس ذي الحجة يوم الجمعة خطب بدمشق لمن تولى السلطنة بالديار المصرية بعد قطز، وهو: بيبرس البندقداري التركي الموصوف بالشجاعة والاقدام، ولقب بالملك الظاهر ركن الدين، وذكر بعده الذي تولى دمشق علم الدين سنجر الحلبي، ولقب بالملك المجاهد، وضربت الدراهم باسمهما.

وفي سابع عشر ذي الحجة توفي العفيف بن رحمه شيخ صالح مجاور بالجامع يحيط فيه، وهو والد الشرف بن رحمه المشتغل بسماع الحديث، ودفن بمقابر الصوفية العليا، صليت عليه إماماً خارج باب النصر، وحضرت دفنه، ولما رجعت مررت بدار الحديث الأشرقية فرأيت ماهي عليه من الشعث والخراب صورة ومعنى، بسبب قلة الاشتغال بها وخراب وقفها، فتذكرت ماكانت عليه زمان كناها في سني نيف وثلاثين وستائة، وشيخها يومئذ شيخنا الفقيه الحافظ تقي الدين عثمان بن الصلاح، فقلت بديها مشيراً إليها:

من بعد مامات رنطار والتقي بن الصلاح
هذا للوقوف والشيخ للعلوم الصحاح

رنطار هذا كان يعرف بالحاج رنطار، كان الملك الأشرف واقف دار

التفليسي، ثم ولوا محيي الدين بن الزكي، ثم ولى قطز نجم الدين بن الصدر ابن السني، وابتلي الناس في هذه السنة بغلاء شديد عام في جميع الأشياء من المأكول والملبوس وغيرهما، بلغ رطل الخبز درهمين، ورطل اللحم خمسة دراهم، وأوقية القنبريس درهما، والجبن درهما ونصف، والثوم أوقية بدرهم، والعنب رطل بدرهمين، ومن أكثر أسبابه ما أحدثه الفرنج من ضرب الدراهم المعروفة باليافية، وكانت كثيرة الغش بلغني أنه كان في المائة منها خمسة عشر درهماً فضة والباقي نحاس، وكثرت في البلد كثرة عظيمة، وتحدث في إبطالها مراراً، فبقي كل من عنده شيء حريصاً على إخراجه خوفاً من بطلانها، فتراه يدأب في شراء أي شيء كان فيترايد في السلع بسبب ذلك إلى أن بطلت في أواخر السنة، فعادت كل أربعة منها بدرهم ناصري مغشوش أيضاً بنحو النصف.

ثم دخلت

سنة تسع وخمسين وستمائة

أولها يوم الاثنين لأيام خلون من كانون الأول.

ففي أول المحرم جاءنا الخبر بجفلة أهل حلب وماوالاها إلى دمشق بسبب تجمع التاتار الذين كانوا بحران وغيرها من بلاد الجزيرة، وانضم اليهم من انهزم من وقعة كسرتهم، وضعفوا بما كان عندهم من شدة الغلاء بحران، وكانت البلاد قد خربت، فاضطروا إلى الاغارة على بلاد حلب، فانجفل الناس منهم، ثم جاءنا الخبر في سابع المحرم بأنهم كسروا بأرض حمص كسرة عظيمة، فضربت البشائر بذلك، وكانت الكسرة عند قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى قريب الرستن، وذلك يوم الجمعة خامس المحرم، وقتل منهم نحو ألف رجل، ولم يقتل من المسلمين سوى واحد، وفي ثالث عشر المحرم طيف برؤوس طائفة منهم في أسواق دمشق من القتلى مرفوعة على عصي بأيدي الصبيان يجي عليها الفلوس.

وفي يوم تاسوعاء توفي الشرف حسن بن الجمال عبد الله بن الحافظ عبد الغني المقدسي رحمه الله، وكان رجلاً خيراً.

ثم جاءنا الخبر في نصف المحرم برجوع التاتار ونزولهم على حماه، فاجفل الناس إلى دمشق، وقدم صاحب حمص وصاحب حماه في طلب النجدة، واجتمع المسلمين على القتال، ونزل المجاهد الحلبي الذي كان قد تسلط بدمشق عن السلطنة، وانقاد الجميع لسلطنة صاحب مصر لقوته بالمال والرجال، ثم ورد الخبر برجوع التاتار، وتخطف صاحب صهيون منهم جماعة، وقتل الحشيشية لصاحب سيس لعنه الله، ووقع السيف بين التاتار وابن صاحب سيس، الله يصدق ذلك ويتم نصر المسلمين.

وفي خامس صفر توفي جمال الدين يوسف بن الناصح علي بن مرتفع ابن أفتكين، وكان هو وأبوه وأخوه من عدول البلد، ويتولون المدرسة السرورية، رحمه الله، ودفن على أبيه بالجبل، وفي ليلة الأحد ثاني عشر صفر هرب سنجر الحلبي الذي كان تسلطن بدمشق، ونزل في قلعة بعلبك، وقبض على أعوان الظلمة الذين كانوا منصوبين لمصادرة الناس.

فمنهم: المجاهد سليمان، وغلამه سيف الدين، والأسعد المسلماني، ثم قبض عليه من بعلبك وأرسل تحت الحوطة إلى مصر.

وفي العشرين من صفر توفي الكمال القزويني أحد القراء بالتربة الأشرفية، وكان شيخاً صالحاً ومقرئاً حسناً رحمه الله تعالى.

وفي الحادي والعشرين درس القاضي نجم الدين بن الصدر بن سني الدولة بالمدرسة العادلية، وعزل الكمال التفليسي عنها، واعتقل بسبب الحياصة الناصرية التي تسلمها التاتار، وكانت رهناً بمخزن الأيتام على الدين الذي اقترضه الناصر صاحب دمشق من ورثة عرفة الدنيسري، فبقي الكمال في الاعتقال خمسة عشر يوماً، ثم أُلجئ في السنة الآتية إلى التحول من دمشق إلى مصر، ففارق ما كان فيه وسكن مصر.

وفي يوم الجمعة ثاني شهر ربيع الأول توفي الخطيب زين الدين خطيب حماة رحمه الله، وكان له معروف كثير، ووقف أوقافاً حسنة، وكان حسن الخطابة كثير الخير والصدقة، وفي هذا الشهر تجمع الفرنج وخرجوا على المسلمين وهم تسعمائة فارس قنطارية، وألف وخمسمائة تركيلي، ونحو ثلاثة آلاف راجل وأخذ الجميع قتلاً وأسراً، ولم يفلت منهم سوى واحد، وبعض من كان معهم، وانضاف إليهم من رجالة تلك الضياع من ضعاف المسلمين في الدين، وأسر جماعة من ملوكهم.

وفي يوم الاثنين ثالث ربيع الآخر توفي ابني الصغير اسماعيل جعله

الله فرطاً صالحاً لأبويه، ورحمه وإيانا، وصليت عليه خارج باب النصر، ودفنته تحت أخوته بمقبرة ابن زوزان المجاورة للصوفية، وعمره يوم مات سنة واحدة وشهران ونصف شهر، وفي ذلك اليوم توفي الخادم سابق الدين الأشرفي المجاور بالتربة الأشرفية، وكان خادماً خيراً رحمه الله، وفي عاشر ربيع الآخر توفي التاج الساسي المغربي، وكان شيخاً فيه خير وسكون وحياء، مقرباً عند الحاكم بدمشق الصدر بن سني الدولة رحمه الله. وفي الخامس والعشرين من ربيع الآخر توفي الشريف المخلص من بني أبي الحسن الحسيني، التاجر بقيسارية الفرس، وكان شيخاً كبيراً، وأحد عدول القاضي بدمشق رحمه الله، وفي تاسع جمادى الأولى عقد مجلس العزاء بالجامع المعمور بدمشق للسلطان الملك الناصر يوسف بن محمد بن غازي بن يوسف بن أيوب، الذي كان سلطان حلب، ثم ملك دمشق وأعمالها، وهرب من التاتار، وسلم إليهم بلاده، ثم سلم نفسه إليهم فأهانوه، ومضى إلى ملكهم هولاكو، فجاءنا خبره أنه ضربت رقبتة مع جماعة لما بلغهم أن العسكر المصري كسر عسكر التاتار بعين جالوت، وقتل ملكهم كتبغا فكأنهم اقتصوا منه رحمه الله.

ومات قبل ذاك بيومين الشجاع بن سنقر شاه الذي كان يتناول وقف بيس بقرية داعية (١٣٨) رحمه الله.

وفي هذه الشهور توفي شهاب الدين الرفيع الشاهد تحت الساعات، وذبح زين القضاة عبد الرحمن بن سلطان بالجبل، ثم ورد إلى دمشق أولاد بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وهما صاحب الجزيرة يومئذ، وصاحب الموصل بعيالهم، وأمواهم، ومعهم من أهل البلاد من كان له قدرة على السفر لخوف عرض لهم، وساروا إلى مصر، ثم رجعوا مع سلطانها في آخر السنة، ومضوا إلى بلادهم ظاهرين على العدو إن شاء الله.

وفي تاسع عشر رجب، قرىء بدمشق بالمدرسة العادلية كتاب ورد من مصر من السلطان الملك الظاهر بيبرس، يتضمن أنه قدم عليهم مصر أبو القاسم أحمد بن الظاهر محمد بن الناصر لدين الله أحمد أمير المؤمنين، وهو أخو المستنصر بالله الذي بنى المستنصرية ببغداد، وأنه جمع له الناس من مدينتي مصر والقاهرة من العلماء والأمرء والتجار، وأثبت نسبه عند قاضي القضاة بذلك المجلس، فلما ثبت بشهادة جماعة من الحاضرين عرفوه أنه ولد الظاهر بن الناصر، اسجل الحاكم عليه ثبوت ذلك المجلس، ثم بايع له الناس بعدما بدأ السلطان له بمبايعته، ورضوا جميعاً بخلافته، وأمر بنقش اسمه على الدينار والدرهم، وأن يخطب له على المنابر، وكان ذلك الاثبات والمبايعة في رابع ساعة من يوم الاثنين ثالث عشر رجب، وسر الناس بذلك سروراً عظيماً، وشكروا الله على عود الخلافة العباسية بعدما كان الكفرة التاتار قطعوها بقتل الخليفة المستعصم بن الظاهر، وهو ابن أخي هذا الذي بويع بمصر، وبسبب تخريب بغداد وقتل أهلها وذلك سنة خمس وخمسين، فبقي الناس بغير خليفة نحو أربع سنين ونصف، وصورة الكتاب الوارد إلى قاضي دمشق:

«هذه المكاتبة إلى القاضي نجم الدين يعلمه بما تجدد من أمر يبهج الأمة، ويستدعي الرحمة، ويأخذ الثأر ممن هتك للإسلام حرمة، وهو أنه ورد علينا الإمام أبو القاسم أحمد بن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر سلام الله عليه في أمر نسبه، وأخذ البيعة له، فحضر جماعة شهدوا بالاستفاضة أنه ولد الإمام الظاهر، وثبت ذلك عند قاضي القضاة لدينا ثبوتاً شرعياً، واسجل عليه بحضور العالم، وعند ذلك بسطنا لمبايعته راحتنا، واقتفى أثرنا الأمرء والحلقة والناس كافة في مبايعته، والرضى بخلافته، وذلك في رابعة يوم الاثنين ثالث عشر رجب، وتقدمنا بأن يخطب له ويتوج مفرق الدينار والدرهم باسمه الشريف، ونحن بصدد اهتمام نصره الإسلام على يديه، وإهداء كرائم الأموال والذخائر إليه، فليستند من منصبه الشريف إلى إمام صحيح النسب شريف الحسب،

ويجعل استناد أحكامه إلى ولايته الصحيحة، ومبايعته الصريحة، وليعلن هذا الخبر السار في البادين والحضار».

وفي سابع عشر شعبان توفي بحماة الشيخ شرف الدين محمد أبي بكر الجوبراني، كان مشهوراً بالعلم وفي خامس رمضان توفي الشهاب بن خواجا أخو الضياء المعروف بالجوبراني أحد فقهاء المدرسة الحسامية، وكان رجلاً صالحاً سليم الصدر به نوع اختلال يسكن في تربة مثقال الجمدار، قبالة تربة سرکس بجبل قاسيون، في قبالة تربة خاتون رحمهم الله تعالى. وفي شوال قتل قطب العالم أخو العز الخلاطي الذي شق نفسه بالمدرسة العادلية.

وفي يوم الاثنين سادس ذي القعدة وصل إلى دمشق العساكر المصرية مع السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي المعروف بالبندقداري، ومعهم الخليفة المستنصر بالله أبو القاسم أحمد بن الظاهر بن الناصر، واحتفل الناس للقائهما، وكان يوماً مشهوداً ونزل الظاهر بالقلعة، ونزل الخليفة بالتربة الناصرية بجبل قاسيون، ثم يوم الجمعة عاشر ذي القعدة دخل الخليفة إلى جامع دمشق من باب البريد، وجاء السلطان من باب الزيارة، ودخلا مقصورة الخطيب سبق الخليفة، وبعده جاء السلطان وحضرا الخطبة والصلاة ثم خرجا بعد الصلاة والناس يدعون لهما بالنصر والإعانة على قمع الكفرة أعداء الدين.

وفي ثاني عشر ذي القعدة توفي الزين عمر بن عقيل التنوخي وكان قليل الدين مخلطاً، اللهم استرنا واغفر لنا، وجاءنا الخبر في ذي القعدة من الديار المصرية بوفاة الصفي ابراهيم بن مرزوق التاجر، المحظوظ في التجارة، وكان في زمن الملك الأشرف موسى يدعى بالصاحب، وبقي بالشام مدة يتصدق عنه كل يوم بجملة من الخبز.

وفي يوم الخميس الثالث والعشرين من ذي القعدة سافر الخليفة بمن
صحبه من العساكر إلى نحو العراق في طريق البرية، وسافرت قطعة من
العساكر إلى أرض حلب وحران وطائفة ساروا إلى بلاد الفرنج نصر الله
المسلمين، فأغاروا، ثم عادوا ووقع الصلح بينهم.

وفي يوم الخميس ثامن ذي الحجة عزل عن قضاء دمشق النجم بن
الصدر بن سني الدولة، ونولى القاضي شمس الدين أحمد بن بهاء الدين
محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان الذي كان نائباً في الحكم
بالقاهرة سنين كثيرة، وجلس مكان النجم وأبيه بالمدرسة العادلية، ثم
وكل على النجم وأمره بالسفر إلى الديار المصرية، وكان حاكماً جائراً،
فاجراً ظالماً متعدياً فاستراح منه العباد والبلاد، وهو الذي شاع عنه أنه
أودع كيساً فيه ألف دينار فرد بدله كيساً فيه فلوس، وذكر ذلك في
القصيدة التي هجي بها لما تولى الحكم، ورفعت إلى الملك المظفر، والمولى
الأمير المجير، وابن وداعة، وفي الجملة تولى الحكم في زماننا ثلاثة
مشهورون بالفسق: هذا الظالم، والرفيع الجلي، وابن المصري، كان نائباً
لأبيه وقلت في حصر القضاة ونوابهم:

دمشق في عصرنا مع فضلها بليت

من القضاة بجهال وأوقاح

بأعجمين ومصري وصائغهم

والإربلي وخياط وفلاح

هم ضعف ستة والنواب كلهم

ضعفان أحزانهم أضعاف أفراح

أي هم اثنا عشر: الزكي؛ وأخوه؛ وابن الحريستاني؛ وابنه؛ والجمال
المصري؛ والحوئي؛ والرفيع؛ والتفليسي؛ وبنو سني الدولة ثلاثة؛ وابن
خلكان؛ والبواب شرف الدين بن زين القضاة؛ وابن الشيرازي؛ والسراج
مدرس القيازية؛ وابن الموصل؛ والشرف الحوراني؛ والنجم الحنبلي؛ وابن
المصري؛ والسنجاري؛ وملكشاه؛ وعبد الله؛ والبكري؛ وقاضي العسكر؛

وابن عبد الكافي؛ وابن العجمي؛ واسحاق؛ والبدر بن خلكان؛ وأخوه
المحيي؛ وابنه؛ وقلت في نظم الاثني عشر:
هم الزكي والحريصاني معا
وجمال مصر ثم الخوئي ثم ذوالجراح
رفيعهم وبنو السنبي وبخيههم
وخلكان مع التفليسي يا صاح

ثم سافر الحاكم المعزول إلى مصر تحت الحوطة يوم الخميس خامس
عشر ذي الحجة، والدعاء عليه كثير، والتظلم منه شائع والدعاوي عليه
كثيرة.

وفي الغد يوم الجمعة قرىء بالشباك الكمالى بجامع دمشق، وأنا
حاضر فيه، تقليد القضاء للقاضي شمس الدين بن خلكان الإربلي
ويتضمن أنه فوض إليه الحكم في جميع بلاد الشام من العريش إلى
سلمية يستنيب فيها من يريده، وفوض إليه النظر في أوقاف الجامع
والمصالح، والبيمارستان، والمدارس وغيرها بما كان تحت يد الحاكم
المعزول، وفوض إليه تدريس سبع مدارس كانت تحت يد المعزول وهي:

العزراوية، والعادلية، والناصرية، والفلكية، والركنية، والإقبالية،
والبهنسية، وأنشدني العماد داود بن الحموي لنفسه في ذلك القاضي
المعزول:

نجم أتاه ضياء الشمس فاحترقا
وراج في لجج الادبار قد غرقا
ناحت عليه الليالي وهي شامته
وعرفتة صروف الدهر ما اختلقا
وحدثته الأماني وهي كاذبة
بأنه لا يرى بعد النعيم شقا

- ٩٤٠٢ -

وجاد بالمال كبي تبقى رياسته
وفتق الشرع والتقوى ومارتقا
فجاءه سهم غرب جل مرسله
فمات معنى وما أخطاه من رشقا
والقيت في قلوب الناس بغضته
لكنهم قد غنوا في ذمه فرقاً
فرقة بقيقح الظلم تذكره
وفرقة حلفت بالله قد فسقا
وفرقة سلبته ثوب عصمته
بأنه رباط الدين قدم رقاً
وراح قسراً إلى مصر على عجل
موافقاً للذي من قبله سبقاً
مفارقاً للنعيم كان منغمساً
فيه ولذة يوم بدلت أرقاً

وزدت أنا:

وفرقة وصفته بالخلاعة مع
خبث وكبر وكل منهم صدقا

وفي يوم السبت سارت العساكر مع سلطانها الظاهر راجعة إلى مصر،
وجاءنا الخبر من عانة بوصول الخليفة إليها، وأنه اتفق مع الخليفة الآخر
الذي كان أقامه برلو بمدينة حلب، ويلقب بالحاكم ونقش اسمه على
الدراهم، وخطب له على المنابر، فلما قدم صاحب مصر والشام
بالعساكر، وتوجه الخليفة إلى العراق تزلزل أمره، ووفق بينهما، فانصاع
الحاكم للمستنصر بسبب أنه الأصغر وذاك الأكبر، ووقع الاتفاق وزال
الشقاق والله الحمد.

ثم جاءنا الخبر في آخر السنة: خرج عليهم طائفة من التاتار وأصحابهم
قبل وصولهم بغداد فقتلوا الخليفة وأكثر من كان معه، وجاء الخليفة

- ٩٤٠٣ -

الأصغر هارباً إلى العراق، وقدم جماعة منهم دمشق هاربين وأخبروا
بما جرى عليهم، وممن كان معهم وفقد: الكمال بن السنجاري، وابن
العمري، وعبد العزيز بن عبد الملك بن عساكر وغيرهم.

ثم دخلت

سنة ستين وستائة

ففي يوم الأربعاء ثاني عشر المحرم ذكرت الدرس بالمدرسة الركنية الملاصقة للمدرسة الفلكية، وابتدأت بها درساً من مختصر المزني رحمه الله بحضرة قاضي القضاة وغيره.

وفيهما: في أوائل صفر توفي البرهان ابراهيم الصرخدي.

وفيهما: في ثاني عشر صفر قتل الزين مظفر بن اسماعيل التاجر المعروف بالزين الصانع، صاحب الأملاك بقريتي داعية وحمورية وغيرهما، وقتل بعد صلاة الجمعة، وهو داخل من جبل قاسيون قبل أن يصل إلى مقبرة ابن صاحب قرقيسيا على حافة الساقية المقابلة للمزرعة المعروفة بالسمرية. قتله شخص من أهل قرية تل منين تبعه من الجبل، وقد عاينه باع شيئاً واستوفى ثمنه، ولم تمكنه الفرصة إلا هناك، ثم مسك القاتل فأقر فشقق بعد يومين بين الميدانين يوم الاثنين، ودفن الزين من الغد بجبل قاسيون رحمه الله يوم السبت ثالث عشر صفر.

وفيهما: يوم الأحد الثاني والعشرين من صفر، دخل الخليفة الحاكم الذي كان بايعه برلو بحلب، وأنزل في قلعة دمشق مكرمًا، وذلك بعد الواقعة التي قتل فيها الخليفة المستنصر، وكان معه، فهرب وسلم، ثم سافر إلى مصر يوم الخميس السادس والعشرين من صفر.

وفي ذلك اليوم توفي عثمان الكيال الأحول الساكن بحضرة حمام الحين ودفن بباب الصغير.

وفيهما: وفي أواخر ربيع الآخر توفي العز الضرير الإربلي الذي كان

يقرىء علوم الأوائل في بيته، لمن يتردد إليه من أهل الملل مسلمها، وكافرها، ومبتدعها، من الرافضة، واليهود، والنصارى، والسامرة، وكان قليل الدين، لكنه كان فصيحاً حسن المحاضرة، والله تعالى يختم لنا بخير آمين.

وفي أول جمادى الأولى توفي بمكة التاج أبو الحسن بن زين الأمناء، وصلى عليه بجامع دمشق يوم الجمعة رابع عشر ربيع الخطيب عماد الدين بن الحرساني عندما صح خبر موته رحمه الله.

وفيها: جاءنا الخبر من مصر بوفاة الشيخ عز الدين أبي محمد عبد العزيز بن عبد السلام رحمه الله، وعمل عزائه بجامع العقبية يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الأولى سنة ستين وستائة؛ ثم جاء من حضر جنازته وأخبر أن وفاته كانت يوم الأحد عاشر جمادى الأولى أو حادي عشره، وكان يوماً مشهوداً حضر جنازته الخاص والعام، ونزل السلطان الظاهر بيبرس وصلى عليه مع الناس بالقرافة، ودفن في آخر القرافة ممالي الجبل من ناحية البركة، وصلى عليه في جامع دمشق وغيره من الجوامع بالشام يوم الجمعة سلخ جمادى الأولى رحمه الله، ونادى النصير المؤذن بعد الفراغ من صلاة الجمعة: الصلاة على الفقيه الإمام شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام.

وفيها: في حادي عشر جمادى الأولى توفي الجهمال عبد الوهاب بن المصري الأعور، وكان قديماً بالمدرسة الجاروخية في حياة شيخنا فخر الدين بن عساكر، ثم صحب بني سني الدولة وانتفع بهم وكف بصره في آخر عمره ودفن.

وفيها: في رجب من هذه السنة جرى علي الشمس محمد بن مؤمن الحنبلي أمر بتعصب أهل الجبل عليه، بأن حمل والي دمشق على صفعه وتجريصه على حمار بدمشق وبالجبل.

وجاءنا الخبر من مصر بوفاة الصاحب كمال الدين عمر بن أبي جرادة الحنفي، المعروف بابن العديم في العشرين من جمادى الأولى، وصلي عليه بجامع دمشق صلاة الغائب رحمه الله، وكان فاضلاً متواضعاً، حسن المحاضرة، كثير الإفادة، وسود تاريخاً لحلب، وبيض بعضه، وفي تاسع عشر جمادى الأولى توفي الجمال عبد الله بن عبد الملك الحنبلي المعروف بعفلق. وفي السادس والعشرين من جمادى الأولى توفي التاج عبد الرحمن ابن عبد الباقي بن الخضر الحنفي المعروف بابن النجار، وكان أحد شهود باب الجامع، ومدرساً في بعض مناصب الحنفية رحمه الله، وهو الذي كان عقد نكاحاً على مذهبه باذن الصدر بن سني الدولة الحاكم الشافعي، ثم أذن الصدر لنائبه الكمال التفليسي في نقضه، وجرى في ذلك انكار عظيم على الناقض والأذن، وصنف في ذلك تصنيفاً فانتصر التفليسي لما حكم به بجمع جزء فنقضه عليه بتصنيف آخر، صليت عليه إماماً ظاهراً باب الفردائس، واتفق حينئذ عبور نائب السلطنة بدمشق وأعمالها الحاج علاء الدين طبرس الوزيري، فترجل وصلى معنا عليه، ثم مضى به إلى جبل قاسيون.

وفيها: في ثاني عشر جمادى الآخرة توفي البدر المراغي الخلافي المعروف بالطويل، وكان قليل الدين، تاركاً للصلاة مغتبطاً بما كان فيه من معرفة الجدل والخلاف على اصطلاح المتأخرين، رحمنا الله وجميع المسلمين.

وفيها: في السادس والعشرين من جمادى الآخرة توفي صاحبنا ناصر الدين محمد بن داود بن ياقوت الصارحي، ودفن بمقبرة الباب الصغير، حضرت دفنه والصلاة عليه، وكان رجلاً صالحاً، عالماً مفيداً لطلبة الحديث باذلاً كتبه وخطه في ذلك، اشتغل بسماع الحديث كثيراً، وكتب مجلدات وأجزاء كثيرة، وطباق الساعات المكتوبة بخطه من أحسن الطباق وأنورها وأصحها رحمه الله. وفي ذلك اليوم توفي جمال الدين محمد

ابن عبد الحق بن خلف الحنبلي بجبل قاسيون، فلم أحضر جنازته
لاشتغالي بجنازة ناصر الدين المذكور رحمهما الله، وكان حسن الأخلاق
ظريفاً، يتولى التوريق بالجبل، وأرخ الوقائع في أيامه.

وفي ليلة الأحد سلخ جمادى الآخرة ولد ابن ابنتي حسن بن عبد
الرحمن بن محمد البكري، جعله الله مباركاً.

وجاءنا الخبر من مصر في رجب بأنه شنع قاضي المقيس بها، وكان
ذلك في عشية الثلاثاء ثامن عشر جمادى الآخرة من السنة وهو: الكمال
خضر بن أبي بكر بن أحمد الكردي أحد أقارب قاضي سنجار وذلك
لأنه تعرض لإقامة دولة باجتماعه مع جماعة من الأكراد والشهرزورية،
فقبض عليه وعلق وفي رقبته تواقيع كان كتبها، وبنود من شعار الدولة
التي قد رام إقامتها، وكان قبل ذلك قد صنع خاتماً وذكر أنه وجدته
وجعل تحت فصبه ورقة أسماء جماعة من أولي الثروة بما عندهم مودع،
ورام استئصال أموالهم والتقرب بها إلى ولاية الأمر فاطلع على حاله فأهين
وصفع فقبل فيه:

ما و فوق الكمال في أفعاله

كلا ولا صدق في أقواله

يقول من أبصره يصير

نادماً على ما كان من محاله

قد كان مكتوباً على جبينه

فقلت لا بل كان في قذاله

وسألت الحاكم شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر
عن هذه القضية، فأخبرني أن هذا الكمال خضراً كان قد علق به حب
التقدم عند الملوك بسبب أنه كان قد تقدم عند عز الدين أيك التركماني،
وهو الملك المعز، ثم أبعد، واتفق أنه لما صنع الخاتم المذكور وحبس كان

في الحبس شخص آخر يدعي أنه من بني العباس، وكانت الشهرزورية أرادت مبايعته بالخلافة وهياؤا الأمر لها بعده، فلما تبدد شملهم أخذ هذا وحبس، واتفق خضر معه في الحبس على أنه يسعى له في ذلك الأمر، ويكون هو وزيره فاتفق موت العباسي، فلما خرج خضر سعى في اتّمام الأمر لابنه فتمّ ماتم.

قال: وكان من زمن الإمام الناصر أخذ قد ورد إلى إربل شخص يسمى الأمير الغريب، كان يدعي أنه ولد الناصر، ثم توفي سنة أربع عشرة وستمئة فادعى هذا الشخص أنه ابنه عند الشهرزورية، فقدموه فحبس ومات وخلف ولداً صغيراً، فسعى الكمال في المبايعه له، فجرى ماجرى، وقد خاب من افترى.

وفي ثامن رجب توفي الشرف عبد الرحمن بن صدقه، وكان من أترابي ورفقائي في تلقن القرآن العظيم عند العفيف الضير محمود شيخ القاضي الخوئي، وفي المدرسة الأمينية أيام الجمال المصري رحمه الله، وفي ثالث عشر رجب توفي البرهان الخليلي، وكان فقيهاً مناظراً مقبول الشهادة رحمه الله، وفي رابع عشر رجب توفي الشمس الكردي الأعرج الذي كان يصحب الأمير حسام الدين بن علي، وكان مدرساً بالكلاسة وغيرها، ودفنه حموه تقي الدين بن أبي اليسر بالجبل عند قرابته وجده رحمه الله.

وجاء الخبر إلى دمشق بالتقاء التاتار لعنهم الله المقيمين على بلاد الموصل، بعسكر الأمير برلو من المسلمين، وجرت بينهم مقتلة عظيمة، قتل فيها من أعيان فرسان المسلمين سنجرجكم الأشرفي وابنه، وبكتوت الحراي وغيرهم.

وفيها: يوم الاثنين الثاني والعشرين من رجب توفي نقيب الأشراف

الطالبين بدمشق وهو: بهاء الدين علي من بني أبي الجن، وتولى بعده النقابة الفخر بن النظام البعلبكي، وفيها: يوم الخميس خامس وعشرين رجب توفي الشيخ عبد الرحمن بن خطيب إربل الذي كان ساكناً بمنارة جامع دمشق الشرقية رحمه الله، وجاءنا الخبر من مصر بوفاة القاضي المسكين بن كامل في نصف رجب، ومن تل السلطان بحلب بوفاة عز الدين أبيك المحيوي، عتيق محيي الدين بن المدرس وزير الجزيرة، وكان شاباً ذكياً فاضلاً حسن الخط، وكان يقرأ علي في صغره، بمصر شيئاً من العربية رحمه الله، وفي هذه السنة نظر في أمر أئمة المساجد بدمشق فمنعوا من الاستنابة، ورجع على بعضهم بما كان تناوله إذ لم يقيم بالوظيفة، منهم: التاج الشحرور، والجمال الموقاني، وابن بنت غانم، وابن عبد السلام وغيرهم، ونقص كثيراً من جامعاتهم المقررة، وكان المتولي لذلك والي الشرطة بدمشق وهو الإفتخار اياز، وكان شيخاً كبيراً ولي دمشق في أول هذه السنة، ومكن من النظر في المساجد فجرى ما جرى، وأمر أهل الأسواق بالصلاة، وعاقب من تخلف عنها، وكان يخدمه شخص من أبناء الحنابلة يعرف بالفخر بن الصيرفي، وله مسجد بقبة اللحم له فيه كل شهر ستون درهماً، وتركه بحاله لم ينقصه من جامعيته مع نقص غيره، فقال فيه بعض أئمة المساجد:

ياوالي متزهداً

متجنباً لا يتصل

لم لا تسأوي بالمساجد

مسجد ابن الصيرفي

فأجابه آخر على لسان الوالي لما كان متهماً بمراعاة الحنابلة فقال:

قال الأمير الحنبلي

جواب من لم ينصف

أنا مبغض للشافعي

والمالكعي والحنفي

فلذلك أقصدهم
وأرعى جانب ابن الصيرفي

وفي شعبان توفي الحاج أبو بكر بن بطيخ التاجر برحبة دمشق، وفي هذه السنة سار عسكر الشام مع من قدم عليهم من عسكر مصر، ونزلوا على مدينة أنطاكية فشعثوا منها، ثم جاءهم أمر من مصر بالرحيل عنها فرحلوا ودخلوا دمشق في سلخ شعبان، وفي التاسع والعشرين من شعبان توفي النجم ابراهيم بن الضياء يوسف بن خطيب بيت الأبار، وكان من الشهود المتصرفين بديوان السبع رحمه الله.

وفي أول هذه السنة نزل التاتار لعنهم الله الذين كانوا هربوا من الشام مع من انضوى إليهم من المفسدين على مدينة الموصل فحاصروها إلى شعبان؛ ثم جاءنا الخبر بأنهم دخلوا وفتكوا فيها على عاداتهم وملكوها وقتلوا وأسروا صاحبها ابن لؤلؤ، وجاءنا الخبر بأن الخلف وقع بين التاتار ببلاد العجم وموت ملكهم الأكبر، وانتصار بركة على هولاء لعنه الله.

وفي النصف من رمضان وقع بدمشق ارجاف عظيم من جهة التاتار، وتجهز الناس منها للهرب إلى الديار المصرية، وباع الأمراء حواصلهم حتى حواصل القلعة وتهيئوا للهرب، وألزم ولاية الأمر كبراء دمشق بالرحيل بأهاليهم إلى مصر، ورسموا عليهم بذلك، وضيقوا عليهم بسببه، وألزموا أرباب الدواوين المتصرفين لهم بإرسال نسائهم إلى مصر وبقائهم في خدمتهم في دمشق سواء في ذلك القادر والعاجز، وألزموا جمعاً كبيراً بذلك من أهل الأسواق بالقيسارية الفخرية والخواصين وغيرهما من جماعة من صناع القواسين وغيرهم، وأطلقوا أصحاب الفراسين وكل من كان بينه وبين التاتار تعلق وأخرجوهم إلى مصر كرهاً. منهم: القاضي التفليسي، وابن عنتر، وقيدوا جماعة منهم مثل: ابن اللبودي، وابن المسلم، وابن الأردني، وجفل الناس من حمص وحماه وغيرهما إلى دمشق،

ورحل من دمشق في نصف شوال فما بعده قفل كبير إلى مصر بعد قفل وأخذ بعضهم في الطريق وجرح بعض، وكان الماء عليهم في الطريق قليلاً والحر شديداً، وبلغنا أن مثل هذا الإرجاف وقع أيضاً في بلاد العدو من التاتار، وفي بلاد الفرنج أيضاً، وفي الديار المصرية.

وفيها: توفي جمال الدين الواسطي الساكن بالعزيزية، وكان يصلي بها التراويح رحمه الله، وفي أوائل شوال قتل الشيخ اسكندر الواسطي بقرية زملكا من حرامية نزلوا عليه رحمه الله. وفي شوال أيضاً توفي حميد الأخرس ابن أبي الفتح، وتوفي فيه خميس الخفير الذي كان بمقبرة باب الفرديس. وفي سلخ شوال توفي عز الدين عبد العزيز بن الشيخ شمس الدين يوسف سبط ابن الجوزي الواعظ الحنفي، وكان قد درس مكان أبيه بعده بالمدرسة العزيزية التي فوق الميدان الكبير رحمه الله، ودفن في مقبرة أبويه بجبل قاسيون، وفي أوائل ذي القعدة توفي العفيف بن الوزار.

وفيها: في ثالث ذي القعدة وصل من مصر إلى دمشق عسكر مقدمه الأمير عز الدين الدمياطي، وبكر للدخول إلى دمشق، فخرج الناس يتلقونه وفيهم الحاج علاء الدين طبرس الوزيري نائب السلطنة بدمشق، فلما وصل اليه وأهوى أن يكارشه (١٣٩) على ماجرت به عادة الملتقين قبض الدمياطي بيده الواحدة عضد طبرس وبيده الأخرى سيفه وأنزله عن فرسه وأركبه بغلاً وشده عليه وقيده، ثم تركه بمصلى العيد، فلما دخل الليل وكل به وسيره إلى مصر، وكان القبض عليه عند ذيل عقبة شحورا، وهرب من خرج معه من أصحابه، ثم استخرجت أمواله التي تبقت بعد ماسير، منها ما كان سير مع العرب، وقبضت حواصله.

وكان طبرس المذكور قد أهلك أهل دمشق باخراجهم من بلدتهم والترسيم على الأكابر باخراج عيالهم وبأنفسهم واهانتهم، وضيق على الناس بتمكين العرب من شراء الغلال من دمشق وتخويف الناس من

التاتار، وكان البدوي يجلب الجمل ويبيعه بأضعاف قيمته ويشترى به الغلة رخيصة لأن الناس بين خائف يبيع حاصله ليتجهز به ومحتاج إلى الجمال لسفره، وبين من هو موكل عليه ليسافر ولا بد فهو مضطر إلى كل ذلك، وبلغ كراء الجمل بالمحارة من دمشق إلى مصر نحو مائتي درهم، والحمد لله على كشف تلك الشدة.

وفي الخامس من ذي القعدة مات الأمير المعروف بالأصبهاني مغموراً، وفيها يوم السبت السابع والعشرين من ذي القعدة وصل إلى دمشق من عسكر التاتار لعنهم الله نحو مائتين مابين فارس وراجل بنسائهم وصغارهم هاريين إلى المسلمين، وذكر أن سبيه أن عسكر هولاء كسر عسكر ابن عمه بركة فهرب جماعة هولاء وتشتتوا في البلاد، فقصد كل طائفة جهة، وتوجهت هذه الطائفة إلى بلاد الشام ففرح المسلمون لهذا الخبر وزال عنهم ماكانوا فيه من الغم بسبب الأخبار السابقة التي أوجبت أن جفلوا إلى مصر، وأخبر بعض هؤلاء المنهزمين أن ملك التاتار الأعظم منكوخان توفي وقام بالملك بعده أخوه الأصغر عري بكو، وكان الأخ الأكبر قبلاي غائبا بالهند، فأنف وقصد أخاه بعسكره فتقابلا ونصر الله بركة لعري بكو، فكسروا عسكر قبلاي، فلما سمع هولاء عز عليه وكره تملك عري بكو، وجمع العساكر وقصد بركة، وسار بركة إليه ونزل في أرض الكرج، ونزل هولاء بصحراء سلباس وخوي.

وأخبرني من أثق به عن من يثق به أنه اجتمع ببعض غلمان من كان في أسر التاتار من الأمراء، أنه أخبر بحضرة الأشرف صاحب حمص أنه حضر كسرة بركة لهولاء، وقال: كان جيش بركة قد كسر عسكر هولاء الذي سيره مع ابنه وقتل ابنه، فجمع هولاء بقية من قدر عليه من عساكر، وسار إلى بركة فلقية بناحية شروان فقتل من الفريقين خلق عظيم، ووقعت الكسرة على عسكر هولاء، فبقي السيف يعمل فيهم

أياماً وهرب هولاءكو إلى قلعة بلا (١٤٠) وهي في وسط بحيرة بأذربيجان، فدخلها وقطع الطريق إليها فبقي كالمحبوس فيها.

وفيها: في ثامن ذي الحجة توفي الأمير سيف الدين بلبان، المعروف بالزردكاش الذي كان استنابه طيبرس موضعه بدار العدل، وعلى دمشق لما سافر إلى حصار أنطاكية وكان ديناً خيراً يحب العدل والصلاح رحمه الله.

وفيها: جاء يوم الثلاثاء ثامن ذي الحجة جماعة من المسلمين أعرف بعضهم، معهم شيخ زعموا أنه نصراني معروف ببيع اللحم بدمشق، وأنه رأى رؤيا، وقد جاء مسلماً فأخبرني أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجمعة جاءه وكان مضطجعاً من أثر مرض، فقال له: قم وأخرج من الضلالة إلى الهدى ومر إلى أبي شامة وأسلم على يده، وأخبره أن الملك الأشرف - يعني صاحب حمص - يملك بلاد سيس، ويهلك العدو بها، وأن صاحب مصر في السنة الآتية يهدم عكا ويملكها، وتكون أنت تخدم مسجد صالح بها، ثم ارتفع صلى الله عليه وسلم إلى نحو السماء، وهو في صورة لا أقدر أصفها ولا أشبهها بالقمر ولا الشمس هي أكمل من ذلك وأتم، فقلت إلى أين يارسول الله؟ قال: أسأل ربي في الناس نصرهم على الكفرة، أو كما قال.

قال: فانتبهت وبقيت في حيرة من أمري، فلما كان ليلة السبت رأيت مثل ذلك المنام، ثم ليلة الأحد كذلك ثلاث ليال متوالية، ثم صممت على الدخول في الاسلام، فسألت عن من يقال له أبو شامة من المشايخ فدلوني عليك، فأمرته بالاسلام فأسلم، والحمد لله رب العالمين.

وفيها: توفي البدر أحمد بن شرف الدين عمر بن السابق بأرض نابلس رحمه الله، وفي أواخر ذي الحجة توفي العز التاجر المعروف بابن مشرف، ويلقب بابن الجرذان، ووجد النظام قيس بن العربي مقتولاً بالصالحية، وكان هذا المذكور ذكر عنه أنه قتل زوجة له وغيرها، وهو: أبو سعيد

- ٩٤١٤ -

قيس بن عثمان بن عمرو بن كامل بن هبة بن علي الانصاري، وعربين
قرية بغوطة دمشق.

وقدم إلى دمشق والياً عليها من جهة مصر الأمير جمال الدين أقوش،
المعروف بالنجيب، ورحل علاء الدين التركي إلى مصر، وتولى عز الدين
ابن وداعة الوزارة على الدواوين وما يتعلق بها، وتولى نظر الدواوين
شمس الدين بن علان، وانعزل عنه شرف الدين بن الوزان.

وتحرك سعر الغلة في أواخر هذه السنة، وطابت الأخبار من جهة
التاتار، والحمد لله.

ثم دخلت

سنة احدى وستين وستمائة

وسلطان الديار المصرية والشامية الملك الظاهر بيبرس الصالحى، المعروف بالبندقدارى، ولاخليفة للناس يذكر بل السكة تضرب باسم المستنصر بالله على ما كان الأمر عليه، والنائب بدمشق عن السلطنة جمال الدين أقوش النجيبى، وقاضيه شمس الدين ابن خلكان.

وفي خامس المحرم توفي الزين بن أبى طالب الفراش صهر المجد بن سني الدولة، وكان يتولى الدواوين مع الأمراء وغيرهم.

وفيها: يوم الجمعة سادس عشر المحرم خطب بجامع دمشق وسائر الجوامع للخليفة الحاكم أبى العباس أحمد بن الحسين بن الحسن من أولاد المسترشد، بتوقيع القاهرة ومصر في ثامن المحرم من السنة التي كان سافر الى مصر.

وفيها: جاءنا الخبر بأن صاحب مصر بايع له، وأمر بالخطبة له في البلاد.

وفي ليلة الأحد ثالث صفر سمر شاب، ذكر أنه كان يرسل زوجته وتدخل في بيوت النساء، فتحسن للمرأة الخروج معها لابساً أفخر ثيابها وحليها وتشوقها بأن تقول لها هاهنا عرس أو وليمة، وقد اجتمع فيه جماعة من النساء الأكابر فلا تتركن من الزينة شيئاً ليحصل لك التجمل بينهن، فتفعل تلك المغرورة، أقصى ما تقدر عليه، وتخرج معها فتجيء بها إلى بيت زوجها، فيأخذ جميع ما عليها، ثم يخنقها ويرميها في بئر في داره فعل ذلك بجماعة من النساء، وهو نظير ما فعله شخص يعرف بالمكحلة في سنة ثمان وعشرين وستمائة، وسمر وبقي أياماً ومات، ثم

هتكه الله تعالى فأخذ هو وامرأته فضربا فاعترفا، فأما المرأة فخنقت وجعلت في جوالق وعلق الجوالق تحت الخشب الذي سمر عليها، فأصبح الناس يوم الأحد فوجدوا الجوالق المعلق والرجل المسمر خارج باب الفرج على يسار الخارج من الباب، وكان الزمان في سابع عشر كانون الأول، وسمر وهو في ثوب واحد خلق مكشوف الرأس فبقني ليلتين ويوماً، وفي اليوم الثاني خنق بطرف الحبل وربط في الخشبة التي سمر عليها، وكان أبوه حياً وهو رجل حسن يعرف بعلي الصانع، له ثروة وقدر بين الناس وجده أيضاً حي، وتوفي ذلك اليوم نضر الفراش بالتربة العادلية سقط من سطح فمات، رحمه الله. وفي العشرين من صفر توفي أبو الحزم العطار بباب البزيد، وهو ابن البدر بن مسلم العطار بالبادين.

تمام حوادث سنة احدى وستين وستائة

فيها نظمت قصيدة في شرح الحال، وكنت قد اشتغلت بزراعة ملك
لي وعمارته، فانقطعت عن المدرسة فعوتبت فقلت:
أيها العساذل الذي إن تحري
قال خيراً ونال بالنصح أجرا
لا تلمني على الفلاحة واعلم
انها من أحل كسب وأثرى
كيف لا ألزم الفلاحة باقي
عمري لا زال حصداً وبذرا
وبها صنت ماء وجهي عن الناس
جميعاً وعشت في القوم حراً
اذ بها صار من زلي ذا غلال
مع عيال من بعد ما كان فقراً
مشبع الأهل والأقارب والألـ
زام منها فليس يشكون فقراً
ولكم واقف بباي يي يعطى
صدقات من الغل وبرا
كنم فقير وكنم يتيم وكنم
أرملة نال من نصيبي وفرا
وكذا الطير والبهائم ترعى
من زروع وثمرات تترى
كل ذا فيه الأجر جاء
أحاديث هذا الذي الأئمة تقرا
اتخذ حرفة تعيش بها
يا طالب العلم ان العلم ذكر
لا تنه بالاتكال على الوقـ
ف فيمضي الزمان ذلاً وعسرا .

إنما تحصل الوقوف لشريـ
روندل من العلوم مبرا
أولن يلزم الأكابر لا يـ
برج في خدمة لهم ومدح وإطرا
طالباً جامهم مجيئاً إلى كـ
ل أمور لهم عكوفاً مصر
فترى قاضي القضاة ومن يـ
كردرساً يرعاه سرأ وجهـ
قاصداً قربه فيصغي إليه
فاعلاً ما يريد نفعاً وضرا
والضعيف المشغول بالعلم يلقى
من ولاية الوقوف هجرأ وهجرا

وهو المستحق لو أبصروا الحـ
ق ولكن عموافيارب غفرا
إنما كانت المدارس عـوناً
لأولي العلم حسب في الناس طرا
درست في زماننا إذ تـولا
ها أولوا الجهل والحقا قهـرا
قربوا شبههم وأقصوا وأذوا
حامل العلم أسكنوه قبرا
وتراهم لا يحزنون لهذا
إنهم في الضلال والغبي سـكرا
ياله منصباً تـداوله من
ليس أهلاً له دهاء ومـكرا
جعلوا موضع المفقـه والمر
شدمن لا يدري وفي الشريـدري
وأولوا الأمر المالكـون يظنـو
ن صواباً فيهم وخيراً وطهـرا

فإذا مارأوهم هكذا
نلهم فعلهم على الظالم إغرا
ويظنون كل صاحب علم
هكذا فعله في جعل جبرا
فعليك المعاش ياطالب العلم
ولا تترك المعيشة كبرا
واقتنع بالذي تسهل واشكر
تجد الرزق فاض فيضاً ودرا
واترك الوقف اذ جرت صورة الام
ركذا بينهم فبئس المجرا
اجتنب فعلهم توكل على الخ
سي الذي لا يموت واسأله ستر

كن أياً لما يشين أماتاً
نف من أن يكون عيشك يزرى
اذيقال الأوقاف أوساخ الأموا
ل كوقف الزمنى ووقف الاضرا
والمساكين واليتامى فكل
صدقات منها اللبيب تبرأ
لا يرى أنه يشارك ذي الأص
نواف فيها يعيش عيشاً مرا
فجفاهامع أنه مستحق ال
وقوف ما يستغل منه ويكرى
فدع العجز يا أي اذا أن
صفت في الفكر لم تجد لك عذرا
لا تزا حم ولا تكاثر بها تأخذ
منه فقد عرفت الأمر
وان احتجت خذ كفافاً يكره
وبعزم أن لا يدوم العمر

كان من قبلنا أئمة هذا الد
ين والوقوف بعد ذاك استقرا
لم يكن ذاك مانعاً طالب العلم
من العلم فاقف ذاك الاثرا
معطياً كن ودع من الوقف أخذا
إن يد الإعطاء أعلى وأرفع قدرا
صدقات الوقوف ينفر منها
كل حر تأتبه صفواً ويسرا
كيف حال الذي يذل لها
بالقول والفعل كي يحصل نذرا
دائباً في الترددات صفيقاً الـ
وجه عند اللقاء شيئاً أمرا
ذاهب العمر في النفاق وفي الـ
خدمة لا يلى ذهاباً ومرا
بائعاً دينه بدينه غيره
لقد خاب بائع الدين خسرا
لاحياء له يطلب ما ليس
حق له لقد جاء نكرا
فلها اعتزلت يارب تم
ما به قد مننت إنك أدرى
ثم لو لم يكن تصدق بالوقف
فقد كان البعد عنه أحرى
حين قد صار الأخذ منه يسمى
منصباً فيهم يبيع ويشري
فتعاطاه صاحب المال والجاه
فزال المقصود منه وضراً
وأقاموه في الموارد حتى
أخذوه إرثاً صغيراً وكبيرا

وغدا المستحق حيران ندما
نمن الغبن ينظر العيش شذرا
ثبت الله بعضهم بغنى النفس
س فلم يكثرث وقد عاش دهره
حب هذه الدنيا أصم وأعمى
أخذ الوقف أغنياء وأغرى
وأولوا اللب والعقول يرون الـ
أخذ منه مع الغنى عين إزرا
والفقير الحريص منهم مكعد
وكذا من يسالها مع الإثرا
غير أن الفقير يذر فيها
والغني الغبي يرمى ويذرى
عجبا من مدرسين قضاة
يتبارون في اللباس بطرا
وهم في نفوسهم في عظيم
يركبون البغال عزاً وزهرا
حق كل منهم يكون حزيناً
إن أجاد المعنى وأحسن فكرا
أبدا إذا عيش بصدقات الـ
ناس باسم الوقف لا يتبرا
وعليه من الشروط تكاليف
فإن لم يقيم بها فهو أدرى
كم رأينا مدرسا ومبولى
حقه أن يكون منه معرا
ضحكة للورى المدرس والحا
كم تلقى وليس يحسن يقرأ
يالها وصمة على أهل ذالـ
عصر يكفيك ما رأينا خيرا

إن منهم من كان يلثغ بالقاف
ومنهم من كان يلثغ بالرا
وهما من أمثال القوم فاعجب
واعتبر وانشر الغـ رائب نشر
والذي ألبس القباء ذا الكر
بـة والظالم المردي المهـرا
والذي كاتب التاتار ومن
سار اليهم قصداً فأنسى وأطرا
والذي قد أتى الفواحش واستكبر
فاسأل ماذا جرى إذا تجرى
والذي ميله إلى نظـم دو
بيت وتقريب من يذاكر شعرا
ولـه في أكـل الحشيشة رأي
وافق الفرع فيه لـا وفجرا

ولديه أبو الفوارس مهتز
بـارمى الشباب عجباً وسكرا
فتولى المناصب والأشياخ قـ
سد عطلـوا فيشكون صغرا
ورعاة العدل الرضى حاضراً
مجلس الاثبات شاهداً مستمرا
قائلاً إذا أنسى عليه بنو علـ
ان والأقـرب ربـون أولاد صصرا
قيل لا تعتمد عليهم لهم أغـ
راض سـوء زوراً وبهتـا ووزرا
عدوا سأل سواهم تعرف الحـ
سـق فاذأعذرتني نلت إصرا
أنت في حق غيره واقـف إن
كنت بالشام أو تفارق مصرا

عجباً ما نراك به توقف
لقد بث أمره منك سرا
كلما قلت دولة الحاكم الجابر
زالت قامت علينا أخرى
وتصدوا لكل الأوقاف حتى
ذمهم عارفوه نظماً ونثراً
فلما صارت المعيشة أولى
بأولي العلم والصلاح وأخرى
ولقد كنت قبلها من غنى النفس
ملياً فالحمد لله شكراً
بيد أني أنفت من صدقات
الفقه شبهتها بوقوف الأسرى
وتأنفت من مزاحمة النذ
ل عليها يرى الوقاحة فخراً

فتمنيت منذ زمان أرى
رزقي عنها بمعزل فاستدرا
بارك الله في المعاش كما
شاء له الحمد إذ بدا واستمر
فأنا اليوم أنزه القوم نفساً
بخلاصي منهم وأروح سرا
حسد تنسي جماعة قال منهم
قائل ذا ومن أين أثري
ويجهم ربنا هو الرزاق
يعطي قلاً ويعطي كثيراً
عنده الملتقى فيا خجلة الـ
مغتتاب والمفتري الذي هو أجرى
ما يبالي ماذا يقول سيجزى
في غمد حين يحشر الناس حشراً

ولئن قلت الأصل كان من الو
قف فما ضر ذا ولا بي أزرى
سبباً كان إنما اتجه اللوم
على من على الوقوف أصرى
كسلا غير عاجز عن معاش
فهو وكل على الورى ليس يبرى
صانني الله عن مزاحمة
القوم على منصـب فيارب صبرا
يارب سلم فيما تبقى ولا تخوج
إلى من يستعبد الناس قسرا
فتراهم لأجل حاجتهم بين
يديه في قضية اللد اسرا
أقرب الناس عنده ذو نفاق
حين يسقيه من محال الاطرا
من يخالف يقصى ومن وافق
القوم يكن مثلهم فحسبك شرا
جملة الأمر ذافكم قد سررنا
وشرحنا بها ذكرنا صبرا
كل من كان منصفاً عرف الحق
فق قد شاع الأمر برأ وبحرا
عدايبها نية عمرة
باعدادها وطولت عمرا
وأرى أنها ستزاد عشرا
في أمـر جـرت وعشرا وعشرا

وفي أول صفر من سنة احدى وستين وستائة توفي بديار مصر شرف
الدين محمد بن أحمد بن عنتر الدمشقي الذي كان محتسباً بدمشق في أيام
التاتار، وهو وأبوه من أولي الثروة بدمشق، ومن المعدلين فيها، رحمه الله.
وفي ثاني ربيع الآخر توفي البرهان الطويل المتصرف في الدواوين، كان

عاملاً بديوان الجامع تارة، وبالحشرية أخرى، وبديوان المدارس المحدث في الأيام المعظمية، وبعدها رحمه الله. وفي الرابع والعشرين منه توفي النجم الكحال بن الصفي العبادي فجأة. كان أبوه مقرئاً حسناً ضريراً، وتعلم هو وأخوه قبله صناعة الكحالة فبرعا فيها، وتوفي أخوه قديماً فبقي هو كحالاً باللبادين، ثم بالبيمارستان، وفي رابع جمادى الأولى توفي عبد العزيز المغربي إمام مسجد الجورة بالعقبة رحمه الله. وفي الرابع والعشرين منه توفي العدل جمال الدين بن القلانسي بن أخي المؤيد رحمه الله، وقبله توفي الجمال الأنباري - الساكن بالجامع بالمنارة الغربية - الحنبلي له سماعات كثيرة من عبد القادر الرهاوي وغيره، وهو الذي كان يصلي بالمتأخرين صلاة الصبح بالجامع فيطيل بهم اطالة مفرطة خارجة عن المعتاد بكثير إلى أن تكاد تطلع الشمس، وهو في تطويله لا يتركه كل يوم، رحمه الله. وفي سابع رجب توفي العالم المغربي النحوي، وكان معمرًا، مشغلاً بأنواع العلوم على خلل في ذهنه، واسمه: أبو محمد القاسم بن أحمد بن السداد اللورقي، هكذا رأيت نسبه بخط مشايخه الذين قرأ عليهم بالمغرب ابن الحصار وغيره، وكان هو لا يكتب ابن أبي السداد، ويجعل مكانه الموفق، وكأن أبا السداد كنيته الموفق، ولورقة بليدة من أعمال مرسية، ودفن من الغد في مقابر باب توما قريباً من قبر الشيخ رسلان رحمه الله.

وفي سادس عشر رجب توفي العماد مظفر بن البهاء علي بن الحسن من بني سني الدولة، وهو ابن عم الصدر أحمد بن يحيى القاضي، وكان من عدوله رحمه الله، وفي السابع والعشرين من رجب توفي الشهاب ابن الضياء الكاتب للشروط بباب الجامع الشرقي، ويعرف بأجير البهاء، لأنه كان تخرج في كتابة الشروط بالشريف بهاء الدين عبد القادر بن عقيل العباسي. كاتب الحكم للزكي الطاهر، وبعده إلى أن مات، وكان فريد وقته في ذلك، فبرع هذا الأجير حتى كان الفقيه عز الدين بن عبد

السلام يفضلهُ على كتاب عصره فنفت سوقه رحمه الله. وفي ثالث عشر شعبان توفي الشيخ الياس الإريلي الذي كان يكون مقيماً بالجامع في رواق الحنابلة، ثم سكن جبل قاسيون وبه توفي ودفن رحمه الله. وفي تاسع عشرين شعبان توفي الأمير مجير الدين خوشترين الكردي، وكان من أمراء مصر، وحضر كسرة التاتار لعنهم الله بعين جالوت مع المظفر قطز رحمه الله، وغزا يومئذ حتى فتح الله على المسلمين، ودفن بالجبل، وأبوه مات محبوساً مع عماد الدين بن المشطوب في بلاد الأشرف الشرقية، وفي خامس عشر رمضان توفي العفيف الحنفي زوج النذهبية بنت الدميري جارتنا، رحمه الله، وتزوجت بعده علاء الدين أحمد بن القاضي محيي الدين بن الزكي.

وفي السابع والعشرين من شهر رمضان ولد لي مولود ذكر سمّيته محمود، وكنيته أبا القاسم بكنية نور الدين بن زكي الملك العادل رحمه الله وباسمه ولقبه، جعله الله مباركاً صالحاً عفيفاً تقياً، كما كان سمّيه رحمه الله، وكانت ولادته في الساعة السادسة من يوم السبت السابع والعشرين من شهر رمضان سنة إحدى وستين وستمئة بدار العطافية غربي المدرسة العادلية، وذلك اليوم كان في شهر آب نحو أربعة أيام، وهو زمان البطيخ الأصفر.

وكسفت الشمس في غد ذلك اليوم بعد العصر من يوم الأحد الثامن والعشرين من رمضان.

وفي خامس شوال توفي الفخر أحمد بن إبراهيم الحنفي أحد مدرسي الحنفية من الشيوخ، وكان أحد الشهود تحت الساعات، ودفن من الغد رحمه الله، وفي سابع شوال توفي الشرف يحيى بن المغربي الحاج الدقاق في الحنطة خال أخي محمد رحمه الله، مات فجأة، وكان قد عزم على وقف أملاكه على زاوية المغاربة ففاجأه الموت بغتة، ومن العجائب أن بعض

معارفه مات قبله فجأة فجاءني وقال: أريد تعجيل وقفي للمكي خوفاً من
أن أموت كما مات فلان، ثم آخر، فمات فجأة كما ظننه، وبالله التوفيق،
وفي سادس عشر شوال نظمت هذه الأبيات:

أيلاً لئمي مالي سوى البيت موضع
أرى فيه عزاً أنسه لي أنفع
فراشي ونطعمي فـروتي فـرجيتي
لحافي وأكلي ما يسد ويشبع
ومركوبي الآن الأتـان ونجلها
لأخلاق أهل الدين والعلم اتبع
وقد سر الله الكريم بفضلـه
غنى النفس مع شيء به أتقنع
أوفره للأهل خوفاً يراهم
عدو بعيش ضيق فيشنع
واصبر في نفسي على ما ينوبني
وأطلب عفو الله فـالعفو أوسع
ومادمت أرضى باليسير فأنني
غني لغير الله ما كنت أخضع
وربي قد آتاني الصبر والغنى
عن الناس في هذا إلى العز أجمع
وقدم من عمري ثلاث أعدها
وستون في روض من اللطف أرتع
ووجهي من ذل التـبذل مقتر
مقل ومن عز القناعة موسع
ومن حسن حظي أن ذا يستمر لي
إلى الموت إن الله يعطي ويمنع
وإني لألجأ إلى غير بابـه
فأبقى كما قد قيل والقول يسمع
«نرقع دنيانا بتمزيق ديننا
فلا ديننا يبقى ولا مانرقع»

فطوبى لعبد آثر الله ربه
وجاد بدينه لما يتوقع

وفي ذي القعدة توفي الشيخ الصالح صلاح الدين أبو زيد الدينوري،
صاحب الشيخ عز الدين الدينوري، وهو الذي بنى له زاوية بسفح
جبل قاسيون غربي الجامع المظفري، وصار لجماعة يذكر الله عقيب
صلاة الصبح بأصوات حسنة، ثم مات عز الدين وبقي الشيخ الصالح
يقوم بهذه الوظيفة، بت عنده ليلة في الزاوية المذكورة رحمه الله، وكنت قد
نظمت قبل ذلك أبياتاً في هذا المعنى وهي:

صان ربي عن التبذل علمي
فله الحمد بكرة وأصيلاً
لم يشن بالسؤال وجهي بل
بارك فيما أعطى فكان جزيلاً
وغنى النفس والقناعة كنزاً
— زان فكان الما ذكرت دليلاً
كم رأينا من عالم عز العلم
وأضحى بالحرص منه ذليلاً
احفظ الله وابذل الفضل
تغنم من غنى النفس عزة وقبولاً
وتعرف إليه يعرفك في الشدة
فاتبع فيما يقول الرسولوا
يفعل الله ما يشاء فلا تسخط
وكن راضياً زمنناً قليلاً
كل ما قضاه خير لمن
آمن فاصبر عليه صبراً جميلاً
وعد الصابرين خيراً فأيقن
أنه كان وعده مفعولاً

وفيها: في ثاني عشرين ذي الحجة توفي العز بن النشو، الشاهد تحت

الساعات، وفي الغد الثالث والعشرين توفي الشهاب تمام بن الحبوبي التاجر بالخواصين رحمهما الله، وجاءنا الخبر من ديار مصر بأنه مات في هذه السنة بهاء الدين الضرير صهر الشيخ الشاطبي رحمهما الله، وشرف الدين بن السبيي يحيى بن فضل الله إمام المدرسة الصالحية رحمه الله، وكان من أصحاب شيخنا أبي الحسن السخاوي رحمه الله بدمشق، وهو أول من أم بدار الحديث الأشرفية في زماننا، ثم انتقل إلى القاهرة فأقام بالمدرسة الصالحية النجمية، وكان عنده تعصب وكرم وله قراءة حسنة.

ثم دخلت

سنة اثنتين وستين وستمائة

ففي سابع المحرم توفي التقي أبو بكر البغدادي المقرئ الساكن بالمدرسة العادلية رحمه الله.

وفي تاسع عشر توفي الأمير حسام الدين الجوكندار العزيزي، من غلمان العزيز بن الظاهر بن صلاح الدين، وكان له أثر مذكور في كسرة التاتار خذلهم الله تعالى على أرض حمص المقدم ذكرها. وفي عاشر صفر توفي بحمص الملك الأشرف بن المنصور بن المجاهد شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادي، وهم ملوك حمص وأعمالها كابراً عن كابر رحمه الله، وكان شاباً عفيفاً عما يقع فيه غيره من الشراب، وله في كسرة التاتار الثانية على حمص أثر جليل.

وقبله بقليل توفي الزين خضر المعروف بالمسخرة، كان من ندماء الأشرف موسى بن العادل، وجاءنا الخبر بوفاة الكمال عريف الصاغة، والضياء النابلسي بمصر.

وكان مولد النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الاثنين ثاني عشر ربيع الأول على قول الأكثرين، فاتفق في هذه السنة أن كانت ليلة الثاني عشر من ربيع الأول هي ليلة الاثنين.

وفي ذلك اليوم توفي النجم أحد القرائن بزي الجنائز، وكان يؤذن بالمشدنة الغربية من جامع دمشق، وهو شيخ كبير رحمه الله. وفي يوم الجمعة سابع ربيع الآخر صلي بالجامع عقيب صلاة الجمعة صلاة الميت الغائب بالنية على ضياء الدين علي بن حمد المعروف بابن الباسلي أحد كتاب الحكم المعدلين تحت الساعات، وكان له أشغال باستماع الحديث

وكتابتته، ثم سافر إلى مصر متحملاً لشهادة فتوفي بها، رحمه الله تعالى ليلة السبت رابع صفر، ودفن خارج باب النصر شرقي القاهرة.

وفي هذه الأشهر توفي بصرخند سيف الدين التروسي، الذي ملكه بقرية بقره رحمه الله. وكان شاباً حسناً شجاعاً، وفي حادي عشر ربيع الآخر توفي الشريف ابن الطيوري، الملقب بالجمال الذي كان نقيب القاضي الخوئي، وفي ثاني جمادى الأولى توفي بمصر الرشيد العطار المحدث رحمه الله، وفي عاشر جمادى الأولى توفي الحاج نصر بن بردس التاجر بقبسارية الفرش، وكان رجلاً موسراً ملازماً للصلاة بالجامع من أهل الخير رحمه الله ودفن بالجليل، وفي ثالث عشر جمادى الأولى توفيت الشيخة الصالحة عابدة المقيمة برباط زهرا خاتون، وكانت امرأة عذراء مقعدة عمياء مشهورة بالخير والصلاح، رحمه الله. وفي خامس عشر توفي الحاج محمد بن الحاج مسعود الذهبي رحمه الله.

وفيها: بعد صلاة الصبح من يوم الأحد التاسع والعشرين من جمادى الأولى توفي القاضي الخطيب عماد الدين عبد الكريم بن القاضي جمال الدين عبد الصمد بن محمد المعروف بابن الحرساني، رحمه الله، وكان من أهل بيت قضاء، وعلم، وصلاح، تولى قاضي القضاة في الأيام الأشرفية، وناب في القضاء عن أبيه في الأيام العادلية، وعن شمس الدين أحمد بن الخليل الخوئي عام حجه، ثم تولى الخطابة بجامع دمشق، وتدرّس الزاوية الغريبة، ومشیخة دار الحديث الأشرفية، واستمر ذلك له من الأيام الصالحية النجمية وقبلها إلى أن توفي بدار الخطابة، ودفن في مقابر الجبل قريباً من أبيه وأهله، وصلى عليه بجامع دمشق قاضي القضاة بدمشق ابن خلكان، وصليت أنا عليه إماماً ظاهراً البلد تحت القلعة خارج باب الفرج، وكان يوماً مشهوداً حضر جنازته خلق كثير، وانتشروا في تلك الصحراء الواسعة رحمه الله.

وتوليت مكانه بدار الحديث الأشرفية، وحضر عندي فيها أول يوم ذكرت الدرس فيها قاضي القضاة وأعيان البلد من المدرسين والمحدثين وغيرهم. وذكرت من أول تصنيفي في كتاب «المبعث» الخطبة والحديث، والكلام على سنده، وفنه مع زيادات على ذلك من مكان آخر، وكان بحمد الله تعالى وجوله وقوته مجلساً جليلاً، عليه سكون وإخبات وجلالة وأنصت من الحاضرين، ووقار من المستمعين، وعمبل في ذلك بعض الأدباء أبياتاً منها:

العلم والمعلوم قد أدركته
وسماعك البحر المحيط فحدث
وبعثت في دار الحديث بمعجز
وأبان له عنك افتتاح المبعث
مكثت به الأبواب طائفة الندا
والحسن من طرب به لم يمكث

وفي رجب توفي نور الدولة بن دحرجان المنادي على الأشياء الضائعة، وكان صغيراً ظريفاً هو وأبوه من قبله، ودارهم بالمطرزين خارج حصن جيرون معروفة بهم رحمه الله، وفي ثاني عشر رجب توفي العفيف بن أبي الفوارس، وكان شاباً حسناً تولى عمالة الجامع، وعمالة مخزن الإمام جعله له لحذقه بهذه الصناعة كما قيل رحمه الله، ودفن بالتربة التي أنشأها والده جوار الخانقاه الشبلية بسفح جبل قاسيون، وكان أبوه قد أعد القبر لنفسه فدفنه فيه وهو المذكور في قصيدة الفلاحة الرائية. وقبله بيوم في حادي عشر رجب توفي الأثير عبد الكريم بن ضياء الدين الحسين بن القاضي الأشرف أحمد بن القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي رحمه الله بقرية البلاط (١٤١)، ملك جده وأهله، وحمل منها فدفن بجبل قاسيون وصلي عليه بعد صلاة الجمعة بجامع العقيبة المعروف بجامع التوبة، وهو أصغر أولاد الضياء، وهم أربعة عريون عن الفضل خلاف ما كان عليه سلفهم، ثم توفي أخوه صدر الدين عبد الله في سلخ ذي القعدة من سنة اثنتين وستين وستمائة.

وفي الخامس والعشرين من رجب توفي الحكيم شمس الدين المعروف بطراز الشام الطيب رحمه الله، وفي حادي عشر شعبان توفي الزين يحيى ابن بكران الجزري أحد المعدلين بدمشق، وكان قبل ذلك تاجراً وتولى ديوان الحشر وغيره، وكان طلق المحيا، ظريف الحركات ودوداً رحمه الله، ودفن بباب الصغير وعمه هو المعلم الجزري، وكان شيخاً يسكن برأس درب التمارين في الصنف الشامي من سوق العطازين الذي يلي قنطرة الحبالين، وكان يعلق الرماح وغيرها من آلات الحرب بغرفته فوق رأس الدرب المذكور، وكان إذا قدمت العساكر مع السلطان في زمن العادل أبي بكر بن أيوب ومن بعده، أو قدمت الرسل من بغداد يتلقاهم مع الناس فوق رأسه مصحف كريم في كيسه يحمله وهو راكب، ومات سنة (١٤٢) وفي العشرين من شعبان توفي المحيي بن سراقه، مغربي؛ عالم، دين، متواضع، كريم، حسن المحاضرة، كان نزل بحلب ثم عبر علينا بدمشق إلى مصر فتولى دار الحديث الكاملية بالقاهرة مع الزكي عبد العظيم، وماتا رحمهما الله بعد ابن دحية.

وفيها: في التاسع والعشرين من شعبان توفي تاج الدين أيوب بن فخر الدين محمود بن عبد اللطيف ابن سيبا، وكان أحد الشيوخ المعدلين بدمشق من أهل البيوتات بها، وأبوه كان محتسب دمشق مدة، ودفن على والده بالجبل، وكان موته ببستانة عند طاحونة مقرى رحمه الله. وفي ثاني شهر رمضان توفي بقرية كفر بطنا الشرف النميري المقيم بترية قاضي كفر بطنا، وكان يلقب نفسه زعيم غير، كان يكون عندنا بالمدرسة الأمنية ثم بالمدرسة الحسامية، وكان ينظم الشعر على طريقة المغرب رحمه الله، وفي يوم الجمعة ثامن شهر رمضان صلى خطيب جامع دمشق بالناس عقيب صلاة الجمعة الجنازة على الشيخ محمد المعروف بالقباري شيخ مشهور بالزهد والورع بالاسكندرية، كان يكون في غيط له وهو البستان، وهو فلاحه يخدمه بنفسه ويأكل من ثماره وزرعه ويتورع في تحصيل بلده حتى

بلغني أنه كان إذا رأى ثمرة ساقطة فيه تحت أشجاره ولا يشاهد سقوطها من شجره يتورع من أكلها خوفاً من أن تكون من شجر غيره قد حملها طائر فسقطت منه في غيطه رحمه الله، كنت اجتمعت به في آخر سنة ثمان وعشرين وستمائة مع جماعة صادفناه وهو يسقي في جرار ماء من الخليج على حمار له يسقي به غيطه، وكان الماء في الخليج حينئذ قليلاً فأجلسنا إلى أن تم عمله، ثم قدم لنا من ثمر غيطه وكذا كانت عادته مع كل من يزوره من الملوك وغيرهم. وأخبرني القاضي عبد المجيد بن الخليل أن موته كان في سادس شعبان، وأن الأثاث المخلف عنه لو كان لغيره قيمته نحو خمسين درهماً فيبيع بنحو عشرين ألف درهم، تزايد الناس فيه رجاء البركة حتى في الأبريق الذي كان يتوضؤ فيه.

وفي يوم الجمعة خامس عشر شهر رمضان صلى خطيب جامع دمشق عقيب صلاة الجمعة صلاة الجنازة على الشيخ شرف الدين عبد العزيز ابن شيخ الشيوخ بحماة، مات بها رحمه الله، وكان شيخاً فاضلاً حسن الصورة والمحاضرة، وله نظم حسن في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وغيره. وقرأ على الشيخ أبي اليمن الكندي، وسمع عليه وعلى ابن كليب، سمع عليه جزء ابن عرفة مراراً، وكانت وفاته ليلة الجمعة ثامن شهر رمضان من سنة اثنتين وستين وستمائة رحمه الله، وفي الثامن والعشرين من شهر رمضان توفي محيي الدين عبد الله بن صفى الدين إبراهيم بن مرزوق بداره بدمشق المجاورة للمدرسة النورية، رحمه الله، وفي ثالث شوال توفي النظام النصيبي، وكان من أهل القرآن والفقه ومن المعدلين بدمشق، وهو ابن أخت الشيخ كمال الدين محمد بن طلحة رحمه الله.

وفي أواخر رمضان ظهر في الشرق كوكب ذو ذنب في الأفق نحو الغرب في منزلة الهنعة، وكان الفجر يومئذ يطلع في الذراع والنثرة، وبقي يطلع كل يوم قبل الفجر خلف النجم المعروف بكوكب الصبح، ثم

صار يتقدم كل يوم قليلاً إلى أن صار يبدو مرتفعاً عن كوكب الصبح، وبقي ضوء ذنبه ظاهراً ولم يتغير موضعه من منزلة الهنعة بعده منها إلى جهة المشرق نحو رمح طويل، ويبقى ظاهراً، ثم يرتفع بارتفاعها، ويسري لسيرها، ثم يقرب من منزلة الهنعة، ثم بقي في أوائل ذي القعدة إلى أن يغلب عليه ضوء الصباح فيغيب. وكان يظهر له قبل بروزه شعاع كثير في جو السماء، وظهر أيضاً من قبل المغرب بشمال بعد العشاء الآخرة من ليال عدة في أواخر رمضان وأوائل شوال خطوط مضيئة كهية الأصابع مرتفعة في جو السماء، وأحمرت الشمس في آخر الرابع من شوال قريب مغيبها، وذهب ضوءها بحيث توهم كثير من الناس أنها كسفت، وغربت وهي كذلك، ولما كان عند العشاء الآخرة أصاب القمر مثل ذلك ليلة الخامس من شوال بحيث توهم أنه كسف.

وجاءنا الخبر من مصر بموت العز السركسي رحمه الله، والفخر المصري في يوم واحد، وتوفي في الحادي والعشرين من شوال الشمس النابلسي جابي المدرسة الحسامية والشامية، وجاءنا الخبر من حلب بموت قاضيها كمال الدين أحمد بن القاضي زين الدين بن الأستاذ، وكان تولى قضاءها بعد أبيه فبقي على ذلك إلى أن أخذ التاتار حلب، فنكب مع من نكب، وجاء بأهله إلى دمشق، وخرج إلى مصر فبقي فيها إلى هذه السنة، فرجع إلى حلب فتوفي بها رحمه الله في خامس عشر شوال، وكان فاضلاً وابن فاضل، وجده من الصالحين، وجمع كتاباً في شرح الوسيط كان تعب فيه أبوه من قبل.

وجاءنا الخبر أنه وصل إلى ديار مصر رسل الملك بركة يوم الأحد سادس ذي القعدة، ومعهم الأشرف بن الملك المظفر شهاب الدين غازي بن العادل صاحب ميافارقين بمايسر الإسلام وأهله.

وفي رابع عشر ذي القعدة توفي بدمشق الشيخ أبو الخير صاحب

الشيخ طي رحمه الله. والشيخ شعيب الساكن بالجبل معرفة بني سني الدولة رحمه الله. وجاءنا الخبر من مصر بوفاة الفخر المصري عثمان المعروف بعين عين، رحمتنا الله وإياه، ثم توفي بدمشق الجبال بن بدر بن نحلة. وفي السابع والعشرين من ذي القعدة توفي الشيخ أبو عبد الله محمد بن علي البكري المراكشي، والد علي وعبد الرحمن جد حسن رحمه الله، ودفن بالصوفية، وجاءنا الخبر بوفاة جمال الدين هلال بن حجاج وكان ينوب في الحكم مدة سنين بالأعمال الحلبية وغيرها رحمه الله. وفي يوم السبت ثالث ذي الحجة توفي من أهل دار الحديث الأشرفية شيخان أحدهما: جمال الدين يوسف بن يعقوب الإربلي الذهبي ابن أخي العز الإربلي وكان له سماعات كثيرة من حنبل، وابن طبرزد، والكندي، والقاضي الحرستاني وغيرهم: والأخير جمال الدين الغماري المالكي رحمه الله. وفي ثامن عشر ذي الحجة توفي الشمس الوتار الموصل، وكان قد حصل شيئاً من علم الأدب، وخطب بجامع المزة مدة رحمه الله، وأنشدني لنفسه في الشيب وخضابه:

وكنت وإياها مذاختط عارضي
كزوجين في جسم وما نقضت عهدا
فلما أتاني الشيب يقطع بيننا
توهمته سيفاً فالبسته غمدا

ثم دخلت

سنة ثلاث وستين وستائة

ففي العشرين من المحرم توفي علاء الدين قراجه صاحب حماة والعفيف بن السعدي صهر التاج الاسكندري. وفي سادس عشرين منه توفي الشيخ أبو العباس أحمد بن العراقي، وكان صالحاً ديناً منقطعاً بجامع دمشق يقرأ القرآن ويجتمع به أهل العلم قبالة اللازوردية على يمين باب دار الخطابة، مستنداً إلى سارية الرواق الأوسط، صليت عليه إماماً خارج باب الفرج، ومضي به إلى جبل قاسيون، فدفن هناك، رحمه الله عليه. وفي ثامن صفر توفي النظام عبد الله بن البانياسي ببستانه بكفر سنوسة، وحمل إلى الجبل رحمه الله، وكان قد طال مرضه بالفالج وسمع ببغداد من جماعة، وفي ثامن شهر ربيع الأول توفي فجأة معين الدين إبراهيم بن مجد الدين القرشي ابن بنت القاضي محيي الدين محمد بن علي ابن يحيى القرشي رحمه الله، وكان له سماعات كثيرة وبخطه توجد أكثر الطباق في زمانه، وكان يكتبها كتابة حسنة صحيحة، وهو أحد المعدلين بدمشق من أكبر البيوت الدمشقيين، ودفن بالجبل صليت عليه إماماً خارج باب الفراديس بمصلى ابن مرزوق وذهب به إلى الجبل. وفي تاسع ربيع الأول توفي الشهاب محمد بن أحمد المعروف بالقليجي بخدمة سيف الدين بن قليج، وفي الحادي والعشرين من شهر ربيع الأول توفي الشيخ محمد المعروف بابن امرأة الشيخ علي القزويني الزاهد الساكن بجبل قاسيون، رحمه الله.

وفيها: خرجت العساكر من مصر وتوجه بعضها إلى الفرات فانهزم من كان ثم من جموع التاتار لعنهم الله الذين كانوا قد حاصروا قلعة البيرة وأفسدوا في تلك الديار، وتعطلت السكنى بتلك البلاد لسيبهم فخربت، ثم خرج السلطان بيبرس من مصر بعساكره، فنزل ببلاد الساحل ونازل

قلاع الفرنج لعنهم الله، واستدعى بالرجال والآلات من دمشق وغيرها.

وجاءنا الخبر لدمشق بأنه دخل مدينة قيسارية ثالث ساعة من يوم الخميس ثامن جمادى الأولى وهو يوم نزوله عليها، ثم تسلم القلعة يوم الخميس خامس عشر وهدمها وانتقل إلى غيرها.

وبلغنا أن في رابع جمادى الأولى توفي النجم المغربي القصري الأكنع، وكان متفنناً في علوم شتى، وهو الذي كان نظم المفصل، مات بأسير من أعمال مصر رحمه الله. وفي الثامن والعشرين من جمادى الأولى توفي الشيخ سعيد المغربي التلمساني الذي كان مقيماً بمسجد في محلة طواحين الأشنان خارج باب توما، وكان رجلاً صالحاً خيراً منقطعاً زاهداً رحمه الله صلينا عليه بجامع التوبة الذي في العقبة وحمل إلى الجبل فدفن به.

وفيها: يوم الجمعة سلخ جمادى الأولى توفي الشيخ زين الدين خالد ابن يوسف بن سعد النابلسي المحدث، وكان حافظاً لأسماء الرواة، ولكثير من الألفاظ اللغوية رحمه الله، صليت عليه إماماً خارج باب الصغير قبالة مسجد جراح وكانت له جنازة حفلة، ودفن في مقابر الباب الصغير، وفي أول جمادى الآخرة توفي العز أيبك عتيق القاضي جمال الدين المصري، وكيلاً بمجالس الحكام من بعد وفاة معتقه إلى الآن رحمه الله، وفي تاسع جمادى الآخرة، ونحن بدار الحديث الأشرفية، والجماعة يجتمعون لسماع سنن النسائي على تقي الدين اسماعيل بن أبي اليسر أيده الله، فأخذ بعض الجماعة النعاس ولجج به فدافعه فلم يندفع فأشير عليه بأن يضع على جبهته ماء ففعل فمال رأسه إلى ورائه فأنشد ابن أبي اليسر متمثلاً بقول سحيم وقد تمثل به الحجاج في خطبته:

أنا ابن جلاوط لاع الثنايا

متى أضع العمامة تعرفوني

فعاد ذاك الخجل منه تهلاً، واستحسنته أنا والحاضرون، وذكرت لهم

الحكاية المذكورة في تاريخ دمشق في ترجمة ابراهيم بن هشام المخزومي،
حين خطب على منبر المدينة، وكان أميرها ومعه عصا ف وقعت منه فاشتد
ذلك عليه، فأخذها بعض حرسه فناوله إياها وأنشد:
فألقت عصاه واستقر بها النبوى
كما قبر عيناً بالأياب المسافر

فسرى عن ابراهيم ما كان فيه، وفي سادس عشر جمادى الآخرة توفي
العز أبو العز بن صالح بن وهيب الحنفي المدرس بالمدرسة الشبلية
بسفح قاسيون، وهو ابن أخي الصدر سليمان بن وهيب نائب الحكم
بمصر يومئذ، وكان فقيهاً، ديناً، مشكوراً رحمه الله.

وفي سحر يوم الاثنين ثاني رجب ولد سبطي الحسين بن عبد الرحمن
ابن محمد بن علي البكري، جعله الله مولوداً مباركاً.

وفي ذلك اليوم توفي النجم البغدادي المتصرف، وكان قد صار في آخره
مستوفياً على جباة الأوقاف التي تحت يد القاضي، كالترب وديوان
السبع؛ والمدارس ونحوها، وفي ثالث عشر رجب توفي التقي أخو التاج
عبد الرحمن ببستانه بجوبر فجأة رحمه الله. وفيه جاءنا الخبر باستيلاء
المسلمين على مدينة أرسوف عنوة، وقتل من كان بها من الفرنج وأسره
واغتنام أموالهم، وضرب البشائر بذلك. وفي رابع عشر رجب توفي
بالقاهرة قاضي سنجار بدر الدين الكردي الذي تولى قضاة القضاة
بالديار المصرية مراراً، وكانت له سيرة معروفة من أخذ الرشاً من قضاة
الأطراف والشهود، والمتحاكمين إلا أنه كان كريماً جواداً، وحصل له
ولأتباعه بأخرة تشتت ومصادرات. وفي رجب أيضاً توفي بالقاهرة الشرف
محاسن بن الصوري عريف سوق الكتب بها، وعمره مائة واثنان عشرة
سنة، وأنشدني عنه سعد الدين بن مسعود بن شيخ الشيوخ بن حموية
قال: أنشدني الحافظ السلفي:

إذا عَزَلَ المرءَ وافيته
وعند الولاية استكبر
لأن المولى له صولة
ونفسي على الـ لذل لا تصبر

. ومولده سنة إحدى وخمسين وخمسمائة. حكى عنه القاضي أحمد بن خلكان قال: اجتمعت به في الإيوان الكبير بدار الوزارة عند البادراني، رسول الديوان فقال لي: دخلت هذه الدار في أيام شاور ورأيت جالساً في صدر هذا الإيوان. قال: قلت: ما كان عمرك يومئذ؟ قال: اثنتي عشرة سنة.

وفي يوم الاثنين أول يوم في شعبان توفي الأمير جمال الدين موسى بن يغمور. وفي ثالث شهر شعبان توفي بدمشق شرف الدين عثمان بن السابق الكاتب بباب الجامع، وكان أحد كتاب الحكم، وله خط حلو وصدقات ومعروف ملازم للصلوات في الجماعات بالجامع، من العدول المبرزين رحمه الله تعالى، صليت عليه إماماً بمصلى ابن مرزوق، خارج باب الفراديس، وحمل إلى الجبل ودفن فيه، وكانت له جنازة حسنة حفلة. وفي ثامن عشر شعبان توفي جمال الدين المصري الذي كان مشارف بالبيارستان النوري، وهو صهر تقى الدين بن أبي اليسر على ابنته فاطمة بعد كمال الدين الزمكاني رحمه الله، وكان رجلاً خيراً منقطعاً مقتنعاً صليت عليه إماماً خارج باب النصر ثم شيعته مع الجماعة إلى مقابر الصوفية فدفن بها وكان أبوه وزير الأمير الجناح.

وفيها: ورد إلى دمشق كتاب يتضمن أنه ورد إلى القاهرة في جمادى الآخرة من هذه السنة كتاب من المغرب يتضمن نصر المسلمين على النصارى في بر الأندلس، ومقدم المسلمين سلطانهم أبو عبد الله بن الأحمر أيده الله، وكان الفنش ملك النصارى قد طلب منه الساحل من

طريف إلى الجزيرة ومارقة إلى المرية، فاجتمع المسلمون ولقوهم فكسروهم مراراً وأخذ أخو الفنش أسيراً، ثم اجتمع العدو في جمع كثير ونزل على غرناطة فقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة فجمع من رؤوسهم نحو خمسة وأربعين ألف رأس، فعملوها كوماً وطلع المسلمون عليها وأذنوا وأخذوا منهم عشرة آلاف أسير، وكان ذلك يوم الخميس رابع عشر رمضان من سنة اثنتين وستين وستمائة، وراح الفنش إلى اشبيلية منهزماً. وكان قد دفن أباه بجامع اشبيلية فأخرجه من قبره خوفاً من استيلاء المسلمين عليها، وحمله إلى طليطلة، ورجع إلى المسلمين اثنان وثلاثون بلداً من جملتها اشبيلية، وقرطبة، ومرسية، ولورقة، وشريش، وجمع عساكر المسلمين على شاطبة وبلنسية والله ينصرهم برحمته.

وفي يوم الخميس الخامس والعشرين من شعبان توفي الحاج أحمد المعروف بالسلامي الزملاكاني الخشاب، ونجيب الدين فراس العسقلاني. وكان أحد العدول ذوي الثروة، وله سماع حديث من الخشوعي وغيره، ودفنا بباب الصغير رحمهما الله، وفي يوم الثلاثاء سلخ شعبان توفي النجم مظفر بن عبد الصمد رحمه الله. وفي يوم الجمعة ثالث رمضان صلي بالجامع صلاة الغائب علي الأمير جمال الدين موسى بن يغمور رحمه الله، وكانت وفاته مستهل شعبان، عند توجهه إلى ديار مصر من الساحل لما كان مع السلطان الظاهر بيبرس في محاصرة الفرنج وفتح قيسارية وأرسوف، ثم عمل له العزاء بجامع دمشق يوم الجمعة عاشر شهر رمضان، وفي سادس رمضان نيطت حسبة الجبل لبدر الدين علي بن عمر بن أحمد بن عمر بن الشيخ أبي عمر بن محمد بن قدامه. وفي سابع عشر رمضان توفي الأمير عز الدين عثمان بن تيمرك، وكان ثقیل السمع، كثير الوسواس في أمر الطهارة رحمه الله. وفي السادس والعشرين من شهر ربيع الآخر توفي الفخر بن أبي الفوارس، والد العفيف، ودفن بمكانه بالجبل رحمه الله، وفي أول جمادى الأولى توفي الناهض معالي بن أبي الزهر المعروف بابن الحبشي، ودفن بالجبل رحمه الله، وفي ثالث جمادى

الأولى توفي الحاج علي المغسل المعروف بالقباقي، ودفن بباب الصغير رحمه الله، وكان حج في سنة اثنتين وعشرين وستمائة معناه، وكان مواظباً على الصلوات في الجماعات، كثير الصدقات والاحسان إلى الفقراء واليتامى، إذا صلى الصبح مع الإمام بالجامع يخرج فيقف بالباب الأوسط من أبوابه بباب البريد فيكبر ويهلل بصوت عالي ويدعو بصلاح المسلمين، ونحو ذلك، لا يكاد يقطع هذه العادة، صليت عليه إماماً عند مسجد جراح خارج باب الصغير. ودفن في مقابر حذاء تربة ابن الشيرجي، وكانت له جنازة حفلة جامعة لأصناف الخلق من الخاصة والعامة، وكنت ترى اليتامى وغيرهم يقرؤون ويترحمون ويكبرون رحمه الله، وذلك يوم الخميس ثالث جمادى الأولى، وفي عشية ذلك اليوم توفي الجمال أحمد بن عبد الله بن شعيب الذهبي الكتبي رفيقنا في القراءة على شيخنا علم الدين السخاوي رحمه الله، وكان تزوج ابنته فولدت له وماتت هي ولدها قديماً، ثم بقي عندنا مدة عمره وخلف كتباً كثيرة، وثروة، ووقف داره على فقهاء المالكية، وأوصى لهم بثلاث ماله، وحرصته أن يقف شيئاً من أصول كتبه فلم يفعل، صليت عليه إماماً بمصلى ابن مرزوق، ودفن بالجبل يوم الجمعة رابع جمادى الأولى.

وفي سادس جمادى الأولى جاء من مصر من السلطان الملك الظاهر بيبرس الصالحى ثلاثة تقاليد للقضاة شمس الدين محمد بن عطاء الحنفي، والزين عبد السلام بن الزواوي المالكي، وشمس الدين عبد الرحمن بن الشيخ أبي عمر الحنبلي، وجعل كل واحد منهم قاضي القضاة من المذاهب الأربعة، ولكل منهم نائب، وهذا شيء ماأظنه جرى في زمان سابق، فلما وصلت العهود الثلاثة لم يقبل المالكي، فوافق الحنبلي واعتذر بالعجز، وقبل الحنفي فانه كان نائباً للشافعية فاستمر على الحكم والله يسدد الجميع بفضله ورحمته. ثم ورد كتاب من مصر بالزامهما بذلك، وأخذ مابأيديهما من الأوقاف إن لم يفعلا فأجابا، ثم أصبح المالكي فأشهد على نفسه بأنه عزل نفسه عن القضاء، وعن الأوقاف،

فترك واستمر الحنبلي، ثم ورد الأمر بالزامه فقبل واستمر الجميع، لكن امتنع المالكي والحنبلي من أخذ الجامكية على القضاء وقالوا: نحن في كفاية، فأعفيا منها، ومن العجب اجتماع ثلاثة على ولاية قضاء القضاء في زمن واحد، وكل منهم لقبه شمس الدين، واتفق أن الشافعي منهم استتاب من لقبه شمس الدين، فقال بعض الظرفاء:

أهل دمشق استرابوا
من كثرة الحكم
وهم جميعاً شمسوس
وحالهم في ظلام

وقيل أيضاً:

بدمشق آية قد
ظهرت للناس عام
كلما ولي شمس
قاضي أزد ظلاماً

وقيل أيضاً:

قضاتنا كلهم شمسوس
ونحن في أكثف الظلام

وقيل أيضاً:

أظلم الشمام وقد
ولي الحكم شمسوس
ليس فيه من بيت
الحكم علماً أو يسوس

وفي سابع شعبان يوم الجمعة صلي بالجامع صلاة الغائب على الرضي
ابن الدهان الواسطي التاجر.

وفي حادي عشر شعبان توفي شرف الدين عبد الرحمن بن بهاء الدين سالم بن الحسن بن بصري، وكان من أكابر أهل دمشق جاهلاً واثراً وبيتاً، صليت عليه إماماً خارج باب الفرج ودفن بالجلبل بعد موت أخيه البهاء بستة أشهر وسبعة أيام. وفي ثالث عشر شعبان توفي الكمال بن الكمال إمام المدرسة الشامية ابن أخي الزين خالد رحماً الله وإياه بمنه وكرمه ورحمته، وعفا عنا وعنه وعن جميع المسلمين والمسلمات.

وفي شهر رمضان من سنة ثلاث وستين وستمائة شرع في تبليط ما بين باب الجامع الغربي الذي عند القناة المعروفة بباب البريد، وجدد في الصف القبلي من ذلك بركة وشادروان، وكان موضعها قناة جددت قبل ذلك يجري إليها الماء من نهر القنوات، وكان الناس ينتفعون به زمان انقطاع نهر بانياس، الذي منه ماء الجامع بدمشق. وفي ذي القعدة سافر الأمير جمال الدين أقوش النجيبى نائب السلطنة بدمشق إلى مصر لاستدعاء السلطان له، ثم قدم دمشق.

وفيها: توفي المجد بن حرب الحلبي، كان شاهداً بباب الجامع، وفي ثامن ذي الحجة توفي تاج الدين بن الحموي أخو الزين والعز، وكان شيخاً متودداً، وتولى ديوان الجامع والمواريث الحشرية، ودار الضرب وغير ذلك، ودفن بباب الصغير رحماً الله وإياه. وتوفي قبله النجيب بن الوزان الذي كان ساكناً بالمدرسة العزيزية في البيت الكبير الأسفل.

وفيها: في رابع عشر ذي الحجة توفي الشمس بن السني الخركاوي، رحمه الله تعالى، وجاءنا من زوار بيت المقدس في وقفة هذا العام، وأخبر أنه صلى يوم عيد النحر ببيت المقدس على الشيخ أبي القاسم الذي كان بقرية حوارى، وهو شيخ مشهور له أتباع واثرة، ثم صلى عليه بدمشق يوم الجمعة تاسع عشر ذي الحجة. وصلى يوم العيد أيضاً ببيت المقدس على ضياء الدين على بن خطيب نابلس، وكان شيخاً، بهياً، فقيهاً، ديناً،

- ٩٤٤٥ -

وتولى قضاء الكرك مدة رحمه الله. وفي سابع عشر ذي الحجة توفي التاج
الاسكندري المعروف بالشحور، ودفن بالجبل، صليت عليه إماماً بمصلى
ابن مرزوق رحمه الله وإيانا. وفي هذه السنة توفي شمس الدين بن الحباب
رحمه الله.

ثم دخلت

سنة أربع وستين وستمائة

ففي أوائلها يوم الثلاثاء جدد الحوض الذي هو في شرقي القناة الشامية بباب البريد، يجري إليه الماء من القناة المذكورة في أنابيب وشادروان في حائط القناة.

وفي سابع المحرم توفيت تاج خاتون ابنة الأمير فخر الدين ايازسركس، صاحب قرية بيت سوا رحمهما الله. وفي ثامن عشر المحرم توفي عبد الله بن أيبك بن عبد الله عتيق ناصر بن القواص ويعرف بالقاضي رحمه الله. وفي العشرين من المحرم توفي العلاء علي بن البدر عبد المولى الوكيل بمجلس الحكم رحمه الله. وفي الحادي والعشرين منه توفي الشرف بن الصيرفي الساكن بدرب الأسديين، رحمه الله.

وفي الخامس منه توفي عبد الله بن عثمان الوكيل بمجلس الحكم ويعرف بالمؤذن، كان أبوه مؤذناً بالكلاسة رحمهما الله. وفي رابع صفر توفي بهاء الدين الحسن بن سالم بن الحسن بن صصرى أحد المعدلين بدمشق من بيت مشهور بالثروة، وجده الحسن كان من أهل الحديث من أصحاب الحافظ أبي القاسم وله رحلة إلى العراق رحمه الله ودفن بالجليل. وفي ذلك اليوم توفي الشمس محمد بن أحمد الحنفي الأشقر خال ولد الصدر سليمان رحمه الله، وفي السادس والعشرين من شهر ربيع الأول توفي الصفي اسماعيل بن ابراهيم بن الزرعي الحنفي رحمه الله، ودفن بباب الفراديس، وعمره اثنان وتسعون سنة، ومولده سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة. سمع علي الخرقى وغيره. وفي خامس ربيع الآخر توفي الشرف يعيش المقرئ، وكان شيخاً مسناً وعهدي به شيخاً، ونحن صبيان نقرأ عليه بالسبع الكبير، ثم بقي إلى هذه الغاية، وقل ما بيده، فكان كل ليلة

- ٩٤٤٧ -

بعد العشاء يخرج ويدور في الدروب والحارات، وهو يتلو القرآن العزيز،
فمن وضع في يده شيئاً أخذه، وكنت آنس بقراءته إذا عبر على باب
مسكننا رحمه الله.

ثم دخلت

سنة خمس وستين وستمائة

يوم الأحد.

ففي ثاني محرم الحرام خرج السلطان الظاهر من دمشق إلى مصر رحمه الله تعالى.

وفيها: توفي بمصر الشرف محمد بن البكري أخو الصدر بن البكري، رحمه الله في رابع المحرم، وفي سادس صفر توفي شمس الدين ملكشاه الحنفي، مدرس المدرسة المعينية بعد الرشيد النيسابوري، وكان يعرف بقاضي بيسان. وتولى نيابة الحكم بدمشق في أول ولاية الصدر أحمد بن سني الدولة، ودفن في مقابر باب الصغير رحمهما الله. وفي الثاني والعشرين من صفر توفي الشرف أحمد بن رضوان، مولده سنة ستمائة وكان صاحب شيخنا تقي الدين بن الصلاح في صغره بالمدرسة الرواحية، ثم صار يشهد بمسجد سوق القمح رحمه الله، وصليت عليه إماماً خارج باب النصر، ودفن بمقابر الصوفية قريباً من قبر ابن الصلاح رحمهما الله. وفي ذلك اليوم توفي الحاج عسكر بن طاهر، شيخ كبير من فلاحية قرية بيت سوا، وداعية. وخلف أولاداً كثيرة، وملكاً بداعية رحمه الله.

وفي سادس ربيع الأول توفي الضياء بن خواجا إمام والد الشريف، وكان إماماً بمسجد ميثقال الجمدار على حافة نهر يزيد بجبل قاسيون، وكان رجلاً صالحاً منقطعاً رحمه الله. وفي ليلة السابع توفيت جدة ابني أحمد ومحمود، أم أمهما خالة إبراهيم رحمهما الله تعالى. وفي سابع ربيع الأول توفي الشيخ علي الواسطي إمام المدرسة الفلكية، وكان مقرئاً عندنا بالتربة الأشرفية، وكان كثير الذكر والصلاة، رجلاً صالحاً خيراً رحمه الله،

صليت عليه إماماً قبالة مسجد جراح، ودفن في أول مقابر الباب الصغير خلف مسجد جراح. وفي حادي عشر ربيع الأول توفي الشمس يوسف بن مكتوم وكان شيخاً كبيراً له ساعات كثيرة على الخشوعي، والدولعي وغيرهما رحمه الله.

وجاءنا الخبر بموت الأمير ناصر الدين القيمري بالساحل رحمه الله، وعمل عزائه بالجامع يوم الجمعة ثامن عشر ربيع الأول، وهو الذي بنى مدرسة الشافعية بناحية مثذنة فيروز في سوق الحرميين بدمشق، وكان موته يوم الأحد ثالث ربيع الأول.

وفي العشرين منه توفي الشيخ مؤمن الضرير الخلاطي المقرئ، وكان أحد السبعة عندنا بدار الحديث الأشرفية رحمه الله. وأخبرني الضياء عبد الرحمن بن الجمال عبد الكافي في رابع عشر ربيع الآخر أنه رأى ليلة هذا اليوم كأن شخصاً معروفاً يقرأ في إيوان شيئا من التصريف، وحوله جماعة، ثم جاء آخر فقعد يقرئ جماعة بحذائه، وانصرف من عند الأول بعض جماعته إلى الثاني، فبينما هم كذلك إذ أشرفت عليهم من طاقة في أعلى حائط الإيوان، وعلي ثياب بيض من صوف والعمامة كذلك وفوقها شيء مسبل عليها وقاية لها كصورة ما يفعله من يجعل على عمامته منديلاً أو نحوه لأجل مطر وحر، فلما أشرفت عليهم بهيئة من حيث لم يكونوا يتوقعون ذلك قلت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت حديثاً في السنة والرأي، قال فبكى القوم وبكيت أنا - أعني الذي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال قائل من الجماعة: في فضائل رجب - أي أسمعنا في فضائل رجب - ثم انتهت. قلت له: هو شيء يحدث من الخير إن شاء الله تعالى في رجب هذه السنة بقريئة فضل رجب وذكر النبي صلى الله عليه وسلم، واتعاظ الجماعة بالبكاء بورك بالفرح والسرور من ذلك الأمر بتوفيق الله تعالى.

ورأت امرأة كأن لنا داراً واسعة كبيرة مبيضة، وزواياها مملأى من الخبز
المثلث الأبيض بعضه فوق بعض.

ثم رأى أخي كأن لي بستاناً كبيراً وبها عيناً فيه وفي وسطه بركة مد
البصر، وقال ليوسف: افتح الماء، ففتح فجري فيها أنابيب.

وفي الحادي والعشرين توفي الجمال علي بن عثمان الرسعني، أحد
الشهود بمسجد سوق القمح رحمه الله، وكان بيني وبينه معرفة واجتماع
بالمدرسة العزيزية في مجلس عز الدين بن عبد السلام، أيام كان المدرس
بها شيخنا السيف الأمدي رحمهم الله، أنشدني شرف الدين المغربي قال:
أنشدنا قاضي حماة ابن البارزي لنفسه:

دمشق لها منظر رائق

وكل إلى حسنهما شائق

وأنسى يقاس بها بلادة

أبى الله والجامع الفارق

وفيها: في الحادي والعشرين من شعبان توفي الفخر يحيى بن الجمال
علي بن التاج عبد الواحد بن الفخر بن أبي الخوف رحمه الله، ودفن
بالجبل عند أبيه وجده وجد أبيه الفخر رحمهم الله، وفيها: آخر يوم
الثلاثاء الخامس والعشرين من شعبان توفي الفقيه شرف الدين القزويني
الشافعي، وكان رجلاً صالحاً فقيهاً متواضعاً خيراً، وكان أبداً معيداً
بحلب، ثم بدمشق في المدرسة العادلية والشامية المجاورة للبيمارستان،
وكان ساكناً بأهله بالمدرسة، وبها توفي ودفن يوم الأربعاء بكرة بمقابر
الصوفية بالشرف القبلي رحمه الله، ولم أشهد جنازته كنت غائباً ببيت لها،
وخلف ولدين صغيرين: عبد الرحيم، وعبد المجير، جبرهم الله تعالى.
وفي ثامن رمضان توفي ابن عمتي العز عبد الغفار بن علي الكناني،
ودفن بمقابر الصحابة بباب الصغير رحمه الله.

وفي هذا الشهر وصل السلطان الظاهر بيبرس من الديار المصرية بعساكره، ونازل حصون الفرنج وبلادها، وشن الغارة عليها من جميع نواحيها، واستدعى بالمجانيق من دمشق، وجاءنا كتاب بعض أولاد الملوك تاريخه يوم الجمعة خامس شهر رمضان، من جهة المنازل لهم من ساحل حمص وأعمالها من ناحية حصن الأكراد وأعمال طرابلس، بأنهم قد استولوا على ستائة أسير من الرجال، وما يقارب الألف من النساء والصبيان من ثلاثة حصون وستة عشر برجاً، والله تعالى يديم نصر الاسلام بمنه وفضله.

وفي ثامن عشري شهر رمضان وصل الى دمشق علي ولد الخليفة المستعصم بن المستنصر بن الظاهر بن الناصر، ينزل بالمنازل، وهو شاب كان التاتار استولوا عليه لما قتلوا أباه المستعصم وملكوا البلاد، وبقي عندهم إلى أن كسر بركة هولاكو، فاتصل ولحق بعرب خفاجة فبقي عندهم إلى أن جاء جماعة معه منهم إلى دمشق في التاريخ المذكور، فتلقي وأنزل على الدار الأسدية مقابل المدرسة العزيزية.

وفي سابع جمادى الآخرة جرت لي محنة بداري بطواحين الاشنان فألهم الله الصبر، وفعل الله تعالى فيها من اللطف ما لا نقدر على التعبير عنه بوصف، وكان قيل لي قم واجتمع بولاية الأمر، فقلت: قد فوضت أمري إلى الله فما أغير ما عقدته مع الله، وهو يكفيننا سبحانه، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، ونظمت في ذلك ثلاث أبيات:

قلت لمن قال أماتشتكي

ما قد جرى فهو عظيم جليل

يقض الله تعالى لنا

من يأخذ الحق ويشفي الغليل

إذا توكلنا عليه كفى

فحسبنا الله ونعم الوكيل

وجاءنا الخبر بأنه توفي بالقاهرة الضياء صالح بن الشيخ ابراهيم الفارقي، والقاضي صدر الدين موهوب الجزري، وكان رفيقنا في الاجتماع عند الشيخ علم الدين السخاوي، والشيخ عز الدين بن عبد السلام، ثم ناب عنه بالقاهرة في الحكم بها، رحمه الله، ومات في تاسع رجب في هذه السنة. وفي العشرين من رجب توفي الكمال اسحاق بن خليل السقطي المعروف بقاضي زرا (١٤٤) رحمه الله، صليت عليه إماماً بمصلى ابن مرزوق، ودفن بالجبل وكان ممن اشتغل على شيخنا فخر الدين بن عساكر. وفي شهر رجب حفر السلطان الظاهر بيبرس خندقاً لقلعة صفد، وعمل فيه بنفسه وعسكره، وفي بعض تلك الأيام بلغه أن جماعة من الفرنج بعكا تخرج منها غدوة، وتبقى ظاهرها إلى ضحوة، فسرى ليلة ببعض عسكره، وكمن لهم في تلك الأودية، فلما أبعدوا عن عكا خرج عليهم من ورائهم فقتل وأسر، وضربت البشائر بدمشق بذلك.

وجاء الخبر من مصر بموت قاضيها تاج الدين عبد الوهاب بن خلف المعروف بابن بنت الأعز في السابع والعشرين من رجب، ومولده في سنة أربع وستمائة، مستهل رجب، وهو: تاج الدين أبو محمد عبد الوهاب بن خلف بن محمود بن بدر العلّامي، مولده بالقاهرة، ودفن بالقرافة رحمه الله تعالى. وفي يوم الأحد ثامن عشر شعبان توفي الجمال محمد بن نعمة النابلسي، وكان رجلاً صالحاً رحمه الله، توفي ببستانه ودفن بمقابر باب كيسان عند أبيه.

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الحواشي والهوامش

- ١- الأدق القول طغرليك ، و تقدم معنا في الجزء الأول من موسوعتنا خبر فتنة البساسيري و ما حدث للخليفة القائم
- ٢- علم الدين السخاوي (٥٥٨-٦٤٣هـ / ١١٦٣-١٢٤٥م) مصري الأصل ، سكن دمشق و فيها توفي ، له عدة مصنفات بالقراءات و الفقه و الحديث ، و له نظم أيضا . الاعلام للزركلي .
- ٣- كذا و هو وهم ، فقد مر معنا خبر الزلافة في الجزء الثاني من موسوعتنا ، و اسم المعركة موضوع البحث « الأرك » و هي عند بعضهم تشبه الزلافة من حيث الأهمية . الحلل الموشية ص ١٥٩
- ٤- في هذا العرض مبالغه كبيرة مع تداخل و مزج لأخبار الزلافة .
- ٥- أي استبعاد الأندلس ووصل إلى طرفها الأقصى ، و كان راج بين بعض المسلمين وجود مدينة من نحاس أو مدينة فيها صنم من نحاس يشير بيده أن لا يجاز بعدي
- ٦- لا ترجمة له في كتاب صفوة الصفوة المطبوع
- ٧- ديوان الشريف الرضي ط. دار صادر بيروت ، ج ١ ص ٥٧٥
- ٨- في هامش الأصل : و في بعض التواريخ أنه لم يزد نيل مصر ، و اشتد عليهم الغلاء و الوباء حتى مات أكثر الناس بها جوعا ، و أكل بعضهم بعضا ، و ذلك في سنة ست و تسعين ، و فيها ولي ضياء الدين الشهرزوري قضاء القضاة ببغداد ، و فيها ورد القاضي زين الدين أبو الفضل بن القاضي مجد الدين بن هندي الحاكم بمدينة حماه مفارقا حمص و قضاءها ، فتلقاه الملك المنصور صاحب حماه بالاعتزاز و الاكرام ، و المصنف ذكر ذلك في سنة سبع و تسعين و الله أعلم .
- ٩- الرياس : نبت له عساليح غضة إلى الخضرة ، عراض الورق طعمها حامض مع قبض ، ينبت في الجبال ذات الثلوج . معجم أسماء النباتات في تاج العروس - ط. القاهرة - ١٩٦٥
- انظر أيضا مرآة الزمان ط. حيدر آباد الدكن ١٩٥٢ ج ٢ ص ٤٧٧-٤٧٨ .
- ١٠- سورة آل عمران - الآية ١٦٩ نظر مرآة الزمان ج ٢ ص ٤٧٩-٤٨١
- ١١- كنز العمال - الحديث ٤٢٦٩٧
- ١٢- سورة الزخرف - الآية : ٥١
- ١٣- سورة الأعراف الآية : ٤٣
- ١٤- المنتظم ط. بيروت ١٩٩٥ - تحقيق ج ١٠ ص ٤٦٧ .
- و تعد ترجمة سبط ابن الجوزي لجلده أفضل تراجمه انظرها في مرآة الزمان ج ٢ ص ٤٨١-٥٠٣
- ١٥- مرآة الزمان ج ٢ ص ٥١٠
- ١٦- أي داكن لون البشرة . مرآة الزمان ص ٥١٣-٥١٦
- ١٧- سورة النحل - الآية : ٢٦
- ١٨- سورة البقرة - الآية : ١٩٥

- ١٩- سورة ص - الآية: ٣٥.
- ٢٠- سورة ق - الآية: ٤١.
- ٢١- سورة الضحى - الآية: ١١.
- ٢٢- كنز العمال - الحديث ٤١٤٢٤
- ٢٣- كنز العمال - الحديث ٤٣٥٦١.
- ٢٤- سورة القصص - الآية: ٢١
- ٢٥- مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٢٢-٥٢٤.
- ٢٦- الخبازي نبت معروف ، و هي بقلة عريضة الورق لها ثمرة مستديرة (عباد الشمس) مرآة الزمان ج ٢ ص ٥١٦-٥٢٤.
- ٢٧- هو محمد بن أحمد (ت ٦٤٣هـ) من أعيان آل عساكر ، اشتهر بالنسب
- ٢٨- مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٢٢-٥٢٤.
- ٢٩- مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٢٦.
- ٣٠- ليس في ديوانه المطبوع
- ٣١- مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٢٧-٥٢٨.
- ٣٢- مظفر الدين سنقر
- ٣٣- مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٢٩ - ٥٣١ ، لكن باختصار شديد
- ٣٤- مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٣٣
- ٣٥- الكامل لابن الأثير - ط. القاهرة ، مطبعة الاستقامة ج ٩ ص ٢٩٧.
- ٣٦- حب متوسط بين الشعر والخطبة ، وقيل هو العصفور ، وقيل الجلبان . معجم أسماء النباتات
- ٣٧- ديوان ابن عنيّ ط. دار صادر ، بيروت ص ٢٤٣.
- ٣٨- لم يرد هذا الخبر في المطبوع من مرآة الزمان
- ٣٩- تصحيف : الثاني أي الطائي ، و هي التسمية التي أريد بها العرب في الشرق قبل الاسلام ، و نقل هذه التسمية النساطرة من أعالي الجزيرة ، لأن من جاوهم من البداة العرب كان جلهم من طيء
- ٤٠- ليس لابن طبرزد ترجمة في المطبوع من مرآة الزمان
- ٤١- موسوعة أطراف الحديث ج ١٠ ص ٤٤٥
- ٤٢- سورة لقمان - الآية ١٣
- ٤٣- سورة الأنعام - الآية: ٨٢
- ٤٤- سورة البقرة - الآية: ١٣٢
- ٤٥- سورة التحريم - الآية: ٥. مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٤٦-٥٥٣

٤٦- انظر السلوك للمقريزي ج١ ص ١٦٣، ١٧٣. وفوة بليدة على شاطئ النيل من نواحي مصر قرب رشيد ، بينها وبين البحر ١٠٠ خمسة فراسخ او ستة ، وهي ذات أسواق و نخل كثير . معجم البلدان ، وفيه أيضا ذكر لبلدة بور.

٤٧- مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٥٣-٥٥٤

٤٨- الاشارة هنا إلى معركة شلبتر سنة سبع و ستائة أيام محمد الناصر لدين الله بن يعقوب المنصور . الحلل الموشية ص ١٦١

٤٩- الموت هو الحصن الرئيسي للاسماعيلية في إيران ، و حول هذا الموضوع انظر الدعوة الاسماعيلية الجديدة - ترجمتي . بيروت ١٩٧١ ص ٩٣-٩٤

٥٠- كذا و هو اجتهد لا يوافق عليه .

٥١- انظر تاريخ الصالحية لابن طولون ، ط. دمشق ١٩٤٩ ص ٥٥

٥٢- تعجم قيس ، جزيرة في وسط البحر ، تعد من أعمال فارس . معجم البلدان

٥٣- مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٦٠-٥٦١.

٥٤- مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٦٤-٥٦٥

٥٥- مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٦٥-٥٦٧.

٥٦- مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٦٩-٥٧٠

٥٧- سورة يس - الآية ٤٩.

٥٨- مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٧١

٥٩- ديوان أبي الفتح البستي ط. دمشق ١٩٨٩ ص ١١٠-١١١ مع فوارق

٦٠- في دمشق حيث كان مقر مجمع اللغة العربية ، وفيها قبر العادل .

٦١- دار العقيلي هي حيث المكتبة الظاهرية

٦٢- مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٧٢-٥٧٣

٦٣- حصن مسلمة بن عبد الملك على الفرات

٦٤- من أنواع الأقبية .

٦٥- مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٧٤-٥٧٥، باختصار شديد

٦٦- مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٧٩-٥٨٠

٦٧- مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٧٥-٥٧٧.

٦٨- مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٨١.

٦٩- لدي نسخة مصورة من هذا المختصر

٧٠- سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ط. القاهرة ١٩٥٣ ص ٥١-٥٢

٧١- مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٨٣-٥٨٥

٧٢- مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٨٦-٥٨٩

- ٧٣- مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٨٩-٥٩٢
- ٧٤- مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٩٢
- ٧٥- مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٩٤
- ٧٦- مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٩٤-٥٩٧
- ٧٧- شمس مساح قرية كبيرة كالمدينة بمصر ، بينها وبين دمياط خمسة فراسخ ، من كورة الدقهلية . معجم البلدان
- ٧٨- لم يرد هذا الخبر في الكامل لابن الأثير المطبوع .
- ٧٩- بيت رانس أو أرانس بن قرى الغوطة . معجم البلدان
- ٨٠- مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٩٨
- ٨١- في مرآة الزمان ج ٢ ص ٦٠١-٦٠٢ «فأجابوا بالسمع والطاعة ، وقالوا نمتثل أمره بقدر الاستطاعة ، و تجهزوا قليلا لحل ركابه بالساحل وقع التقاعد من الأمائل ، لأن لكل مقام مقال ، وللحرب رجال ، و كان تقاعدهم سببا ...»
- ٨٣- مرآة الزمان ج ٢ ص ٦٠٤-٦٠٦ . ديوان ابن عنيـ ط دار بيروت ص ٩٣.
- ٨٤- مرآة الزمان ج ٢ ص ٦٠٦-٦٠٧
- ٨٥- مرآة الزمان ج ٢ ص ٦٠٨
- ٨٦- مرآة الزمان ج ٢ ص ٦٠٨-٦٠٩
- ٨٧- مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٩٨-٦٠٠-٦١٠
- ٨٨- في مرآة الزمان ج ٢ ص ٦١٨ «ببسطها»
- ٨٩- هو كتاب «مضمار الحقائق و سر الخلائق» عثر على قطعة منه و نشرت في القاهرة عام ١٩٦٨
- ٩٠- لم يصلنا ما بعد وفيات سنة ٦١٦ من كتاب التكملة لوفيات النقلة
- ٩١- مرآة الزمان ج ٢ ص ٦١١-٦١٢
- ٩٢- سورة التوبة - الآية : ٣٤
- ٩٣- مرآة الزمان ج ٢ ص ٦١٢-٦١٧ .
- ٩٤- ديوان أبي الفتح البستي - ط دمشق ١٩٨٩ ص ١٢٢ مع فوارق
- ٩٥- مرآة الزمان ج ٢ ص ٦٢١-٦٢٢
- ٩٦- مرآة الزمان ج ٢ ص ٦٢٤ .
- ٩٧- مرآة الزمان ج ٢ ص ٦٢٤ .
- ٩٨- مرآة الزمان ج ٢ ص ٦٢٥
- ٩٩- مرآة الزمان ج ٢ ص ٦٢٦-٦٢٧
- ١٠٠- مرآة الزمان ج ٢ ص ٦٣١-٦٣٢

- ١٠١- مرآة الزمان ج ٢ ص ٦٣٢
- ١٠٢- استوفز في قعدته : انتصب فيها غير مطمئن. القاموس
- ١٠٣- سورة المطففين - الآيات : ٣-١
- ١٠٤- أي في موقع بناء مركز جامعة دمشق الآن
- ١٠٥- مرآة الزمان ج ٢ ص ٦٣٠-٦٣١ .
- ١٠٦- سورة الاسراء الآية : ٨٢
- ١٠٧- مرآة الزمان ج ٢ ص ٦٢٧-٦٣١ .
- ١٠٨- جامع الخنابلة بصالحية دمشق ، حيث على المنبر اسم مظفر الدين كوكبري .
- ١٠٩- مرآة الزمان ج ٢ ص ٦٢٩-٦٣١
- ١١٠- سقطت ترجمة القادي من المطبوع من مرآة الزمان
- ١١١- مرآة الزمان ج ٢ ص ٦٣٤-٦٣٥
- ١١٣- مرآة الزمان ج ٢ ص ٦٣٨-٦٣٩ ، و زاد : «و خلفه مائة ألف دينار ، و كل هذا لأجل المحراب ، لا يزا حلك عليه أحد ، و الله لا كلمتك أبدا»
- ١١٤- لا ترجمة له في المطبوع من مرآة الزمان
- ١١٥- لم ترد هذه الأبيات في ديوان البستي المطبوع .
- ١١٦- أشار سبط ابن الجوزي في المطبوع من مرآته إلى سفر خاله إلى مصر إلى الكامل ج ٢ ص ٦٣٩ .
- ١١٧- مرآة الزمان ج ٢ ص ٦٤٢-٦٤٣ .
- ١١٨- مرآة الزمان ج ٢ ص ٦٣٩-٦٤٢ .
- ١١٩- مرآة الزمان ج ٢ ص ٦٤٤ .
- ١٢٠- في نواحي وادي بردى ، كانت قرب الفيحة . غوطة دمشق لكرد علي - ط . دمشق ١٩٨٤ ص ٣٨١
- ١٢١- انظر الكامل لابن الأثير ج ٩ ص ٣٨١
- ١٢٢- في مرآة الزمان ج ٢ ص ٦٧٨ : « و كانت وفاة العزيز يوم الاثنين عاشر رمضان ببستانه في الناعمة ببيت لها ، و حمل تابوته فدفن بقاسيون في تربة المعظم عند والدته و أهله »
- ١٢٣- جذوة المقتبس للحميدي - ط . القاهرة ١٣٧١ هـ ص ١٢٠-١٢١ . كتاب الصلة لابن هشكوval
- ط . القاهرة ١٩٥٥ ج ١ ص ٣٤٧-٣٤٨
- ١٢٤- سورة الماعون - الآية : ٧
- ١٢٥- سجر موضع بالحجاز . معجم البلدان .
- ١٢٦- عثر على شاهد قبره مع بقايا قبرين فيما يعرف الآن بورشة الفسيفساء إلى الشمال من المسجد الجامع الأموي بدمشق .
- ١٢٧- من المرجح أن موقع الفسقار في سوق مدحت باشا اليوم عند جامع ابن هشام . انظر دمشق الشام لجان سوفاجية - ط . دمشق ١٩٨٩ ص ٤٨ .

- ١٢٨- اسم لوادي قناه قرب أحد. المغانم المطابة للفيروز أبادي
- ١٢٩- سورة المرسلات - الآيات : ٣٢-٣٣
- ١٣٠- إلى الشرق من المدينة . المغانم المطابة
- ١٣١- الأثك - الرصاص ، فارس معرب
- ١٣٢- من قرى غوطة دمشق . غوطة دمشق لكرد علي ص ١٨٣ .
- ١٣٣- هذا البيت من قصيدة قالها سبط ابن التعاويذي في هجاء الوزير ابن البلدي أيام الخليفة الناصر ، ولم يعيش سبط ابن التعاويذي حتى سقوط بغداد فهو قد توفي سنة ٥٨٤هـ .
- انظر ديوانه ط . دار صناديق بيروت ص ٤٧- ٤٨ . وزير بغداد أيام سقوطها هو ابن العلقمي . انظر ذيل مرآة الزمان لليونيني - ط . حيدر آباد ١٩٥٤ ج ١ ص ٨٧- ٩٠
- ١٣٤- هو أبو حفص عمر بن موسى بن عمر الغزي الشافعي . انظر المدارس في بيت المقدس للدكتور عبد الجليل حسن عبد المهدي - . عمان ١٩٨١ ج ١ ص ٢١٤- ٢١٦
- ١٣٥- حزرما من قرى مرج غوطة دمشق شمال المجرى الرئيسي لنهر بردى ، على بعد ٢ كم شمال بلدة النشابية - منطقة دوما ، محافظة ريف دمشق ، و إلى جانبها تل أثري يحمل الاسم نفسه . المعجم الجغرافي في القطر العربي السوري ج ٣ ط . دمشق ١٩٩٢ .
- ١٣٦- تبعا للمصادر الأرمنية شارك نحو خمسمائة أرمني إلى جانب المغول في معركة عين جالوت ، ثم قادوا فلول المغول شمالا عبر الطريق الساحلي نحو دولة أرمنية الصغرى في كلبيكية ، وهكذا لم يهرب المغول عبر البادية الشامية أو حلب و الجزيرة ، خشية الإبادة .
- ١٣٧- أي إلى نحو درعا حاليا .
- ١٣٨- من قرى الغوطة الدائرة . غوطة دمشق لكرد علي ص ١٦٩- ١٧٠ .
- ١٣٩- جرت العادة بين جند الممالك أن يسلم بعضهم على بعض بالمكاشفة ، أي بمس كرش واحد بالآخر ، وليس بالمعاقبة أو المصافحة .
- ١٤٠- كان قوبلاي في الصين ، أما عري بكو فهو أريق بوكا ، و هزم بركة خان جيوش هولاكو عند نهر ترك ، أما وفاة هولاكو فكانت عند شاطئ نهر جغتو إلى الجنوب من بحيرة أرمنية ، ووصف ياقوت هذه البحيرة بقوله : هي بحيرة مرة متنتة الرائحة لا يعيش فيها حيوان ولا سمك ولا غيره ، و في وسطها جبل يقال له كبوذان ، و جزيرة فيها أربع قرى أو نحو ذلك يسكنها ملاحو سفن هذا البحر ، و ربما زرعوا في الجزيرة زراعا ضعيفا ، و في جبلها قلعة حصينة مشهورة » . انظر المغول في التاريخ للدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد ط . القاهرة ١٩٦٠ ص ٢١٢- ٢١٤
- ١٤١- البلاط قرية في الغوطة الشرقية ، تتبع ناحية المليحة ، منطقة و محافظة ريف دمشق . المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري .
- ١٤٢- فراغ بالأصل ، و لم أقف على ترجمة أخرى له في المصادر المعاصرة ، و أرجح أن المؤلف نفسه ترك هذا الفراغ ليستدركه و لم يستطع فيا بعد .
- ١٤٣- سورة القصص - الآية : ٣٥
- ١٤٤- مي بلدة أزرع في حوران سورية ، و تتبع اداريا محافظة درعا

المحتوى

خطبة الكتاب	٣-
سنة ٥٩٠	٥-
سنة ٥٩١	٨-
سنة ٥٩٢	١٠-
سنة ٥٩٣	١٢-
سنة ٥٩٤	١٨-
سنة ٥٩٥	٢٢-
سنة ٥٩٦	٢٥-
سنة ٥٩٧	٣٤-
من كلام ابن الجوزي	٣٩-
وفاة ابن الجوزي	٤٥-
أولاد ابن الجوزي	٤٨-
وفاة العماد الكاتب	٥٠-
سنة ٥٩٨	٥٤-
سنة ٥٩٩	٦١-
ترجمة أبي شامة	٦٩-
سنة ٦٠٠	٨٨-
سنة ٦٠١	٩٧-
سنة ٦٠٢	١٠٢-
سنة ٦٠٣	١٠٧-
سنة ٦٠٤	١١٤-
سنة ٦٠٥	١٢٤-
سنة ٦٠٦	١٣١-
سنة ٦٠٧	١٣٥-
سنة ٦٠٨	١٥١-
سنة ٦٠٩	١٥٦-
سنة ٦١٠	١٦٠-
سنة ٦١١	١٦٧-
سنة ٦١٢	١٧٢-
سنة ٦١٣	١٧٨-
سنة ٦١٤	١٩٤-
سنة ٦١٥	٢٠٩-
سنة ٦١٦	٢٢٢-
سنة ٦١٧	٢٣٣-

- ٩٤٦١ -

سنة ٦١٨	-٢٤٦
سنة ٦١٩	-٢٥٣
سنة ٦٢٠	-٢٥٧
سنة ٦٢١	-٢٧٣
سنة ٦٢٢	-٢٧٧
سنة ٦٢٣	-٢٧٤
سنة ٦٢٤	-٢٩٢
سنة ٦٢٥	-٢٩٥
سنة ٦٢٦	-٢٩٩
سنة ٦٢٧	-٣٠٨
سنة ٦٢٨	-٣١١
سنة ٦٢٩	-٣١٣
سنة ٦٣٠	-٣١٥
سنة ٦٣١	-٣١٦
سنة ٦٣٢	-٣١٨
سنة ٦٣٣	-٣٢٠
سنة ٦٣٤	-٣٢١
سنة ٦٣٥	-٣٢٤
سنة ٦٣٦	-٣٢٨
سنة ٦٣٧	-٣٣١
سنة ٦٣٨	-٣٣٤
سنة ٦٣٩	-٣٣٦
سنة ٦٤١	-٣٣٨
سنة ٦٤١	-٣٤٠
سنة ٦٤٢	-٣٤٢
سنة ٦٤٣	-٣٤٤
سنة ٦٤٤	-٣٥١
سنة ٦٤٥	-٣٥٤
سنة ٦٤٦	-٣٥٦
سنة ٦٤٧	-٣٦١
سنة ٦٤٨	-٣٦٤
سنة ٦٤٩	-٣٦٩
سنة ٦٥٠	-٣٧٠
سنة ٦٥١	-٣٧١
سنة ٦٥٢	-٣٧٢
سنة ٦٥٣	-٣٧٤
سنة ٦٥٤	-٣٨٧
سنة ٦٥٥	-٣٩٢

- ٩٤٦٢ -

سنة ٦٥٦	-٣٩٩
سنة ٦٥٧	-٤٠٣
تمام ما جرى سنة ٦٥٨	-٤١١
سنة ٦٥٩	-٤١٩
سنة ٦٦٠	-٤٢٨
سنة ٦٦١	-٤٣٩
تمام حوادث سنة ٦٦١	-٤٤١
سنة ٦٦٢	-٤٥٤
سنة ٦٦٣	-٤٦١
سنة ٦٦٤	-٤٧٠
سنة ٦٦٥	-٤٧٢
الحواشي والهوامش	-٤٧٧